صبح الأعشى

الجزء 14

بسم الله الرحمن الرحيم

و صلى الله و سلم على سيدنا محمد و آله و صحبه

الباب الرابع من المقالة التاسعة في الهدن الواقعة بين ملوك الإسلام وملوك الكفر الهدن بين ملوك الاسلام وملوك الكفر وفيه فصلان

الفصل الأول في أصول تتعين على الكاتب معرفتها و فيه ثلاثة أطراف

الطرف الأول في بيان رتبتها و معناها وذكر ما يرادفها من الألفاظ

أما رتبتها فإنها متأخرة – عند قوة السلطان – عن عقد الجزية :لأن في الجزية ما يدل على ضعف المعقود له، و في الهدنة ما يدل على قوته.

و أما معناها فالمهادنة في اللغة المصالحة؛ يقال: هادنه يهادنه مهادنة إذا صالحه؛ و الاسم الهدنة. و هي إما من هدن بفتح الدال يهدن بضمها هدونا إذا سكن، ومنه قولهم: " هدنة على دخن " . أي سكون على غلٍ، أو تكون قد سميت بذلك لما يوجد من تأخير الحرب بسببها.

و يرادفها ألفاظ أخرى: أحدها الموادعة، ومعناها المصالحة أيضاً، أخذاً من قولهم: عليك بالمودوع: يريدون بالسكينة و الوقار،فتكون راجعةً إلى معنى السكون.
و إما أخذاً من توديع الثوب و نحوه: و هو جعله في صوان يصونه، لأنه بها تحصل الصيانة عن القتال. و إما أخذاً من الدعة: وهي الخفض والهناء، لأن بسببها تحصل الراحة من تعب الحرب و كلفه.

الثاني – المسالمة و معناها ظاهر:لأن بوقوعها يسلم كل من أهل الجانبين من الآخر.

الثالث – المقاضاة، و معناها " المحاكمة مفاعلة من القضاء بمعنى الفصل و الحكم " الرابع – المواصفة، سميت بذلك لأن الكاتب يصف ما وقع عليه الصلح من الجانبين. على أن الكتاب يخصون لفظ المواصفة بما إذا كانت و المواصفة بما إذا كانت المهادنة من الجانبين، و لا شك أن ذلك جارٍ في لفظ الموادعة و المسالمة و المقاضاة أيضاً: لأن المفاعلة لا تكون إلا بين آثنين إلا في ألفاظ قليلة محفوظة، على ما هو مقرر في علم العربية.

أما لفظ الهدنة فإنه يصدق أن يكون من جانب واحد، بأن يعقد الأعلى الهدنة لمن هو دونه. على أنها عند التحقيق ترجع إلى معنى المفاعلة، إذ لا تتصور إلا من آثنين.

و أما في الشرع فعبارة عن صلح يقع بين زعيمين في زمن معلوم بشروط مخصوصة، على ما سيأتي بيانه فيما بعد، إن شاء الله تعالى.

و الأصل فيها أن تكون بين ملكين مسام و كافر، أو بين نائبيهما، أو بين أحدهما و نائب الآخر. و على ذلك رتّب الفقهاء رحمهم الله باب الهدنة في كتبهم. قال صاحب " مواد البيان " : و قد يتعاقد عظماء أهل الإسلام على التوادع و التسالم و آعتقاد المودة و التصافي، و التوازر و التعاون، و التعاضد و التناصر، و يشترط الأضعف منهم للأقوى تسليم بعض ما في يده و التفادي عنه بمعاطفته و الإنقياد إلى أتباعه، و الطاعة و الإحترام في المخاطبة، و المجاملة في المعاملة، أو الإمداد بجيشٍ، أو آمتثال الأوامر و النواهي و غيرها مما لا يحص.

قلت: و قد يكون الملكان متساويين في الرتبة أو متقاربين، فيقع التعاقد بينهما على المسالمة و المصافاة، و الموازاة و المعاونة، و كف الأذية و الإضرار و ما في معنى ذلك، دون أن يلتزم أحدهما للآخر شيئاً يقوم به أو إتاوةً يحملها إليه؛ و لكل مقام مقال، و الكاتب الماهر يوفي كل مقام حقه، و يعطي كل فصل من الفصول مستحقه.

الطرف الثاني في أصل وضعها

أما مهادنة أهل الكفر فالأصل فيها قوله تعالى: " فسيحوا في الأرض أربعة أشهر " الآية، وقوله: " و إن جنحوا للسلم فاجنح لها " .

و ما ثبت في صحيح البخاري من حديث عروة بن الزبير رضي الله عنه،أن قريشاً وجهت إلى النبي صلى اله عليه و سلم وهو بالحديبية – حين صده قريش عن البيت – سهيل بن عمرو، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: " هات " اكتب " بيننا و بينك كتاباً " ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم: " اكتب بسم الله الرحمن الرحيم " ، فقال سهيل: " أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ و لكن اكتب باسمك اللهم، كما كنت تكتب، فقال المسلمون: " و الله لا نكتب إلا: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " اكتب: باسمك اللهم " – ثم قال: " هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله " – فقال سهيل: " و الله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت و لا قاتلناك؛ و لكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " على أن تخلوا بيننا و بين هذا البيت فنطوف به " – فقال سهيل: " و الله لا تتحدث العرب أنا قد أخذنا ضغطةً، و لكن ذلك من العام المقبل، فكتب – قال سهيل: و على أنه لا يأتيك منا رجل و إن كان على دينك إلا رددته إلينا – قال المسلمون: سبحان الله! كيف يرد إلى المشركين و قد جاء مسلماً! فبينما هم كذلك، إذ جاء أبو الجندل يرسف في قيوده، و قد خرج من مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين – فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده

إلي – فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " إنا لم نقض الكتاب بعد " – قال: فوالله " إذاً " لا أصالحك على شيء أبداً – قال النبي صلى الله عليه وسلم: " فأجزه لي " – ما أنا بمجزيه لك – قال: " بلى فافعل " – قال ما أنا بفاعل. قال مكرز بن حفص: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين: أرد إلى المشركين و قد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ و كان قد عذب عذاباً شديداً في الله تعالى. قال

عمر بن الخطاب: فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: ألست نبي الله حقاً؟ قال بلى! قلت ألسنا على الحق و عدونا على الباطل؟ قال بلى! قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: إني رسول الله و لست أعصيه و هو ناصري " قلت: هذا ما أورده البخاري في حديث طويل. و الذي أورده أصحاب السير أن الكاتب كان علي بن أبي طالب، و أن نسخة الكتاب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، " اصطلحا " على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، و أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد و عهده دخل فيه، و من يدخل في عقد قريش و عهدهم دخل فيه " و أشهد في الكتاب من المسلمين و المشركين. على الصلح رجالاً.

الطرف الثالث فيما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الهدن

قال في " مواد البيان " : و هذا الفن من المكاتبات له من الدولة محل خطير، ومن المملكة موضع كبير و يتعين على الكاتب أن يخلي له فكره، و يعمل فيه نظره، و يتوفر عليه توفراً يحكم مبانيه، و يهذب معانيه.
و الذي يلزم الكاتب في ذلك **نوعان:**

النوع الأول ما يختص بكتابة الهدنة بين أهل الإسلام و أهل الكفر

وهي الشروط الشرعية المعتبرة في صحة العقد بحيث لا يصح عقد الهدنة مع إهمال شيء منها. وهي أربعة شروط: الأول – في العاقد. و يختلف الحال فيه باختلاف المعقود عليه: فإن كان المعقود عليه إقليمياً: كالهند و الروم و نحوهما، أو مهادنة الكفار مطلقاً، فلا يصح العقد فيه إلا من الإمام الأعظم أو من نائبه العام الموفض إليه التحدث في جميع أمور المملكة. و إن كان على بعض القرى و الأطراف، فلآحاد الولاة المجاورين لهم عقد الصلح معهم.

الثاني – أن يكون في ذلك مصلحة للمسلمين: بأن يكون في المسلمين ضعف أو في المال قلة، أو توقع إسلامهم بسبب آختلاطهم بالمسلمين، أو طمع في قبولهم الجزية من غير قتال أو إنفاق مال. فإن لم تكن مصلحة فلا يهادنون بل يقاتلون حتى يسلما أو يؤدوا الجزية إن كانوا من أهلها.

الثالث – أن لا يكون في العقد شرط يأباه الإسلام:كما لو شرط أن يترك بأيديهم مال مسلم، أو أن يرد عليهم أسير مسلم انفلت منهم، أو شرط لهم على المسلمين مال من غير خوف على المسلمين، أو شرط رد مسلمة إليهم، فلا يصح العقد مع شيء من ذلك، بخلاف ما لو شرط رد الرجل المسلم أو المرأة الكافرة فإنه لا يمنع الصحة. قال الغزالي: و قد جرت العادة أن يقول: " نهادنكم " على أن من جائكم من المسلمين رددتموه، و من جاءنا مسلماً رددناه. فإن كان في المسلمين ضعف و خيف عليهم، جاز التزام المال لهم دفعاً للشر، كما يجوز فك الأسير المسلم إذا عجزنا عن انتزاعه.

الرابع – أن لا تزيد مدة الهدنة عن أربعة أشهر عند قوة المسلمين و أمنهم، و لا يجوز أن تبلغ سنةً بحال؛ و فيما دون سنة و فوق أربعة أشهر قولان للشافعي رضي الله عنه، أصحهما أنه لا يجوز، أما إذا كان في المسلمين ضعف و هناك خوف، فإنه تجوز المهاجنة إلى عشر سنين؛ فقد هادن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة عشر سنين كما رواه أبو داود في سننه. و لا تجوز الزيادة عليها على الصحيح؛ و في وجهٍ تجوز الزيادة على ذلك للمصلحة.

فلو أطلق المدة فالصحيح من مذهب الشافعي أنها فاسدة؛ وقيل: إن كانت في حال ضعف المسلمين حملت على عشر سنين، و إن كانت في حال القدرة: فقد قيل تحمل على الأقل: و هو أربعة أشهر، و قيل على الأكثر: و هو ما يقارب السنة. و لو صرح بالزيادة على ما يجوز عقد الهدنة عليه: فإن زاد على أربعة أشهر في حال القوة أو على عشر سنين في حال الضعف صح في المدة المعتبرة و بطل في الزائد؛ فإن احتيج على الزيادة في العشر، عقد على عشر ثم عشر ثم عشر قبل

تقضي الأولى؛ قاله الفوراني و غيره من أصحابنا الشافعية. و ذهب أصحاب مالك رحمهم الله إلى أن مدتها غير محدودة، بل يكون موكولاً إلى اجتهاد الإمام و رأيه.

النوع الثاني ما تشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر و الإسلام و عقود الصلح الجارية بين زعماء المسلمين و هي ضربان

الضرب الأول الشروط العادية للهدنة الشروط العادية التي جرت العادة أن يقع الاتفاق عليها بين الملوك في كتابة الهدن خلا ما تقدم

و ليس لها حد يحصرها و لا ضابط يضبطها بل بحسب ما تدعو الضرورة إليه في تلك الهدنة بحسب الحال الواقع

فمن ذلك – أن يشترط عليه أن يكون لوليه موالياً، و لعدوه معادياً، و لمسالمه مسالماً، و لمحاربه محارباً، و لا يواطيء عليه عدواً، و لا يوقع عليه صلحاً، و لا يوافق على ما يقدح في أمره، و لا يقبل سؤال سائل، و لا بذل باذل، و لا رسالة مراسل مما يخالف الاتفاق الجاري، و الأخذ على يد من سعى في نقض الصلح و نكث العهد إن كان من أهل طاعته، و المقابلة إن كان من المخالفين له، و أنه إذا جنى من أهل مملكتهم جان كان عليه إحضالاه أو الأخذ منه بالجناية.

ومن ذلك – أن يشترط عليه أن يكف عن بلاده و أعماله، و متطرف ثغوره، و شاسع نواحيه – أيدي الداخلين في جماعته، و المنضمين إلى حوزته و لا يجهز لهجيشاً، و لا يحاول لها غزواً، و لا يبدأ أهلها بمنازعة، و لا يشع لهم في مقارعة، و لا بتناوبهم بمكيدة ظاهرة أو باطنة، و لا يعاملهم بأذية جلية و لا خفية، و لا يطلق لأحد ممن ينوب عن في إمارة جيشه، و من ينسب إلى جملته، و يتصرف على إرادته – عناناً إلى شيءٍ من ذلك بوجهٍ من الوجوه، و لا سبب من الأسباب، و أن لا يجاوز حدود مملكته إلى المملكة الأخرى بنفسه و لا بعسكر من

عساكره.

و من ذلك – أن يشترط عليه أن يفرج عليه عمن هو في حوزته ممن أحاطت به ربقة الأسر و يمكنهم من المسير إلى بلادهم: بأنفسهم و خدمهم و عيالهم و أتباعهم، و أصناف أموالهم، في أتم حراسةٍ، و أكمل خفارة، دون كلفة و لا مؤونة تلحقهم على إطلاقهم، و نحو ذلك.

و من ذلك – أن يشترط عليه مالاً يحمله إليه في كل سنة، أو أ، يسلم إليه ما يختاره: من حصون و قلاع و أطراف و سواحل مما وقع الاستيلاء عليه من بلاد المسلمين، أو أحب انتزاعه أو استضافته من بلاد من يهادنه من ملوك الكفر، و أن يبقي من بها من أهلها، و يقررهم فيها بحرمهم وأولادهم و مواشيهم و أزو ادهم و سلاحهم و آلاتهم، دون أن يلتمس عن ذلك أو عن شيء منه مالاً، أو يطلب عنه بدلاً، و ما ينخرط في هذا السلك.

و من ذلك – أن يشترط عليه عدم التعرض لتجار مملكته، و المسافرين من رعيته، براً و بحراً بنوع من أنواع الأذية و الإضرار، في أنفسهم و لا في أموالهم، و للمجاورين للبحر عدم ركوب المراكب الحربية التي لا يعتاد التجار لركوب مثلها.

و من ذلك – أن يشترط عليه إمضاء ما وقعت عليه المعاقدة، و أ، لا يرجع عن ذلك و لا عن شيء منه، و لا يؤخر شيئاً عن الوقت الذي " اتفق عليه " .

و من ذلك – أن يشترط عليه أنه إذا بقي من مدة الهدنة مدة قريبة مما يحتاج إلى التعبيء فيه، أن يعلمه بما يريد من مهادنة أو غيرها. و من ذلك – أن يشترط عليه أنه إذا انقضى أمد الهدنة على أحد من الطائفين و هو في بلاد الآخرين، أن يكون له الأمن حتى يلحق ما منه.

و من ذلك – أن يشترط مالاً يحمله إليه في الحال أو في كل سنة، أو حصونا، أو بلاداً يسلمها من بلاده، أو مما يغلب عليه من بلاده مهادن، إلى غير ذلك من الأمور التي يجري عليها الاتفاق مما لا تحصى كثرةً.

الضرب الثاني مما يلزم الكاتب في كتابة الهدنة تحير أوضاعها و ترتيب قوانينها و إحكام معاقدها

و ذلك باعتماد أمور:

منها – أن يكتب الهدنة فيما يناسب الملك الذي تجري الهدنة بينه و بين ملكه؛ و لم أر من تعرض في الهدن لمقدار قطع الورق، و إن كثرت كتابتها في الزمن المتقدم بين ملوك الديار المصرية وبين ملوك الفرنج، كما سيأتي ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى. و الذي ينبغي أن يراعى في ذلك مقدار قطع الورق الذي يكاتب فيه الملك الذي تقع الهدنة معه: من قطع العادة أو الثلث أو النصف.

و منها – أن يأتي في ابتدائها ببراعة الاستهلال: إما بذكر تحسين موقع الصلح و الندب إليه و يمن عاقبته، أو بذكر السلطان الذي تصدر عنه الهدنة، أو السلطانين المتهادين، أو الأمر الذي ترتب عليه الصلح، و ما يجري هذا المجرى مما يقتضيه الحال و يستوجبه المقام.

و منها – أن يأتي بعد التصدير بمقدمة يذكر فيها السبب الذي أوجب الهدنة و دعا إلى قبول الموادعة.

فإن كانت الهدنة مع أهل الكفر، احتج للإجابة إليها بالائتمار بأمر القرآن و الانقياد إليه، حيث أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالمطاوعة على الصلح و الإجابة إلى السلم بقوله: " و إن جنحوا للسلم فاجنح لها و توكل على الله " ، و ما وردت به السنة، من مصالحته صلى الله عليه وسلم قريشاً عام الحديبية، و ذكر ما سنح له من آيات الصلح و أحاديثه، و ما جرى عليه الخلفاء الراشدون من بعده، و كفهم عن القتال وقوفاً عند ما حدّ لهم، و أنه لولا ذلك لشرعوا الأسنة إلى مخايفيهم في الدين، و ركضوا الجياد إلى جهاد من يليهم من الملحدين.

و إن كان الصلح بين المسلمين احتج بنحو قوله تعالى: " و إن طائفتان من

المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما " ، و بأحاديث التحذير من تقاتل المسلمين كقوله صلى الله عليه وسلم: " إذا التقى المسلمان بسيفهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل و المقتول في النار " و ما يجري هذا المجرى.

و منها – أن يراعي المقام في تبجيل المتهادين أو أحدهما بحسب ما يقتضيه الحال، و وصف كل واحد منهما بما يليق به: من التعظيم، أو التوسط، أو انحطاط الرتبة بحسب المقام، و يجري على حسب ذلك في الشدّة و اللين.

فإن كانت الهدنة بين متكافئين سوّى بينهما في التعظيم، و جرى بهما في الشدّة و اللين على حدٍّ واحد، إلا أن يكون أحدهما أسنّ من الآخر، فيراعي للأسنّ ما يجب على الحدث من التأدب معه، و يراعي للحدث ما يجب له على الكبير من الحنوّ و الشّفقة.

وإن كانت الهدنة من قوي لضعيفٍ، أخذ في الاشتداد، آتياً بما يدل على علوّ الكلمة، و انبساط القدرة، و حصول النصرة، و استكمال العدد، و ظهور الأيد، و وفور الجند، و قصور الملوك عن المطاولة، و عجزهم عن المحاولة، و نحو ذلك مما ينخرط في هذا السلك، لا سّيما إذا كان القوي مسلماً و الضعيف كافراً، فإنه يجب الازدياد من ذلك، و ذكر ما للإسلام من العزة، و ما توالى له من النصرة، و ذكر الوقائع التي كانت فيها نصرة المسلمين على الكفار في المواطن المشهورة، و الأماكن المعروفة، و ما في معنى ذلك.

و إن كانت الهدنة من ضعيف لقوي، أخذ في الملاينة بحسب ما يقتضيه الحال، مع إظهار الجلادة و تمسك القوة، خصوصاً إذا كان القوي المعقود معه الهدنة كافراً.

و إن شرط له مالاً عند ضعف المسلمين للضرورة أتى في كلامه بما يقتضي أن ذلك رغبة في الصلح المأمور به، لا عن خور طباعٍ و ضعف قوة؛ إذ الله تعالى يقول: " فلا تهنوا و تدعوا إلى السلم و أنتم الأعلون و الله معكم " .

ومنها – أن يتحفظ من سقط يدخل على الشريعة نقيصة، إن كانت المهادنة مع أهل الكفر، أو يجر إلى سلطانه و هيصةً، إن كانت بين مسلمين؛ و يتحذر كل الحذر من خلل يتطرق إليه: من إهمال شيء من الشروط، أو ذكر شرط فيه خلل على الإسلام أو ضرر على السلطان، أو ذكر لفظ مشترك أو معنى ملتبس يوقع شبهة

توجب السبيل إلى التأول، و إن يأخذ المأخذ الواضح الذي لا تتوجه عليه معارضة، و لا تتطرق إليه مناقضة، و لا يدخله تأويل.

و منها – أن يبيّن أن الهدنة وقعت بعد استخارة الله تعالى و تروية النظر في ذلك و ظهور الخير فيه، و مشاورة ذوي الرأي و أهل الحجى، و موافقتهم على ذلك.

و منها – أن يبين مدة الهدنة. فقد تقدّم أن الصحيح من مذهب الشافعي أنه إذا لم تبين المدة في مهادنة أهل الكفر فسدت الهدنة.

قال في " التعريف " : و قد جرت العادة أن يحسبها مدة سنين شمسية فيحرّر حسابها بالقمرية. و يذكر سنين و أشهر و أياماً و ساعات حتى يستوفي السنين الشمسية المهادن عليها. أما في عقد الصلح بين مسلمين فإنه لا يشترط ذلك، بل ربما قالوا: إن ذلك صار لازماً للأبد، حتى في الولد و ولد الولد.

و منها – أن يبين أن الهدنة وقعت بين الملكين أنفسهما؛ أو بين نائبيهما، أو بين أحدهما و نائب الآخر، و يستوفي ما يجب لكل قسم منها.

فإن كانت بين الملكين أنفسهما بغير واسطة بين ذلك، ذكر ما أخذ عليهما من العهود و المواثيق، و الإيمان الصادرة من كل منهما، و ذكر ما وقع من الإشهاد بذلك عليهما، و ما جرى من ثبوت حكمه إن جرى فيه ثبوت و نحو ذلك.

و إن كانت بين المكتوب عنه و نائب الآخر، بين ذلك، و تعرض إلى المستند في ذلك: من حضور كتاب من الملك الغائب، بتفويض الأمر في ذلك إلى نائبه، و أنه وصل على يده أو يد غيره، و الإشارة إلى أنه معنون بعنوانه، مختوم بختمه المتعارف عنه أو وكالة عنه. و يتعرض إلى قيام البينة بها و ثبوتها بمجلس الحكم و نحو ذلك من المستندات.

و أن بين نائبين، بين ذلك و ذكر مستند كل نائب منهما على ما تقدم ذكره. و يتعرض إلى النائب في ذلك قام فيه باختياره و طواعيته، لا عن إكراه و لا إجبار، و لا قسرٍ و لا غلبة، بل لما رأى لنفسه و لمستنيبه في ذلك من المصلحة و الحظ، و إن كتاب الهدنة قريء عليه و بين له فصلاً فصلاً، و ترجم له بموثوق به، إن كان لا يعرف العربية و نحو ذلك.

و منها – أن يتعرض إلى ما يجري من التحليف في آخرها:على الوفاء، و عدم النكث و الإخلال بشيء من الشروط، أو الخروج عن شيء من الإلتزامات، أو محاولة التأويل في شيء من ذلك، أو السعي في نقضه أو في شيء منه، و ما في معنى ذلك: فإن كانت بين ملكين، تعرض إلى تحليف كل منهما على التوفية بذلك. و إن كانت بين أحدهما و نائب الآخر، حلف الملك كما تقدم؛ و ستأتي صورة الحلف الذي يقع في الهدن في الكلام على الأيمان فيما بعد، إن شاء الله تعالى.

و منها – أن يحرر أمر التاريخ بالعربي و ما يؤرخ به في مملكة الملك المهادن: من السرياني و الرومي و غيرهما. قال في " التعريف " : و لهم عادة أن يحسبوها مدة سنين شمسية فيحرر حسابها بالقمرية، و يذكر سنين و أشهر و أياماً و ساعات حتى يستكمل السنين الشمسية المهادن عليها. و قد تقدم في الكلام على التاريخ من المقالة الثالثة كيفية معرفة التواريخ و استخراجها. ومنها – أن يقع الإشهاد على كل من المتعاقدين بذلك، و لا بأس بإثبات ذلك. وقد جرت العادة أنه يشهد على كل ملك جماعة من أهل دولته ليقضى على ملكهم بقولهم و إن كان مخالفاً في الدين. وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم " أشهد على مصلحته مع قريش رجالاً من المسلمين و رجالاً من المشركين " . و ربما طلب النائب عن الملك الغائب إحضار نسخة مهادنة من جهة مستنيبه على ما وقع به العقد، مشمولة بخط الكتاب، مشهوداً عليه فيها بأهل مملكته، أو تجهز إليه نسخة يكتب عليها خطه، ويشهد عليه فيها أهل مملكته.

والغالب الاكتفاء بالرسل في ذلك.

الفصل الثاني في صورة ما يكتب في المهادنات و السجلات و مذاهب الكتاب في ذلك وفيه طرفان:

الطرف الأول فيما يستبد ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم و تخلد منه نسخ بالأبواب السلطانية و تدفع منه نسخ إلى ملوك الكفر ثم ما يكتب في ذلك على نمطين

النمط الأول ما يكتب في طرة الهدنة من أعلى الدرج

و قد جرت العادة أن يفتتح بلفظ " هذا " أو لفظ " هذه " وما في معنى ذلك، مثل أن يكتب: " هذا عقد صلح " أو " هذا كتاب هدنة " أو " هذه موادعة " أو " هذه مواصفة " و ما أشبه ذلك. و ربما حذف المبتدأ و هو " هذا " و اكتفى بالخبر عنه، مثل أن يقال: " كتاب الهدنة " أو " كتاب موادعة " أو " عقد مصالحة " و ما أشبه ذلك و هذه نسخة بعقد صلح أنشأتها لينسج على منوالها؛ و هي: هذا عقد صلح انتظمت به عقود المصالح، و انتسقت بواسطته سبل المناجح و تحدث بحسن مقدمته الغادي و ترنم بيمن نتيجته الرائح – عاقد عليه السلطان فلانّ فلاناً القائم في عقد هذا الصلح عن مرسله فلان، حسب ما فوضّ إليه الأمر في ذلك في كتابه الواصل على يده، المؤرخ بكذا و كذا، المعنون بعنوانه، المختوم بطباعه المتعارف عنه – على أن يكون الأمر كذا وكذا. و يشرح ملخص ما يقع من الشروط التي يقع عليها الاتفاق بينهما في الصلح إلى آخرها؛ ثم يقال: على ما شرح فيه.

النمط الثاني ما يكتب في متن الهدنة و هو على نوعين:

النوع الأول ما تكون الهدنة فيه من جانب واحد

بأن يكون الملكان متكافئين. " فيتعاقدان إما على حصنً و إما على مال يعطيه

الملك المعقودة له الهدنة لعاقدها كما كان يكتب عن صاحب الديار المصرية وللكتاب **فيه مذهبان:**

المذهب الأول أن تفتتح الهدنة بلفظ هذا ما هادن عليه

أو " هذه هدنة أو موادعة أو مواصفة أو سلم أو صلح " أو نحو ذلك، على نحو ما تقدم في الكلام على الطرة "
و على ذلك كتب كتاب القضية بين النبي صلى الله عليه وسلم و بين قريش عام الحديبية، على ما تقدم ذكره في الكلام على أصل مشروعيتها.
هذه نسخة هدنة كتب بها عن سلطان قوي، لملك مضعوف، باشتراط مال يقوم به المضعوف للقوي في كل سنة أو حصون يسلمها له أو نحو ذلك؛ و هي: هذا ما هادن عليه، و أجل إليه، مولانا السلطان فلان - خلد الله سلطانه و شرف به زمانه - الملك فلاناً الفلاني: هادنه حين ترددت إليه رسله، و توالت عليه كتبه، و أمله، ليمهله، و سأله، ليكف عنه أسله، حين أبت صفاحه أن تصفح، و سماء عجاجه بالدماء إلا أن تسفح؛ فرأى - سدّد الله آراءه - أن الصلح أصلح، و أن معاملة الله أربح، و هادن هذا الملك " و يسميه " على نفسه و أهله و ولده و نسله، و جميع بلاده، و كل طارفه و تلاده، و ما له من ملك و مال، و جهات و أعمال، و عسكر وجنود، و جموع وحشود، و رعاية في مملكته من المقيم و الطاريء، و السائر بها و الساري - هدنة مدتها أول تاريخ هذه الساعة الراهنة و ما يتلوها، مدة كذا و كذا من سنين و أشهر و ساعات، يحمل فيها هذا الملك فلان إلى بيت مال المسلمين، و إلى تحت يد مولانا السلطان فلان قسيم أمير المؤمنين، في هذه المدة كذا و كذا - يقوم به هذا الملك من ماله، ومما يتكفل بجبايته من جزية أهل بلاده و خراج أعماله، على أقساط كذا و كذا - قياماً لا يحوج معه إلى تكلف مطالبة، و لا إلى تناوله بيد مغالبة.

على أن يكف مولانا السلطان عنه بأس بأسائه، و خيله المطلة عليه في صباحه و مسائه، ويضم عن بلاده أطراف جنوده و عساكره و أتباعهم، و يؤمّنه من بطائهم و سراعهم، و يمنع عن بلاد هذا الملك المتاخمة لبلاده، و المزاحمة لدوافق أمداده، و يرد عنها و عمن جاورها من بقية ما في مملكته، و هي كذا وكذا أيدي النهب و يكف الغارات و يمنع الأذى، و يرد من نزح من رعايا هذا الملك إليه، ما لم يدخل في دين الإسلام و يشهد الشهادتين، و يقر بالكلمتين المعتادتين، و يؤمن جلاّبة هذا الملك و تجاره الترددين من بلاده إلى بلاد الإسلام في عوارض الأشغال، و لا يحصل عليهم ضرر في نفس و لا مال؛ و إن أخذت المتجرّمة منهم مالاً أو قتلت أحد، أمر بإنصافهم من ذلك المتجرم، و لا يؤخذ بحقهم من ذلك المجرم. و عليه مثل ذلك فيمن يدخل إليه من بلاد الإسلام، و أن لا يفسح لنفسه و لا لأحد من جميع أهل بلاده في إيواء مسلم منتصر، و لا يرخص لذي عمى منهم و لا متبصر.

و أنه كلما وردت إليه كتب مولانا السلطان فلان أو كتب نوّابه، أو أحد " من المتعلقين " بأسبابه، يسارع إلى امتثاله و العمل به في وقته الحاضر و لا يؤخره و لا يمهله، و لا يطرحه و لا يهمله.

و عليه أن لا يكون عيناً للكفار، على بلاد الإسلام و إن دنت به أو بعدت الدار، و لا يواطيء على مولانا السلطان فلان أعداءه " و أولهم التّتار " ، و أن يلتزم ما يلزمه من المسكة بالمسكنة، و يفعل ما تسكت عنه به الأسنة و ما أشبهها من الألسنة، و عليه أن ينهي ما يتجدد عنده من أخبار الأعداء و لو كانوا أهل ملته، و ينبه على سوء مقاصدهم، و يعرف ما يهم سماعه من أحوال ما هم عليه.

هذه هدنة تم عليها الصلح إلى منتهى الأجل المعين فيه ما استمسك بشروطها، و قام بحقوقها، و وقف عند " حدها الملتزم به " ، و صرف إليها عنان اجتهاده و بنى عليها قواعد وفائه، و صان من التكدير فيها سرائر صفائه، سأل هو في هذه الهدنة المقررة ، و أجابه مولانا السلطان إليها على شروطها المحررة، و شهد به الحضور بالمملكتين و تضمنته هذه الهدنة المسطرة ؛ و بالله التوفيق.

قلت: الظاهر أ نه كان يكتب بهذه النسخة عن صاحب الديار المصرية و الممالك الشامية، لمتملّك سيس، فإن في خلال كلام المقر الشهابي بعد قوله: و لا يواطيء إلى مولانا السلطان فلانٍ أعداءه: " و أولهم التّتار " ، قد تقدم في الكلام على الممالك أن متملك سيس كان يماليء و التّتار و يميل إليهم، و يساعدهم في حرب المسلمين و يكثر في سوادهم.

وعلى مثل ذلك يكتب لكل ملك مضعوف في مهادنة الملك القوي له. وهذه نسخة هدنة من هذا النمط، كتب بها أبو إسحاق الصابي، عن صمصام الدولة، بن عضد الدولة، بن ركن الدولة، بن بويه الديلمي؛ بأمر أمير المؤمنين الطائع لله، الخليفة العباسي ببغداد يومئذ، لوردس المعروف بسفلا روس ملك الروم، حين حيل بينه و بين بلاده، و التمس أن يفرج له طريقه إلى بلاده، على شروط التزامها، و حصون يسلمها، على ما سيأتي ذكره، و هي: هذا الكتاب من صمصام الدولة، و شمس الملة، أبي كاليجار، بن عضد الدولة و تاج الملة أبي شجاع، بن ركن الدولة أبي علي، مولى أمير المؤمنين، كتبه لوردس بن بينير المعروف بسفلا روس ملك الروم.

إنك سألت بسفارة أخينا و عدتنا، و صاحب جيشنا " أبي حرب ربار بن شهرا كويه " تأمل حالك في تطاول حبسك، و اعتياقك عن مراجعة بلدك، و بذلت – متى أفرج عنك، و خلي طريقك، وأذن لك في الخروج إلى وطنك، والعود إلى مقر سلطانك – أن تكون لولينا ولياً، ولعدونا عدواً، ولسلمنا سلماً، ولحربنا حرباً: من جميع الناس كلهم، على اختلاف أحوالهم وأديانهم، و أجناسهم و أجيالهم، و مقارهم و أوطانهم؛ فلا تصالح لنا ضداً مبايناً، ولا تواطيء علينا عدواً مخالفاً، و أن تكف عن تطرق الثغور والأعمال التي في أيدنا و أيدي الداخلين في طاعتنا: فلا تجهز إليها جيشاً، ولا تحاول لها غزواً، و لا تبدأ أهلها بمنازعة، و لا تشرع لهم في مقارعة، ولا تتناولهم بمكيدة ظاهرة ولا باطنة، ولا تقابلهم بأذية جلية ولا خفية، ولاتطلق لأحد ممن ينوب عنك في قيادة جيوشك، ومن ينسب إلى جملتك، ويتصرف على إرادتك – الاجتراء على شيء من ذلك على الوجوه والأسباب كلها، و أن تفرج عن جميع المسلمين وأهل ذمتهم الحاصلين في محابس الروم،

ممن أحاطت بعنقه ربقة الأسر، و اشتملت عليه قبضة الحصر و القسر، في قديم الأيام و حديثها، و بعيد الأوقات و قريبها، المقيمين على أديانهم، و المختارين للعود إلى أوطانهم، و تنهضهم بما ينهض به أمثالهم، و تمكنهم من البروز و المسير بنفوسهم و حرمهم و أولادهم و عيا لاتهم و أتباعهم، و أصناف أموالهم، موفورين مضمونين، متبذرقين محروسين، غير ممنوعين، و لا معوقين، و لا مطالبين بمؤونة و لا كلفة صغيرة و لا كبيرة.

و أن تسلم تتمة سبعةٍ من الحصون، و هي: حصن أر حكاه المعروف بحصن الهندرس، و حصن السناسنة، و حصن حويب، و حصن أكل، و حصن أنديب، و حصن حالي، و حصن تل حرم، برساتيقها و مزارعها إلى من نكاتبك بتسليمها إليه، مع من بها من طبقات أهلها أجمعين، المختارين لسكانها و الاستقرار فيها، بحرمهم و أولادهم و أسبابهم و مواشيهم و أصناف أموالهم و غلا تهم و أزوادهم و سلاحهم و آلاتهم، ليكون جميعها حاصلاً في أيدينا و أيدي المسلمين، على غابر الأيام و السنين، من غير أن تلتمس عنها أو عن شيء منها مالاً، و لا بدلاً، و لا عوضاً من الأعواض كلها.

و على أنك تمصي مل عقدته على نفسك من ذلك كله باباً باباً، و تفي به أولاً أولاً، منذ وقت وصولك إلى أوائل أعمالك، و إلى غاية استيلائك عليها، و نفاذ أمرك فيها، و لا ترجع عن ذلك و لا عن بعضه، و لا تؤخر شيئاً من الوقت الذي تقدر فيه عليه، و لا ترخص لنفسك في تجاوزٍ له و لا عدولٍ عنه. و متى سعت طائفة من الطوائف التي تنسب إلى الروم و الأرمن و غيرهم في أمرٍ يخالف شرائط هذا الكتاب، كان عليك منعهم من ذلك إن كانوا من أهل الطاعة و القبول منك، أو مجاهدتهم و ممانعتهم إن كانوا من أهل العنود عنك، و الخلاف عليهم حتى تصرفهم عما يرمونه، و تحول بينهم و بين ما يحاولونه، بمشيئة الله و إذنه، و توفيقه و عونه.

و اشترطت علينا بعد الذي شرطته لنا من ذلك التخلية عن طريقك و طريق من تضمنته جملتك، و اشتملت عليه رفقتك: من طبقات الأصحاب و الأتباع، في

جميع أعمالنا حتى تنفذ عنها إلى ما وراءها، غير معوق، و لا معتقل، و لا مؤذى، و لا معارض، و لا مطلب بمؤونة و لا كلفة، و لا ممنوع من ابتياع زادٍ و لا آلة، و لا نؤثر عليك أحداً ناوأك في أعمالك، و نازعك سلطان بلادك، و دافعك عنه و ناصبك العداوة فيه: ممن ينتسب إلى الروم و الأرمن و الخزرية و سائر الأمم المضادة لك، و لا نوقع معه صلحاً عليك، و لا موافقة على ما يعود بثلمك أو قدح في أمرك، و لا نقبل سؤال سائل، و لا بذل باذل، و لا رسالة مراسل فيما خالف شرائط هذا الكتاب أو عاد بإعلاله، أو إعلال وثيقة من وثائقه. و متى وفد إلينا رسول الله من جهة أحد من أضدادك، راغباً إلينا في شيء يخالف ما انعقد بيننا و بينك – امتنعنا من إجابته إلى ملتمسه، و رددناه خائباً خالياً من طلبته. و إذا سلمت الحصون المقدم ذكرها إلى من نكاتبك بالتسليم إليه، كان لك علينا أن نقر من فيهاو في رساتيقها على نعمهم و منازلهم و ضياعهم و أملاكهم، و أن لا نزيلهم عنها و لا عن شيء منها و لا نحول عنها، و لا عن شيء منها، و لا نحول بينهم و بين ما أيديهم من جميع أموالهم ، و أ، نجزيهم في المعاملات و الجبايات على رسومهم الجارية الماضية التي عوملوا عليها، على مرّ السنين، و إلى الوقت الذي يقع فيه التسليم، من غير فسخ و لا تغيير و لا نقض و لا تبديل. فأنبنا إلى مولانا أمير المؤمنين الطائع لله ما سألت و التمست، و ضمنت و شرطت و اشترطت من ذلك كله، و استأذناه في قبوله منك، و إيقاع المعاهدة عليه معك؛ فأذن – أدام الله تمكينه – لنا فيه، و أمرنا بأن نحكمه و نضيه لما فيه من انتظام الأمور، و حياطة الثغور، و صلاح المسلمين، و التنفيس عن المأسورين. فأمضيناه على شرائط، و تراضينا جميعاً به، و عاقدناك عليه، و حلفت لنا باليمين المؤكدة التي يحلف أهل شريعتك بها، و يتحرجون من الحنث فيها على الوفاء به، و أشهدنا على نفوسنا، و أشهدت على نفسك الله جلّ ثناؤه، و ملائكته المقربين، و أنبياءه المرسلين، و أخانا و عدتنا أبو حرب ربار بن شهرا كويه مولى أمير المؤمنين، و من حضر المجلس الذي جرى فيه ذلك، باستقرار جميعه بيننا ة بينك، و لزومه لنا و لك.

ثم حضر بعد تمام هذه الموافقة و استمرارها، و ثبوتها و استقرارها، قسطنطين

بن بينير أخو وردس بن بينير، فوقّعا على هذا الكتاب، و أحاطا به علماً، و استوعباه معرفة، و شهدا على وردس بن بينير ملك الروم بإقراره به، و التزامه إياه. ثم تبرع كل واحد منهما بأن أوجب على نفسه التمسك به و المقام عليه متى قام وردس بن بينير فيما هو موسوم به من ملك الروم، و جعل جميع الشرائط الثابتة في هذا الكتاب المعقود بعضها ببعض أمانةً في ذمّته، و طوقاً في عنقه، و عهداً يسأل عنه، و حقاً يطالب في الدنيا و الآخرة به؛ و صار هذا العقد جامعاً لهم و لنا، و لأولادنا و أولادهم، و عقبنا و عقبهم، ما عشنا و عاشوا، يلزمنا و إياهم الوفاء بما فيه علينا و عليهم، و لنا و لهم، على مرور الليالي و الأيام، و اختلاف الأدوار و الأعوام.

أمضى و أنفذ صمصام الدولة و شمس الملة أبو كاليجار ذلك كله على شرائطه و حدوده، و التزامه وردس بن بينير المعروف بسفلا روس ملك الروم، و أخوه قسطنطين، و ابنه أرمانوس بن وردس بن بينير، و ضمنوا الوفاء به، و أشهدوا كل واحد منهم على نفوسهم بالرضا به، طائعين غير مكرهين و لا مجبرين، و لا علة بهم من مرض و لا غيره، بعد أن قرأه عليهم، و فسره لهم و خاطبهم باللغة الرومية من وثق به، و فقهوا معنى لفظة، و أحاطوا علماً و معرفة به، بعد أن ملكوا نفوسهم، و تصرفوا على اختيارهم، و تمكنوا من إيثارهم، و رأوا أن في ذلك حظاً لهم، و صلاحاً لشأنهم، و ذلك في شعبان سنة ستة و سبعين و ثلاثمائة. وقد كتب هذا الكتاب إلى نسخ متساويات، خلدت اثنتان منها بدواوين مدينة السلام، و سلمت الثالثة إلى وردس بن بينير ملك الروم و أخيه و ابنه المذكورين معه فيه. و هذه نسخة هدنة ملك مضعوف لملك قويٍّ، كتب بها الفقيه أبو عبد الله بن.... أحد كتاب الأندلس، عن بعض ملوك الأندلس من المسلمين، من أتباع " المهدي بن تومرت " القائم بدعوة الموحدين، مع " دون فرّانده " صاحب قشتالة من ملوك الفرنج بعقد الصلح على مرسية من بلاد الأندلس، و هي: هذا عقدنا بعد استخارة الله تعالى و استرشاده، و استعانته و استنجاده، نيابة عن الإمارة العليّة بحكم استنادنا إلى أوامرها العالية، و آرائها الهادية، عقدناه – و الله الموفق – لقشتالة

مع فلان النائب في عقده معنا عن مراسله إلينا، الملك الأجل الأسنى المبجل " دون فراندة " ملك قشتالة، و طليطلة، و قرطبة، و ليون، و بنسلية – أدام الله كرامته و ميزته بتقواه – حين وصلنا من قبله كتاب مختوم بطابعه المعلوم له و المتعارف عنه، تفويضاً منه إليه، في كل ما يعقد له و عليه، و عاقدنا على أن يكون السلم بيننا و بين مرسله المذكور لعامين اثنين، أولهما شهر المحرم الذي هو أول سنة تاريخ هذا الكتاب، الموافق من الأشهر العجمية شهر كذا، على جميع ما تحت نظرنا الآن من البلاد الراجعة إلى الدعوة المهدية – أسماها الله تعالى – حواضرها و ثغورها، مواسطها و أطرافها، من جزيرة شقر إلى بيرة والمنصورة و مايليها – حرس الله جميعها – سلماً محافظاً عليها من الجهتين، محفوظاً عهدها عند أهل الملتين، لا غدر فيها، و لا إخلال في معنى من معانيها، و لا تشنّ في مدنها غارة، و لا تغدر سيارة؛ و مهما وقع إغوار، أو حدث إقدار، على جهة المجاهرة، إذا اتصلت و المساترة؛ فإن كان من جهة النصارى، فعلى ملك قشتالة تسريح الأسارى، ورد الغنائم و النهب، و الإنصاف من الغنيمة إن عدمت العين، و أعوز الطلب، و علينا مثل ذلك سواء، ليقابل بالوفاء؛ هذا بعد أن يتبع الأمر و يعلم من أين كان.

و من هذه المهادنة أن لا يتسبب إلى الحضور بالغدر و لا بالشّرّ، و لا يتجاوز النصارى حدود بلادهم و أرضهم بشيء من البناء، و لا يصل من بلد قشتالة مددٌ لمخالفنا، و لا معونةٌ لمفاتننا. و كل ما يرجع إلى هذه الدعوة، و يدخل في الطاعة من البلاد بعد هذا العقد فداخل في السلم، بزيادة نسبته من المال الذي هو شرط في صحة هذا الحكم، و إذا بقي من مدة هذه المسالمة شهران اثنان، فعلى ملك قشتالة أن يعلمنا بغرضه في المهادنة أو سواها، إعلاماً من مذاهب الوفاء أوفاها.

و قد التزم رسول المذكور لنا هذه الشروط، و أحكم معنا – نيابة عنه فيها – العقود و الربوط، على كل ما ذكرناه. و التزمنا في هذا السلم لملك قشتالة المذكورة – مكافأة عن وفاء عهده، و صحة عقده – مائة ألف دينار واحدة، و أربعين ألف دينار في كل عام من عامي هذا الصلح المقدم الوصف، مقسماً ذلك على ثلاثة أنجم في العام، ليتقاضاه ثقاته و يوفى عينها على التمام و الكمال، قبض

منها كذا ليوصلها إلى مرسله، و التزم له تخليص باقي كذا عند انقضاء كذا على أوفى وجه و أكمله؛ فإن وفّي له بذلك بعد الأربعين يوماً المؤقتة، فالسلم باقية و حكمها ثابت، و إلا فالسلم مفسوخة و لا حكم لها إن عجز عن الوفاء له، بحصول ما بقي من الشروط في استصحاب الحكم و اتصال العمل، إن شاء الله تعالى.

و على ما تضمنه هذا الكتاب أمضى فلان – أعزه الله – بحكم النيابة، عن الأمر العالي – أسماه الله – هذا العقد الصلحي، و أشهد بما فيه على نفسه و حضره " المعسل طور " المذكور، فترجم له الكتاب و بينت له معانيه، و قرر على مضامينه، فالتزم ذلك كله عن مرسله ملك قشتالة حسب ما فوض إليه فيه، و أشهد بذلك على نفسه، في صحته و جواز أمره في كذا؛ و الله الموفق لما يرضاه، و مقدم الخير و الخير فيما قضاه، بمنّه و السلام.

المذهب الثاني أن تفتتح المهادنة قبل لفظ هذا ببعديّة

و هذه نسخة هدنة بين ملكين متكافئين دون تقرير شيء من الجانبين، كتب بها الفقيه المحدث أبو الربيع بن سالم من كتاب الأندلس، في عقد صلح على بلنسية وغيرها من شرق الأندلس؛ و هي: و بعد، فهذا كتاب موادعة أمضى عقدها و التزمه، و أبرم عهدها و تممه، فلان لملك أرغون، و قومط برجلونة، " و يرنسب مقت بشلى، حافظة " بن بطرة، بن أدفونش، بن ريموند، أدام الله كرامته بتقواه له خاتماً و عنواناً، المعهود صدوره في أمثالها من المراوضات الصلحية تضرعاً و إعلاناً، متضمناً من الإحالة في عقد المسالمة عليه، و التفويض في إبرام أسبابها و التزام فصولها و أبوابها إليه، ما أوجب صحيح النظر، و صريح الرأي المعتبر، مقاربة فيه، و موافقة منه على أن يحفظ حق المسلمين و يوفيه، جنوحاً منه إلى ما جنح إليه من ذلك متقاضيه، و تحرّياً للعمل على شاكلة الصواب و الإيثار لما يقتضيه، بعد محاولات بلغ منه النظر غايته من الاجتهاد، و إراغات قرن بها من

استخارة الله تعالى و استنجاده ما رضي فيه من فضله العميم معهود التسديد و الإنجاد، فأجلى ذلك عن إمضاء عهد السّلم لملك ارغون على بلنسية و كافة جهاتها أطرافاً و مواسط، و ثغوراً وبسائط، و كذلك شطبة ودانية، و ما ينتظم معهما من أحوازهما و يرجع إلى حكم بلنسية و حالها من الجهة النائية و الدانية، لمدة عامين اثنين، شمسيين متصلين، و أيام متصلة بهما كذلك. هذا يحصر أمره، و يحقق عدده، أن نفتتحه، بيوم الأحد الرابع و العشرين لشهر نوبر، الموافق لعاشر ذي القعدة المؤرخ به هذا الكتاب، الذي هو من عام أحد و عشرين و ستمائة بتاريخ الهجرة – مسالمة تضع بها الحرب بين الجانبين أوزارها، و تمهد للهدنة بين الطائفتين آثارها، و ترفع " اللبنة " عمن ذكر من الملتين أذيتها و أضرارها، البر و البحر في ذلك سيان، و المساترة فيها بالأذى و المجاهرة ممنوعان، و حقيقة اللازم من ذلك غني ببيانه و وضوحه عن الإيضاح و التبيان؛ لا التباس و لا إشكال، و لا غائلة و لا احتيال؛ ليس إلا الأمن الكافل لكافة من تشتمل عليه كافة المواضع المذكورة من المسلمين و من تحويه بلاد ملك أرغون من الطوائف أجمعين. و كل من تمن إلى خدمة هذه المملكة الأرغونية بما كان من وجوه الإنتماء، أو نظر في جزء منها كائناً ما كان من الأجزاء، فهو في هذا الحكم داخل، و تحت هذا الربط الصلح واصل، و لا حجة لمن كان له منهم حصنٌ ينفرد به عن هذه المملكة، على ما لهم في ذلك من العوائد المتعارفة. فإن نقض بجزءٍ منه و ذهب إلى أن يكون في حصنه منفرداً فهو و ما اختار، إذا تنكب الإضرار؛ فإن رمى التطرق بشيء إلى أحد الجانبين كان على المسلمين و على أهل أرغون التظافر على استنزاله، و التظاهر على قتله، حتى يكف ضرره، و يعفوا أثره.

و الحدود الفاصلة بين الجزأين هي أوساط المسافات، على ما عرف من متقدم المسالمات، و يد كل فريق منهم مطلقة فيما وراء حده بما شاء، م انتشاء برسم الإصلاح و الإنشاء؛ و كل من قصد المسلمين من رجال المملكة الأرغونية بريئاً من تبعة الفساد فقبول قصده مباح، و ليس في استخدامه و الإحسان إليه جناح؛ و الطريق للتجار المعهود وصلهم من بلاد أرغون إلى بلنسية في البر و البحر مباحة

الانتياب، محفوفة بالأمنة التامة في الجيئة و الذهاب؛ على تجار البحر منهم أن يتجنبوا ركوب الأجفان الحربية التي يمكن بهاالإضرار، و يستغني عن " ركوبها " التجار؛ و الاسترهاب مرفوعاً عن هؤلاء الواصلين برسم التجارة على اختلافهم، و تباين أصنافهم، فيما لم تجنه أيديهم، و لا كان منسوباً إلى تعديهم، و كل معتقل من الطائفتين بأدنى شيء يطرق إلى حكم هذه السلم خلفاً، أو يلحق بعهدها إخلافاً، فعلى أهل موضعه الإنصاف ممن جناه، و صرف ما سلبته يداه، و إحضاره مع ذلك ليعاقب بما أتاه. و ليس لأحد من الطائفتين أن يتسبب باسترسال، إلى الإنصافمن جناية حال، بل يقوم بدفع ذلك حيث يحب، و يطلبه في الموضع الذي ينبغي فيه الطلب، حتى يخاطب الناظر على المملكة التي نسبت إليها هذه الإذاية، و صدرت عن أهلها " تلك " الجناية، بطلب الإنصاف من عدوانها، و تعاد عليه الأعذار في شأنها، و عليه – و لا بدّ – التخليص منها عملاً بالوفاء الذي يجب العمل به، و قياماً بحق العهد الذي أكّد الاعتلاق بسببه، و متى غادر مغادر من أحد الملتين حصناً من حصون الأخرى فله الأمن على الكمال، و الرعي الحافظ للنفس المال، حتى يلحق بمأمنه، و يعود سالماً إلى وطنه.

فعلى هذه الشروط المحققة، و الربوط الموثقة، انعقد هذا السلم، و على من ذكر من المسلمين و أهل أرغون الحكم؛ و هذا الكتاب ينطق في ذلك بالحق اللازم للطائفتين، و يعرب عن حقيقة ما انعقد بين من سميّ من أهل الملتين، و التزم كله عن مك أرغون النائب عنه بتفويضه إليه، و استتابته إياه عليه، و الزعيم بطره ابن " فدانف بكدريش " على أتم وجوه الالتزام، و أبرم ذلك ملك أرغون بأوثق علائق الإبرام، و كل ذلك بعد أن بينت له الفصول المتقدمة غاية التبيين وأفهمها حق الإفهام، و ألزم نفسه مع ذلك وصول الكتاب هذا الملك الذي تولى النيابة عنه في هذا العقد، مصرحاً بالتزامه و إمضائه فيه عمله، وفق ما تضمنه كتابه الذي أرسله، و أشهد مع ذلك زعماء دولته و كبراء القائمين عليه، و تحقيقاً لمعناه، و توثيقاً لمبناه، إن شاء الله تعالى.

النوع الثاني من الهدن الواقعة بين ملك مسلم و ملك كافر أن تكون الهدنة من الجانبين جميعاً و فيها للكتاب ثلاثة مذاهب

المذهب الأول أن تفتتح الهدنة بلفظ هذه هدنة و نحو ذلك

قال في " التعريف " : و سبيل الكتابة فيها أن يكتب بعد البسملة: هذه هدنة استقرت بين السلطان فلان و السلطان فلان، هادن كل واحد منهما الآخر على الوفاء عليه، و أجل له أجلاً ينتهي إليه، لما اقتضته المصلحة الجامعة، و حسمت به مواد الآمال الطامعة، تأكدت بينهما أسبابها، و فتحت بهما أبوابها، و عليهما عهد الله على الوفاء بشرطها، و الانتهاء إلى أمدها، و مدّ حبل الموادعة إلى آخر مددها، ضربا لها أجلاً أوله ساعة تاريخه و إلى نهاية المدة، و هي مدة كذا و كذا؛ على أن كل واحد منهما يغمد بينه و بين صاحبه سيف الحرب، و يكفّ ما بينهما من السهام الراشقة، و تعقل الرماح الخطارة، و تقر على مرابطها الخيل المغيرة، و بلاد السلطان فلان كذا و كذا، و بلاد السلطان فلان كذا و كذا، و ما في بلاد كل منهما من الثغور، و الأطراف و المواني و الرساتيق و الجهات و الأعمال: برّاً و بحراً، و سهلاً و جبلاً، و نائياً و دانياً، و من فيها: من ملكها المسمى و بنيه، و أهله و أمواله، و جنده و عساكره و خاص من يتعليق به و سائره، و رعاياه على اختلاف أنواعهم، و على انفرادهم و اجتماعهم، البادي و الحاضر، و المقيم و السائر، والتجار و السفارة، و جميع المترددين من " سائر " الناس أجمعين. على أن يكون على فلان كذا و " على فلان " كذا " و يعين ما يعين " : من مال، أو بلاد، أو مساعدة، في الجرب، أو غير ذلك، يقوم بذلك لصاحبه، و ينهض من حقه المقرر بواجبه، و عليهما الوفاء المؤكد المواثيق، و المحافظة على العهد و التمسك بسببه الوثيق – هدنة صحيحة، نطقاً بها، و تصادقا عليها، و على

ما تضمنته المواصفة " المستوعبة بينها فيها، و أشهدا الله عليهما بمضمونها، و تواثقا على ديونها، و شهد من حضر مقام كل منهما على هذه الهدنة و ما تضمنته من المواصفة " ، و جرت بينهما على حكم المناصفة، رأيا فيها سكون الجماع، و غض طرف الطماح.

و على أن على كل منهما رعاية ما جاوره من البلاد و الرعية، و حملهم في قضاياهم على الوجوه الشرعية؛ و من نزح من إحدى المملكتين إلى الأخرى أعيد، و ما أخذ منها باليد الغاصبة استعيد؛ و بهذا تم الإشهاد، و قريء على المسامع إلى رؤوس الأشهاد.

المذهب الثاني أن تفتتح الهدنة بلفظ استقرت الهدنة بين فلان و فلان " و يقدم فيه ذكر الملك المسلم

و على ذلك كانت الهدن تكتب بين ملوك الديار المصرية، وبين ملوك الفرنج، المتغلبين على بعض البلاد الشامية.

و هذه نسخة هدنة على هذا النمط، دون تقرير من الجانبين، كتبت بين الملك الظاهر " بيبرس البندقداري " صاحب الديار المصرية، و بين الاسبتار بحصن الأكراد و المرقب، في رابع شهر رمضان سنة خمسٍ و ستين و ستمائةٍ؛ و هي: استقرت الهدنة المباركة الميمونة بين مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبي الفتح " بيبرس " الصالحي النجمي، و بين المقدم الكبير الهمام فلان مقدم بيت الاسبتار الفلاني بعكا، و البلاد الساحلية، و بين فلان مقدم حصن الأكراد، وبين فلان مقدم حصن المرقب، و جميع الأخوة الاسبتار، لمدة عشر سنين متوالية و عشرة أشهر و عشرة أيام و عشر ساعات: أولها يوم الاثنين رابع رمضان سنة خمس و ستين و ستمائةٍ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة و السلام، الموافق لليوم الثلاثين من أيام ..... سنة ألف و خمسمائة و تسعةٍ و سبعين

للإسكندر بن فيليبس اليوناني – على أن جميع المملكة الحمصية و الشيزرية و الحموية و بلاد الدعوة المباركة، واقع عليها الاتفاق المبارك، و مستقرة لها هذه الهدنة الميمونة بجميع حدود هذه الممالك المعروفة، و بلادها الموصوفة، و قراها و ضياعها، و سهلها وجبالها، و عامرها و غامرها، و مزروعها و معطلها: و طرقاتها و مياهها، و قلاعها و حصونها – على ما يفصل في كل مملكة، و يشرح في هذه الهدنة المباركة للمدة المعينة إلى آخرها.

و على أن المستقر بمملكة حمص المحروسة أن جميع المواضع و القرى و الأراضي التي من نهر العاصي، و تغرب إلى الحد المعروف من الغرب لبلد المناصفات: عامراً و داثراً، وبما فيها من الغلات صيفياً و شتوياً، و العداد و غيرها من الفوائد جميعها – تقرر أن يكون النصف من ذلك للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا و الدين أبي الفتح " بيبرس " ، و النصف لبيت الاستبار.

وعلى أن كل من الجهتين يجتهد و يحرس في عمارة بلد المناصفات المذكورة بجهده و طاقته، ومن دخل إليها من الفلاحين بدواب، أو من التركمان، أو منن العرب، أو من الأكراد، أو من غيرهم، أو الفناة – كان عليهم العداد كجاري العادة، و يكون النصف للسلطان و النصف لبين الاسبتار.

و على أن الملك الظاهر يحمي بلد المناصفات المقدم ذكرها من جميع عسكره وأتباعه، و ممن هو في حكمه و طاعته، ومن جميع المسلمين الداخلين في طاعته كافة. و كذلك مقدم بيت الاسبتار و أصحابه يحمون بلاد مولانا السلطان الداخلة في هذه الهدنة.

و على أن جميع من يتعدى نهر العاصي مغرباً لرعي دوابه: سواءٌ أقام أو لم يقم، كان عليه العداد سوى قناة البلد و دوابه، و من يخرج من مدينة حمص و يعود إليها، و من غرب منهمة و مات كان عليه العداد.

و على أن يكون أمر فلاّحي بلد المناصفات في الحبس و الإطلاق و الجباية راجعاً إلى نائب مولانا السلطان، باتفاق من نائب بيت الاسبتار، على أن يحكم فيه بشريعة الإسلام إن كان مسلماً، و إن كان نصرانياً يحكم فيه بمقتضى دولة حصن

الأكراد. و إن يكون الفلاحون الساكنون في بلاد المناصفات جميعها مطلقين من السخر من الجانبين.

و على أن الملك الظاهر لا يأخذ في بلد المناصفات المذكورة: من تركمان و لا عربٍ و لا أكرادٍ و لا غيرهم عداداً و لا حقاً من حقوق بلد الناصفات، إلا و يكون النصف منه للملك الظاهر، و النصف الآخر لبيت الاسبتار.

و على أن الملك الظاهر لا يتقدم بمنع أحد من الفلاحين المعروفين بسكنى بلاد المناصفات من الرجوع إليها، و السكن فيها إذا اختاروا العود، و كذلك بيت الاسبتار لا يمنعون أحداً من الفلاحين المعروفين بسكنى بلاد المناصفات من الرجوع إليها و السكن فيها إذا اختاروا العود.

و على أن الملك الظاهر لا يمنع أحد من العربان و التركمان و غيرهم: ممن يؤدي العداد، من الدخول إلأى بلد المناصفات، إلا أن يكون محارباً لبعض الفرنج الداخلين في هذه الهدنة، فله المنع من ذلك. و أن تكون خشارات الملك الظاهر و خشارات عساكره و غلمانهم و أهل بلده ترعى في بلد المناصفات آمنة من الفرنج و النصارى كافة. و كذلك خشارات بيت الاسبتار و خشارات عسكرهم و غلمانهم و أهل بلدهم ترعى آمنة من المسلمين كافة في بلد المناصفات. و عند خروج الخشارات من المراعي و تسليمها لأصحابها، لا يؤخذ فيها حق و لا عدادٌ و لا تعارض من الجهتين.

و على أن تكون مصيدة السمك الرومية مهما تحصل منها، يكون النصف منه للملك الظاهر و النصف لبيت الاسبتار، و كذلك المصايد التي في الشط الغربي من العاصي يكون النصف منه للملك الظاهر و النصف لبيت الاسبتار، و يكون لبيت الاسبتار في كل سنة خمسون ديناراً صوريَّة عن القش، ويكون القش جميعه للملك الظاهر يتصرف نوابه فيه على حسب اختيارهم، ويكون اللينوفر مناصفة: النصف منه للملك الظاهر والنصف لبيت الاسبتار. و تقرر أن الطاحون المستجد المعروف بإنشاء بيت الاسبتار، الذي كان حصل الحرب فيه، و البستان الذي هناك المعروف بإنشاء بيت الاسبتار أيضاً يكون مناصفة، و أن يكون متولي أمرهما نائب من جهة نواب السلطان و نائب من جهة بيت الاسبتار، يتوليان أمرهما و

التصرف فيهما و قبض متحصلهما. و تقرر أن مهما يجدده بيت الاسبتار على الماء الذي تدور به الطاحون و يسقي البستان من الطواحين و الأبنية و غير ذلك، يكون مناصفةً بين الملك الظاهر و بين بيت الاسبتار.
و أما المستقر بمملكة شيزر المحروسة، فهي شيزر، و أبو قبيس و أعماله، و عينتاب و أعمالها، و نصف زروية بغراس المعروفة بحماية بيت الاسبتار و أعمالها، و جميع أعمال المملكة الكسروية و البلاد المذكورة بحدودها المعروفة بها، و قراها المستقرة بها، و سهلها و جبلها و عامرها و غامرها.

و ما استقر بمملكة المنصور، ناصر الدين " محمد " بن الملك المظفر أبي الفتح " محمود " بن الملك المنصور " محمد " بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب فهي: حماة المحروسة و قلاعها و مدنها، و المعرة و قراها و سهلها و جبلها و أنهارها، و منافعها و ثمارها و عامرها و غامرها؛ و بلاد رقيبة و بلاد بارين بحدودها و تخومها و عامرها و داثرها و جميع من فيها وما فيها – على أن الملك المنصور لا يرخص للتركمان و لا للعرب أن ينزلوا بلد رقيبة و بارين سوى ثلاثين بيتاً يحملون الغلّة لقلعة بارين، و إن أرادوا الزيادة يكون بمراجعة الإخوة الاسبتارية و الاتفاق معهم على ذلك.
و على أنه إن تعدّى أحد من أصحابه بأذية، أو تعدى أحد من الفرنجة في بلاده بأذيةٍ، كانت المهلة في ذلك خمسة عشر يوماً؛ فإن انكشفت الأخيذة، أعيدت، و إلا تحلف الجهة المدعى عليها أنها ما علمت و ما أحست، و كما لهم، كذلك عليهم.
و المستقر لمملكة الصاحبين: نجم الدين و جمال الدين، و الأمير صارم الدين نائبي الدعوة المباركة، و ولد الصاحب رضي الدين، و هي: مصياف و الرصافة و جميع قلاع الدعوة و حصونها و سهلها و وعرها و عامرها و داثرها، و مدنها و بلادها، و ضياعها و طرقاتها، و مياهها و منابعها، و جميع بلاد الإسماعيلية بجبلي بهرم و اللّكّام، و كل ما تشتمل عليه حدود بلاد الدعوة و تخومها – أن يكون الجميع آمنين من على الرّصيف الذي بشيزر إلى نهاية الأراضي التي بحصون الدعوة و بلادها. و حماية القرية المعروفة " بعرطمار " يكون له أسة

الإسماعيلية. و إن علم الأصحاب أن أحداً من الإسماعيلية قد عبر إلأى بيت الاسبتار لأذية، الأذية أعلموا بيت الاسبتار قبل أن تجري أذية، و ما لم يعلموا به عليهم اليمين أنهم ما عملوا به،وإن لم يحلفوا يردوا التي تجري.

و تقررأن يكون فلاّحو بيت الاسبتار رائحين و غادين و متصرفين في بيعهم و شرائهم، مطمئنين لا يتعدّى أحد عليهم. و كذلك جميع فلاحي بلاد الإسماعيلية لا يتعدى أحد عليهم، و إن يكونوا آمنين مطمئنين في جمكيع بلاد الاسبتارية؛ و إن تعدّى أحد من الجهتين في سوق أو طريق، في ليل أو نهار، تكون المهلة خمسة عشر يوماً؛ فإن ردّت الشكوى كلها فما يكون إلا الخير بينهم؛ و من توجهت عليه اليمن حلف، و من لم يفعل يحلف و إلا يرد الأذية. و تكون الضّيعة التي رهنها عبد المسيح رئيس المرقب الاسبتار، و هي " المشيرقة " تكون آمنة إن كان الحال استقر عليها إلى آخر وقت عند كتابة هذه الهدنة الباركة بين الأصحاب و أصحابهم. و يحمل الأمر في الحقوق.

و يبطل ما هو على بلاد الدعوة المباركة من جميع ما لبيت الاسبتار على حماية مصياف و الرصافة، و هو في كل سنة ألف و مائتا دينارٍ قومصية، و خمسون مدّاً حنطةً، و خمسون مداً شعيراً، و لا تبقى قطيعة على بلاد الدعوة جميعها ، و لا يتعرض بيت الاسبتار و لا نوابهم و لا غلمانهم إلى طلب قديم من ذلك و لا جديد، و لا منكسر و لا ماضٍ، و لا حاضر و لا مستقبل على اختلافه.

و تقرر أن تكون جميع الباحات من الجهتين مطلقة مما يختص بالمملكة الحمصيّة، يسترزق بها الصّعاليك، و أن نواب الملك الظاهر يحمونه من أذية المسلمين من بلاده المذكور، و أن نواب بيت الاسبتار يصونونهم و يحرسونهم و يحمونهم من النصارى و الفرنج من جميع هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة. و لا يتعرض أحد من المسلمين كافة من هذه البلاد الداخلة في " هذه " الهدنة " إلى بلاد الاسبتارية " بأذية و لا إغارة، و لا يتعرض أحد من جميع الفرنجة من هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة بحدودها الجارية في يد نوّاب الاسبتار و في أيديهم، إلى بلاد الملك الظاهر بأذية و لا إغارة.

و على أنه متى دخل في بلاد المناصفات أحدٌ ممن يجب عليه العداد و امتنع من

ذلك، و كان عداد إحدى الجهتين حاضراً: إما عداد ديوان الملك الظاهر، و إما عداد بيت الاسبتار، فلنائب العداد الحاضر من إحدى الجهتين أن يأخذ من ذلك الشخص الممتنع عن العداد أو الخارج من بلد الناصفات رهناً بمقدار ما يجب عليه من العداد، بحضور رئيس من رؤساء بلد المناصفات، و يترك الرهن عند الرئيس وديعة إلى أن يحضر النائب الآخر من الجهة الأخرى، و يوصل إلى كل من الجهتين حقه من العداد.

و إن خرج أحد ممن يجب عليه العداد، و عجز النائب الحاضر عن أخذ رهنه: فإن دخل بلداً من الملك الظاهر، كان على النواب إيصال بيت الاسبتار إلى حقهم مما يجب على الخارج المذكور إلى بيت الاسبتار، كان عليهم إن يوصلوا إلى نواب الملك الظاهر حقهم مما يجب على الخارج من العداد. و كذلك يعتمد ذلك في المملكة الحموية و بلاد الدعوة المحروسة.

و على أن التجار و السفار و المترددين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين: الجهة الإسلامية، و الجهة الفرنجية و النصرانية، في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها – على النفوس و الأموال و الدواب و ما يتعلق بهم، يحميهم السلطان و نوابه، و يتعاهدون البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة الواقع عليها الصلح و في بلد الناصفات – من جميع المسلمين، و يحميهم بيت الاسبتار في بلادهم الواقع عليها الصلح و في بلد المناصفات – من الفرنج و النصارى كافة.

و على أن يتردد التجار و المافؤون من جميع المترددين على أي طريق اختاروه من الطرق الداخلة في عقد هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك الظاهر، و بلاد معاهديه، و بلاد المناصفات، و خاص بيت الاسبتار و المناصفات، يكون الساكنون ز المتمردون في الجهتين آمنين مطمئنين على النفوس والأموال، تحمي كل جهة الجهة الأخرى.

و على أن ما يختص بكل جهة من هذه الجهات: الإسلامية، و الفرنجية الاسبتارية، لا يكون عداد على مالها في المناصفات: من الدواب و الغنم و البقر و

الجمال و غيرها، على العادة المقررة في ذلك.

و على أن إطلاق الرؤساء يكون باتفاق من الجهتين: الإسلامية، و الفرنجية الاسبتارية. و متى وقعت دعوى على الجهة الأخرى وقف أمرها في الكشف عنها أربعين يوماً؛ فإن ظهرت أعيدت على صاحبها، و إن لم تظهر حلف ثلاثة نفر ممن يختارهم صاحب الدعوى على ما يعلمونه في تلك الدعوى، و إن ظهرت بعد اليمين أعيدت إلى صاحبها، و إن كان قد تعوض عنها أعيد العوض.

و على أن يكشفوا عن الأخذية بجهدهم و طاقتهم. و متى تحققت أعيدت إلى صاحبها، فإن حلفوا يبرؤون من الدعوى، و إن ظهرت بعد اليمين أعيدت إلى صاحبها، و إن امتنع المعي عليه من اليمين حلف المدعي، و لا يستحق عوض ما عدم من كا شيء مثله. و كذلك يجري الأمر في القتل: عوض الفارس فارس، و عوض الرّاجل راجل، و عوض البركيل بركيل، و عوض التاجر تاجر، و عوض الفلاح فلاح. و إذا انقضت الأربعون يوماً المذكورة لكشف الدعوى و لم يحلف المدّعى عليه للمدعي وجب عليه العوض حتى يرد، و عن ردّ اليمين على المدعي و مضى على ذلك عشرة أيامٍ، و لم يحلف صاحب الدعوى بطلت دعواه و حكمها، و إن حلف أخذ العوض.

و متى هرب إلى إحدى الجهتين إلى الأخرى أحدٌ، و معه مالٌ لغيره أعيد جميع ما معه، و كان الهارب مخيّراً بين المقام والعود. وإن هرب عبدٌ وخرج عن دينه، أعيد ثمنه، وإن كان باقياً على دينه أعيد.

و على أن لا يدخل أحد من القاطنين في بلد المناصفات: من الفلاحين و العرب و التركمان و غيرهم، إلى بلاد الفرنج و النصارى كافةً لإغارة و لا أذية بعلم الملك الظاهر و بلاد معاهديه، " و لا يدخل أحد " بلاد المسلمين لإغارة و لا أذية بعلم بيت الاسبتار ولا رضاهم ولا إذنهم.

و على أن الدعاوى المتقدمة على هذا الصلح يحمل أمرها على شرط المواصفة التي بين الملك الظاهر وبين بيت الاسبتار.

وعلى أن هذه الهدنة تكون ثابتة مستقرة، لا تنقض بموت أحد من الجهتين، ولا وفاة ملك ولا مقدم، إلى آخر المدة المذكورة، و هي: عشر سنين و عشرة أشهر و

عشرة أيام و عشر ساعات، أولها يوم تاريخه.
و على أن نواب الملك الظاهر و معاهديه لا يتركون أحد من التركمان، ولا من العربان، ولا من الأكراد، يدخل بلاد المناصفات بغير اتفاق من بيت الاسبتار أو رضاه، إلا أن يكفلوه عن نفوسهم في هذه الطوائف المذكورة، و يعلموا حاله، لئلاّ تبدو منهم أذية أو ضرر أو فساد ببلد المناصفات و ببلد النصارى. و لنواب مولانا السلطان أن تتركهم على شرط أنهم يعلم بهم بيت الاسبتار في غد نزولهم المكان، إن كان المكان قريباً. و إ، ظهر منهم فساد كان النواب يجاوبون بيت الاسبتار.

و على أن المهادنة بحدودها يكون الحكم فيها كما في المناصفات، و الحدود في هذه البلاد جميعها تكون على ما تشهد به نسخ الهدن، و ما استقر الحال عليه إلى آخر وقت.
و على أن تخلى أمور المملكة الحمصية على ما كان مستقراً في الأيام الأشرفية، على ما قرره الأمير علم الدين " سنجر " .
هذا ما وقع الاتفاق و التراضي عليه من الجهتين، و بذلك جرى القلم الشريف السلطاني الملكي الظاهري: حجة بمقتضاه، و تأكيداً لما شرح أعلاه. كتب في تاريخ كذا و كذا.
و هذه نسخة هدنة من هذا النمط، عقدت بين السلطان الملك الظاهر " بيبرس " أيضاً، و بين ملكة بيروت من البلاد الشامية، في شهور سنة سبع و ستين و ستمائة حين كانت بيدها، و هي: استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين " بيبرس " و بين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة، فلانة ابنة فلان، مالكة بيروت و جميع جبالها و بلادها التحتية مدة عشر سنين متوالية، أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع و ستين و ستمائة الموافق لتاسع أيار سنة ألف و خمسمائة و ثمانين يونانية – على بيروت و أعمالها المضافة إليها، الجاري عادتهم في التصرف فيها في أيام الملك العادل، أبي بكر بن أيوب، و أيام ولده الملك المعظم عيسى ، و أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز، و القاعدة المستقرة في زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية، بمقتضى الهدنة الظاهرية،

و ذلك مدينة بيروت و أماكنها المضافة إليها: من حد جبيل إلى حد صيدا، و هي الماضع الآتي ذكرها: جونية بحدودها، و العذب بحدودها، و العصفورية بحدودها، و الراووق بحدودها، و سن الفيل بحدودها، و الرح و الشويف بحدودها، و أنطلياس بحدودها، و الجديدة بحدودها، و حسوس بحدودها، و البشرية بحدودها، و الدكوانة و برج قراجار بحدودها، و قرينة بحدودها، و النصرانية بحدودها، و جلدا بحدودها، و الناعمة بحدودها، و رأس الفيقة، و الوطاء المعروفة بمدينة بيروت، و جميع ما في هذه الأماكن من الرعايا و التجار، و من سائر أصناف الناس أجمعين، و الصادرين منها و الواردين إليها من جميع أجناس الناس، و المتمردين إلى بلاد السلطان فلان، و هي: الحميرة و أعمالها و قلاعها و بلادها و كل ما هو مختص بها، و المملكة الأنطاكية و قلاعها و بلادها، و جبلة و اللاذقية و قلاعها و بلادها، و حمص المحروسة و قلاعها و بلادها، و ما هو مختص بها، و مملكة حصن عكا و ما هو منسوب إليها، و المممكلة الحموية و قلاعها و بلادها و ما هو مختص بها، و المملكة الرحبية و ما هو مختص بها: من قلاعها و بلادها، و المملكة البعلبكية و ما هو مختص بها: من قلاعها و بلادها دن و المملكة الدمشقية و ما هو مختص بها: من قلاعها و بلادها و رعاياها و ممالكها، و المملكة الشقيفية و ما هو مختص بها: من قلاعها و بلادها و رعاياها، و المملكة القدسية و ما يختص بها، و المملكة الحلبية و ما يختص بها، و المملكة الكركية و الشةبكية و ما يختص بها من القلاع و البلاد و الرعايا، و المملكة النابلسية، و المملكة الصرخدية، و مملكة الديار المصرية جميعها: بثغورها، و حصونها، و ممالكها، و بلادها، و سواحلها، و برها، و بحرها، و رعاياها، و ما يختص بها، و الساكنين في جميع هذه الممالك: المذكورة و ما لم يذكر من ممالك السلطان و بلاده، وما سيفتحه الله تعالى علىيده و يد نوابه و غلمانه يكون داخلاً في هذه الهدنة المباركة، و منتظماً في جملة شروطها، و يكون جميع المترددين من هذه البلد و إليها آمنين مطمئنين على نفوسهم و أموالهم و بضائعهم، من الملكة فلانة و غلمانها، و جميع ما هو فيه حكمها و طاعتها: براً و بحراً، ليلاً و نهاراً و من مراكبها و شوانيها. و كذلك رعية الملكة فلانة و غلمانها يكونون آمنين على

أنفسهم و أموالهم و بضائعهم من الساطان ومن جميع نوابه و غلمانه و من هو تحت حكمه و طاعته: براً و بحراً، ليلاً و نهاراً: في جبلة، و اللاذقية، و جميع بلاد السلطان، و من مراكبه و شوانيه.

و على أن لا يجدد على أحد من التجار المتمردين رسم لم تجر به عادة، بل يجرون على العوائد المستمرة، والقواعد المستقرة من الجهتين.وإن عدم لأحد من الجانبين مال، أو أخذت أخيذة، و صحت في الجهة الأخرى ردّت إن كانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة.

و إن خفي أمرها كانت المدّة للكشف أربعين يوماً، فإن وجدت ردت، وإن لم توجد حلف والي تلك الولاية المدعى عليه،وحلف ثلاثة نفر ممن يختارهم المدعي،وبرئت جهته من تلك الدعوى.فإن أبى المدعى عليه عن اليمين حلف الوالي المدعي، وأخذ ما يدعيه. وإن قتل أحد من الجانبين خطأ كان أو عمداً،كان على القاتل في جهته العوض عن نظيره: فارس بفارس، وبركيل ببركيل،وراجل براجل، وفلاح بفلاح. وإن هرب أحد من الجانبين إلى الجانب الآخر بمال لغيره،رد من الجهتين هو و المال،ولا يعتذر بعذر.

وعلى أنه إن تاجر فرنجي صدر من بيروت إلى بلاد السلطان يكون داخلاً في هذه الهدنة،وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلاً في هذه الهدنة.وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحداً من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين.

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين: لاينقضها مرور زمان، ولايغير شروطها حين ولا أوان، ولاتنتقض بموت أحد من الجانبين.وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يوماً ولا يمنع أحد هم من العود إلى مستقره؛ وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجةً فيها، و الله الموفق، في تاريخ كذا و كذا.

و هذه نسخة هدنةٍ عقدت بين السلطان الملك الظاهر " بيبرس " و ولده الملك

السعيد، و بين الفرنج الاسبتارية، إلى قلعة لدٍّ بالشام، في سنة تسع و ستين و ستمائة؛ و هي: استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين " بيبرس الصالحي " قسيم المؤمنين و ولده الملك السعيد ناصر الدين " محمد بركة خاقان " خليل أمير المؤمنين، و بين المباشر المقدم الجليل افريز أولدكال مقدم جميع بيت اسبتار سرجوان بالبلاد الساحلية، و بين جميع الإخوة الاسبتارية، لمدة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات، و عشرة أشهر، أولها مستهل رمضان سنة تسع و ستين و ستمائة للهجرة النبوية المحمّديّة، الموافق للثامن من نيسان سنة ألف و خمسمائة و اثنتين و ثمانين للإسكندر بن فيلبس اليوناني – على أن تكون قلعة لدٍّ بكاملها و ربضها و أعمالها، و ما هو منسوب إليها و محسوب منها، بحدودها المعروفة بها من تقادم الزمان، و ما استقر لها الآن، و ما يتعلق بذلك: من المواضع، و المصايد، و الملاّحات، و البساتين، والمعاصر، و الطّواحين، و الجزائر: سهلها و جبلها، و عامرها، و داثرها، و ما يجري بها من أنهارٍ، و ينبع بها من عيون، و ما هو مبني بها من عمائر، و ما استجد بها من القراح و غير ذلك، و كل ما عمر في أراضي المناصفات على دورها و أنهارها، و ما بحدود ذلك من نهر " بدرة " إلى جهة الشمال، و ما استقر " لبلدة " من هذه الجهات إلى آخر الأيام النّاصريّة من الحدود المعروفة بها و المستقرة لها، و حصن برغين و ما ينسب إلى ذلك من البلاد والضياع والقرى التي كانت مناضفة – تكون جميع " بلدة " و هذه الجهات خاصاً إلى آخر الزائد لملك الظاهر، ولا يكون لبيت الاسبتار ولا للمرقب فيها حق ولا طلب بوجهٍ ولا سبب إلى حين انقضاء مدّة الهدنة وما بعدها إلى آخر الزائد، ولا لأحد من جميع الفرنجة فيها تعلق ولا طلب ولا سبب.

و كذلك مهما كان مناصفة كقلعة " العليقة " في بلادها لبيت الاسبتار، يكون للمرقب فيها شيء ولا لبيت الاسبتار.

و كذلك كل ما في بلاد الدعوة المباركة جميعها و قلاعها من القرى – لا تكون فيها مناصفة لبيت الاسبتار ولا للمرقب، ولا حق، ولا رسم، ولا شرط، ولا طلب في جميع بلاد الدعوة: مصياف المحروسة، والكهف، والمنيقة، والقدموس، والخوابي، والرصافة، والعليقة، وكل ما هو في القلاع وفي بلادها من مناصفة،

يكون ذلك خاصاً للملك الظاهر، و ليس لبيت الاسبتار ولا الفرنجة فيه حديث ولا طلب.

و على أن تكون بلاد المرقب و حدودها من نهر لدٍّ و مقبلاً ومغرباً إلى حدود بلاد مرقبة المعروفة بها، الدّاخل جميعها في الفتوح الشريف، واستقرارها بحكم ذلك في الخاص المبارك الشريف، و حد البيوت الماذية لسور الربض، تستقر جميعها مناصفة بين السلطان وبين بيت الاسبتار نصفين بالسوية، وما في جميع هذه البلاد: من بساتين، وطواحين، وعمائر، ومصايد، وملاّحات، و وجوه العين، والمستغلات الصيفية و الشتوية، والقطاني،ن والحقوق المستخرجة، وما هو مزروع من الفدن لأهل الربض وبيادرها: يكون ذلك مناصفة بين السلطان وبين بيت الاسبتار سرجوان بالسوية نصفين.

وما هوداخل الربض و داخل المرقب، فإنه مطلق من الملك الظاهر للمقدم الكبير " افريز أولدكال " مقدم بيت الاسبتار سرجوان وخيّالته، ورجاله و حمالته ورجالته ورعيته، برسم إقامتهم وسكانهم من داخل الأسوار، و عن سور الربض المحاذية للسور تكون مناصفة جميعها، بما فيه من حقوق طرقات وأحكار، ومراعي المواشي على اختلاف أصوافها وأوبارها، و جميع السخريات، و كلأرض مزروعة أو غير مزروعة مهما أخذ منه حقٍّ أو عدادٍ يكون مناصفة.

و كل ما هو من المواني والمراسي البحرية المعروفة جميعها بحصن المرقب: من مينا بلدة إلى مينا القنطرة المجاورة لحدود مرقبة – تكون هي وما يتحصل منها من الحقوق المستخرجة من الصادرين والواردين والتجار،وما ينعقد عليه ارتفاعها، وتشهد به الحسبانات – جميعه مناصفة. وما يدخل في ذلك من أجناس البضائع على اختلافها يؤخذ الحق " منه " مناصفة على العادة الجارية من غير تغيير لقاعدة من حين أخذ بيت الاسبتار المرقب إلى تاريخ هذه الهدنة المباركة مناصفة على العادة الجارية، بل تجري التجار في الحقوق على عادتهم في البضائع التي يحضرونها و المتجر كائناً من كان.

يعتمد ذلك في كل ما يصل للمترددين و المقيمين بالقلعة و الربض: من عامة

وغيرعامة، وخيالةٍ وغير خيالة، على اختلاف أجناسهم، خلا ما يصل للإخوة ولغلمانهم المعروفين بالإخوة الاسبتارية من الحبوب و المؤونة والكسوة والخيل التي هي برسم ركوبهم خاصة، لا يكون عليها حق، بشرط أنه لا يكون فيها للتجار شيء من ذلك، وما خلا ذلك جمعية يؤخذ الحق منه مناصفةً على ما شرحناه.

و على أنه لا يحمي أحد من الإخوة الخيّالة، و الوزراء، والكتّاب، والنّواب، و المستخدمين شيئاً على اسم بيت الاسبتار، ليستطلق الحق و يمنع من اسيتدائه، ولو أنه أقرب أخٍ إلى المقدم أو ولد المقدم، إذا ظهر منه خلاف ما وقع عليه الشرط، أخذ جميع ماله مستهلكاً للجهتين: للديوان السلطاني المعمور، ولبيت الاسبتار، إن كان خارجاً من البحر أو نازلاً إلى البحر، صادراً و وارداً، وكذلك في البر صادراً و وارداً بعد المحاققة على ذلك وصحته.

و على أن نّواب المباشر المقدم الكبير لبيت الاسبتار، و ولاته وكتابه ومستخدميه وغلمانه، يكونون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وجميع ما يتعلق بهم، وكذلك غلماننا و ولاتنا ونوابنا ومستخدمونا وكتابنا ورعايا بلادنا يكونون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم، متفقين على مصالح البلاد وأخذ الحقوق، وسائر المقاسمات والطرقات والبساتين والطواحين، والحقوق المقررة على الفدن على اختلاف أجناسها. وكذلك الراسة واسستخراج وجوه العين، والحبوب، والتصاريف الجاري بها العادة المقررة على الفدن، من جميع ما يتعلق بها.

و على أن جميع الضمانات يكون نواب السلطان ونّواب بيت الاسبتار متفقين جملةً على ذلك، لا ينفرد أحد منهم بشيء إلا باتفاق وتنزيل في دفاتر الديوان المعمور و ديوان بيت الاسبتار، ولا يطلق ولا يحبس إلا باتّفاق من الجهتين، ولا ينفرد واحد دون آخر.

و على أن أي مسلم تصدر منه بما يقتضيه الشرع الشريف في تأديبه، يعتمد ذلك فيه نائبنا:من شنق يجب عليه، أو قطع، أو أدب بحكم الشرع الشريف: من شنق، وقطع، وكحل أعين، بحيث لا يعمل ذلك إلا بحضور نائب من جهة بيت الاسبتار، حاضر يعاين ذلك بعينه، و يكون قد عرف الذنب وتحققه. و إن كان ذنبه يستوجب

جنايةً أو غرامة دراهم أو ذهب أو مواشٍ أو غير ذلك على اختلاف أجناسه، يكون ما يستأدى مناصفة للديوان المغمور و لبيت الاسبتار وصاحب المرقب. فإن كان فيها قماش وبضائع على اختلاف أجناسه، و صاحبه مسلم، يأخذ بضاعته من غير اعتراضٍ من الجهتين بعد أداء الحق للديوان المعمور ولبيت الاسبتار. وإن لم يعرف صاحب البضاعة وكانت لمسلمٍ، أعيدت للخزانة السلطانية، ولا يكون لبيت الاسبتار فيها تعلق. وإن كان صاحب البضاعة نصرانياً على اختلاف أجناس النصارى، تؤخذ بضاعته من غير اعتراض من جهتنا، بعد أداء الحق، وإن لم يعرف صاحب البضاعة، و كانت لنصراني، تبقى تحت يد بيت الاسبتار، خلا من كان من بلاد مملكة السلطان على اختلاف دينه: إن كان نصرانياً أو ذميّاً، على اختلاف خنس دينه، ليس لبيت الاسبتار عليهم اعتراض، و يحمل ذلك جميعه على اختلاف أجناس البضائع للديوان المعمور.

و على أنه متى انكير مركب، ز ظهر إلى بر المواني بضاعته، وقصد صاحبه شيله إلى جهةٍ يختارها في البر والبحر، ولا يتبع، فيؤخذ الحق منه: إن باع يؤخذ الحق، وإن حمل يؤخذ الحق، و يكون الحق للجهتين: وهو الحق المعروف الجاري به العادة.

و على أن التجار السفارة و المترددين بالبضائع من بلاد المسلمين والنصارى متى ما خرجوا من المواني المحدودة أعلاه يتوجهون بخفارة الجهتين من غير حقٍّ: لا يتناول من الخفارة شيء منسوب إلى أن يخرجهم و يحضرهم إلى برّ حدود المرقب آمنين مطمئنين تحت حفظ الجهتين. ومتى وصل التجار من مملكة السلطان إلى بلاد المرقب و موانيها، فالترتيب على الخفارة من الجهتين، مع تدرك الرؤساء الحفظ للطرقات صادراً و وارداً، بحيث أنهم يحضرون إلى بلاد المرقب، و إلى المواني بالمرقب، المحدودة أعلاه، طيبين آمنين على أرواحهم و أموالهم بالخفارة من الجهتين، على ما شرحناه.

و على أن غلمان المباشر امقدم لبيت الاسبتار ة الإخوة و الخيالةو الرعية المقيمين بقلعة المرقب و الربض، يكونوآمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم ومن يلوذبهم ويتعلق، في حال صدورهم و ورودهم إلى بلادنا الجارية في مملكتنا في البرّ، منّا

ومن نّوابنا بالمملكة و البلاد الجارية في حكمنا، ومن ولدنا الملك السعيد، ومن أمرائنا وعساكرنا المنصورة. وإ, قتل قتيل أو أخذت أخيذة في حدودة المناصف ببلاد المرقب،فيقع الكشف عن ذلك عشرين يوماً: فإن وجد فاعل ذلك، يؤخذ الفاعل بذنبه، و إن لم يظهر فاعل ذلك مدة عشرين يوماً فيمسكة رؤساء مكان قطع الطريق و أخذ الأخيذة، وقتل القتيل، إن كان أخذ وقتل – مكان من قتل القتيل أو أخذ الأخيذة – أقرب القرباء إلى الذي قطع عليه الطريق أو قتل قتيلاً، فإن خفي الفاعل لذلك ، و عجز عن احضاره بعد عشرين يوماً، يلزم أهل نّواب الجهتين من القرباء الأقرب لذلك المكان بألف دينار صوريّة: للديۊان السلطاني النصف، و لنقيب الاسبتار النصف، ولا تتكاسل الولاة في طلب ذلك، و يكون طلبه يداً واحدةً، ولا يختص الواحد دون الآخر، ولا يحابي أحد منهم لأخذ الفلاح في هذا أو غيره في مصلحة عمارة البلاد، و استخراج الحقوق، و مقاسمة الغلال، و طلب المفسدين ليلاً و نهاراً.

و على أن لا تغير الهدنة المباركة بأمر من الأمور، لا من جهتنا ولا من جهة ولدنا الملك السعيد، إلى انقضاء مدتها المعينة أعلاه وفروعها، ولا تتغير بتغير المقدم المباشر لبيت الاسبتار الحاكم على المرقب وغيره، وإذا جرت قضية في أمر من الأمور يعرفهم نّوابنا

و يحقق الكشف إلى مدة أربعين يوماً، فمن يكون البداية يخرج منها على من يثبت و يكون قد عرف دينه الذي بدا من جهة كل واحدٍ. وإذا تغير النواب بالمرقب و حضر نائب مستجد يعتمد ما تضمنته هذه الهدنة، ولا يخرج عن هذه المواصفة. وإذا تسحّب من المسلمين أحد على اختلاف أجناسه، إن كان مملوكاً أو غير مملوك، أو معتوقاً أو غير معتوقٍ، أو كائناً من كان من المسلمين على اختلاف منازلهم، وإن كان غلاماً أو غير غلامٍ – يرد بجميع ما يوجد معه، وإن كان قليلاً أو كثيراً يرد. ولو أنّ المستحب دخل الكنيسة وجلس فيها يمسك بيده ويخرج ويسلم لنوابنا بجميع ما معه؛ و إن كان خيلاً أو قماشاً أو دراهم أو ذهباً وما يتعامل الناس به، يسلم بما معه إلى نوابنا على ما شرحناه. وكذلك إذا تسحب أحدٌ من

جهتهم من الفرنج أو النصارى إلى أبوابنا الشريفة، أو وصل إلى جهة نوابنا يمسك و يسلم بما يحضر معه: من الخيل والأقمشة والعدة وجميع ما يصل إن كان قليلاً أو كثيراً، يمسكه نوابنا ويسلمون ذلك بما معه لنائب المقدم الماستر المقيم بالمرقب، وأخذوا الخطوط بذلك بتسليمه ما حضر معه.

وعلى أنهم لا يكون لهم حديث مع قلعة القليعة، ولا الرعية الذين فيها، ولا مع نواب ابن الرديني المقيمين فيها: لا بكتاب، ولا بمشافهةٍ، ولا برسالة، ولا بقول، ولا يطلع أحد من جهتهم إليهم، ولا يمكن أحد من الحضور إليهم، " والوصول " إلى جهتهم من القلعة المذكورة، ولا تسير إليهم مؤونة ولا تجارة ولا جلب على اختلاف أجناسه، ولا تكون بينهم معاملة. وإن حضر من جهة قلعة العليقة إليهم يمسكون ويسلمون لنوابنا ويأخذوا بذلك خطوطهم.

وعلى أنهم لا يجدون عمارة قلعة، ولا في القلعة عمارة، ولا في البدنة ولا في أبراجها، ولا " يعتمدون " إصلاح شيء منها إلا إذا عاينه نوابنا أو لأبصروا أنه يحتاج إلى الضرورة في ترميم يرممونه بعد أن يعاينه نوابنا من هذا التاريخ، ولا يجدّدون عمارة في ربضها، ولا في سورها، ولا في أبراجها، ولا يجدون حفر خندق، أو تجدد بناية خندق أو قطع جبل، أو تحصن عمارة، أو تحصن بقطع جبل، منسوباً لتحصين يمنع أو يدفع. ولم نأذن لهم بسوى البناية " على " أثر الدور التي أحرقت عند دخول العساكر صحبة الملك السعيد. وقد أذنا لهم في عمارة باطن الربض على أثر الأساس القديم.

وعلى أن صهيون وأعمالها، ورومه وأعمالها، والقليعة وأعمالها، وعيدوب وأعمالها، الجارية تحت نظر الأمير سيف الدين محمد بن عثمان صاحب صهيون - يجري حكم هذه البلاد المختصة به حكم بلادنا في المهادنة، بحكم أن بلاده المذكورة جارية في ممالكنا الشريفة.

وعلى أنه لا يمكن بيت الاسبتار من دخول رجل غريبة في البر ولا في البحر إلى بلادنا، بأذية ولا ضرر يعود على الدولة، وعلى بلادنا وحصوننا ورعيتنا، إلا أن يكونوا يداً غالبة، صحبة ملك متوج.

وعلى أن البرج الداخل في المناصفة، وهو برج معاوية الذي عند المحاصة

الداخلة في مناصف المرقب الآن، يخرب ما يخصنا منه، وهو النصف من البرج المذكور أعلاه؛ وأن الجسر المعروف بجسر بلدة لم يكن لبيت الاسبتار فيه شيء من البرين، وأنه خالص للديوان المعمور دون بيت الاسبتار؛ وأن الدار المستجدة عمارتها بقلعة المرقب برسم الماستر المقدم الكبير، الذي هو عايز تكميل عمارة سقف القبو بالحجارة والكلس، ولا تكمل عمارتها، ويبقى على حاله، وهو في وسط القلعة الظاهرة منه قليل إلى البر الشرقي وهو المذكور أعلاه. وعلى أن نواب الاسبتار بالمرقب لا يخفون شيئاً من مقاسمات البلاد ولا شيئاً من حقوقها الجارية بها العادة أن بيت الاسبتار يستخرجونه ولا يخفون منه شيئاً؛ وكل ما كان يستأدى من البلاد في أيدي الاسبتار قبل هذه الهدنة يطلعون نوابنا عليه ولا يخفون منه شيئاً قليلاً ولا كثيراً من ذلك.

وعلى أن السلطان يأمر نوابه وهو بحفظ مناصفات بلاد المرقب الداخلة في هذه الهدنة، من المفسدين والمتلصصين والحرامية ممن هو في حكمه وطاعته. وذلك الماستر المقدم افريز أولدكال يلزم ذلك من الجهة الأخرى. ومتى وقع – والعياذ بالله – فسخ بسبب من الأسباب، كان التجار والسفار آمنين من الجهتين إلى أن يعودوا بأموالهم، ولا يمنعون من السفر إلى أماكنهم من الجهتين، وتكون النهاية لهم أربعين يوماً. وتكون هذه الهدنة منعدة بشروطها المذكورة، مستقرة بقواعدها المسطورة للمدة المعينة، وهي: عشر سنين وعشرة أشهر كوامل، أولها مستهل رمضان سنة تسع وستين وستمائة إلى آخرها، متتابعة متوالية، لا تفسخ بموت أحد من الجهتين، ولا بعزل والٍ وقيام غيره موضعه، ولا زوال رجل غريبة، ولا حضور يد غالبة، بل يلزم كلاً من الجهتين حفظها إلى آخرها، ومن تولى بعد الآخر حفظها إلى آخرها، بالشروط المشروطة فيها أولاً وآخراً. والخط أعلاه، حجة بمقتضاه، إن شاء الله تعالى. في تاريخ كذا وكذا.

وهذه نسخة هدنة عقدت بين السلطان الملك المنصور " قلاوون " الصالحي صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية و ولده الملك الصالح " علي " ولي عهده،

وبين حكام الفرنج بعكا وما معها من بلاد سواحل الشام، في شهور سنة اثنتين وثمانين وستمائة، وهي يومئذ بأيديهم؛ وصورتها.

استقرت الهدنة بين مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدين أبي الفتح " قلاوون " الملكي الصالحي و ولده السلطان الملك الصالح علاء الدين " علي " – خلد الله تعالى سلطنتهما – وبين الحكام بمملكة عكا، وصيدا، وعثليث، وبلادها التي انعقدت عليها هذه الهدنة، وهم: " الشيخان أودهل المملكة بعكا " ، وحضرة المقدم الجليل " افريز بيفكل للورن " مقدم بيت الاسبتارية، والمرشان الأجل " افريز " كورات نائب مقدم بيت الاسبتار الآمن – لمدة عشر سنين كوامل، وعشرة أشهر، وعشرة أيام، وعشر ساعات: أولها يوم الخميس خامس ربيع الأول سنة آثنتين وثمانين وستمائة للهجرة النبوية، صلوات الله على صاحبها وسلامه،الموافق للثالث من حزيران سنةألف وخمسمائة وأربع وتسعين لغلبة الإسكندر بن فيلس اليوناني – على جميع بلاد السلطان و ولده، وهي التي في مملكتهما و تحت حكمهما وطاعتهما وما تحويه أيديهما يومئذ: من جميع الأقاليم والممالك، والقلاع، والحصون الإسلامية، وثغر دمياط، وثغر الإسكندرية المحروستين، ونسترو، وسنترية وما ينسب إليها من المواني والسواحل، وثغر فوّة، وثغر رشيد، والبلاد الحجازية، وثغر غذة المحروسة، وما معها من المواني والبلاد، والمملكة الكركية، والشوبكية وأعمالها، والصلت وأعمالها، وبصرى وأعمالها، ومملكة بلاد الخليل صلوات الله عليه وسلامه ومملكة القدس الشريف وأعمالها، وبيت لحم وأعماله وبلاده، وجميع ما هو داخل فيها ومحسوب منها، وبيت جبريل، ومملكة نابلس وأعمالها، ومملكة الأطرون وأعمالها، وعسقلان وأعمالها ومواينها وسواحلها، ومملكة يافا والرملة ومبناها، وقيسارية وميناها وسواحلها وأعمالها، وأرسوف وأعمالها، وقلعة قاقون وأعمالها وبلادها، وأعمال العوجاء وما معها من الملاحة، والفتوح السعيد وأعمالها ومزارعها، وبيسان وأعمالها وبلادها، والطور وأعماله، واللجون وأعماله، وجنين وأعمالها، وعين جالوت وأعمالها، والقيمون وأعماله وما ينسب إليه، وطبرية وبحيرتها وأعمالها وما معها، والمملكة الصفدية وما ينسب

إليها، وتبنين وهونين وما معهما من البلاد والأعمال، والشقيف المحروس المعروف يشقيف أرنون وما معه من البلاد والأعمال وما هو منسوب إليه، وبلاد الفرن وما معه خارجاً عما عين في هذه الهدنة المباركة، ونصف مدينة إسكندرونة، ونصف ضيعة مأرب بفدنهما وكرومهما وبساتينهما وحقوقهما؛ وما عدا ذلك من حقوق إسكندرونة المذكورة، يكون جميعه بحدوده وبلاده للسلطان الملك المنصور و لولده النصف، والنصف الآخر لمملكة عكا. والبقاع العزيزي وأعماله، وشعرا وأعماله، وشقيف تيرون وأعماله، والعامر جميعها " ولا يا وغيرها " ، وبانياس وأعماله وقلعة الصبية وأعمالها وما معهما وما معها من البحيرات والأعمال، وكوكب وأعمالها وما معها، وقلعة عجلون وأعمالها، ودمشق والمملكة الدمشقية – حرسها الله تعالى – وما لها من القلاع والبلاد والممالك والأعمال، وقلعة بعلبك المحروسة وما معها وأعمالها، ومملكة حمص وما لها من الأعمال والحدود، ومملكة حماة المحروسة ومدينتها وقلعتها وبلادها وحدودها، وبلاطنس وأعمالها، وصهيون وأعمالها، وبرزية وأعمالها، وفتوحات حصن الأكراد المحروس وأعماله، وصافيتا وأعمالها، و " ميعار " وأعمالها، والعريمة وأعمالها، وقدقيا وأعمالها، وحلبا وأعمالها، والقليعة وأعمالها، وحصن عكار وأعماله وبلاده، وقلعة شيزر وأعمالها، وأفاميا وأعمالها، وجبلة وأعمالها، وأبو قبيس وأعماله، والمملكة الحلبية وما هو مضاف إليها من القلاع والمدن والبلاد والحصون، وأنطاكية وأعمالها وما دخل في الفتوح المبارك، وبغراس وأعمالهان والدربساك وأعمالها، والراوندان وأعمالها، وعينتاب وأعمالها، وحارم وأعمالها، وبيرين وأعمالها، وسيح الحديد وأعماله، وقلعة نجم وأعمالها، وشقيف دركوش وأعماله، والشغر وأعماله، وبكاس وأعماله، والسويداء واعمالها، والباب وبزاعا وأعمالهما، والبيرة وأعمالها، والرحبة وأعمالها، وسلمية وأعمالها، وشميمس وأعمالها، وتدمر وأعمالها وما هو منسوب إليها، وجميع ما هو منسوب لمولانا السلطان و لولده من البلاد التي عينت في هذه الهدنة المباركة، والتي لم تعين.

و على جميع العساكر، وعلى جميع الرعايا من سائر الناس أجمعين: على اختلافهم، وتغير أنفارهم وأجناسهم وأديانهم، للقاطنين فيها، والمترددين في البر والبحر، والسهل والجبل، في الليل والنهار، يكونون آمنين مطمئنين في حالتي صدورهم وورودهم – على أنفسهم، وأموالهم، وأولادهم، وحريمهم، وبضائعهم، وغلمانهم، وأتباعهم، ومواشيهم، ودوابهم، وعلى حميع ما يتعلق بهم، وكل ما تحوي أيديهم من سائر الأشياء على اختلافها، من الحكام بمملكة عكا: وهم كفيل المملكة بها، والمقدم " افريزكليام دينا حول " مقدم بيت الديوية، والمقدم " افريز بيكوك للورن " " مقدم بيت الاسبتار " ، وافريز اهداب نائب مقدم بيت الاسبتار الآمن، ومن جميع الفرنج والإخوة، ةالفرسان الداخلين في طاعتهم وتحويه مملكتهم الساحلية، ومن حميع الفرنج على اختلافهم، الذين يسطوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة من كل واصل إليها في براً أو بحرٍ على اختلاف أجناسهم وأنفارهم، لاينال بلاد السلطان وولده، ولا حصونهما، ولا قلاعهما، ولا بلادهما ولا ضياعهما، ولا عساكرهما، ولا جيوشهما، ولا عربهما، ولا تركمانهما، ولا أكرادهما، ولا رعاياهما، على اختلاف الأنفار والأجناس، ولا ما تحويه أيديهم من المواشي والأموال والغلال وسائر الأشياء منهم غدر ولا سوء، ولا يخشون من جميعهم أمراً مكروهاً ولا إغارة، ولا تعرضاً ولا أذية.

وكذلك ما يستفتحه ويضيفه السلطان وولده على يديهما، وعلى يد نوابهما وعساكرهما: من بلاد، و حصون، وقلاع، وملك، وأعمال، وولايات، براً وبحراً، وسهلاً ووعراً.

وكذلك جميع بلاد الفرنج التي استقرت الآن عليها هذه الهدنة " من البلاد الساحلية " وهي مدينة عكا وبساتينها، وأراضيها وطواحينها، وما يختص بها من كرومها، وما لها من حقوق حولها، وما تقرر لها من بلاد في هذه الهدنة " وعدتها بما فيها من مزارع ثلاثة وسبعون ناحية خاصاً للفرنج " وهي: البصة ومزرعتها، مجدل، حمصين رأس عبده، المنواث ومزرعتها، الكابرة ومزرعتها، نصف وفيه جبعون، كفر بردى ومزرعتها، كوكب عمقا ومزرعتها، المونية، كفر ياسيف ومزرعتها، توسيان، مكر حرسين ومزرعتها، الحديدة، الغياضة، العطوانية، مرتوقا الحارثية

ثمرا الطرة، الريب، البابوحية ومزرعتها، العرج ومزرعتها، المزرعة السميرية البيضاء، دعوق والطاحون، كردايه والطاحون، حدرول، تل النحل، الغار، الرخ والمجدل، تل كيسان، البروة، الرامون، ساسا السياسية، الشبكية، المشرقية، العطرانية، المنيير، اكليل، هرياسيف العربية، هوشة، الزراعة الجديدة الشمالية، الرحاحيه، قسطه، كفرنبتل، الدويرات، ماصوب، متماس، العباسية، سيعانة، عين الملك، المنصورة، الرصيفة، حتانا، سرطا، كفرتا، أرض الزراعة، رولس، صغد عدي، سفرعم، هذه البلاد المذكورة " تكون " خاصاً للفرنج. حيفا والكروم والبساتين التي لها جميعها، والقصر وهو الحوش وكفر توثا، وهي: الكنيسة، والطيرة والسعبة، والسعادة، والمعر، والباجور، وسومرا. تكون حيفا وهذه البلاد المذكورة بحدودها وأراضيها خاصة للفرنج. وكذلك قرية " مارينا ناره " بها، المعروفة بها وكرومها وغروسها يكون خاصا للفرنج. ودير السياح، ودير مارلياس بأراضيها المعروفة بهما وكرومهما وبساتينهما يكون خاصاً للفرنج. وعلى أن يكون للسلطان الملك المنصور ولولده الصالح، من بلاد الكرمل وهي: الدالية، ودونه، وضريبة الريح، والكرك، ومعليا، والرامون، ولوينه، وبسور، وخربة يونس، وخربة خميس، ورشميا، ودوانه، يكون خاصاً للفرنج في بلاد أخرى ذكرها. وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها للسلطان ولولده بكاملها.

وتكون جميع هذه البلاد العكاوية وما عين في هذه الهدنة المباركة من البلاد الساحلية آمنة من السلطان الملك المنصور وولده الملك الصالح، وآمنة من عساكرهما وجنودهما ومن خدمهما، وتكون هذه البلاد المشروحة أعلاه، الداخلة في هذه الهدنة المباركة: الخاص بها، وما هو مناصفة – مطمئنة هي ورعاياها، وسائر أجناس الناس فيها، والقاطنين بها، والمترددين إليها على اختلاف أجناسهم وأديانهم، والمترددين إليها من جميع بلاد الفرنجة والسفار، والمترددين منها وإليها في بر وبحر، في ليل أو نهار، سهل وجبل، آمنين على النفوس والأموال والأولاد، والمراكب والدواب، وجميع ما يتعلق بهم، وكل ما تحويه أيديهم من الأشياء على اختلافها، من السلطان وولده، وجميع من هو تحت طاعتهما، لا

ينالهم ولا ينال هذه البلاد المذكورة التي انعقدت عليها الهدنة سوء ولا ضرر ولا إغارة، ولا ينال إحدى الجهتين المذكورتين: الإسلامية والفرنجية من الأخرى ضرر ولا أذية، ويكون ما تقرر أنه يكون خاصاً للفرنج حسب ما بين أعلاه لهم، وما تقرر أن يكون للسلطان ولولده خاصاً لهما، والمناصفات تكون كما شرح. ولا يكون للفرنج من البلاد والمناصفات إلا ما شرح في هذه الهدنة وعين فيها من البلاد.

وعلى أن الفرنج لا يجددون في غير عكا وعثليث وصيدا: مما هو خارج عن أسوار هذه الجهات الثلاث المذكورات، لا قلعة، ولا برجاً، ولا حصناً، ولا مستجداً.

وعلى أنه متى هرب أحد - كائناً من كان - من بلاد السلطان وولده إلى عكا والبلاد الساحلية المعينة في هذه الهدنة، وقصد الدخول في دين النصرانية وتنصر بإرادته، يرد جميع ما يروح معه ويبقى عرياناً، وإن كان ما يقصد الدخول في دين النصرانية ولا ينتصر، رد إلى أبوابهما العالية بجميع ما يروح معه، بشفاعة ثقة بعد أن يعطى الأمان. وكذلك إذا حضر أحد من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في الهدنة، وقصد الدخول في دين الإسلام وأسلم بإرادته، يرد جميع ما معه ويبقى عرياناً، وإن كان ما يقصد الدخول في دين الأسلام ولا يسلم، يرد إلى الحكام بعكا، والمقدمين بجميع ما يروح معه بشفاعة بعد أن يعطى له الأمان.

وعلى أن الممنوعات المعروف منعها قديماً تستقر على قاعدة المنع من الجهتين. ومتى وجد مع أحد من تجار بلاد السلطان وولده من المسلمين وغيرهم على اختلاف أديانهم وأجناسهم شيء من الممنوعات بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، مثل عدة السلاح وغيره، يعاد على صاحبه الذي اشتراه منه، ويعاد إليه ثمنه، ويرد ولا يؤخذ ماله استهلاكاً، ولا يؤذى. وللسلطان ولولده أن يفتصلا في من يخرج من بلادهما من رعيتهما، على اختلاف أديانهم وأجناسهم، بشيء من الممنوعات. وكذلك كفيل المملكة بعكا والمقدمون لهم أن يفتصلوا في رعيتهم الذين يخرجون بالممنوعات من بلادهم الداخلة في هذه الهدنة.

ومتى أخذت أخيذة من الجانبين، أو قتل قتيل من الجانبين، على أي وجه كان -

والعياذ بالله – ردت الأخيذة بعينها إن كانت موجودة أو قيمتها إن كانت مفقودة، والقتيل يكون العوض عنه بنظيره من جنسه: فارس بفارس، وبركيل ببركيل، وتاجر بتاجر، وراجل براجل، وفلاح بفلاح، فإن خفي أمر القتيل والأخيذة، كانت المهلة في الكشف أربعين يوماً؛ فإن ظهرت الأخيذة أو تعين أمر المقتول، ردت الأخيذة بعينها ويكون العوض عن القتيل بنظيره، وإن لم تظهر كانت اليمين على والي المكان المدعى عليه، وثلاثة نفر يقع اختيار المدعي عليهم، من تلك الولاية.
وإن امتنع الوالي عن اليمين حلف من الجهة المدعية ثلاثة نفر تختارهم الجهةالأخرى وأخذ قيمتها. وإن لم ينصف الوالي ولا رد المال، أنهى المدعي أمره إلى الحكام من الجهتين، وتكون المهلة بعد الإنهاء أربعين يوماً، ويلزم الولاة من الجهتين بالوفاء بهذا الشرط.
ومتى أخفوا قتيلاً أو أخيذة، أو قدروا على أخذ حق ولم يأخذه كل واحد في ولايته، يتعين على الذي يوليه من ملوك الجهتين إقامة السياسة فيه: من أخذ الروح والمال والشنق، والإنكار التام على من يتعين عليه الإنكار إذا فعل ذلك في ولايته وأرضه.

وإن هرب أحداً بمال واعترف ببعضه وأنكر بعض ما يدعى به عليه، لزمه أن يحلف أنه لم يأخذ سوى ما رده؛ فإن لم يقنع المدعي بيمن الهارب،حلف والي تلك الولاية أنه لم يطلع على أنه وصل معه غير ما رده؛ وإن أنكر أنه لم يصل معه شيء أصلا، آستحلف الهارب أنه لم يصل معه للمدعي شيء.
وعلى أنه إذا انكسر مركب من مراكب تجار السلطان وولده التي انعقدت عليها الهدنة، ورعيتهما من المسلمين وغيرهم: على اختلاف أجناسهم وأديانهم، في ميناء عكا وسواحلها والبلاد الساحلية التي انعقدت عليها الهدنة، كان كل من فيها آمناً على الأنفس والأموال والأتباع والمتاجر؛ فإن وجد أصحاب هذه المراكب التي تتكسر تسلم مراكبهم وأموالهم " إليهم " ؛ وإن عدموا بموت أو غرق أو غيبة، فيحتفظ بموجودهم ويسلم لنواب السلطان وولده. وكذلك المراكب المتوجه في هذه البلاد الساحلية المنعقد عليها الهدنة للفرنج، يجري لها مثل ذلك في بلاد السلطان

وولده، ويحفظ بموجودها إن لم يكن صاحبها حاضراً إلى أن يسلم الكفيل المملكة بعكا أو المقدم.

ومتى توفي أحد من التجار الصادرين والواردين، على اختلاف أجناسهم وأديانهم، من بلاد السلطان وولده، في عكا وصيدا وعثليث، والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة على اختلاف أجناسهم وأديانهم " فيحتفظ على ماله حتى يسلم لنواب السلطان وولده " ، وإذا توفي أحد في البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة يحتفظ على ماله إلى حين يسلم إلى كفيل المملكة بعكا والمقدمين.

وعلى أن شواني السلطان وولده إذا عمرت وخرجت لاتتعرض بأذية إلى البلاد الساحلية التي انعقدت عليها هذه الهدنة؛ ومتى قصدت الشواني المذكورة جهة غير هذه الجهات، وكان صاحب تلك الجهة معاهداً للحكام بمملكة عكا، فلا تدخل إلى البلاد التي انعقدت عليها هذه الهدنة ولا تتزود منها؛ وإن لم يكن صاحب تلك الجهة التي تقصدها الشواني المنصورة معاهداً للحكام بمملكة عكا والبلاد التي انعقدت عليها الهدنة، فلها أن تدخل إلى بلادها وتتزود منها. وإن انكسر شيء من هذه الشواني – والعياذ بالله – في مينا من مواني البلاد التي انعقدت عليها الهدنة وسواحلها: فإن كانت قاصدة " إلى " من لها مع مملكة عكا ومقدمي بيوتها عهد، فيلزم المملكة بعكا ومقدمي البيوت بحفظها، وتمكين رجالها من الزوادة وإصلاح ما انكسر منها، والعود إلى البلاد الإسلامية، " ويبطل حركة ما ينكسر " منها – والعياذ بالله – أو يرميه البحر. هذا إذا كانت قاصدة من له مع مملكة عكا ومقدميها عهد، فإن " قصدت من " لم يكن لها معهم عهد، فلها أن تتزود وتعمر رجالها من البلاد المنعقدة عليها هذه الهدنة، وتتوجه إلى البلاد المرسوم لها بقصدها، ويعتمد هذا الفضل من الجهتين.

وعلى أن متى تحرك أحد من ملوك " البحر " الفرنجة وغيرهم من جوا البحر لقصد الحضور لمضرة السلطان وولده في بلادهما المتفقة عليها هذه الهدنة، فليلزم نائب المملكة والمقدمين بعكا، أن يعرفوا السلطان وولده بحركتهم قبل وصولهم إلى البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة بمدة شهرين، وإن وصلوا بعد انقضاء مدة شهرين، فيكون كفيل المملكة بعكا، والمقدمون بريئين من عهدة اليمين في هذا

الفصل. ومتى تحرك عدو من جهة البر من التتار وغيرهم، فأي من سبق الخبر إليه من الجهتين يعرف الجهة الأخرى بما سبق الخبر إليه من أمرهم.
وعلى أنه إن قصد البلاد الشامية – والعياذ بالله – عدو من التتار وغيرهم في البر، وانحازت العساكر الإسلامية من قدام العدو،ووصل العدو إلى القرب من البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة وقصدوها بمضرة، فيكتب إلى " كفيل " المملكة بعكا، والمقدمين بها أن يدرؤوا عن بيوتهم ورعيتهم وبلادهم بما تصل قدرتهم إليه. وأن حصل – والعياذ بالله – جفل. من البلاد الإسلامية إلىالساحلية الداخلة في هذه الهدنة، فيلزم كفيل المملكة بعكا، والمقدمين بها حفظهم والدفع عنهم ومنع من يقصدهم بضرر، ويكونون آمنين مطمئنين بما معهم.

وعلى أن النائب بمملكة عكا والمقدمين بها يوصون في سائر البلاد الساحلية التي وقعت الهدنة عليها، أنهم لا يمكنون حرامية البحر من الزوادة من عندهم ولا من حمل ماء، وإن ظفروا بأحد منهم يمسكونه، وإن كانوا يبيعون عندهم بضائع فيمسكها كفيل المملكة بعكا والمقدمون حتى يظهر صاحبها وتسلم إليه. وكذلك يعتمد السلطان وولده " في أمر الحرامية هذا الاعتماد " وعلى أن الرهائن بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، كل من عليه منهم مبلغ أو غلة، فيحلف والي ذلك المكان الذي منه الرهينة، ويحلف المباشر والكاتب في وقت أخذ هذا الشخص رهينة أنه عليه كذا وكذا: من دراهم أو غلة أو بقرٍ أو غيره، فإذا حلف الوالي والمباشر والكاتب قدّام نائب السلطان وولده على ذلك يقوم أهل الرهينة عنه بما للفرنج عليه ويطلقونه. وأما الرهائن الذين أخذوا منسوبين إلى الجفل والاختشاء أنهم لا يهربون إلى بلاد الإسلام ويمتنع الولاة والمباشرون من اليمين عليهم، وعلى أن لا يجدد على التجار المسافرين: الصادرين والواردين من الجهتين حق لم تجر به عادة، ويجروا على عوائدهم المستمرة إلى آخر وقت، وتؤخذ منهم الحقوق على العادة المستمرة، ولا يجدد عليهم رسم ولا حق لم تجر به عادة. وكل مكان عرف باستخراج الحق فيه يستخرج بذلك المكان من غير زيادة من الجهتين، في حالتي سفرهم وإقامتهم، ويكون التجار والسفار والمترددون

آمنين مطمئنين مخفرين من الجهتين في حالتي سفرهم وإقامتهم، وصدورهم وورودهم بما صحبتهم من الأصناف والبضائع التي هي غير ممنوعة.

وعلى أن ينادى في البلاد الإسلامية والبلاد الفرنجية الداخلة في هذه الهدنة: أنه من كان من فلاحي بلاد المسلمين يعود إلى بلاد المسلمين مسلماً أو نصرانياً، وكذلك من كان من فلاحي بلاد الفرنج مسلماً كان أو نصرانياً، معروفاً قرارياً من الجهتين، ومن لم يعد بعد المنادة يطرد من الجهتين، ولا يمكن فلاحو بلاد المسلمين من المقام في بلاد الفرنج المنعقد عليها هذه الهدنة، ولا فلاحو بلاد الفرنج من المقام في بلاد المسلمين التي انعقدت عليها هذه الهدنة؛ ويكون عود الفلاح من الجهة إلى الجهة الأخرى بأمان.

وعلى أن تكون كنيسة الناصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت إليها لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب: كبيرهم وصغيرهم على اختلاف أجناسهم وأنفارهم: من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، ويصلي بالكنيسة الاقساء والرهبان، وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة، ويكونون آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة. وإذا نقبت الحجارة التي بالكنيسة المذكورة ترمى براً، ولا يحط حجر منها على حجر لأجل بنايته، ولا يتعرض إلى الأقساء والرهبان، وذلك على وجه الهبة لأجل زوار دين الصليب بغير حقّ.

ويلزم السلطان وولده حفظ هذه البلاد المشروحة التي انعقدت عليها الهدنة من نفسهما وعساكرهما وجنودهما، ومن جميع المتجرمة والمتلصيصين والمفسدين: ممن هو داخل تحت حكمهما وطاعتهما. ويلزم كفيل المملكة بعكا والمقدمين بها حفظ هذه البلاد الإسلامية المشروحة التي انعقدت عليها الهدنة، من نفسهم وعساكرهم وجنودهم، وجميع المتجرمة والمتلصيصن والمفسدين: ممن هو داخل تحت حكمهم وطاعتهم بالمملكة الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، ويلزم كفيل المملكة بعكا، ومقدمي البيوت بها الحكام بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة – القيام بما تضمنته هذه الهدنة من الشروط جميعها، شرطاً شرطاً، وفصلاً

فصلاً، والعمل بأحكامها، والوقوف مع شروطها إلى انقضاء مدتها. ويفي كل منهم بما حلف به من الأيمان المؤكدة: من أنه يفي بجميع هذه الهدنة على ما حلفوا به.

تستمر هذه الهدنة المباركة بين السلطان وولده وأولادهما وأولاد أولادهم، وبين الحكام بمملكة عكا، وصيدا، وعثليث؛ وهم الشيخان " أودرا " المقدمون المذكورون فلان وفلان إلى آخرها، لا تتغير بموت ملوك أحد الجهتين، ولا بتغير مقدم ولا تولية غيره، بل تستمر على حالها إلى آخرها وانقضائها، بشروطها المحدودة، وقواعدها المقررة، كاملة تامة، ومتى انقضت هذه الهدنة المباركة، أو وقع – العياذ بالله – فسخ، كانت المهلة غفي ذلك أربعين من الجهتين. وينادى برجوع كل أحد إلى وطنه بعد الإشهاد، ليعود الناس إلى مواطنهم آمنين مطمئنين، ولا يمنعون من السفر من الجهتين، ولا تبطل بعزل أحد من الجهتين، وتشيد أحكامها متتابعة متوالية، بالسنين والشهور والأيام إلى انقضائها، ويلزم المتولي حفظها والعمل بشروطها وفصولها، وفروعها وأصولها، ويجري الحال فيها على أجمل الحالات إلى آخرها. وعلى جميع ذلك وقع الرضا والصفح والاتفاق، وحلف عليها من الجهتين، والله الموفق.

وهذه نسخة هدنة، عقدت بين الملك الأشرف، صلاح الدين " خليل " ابن الملك المنصور سيف الدين " قلاوون " صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية، وبين دون حاكم الريد أرغون، صاحب برشلونة من بلاد الأندلس، على يد رسله: أخويه وصهريه الآتي ذكرهم، في صفر سنة اثنتين وتسعين وستمائة؛ وهي: استقرت المودة والمصادقة بين الملك الأشرف، وبين حضرة الملك الجليل، المكرم، الخطير، الباسل، الأسد، الضرغام، المفخم، المبجل " دون " حاكم الريد أرغون، وأخويه دون ولذريك، ودون بيدرو، وبين صهريه اللذين طلب الرسولان الواصلان إلى الأبواب الشريفة عن مرسلهما الملك دون حاكم أن يكونا داخلين في هذه الهدنة والمصادقة، وأن يلتزم الملك دون حاكم عنهما بكل ما التزم به عن نفسه، ويتدرك أمرهما، وهما الملك الجليل، المكرم، الخطير الباسل، الأسد، الضرغام، دون شانجه، ملك قشتالة، وطليطلة، وليون، وبلنسية، وأشبيلية،

وقرطبة، ومرسية، وجيان، والغرب، الكفيل بمملكة أرغون وبرتقال – والملك الجليل دون أتفونش ملك برتقال، من تاريخ يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة اثنتين وتسعين وستمائة، الموافق لثلاث بقين من جنير سنة ألف ومائتين واثنتين وتسعولانا السيد المسيح عليه السلام، وذلك بحضور رسولي الملك دون حاكم، وهما: المحتشم الكبير " روصوديمار موند " الحاكم، عن الملك دون حاكم بلنسية، ورفيقه المحتشم العمدة " ديمون المان قراري " برجلونه، الواصلين بكتاب الملك دون حاكم، المختوم بختم الملك المذكور، المقتضي معناه أنه حملهما جميعاً أحوالهم ومطلوبهم، وسأل أن يقوما فيما يقولانه عنه، فكان مضمون مشافهتهما وسؤالهما تقرير قواعد الصلح والمودة والصداقة، والشروط التي يشترطها الملك الأشرف على الملك دون حاكم، وأنه يلتزم بجميع هذه الشروط الآتي ذكرها، ويحلف الملك المذكور عليها هو وأخواه وصهراه المذكورون، ووضع الرسولان المذكوران خطوطهما بجميع الفصول الآتي ذكرها، بأمره ومرسومه، وأن الملك دون حاكم وأخويه وصهريه يلتزمون بها؛ وهي: استقرار المودة والمصادقة من التاريخ المقدم ذكره، على ممر السنين والأعوام، وتعاقب الليالي والأيام: براً وبحراً، سهلاً ووعراً، قرباً وبعداً.

وعلى أن تكون بلاد السلطان الملك الأشرف، وقلاعه، وحصونه، وثغوره، وممالكه، وموانى بلاده وسواحلها، وبرورها، وجميع أقاليمها ومدنها، وكل ما هو داخل في مملكته، ومحسوب منها، ومنسوب إليها: من سائر الأقاليم الرومية، والعراقية، والمشرقية، والشامية، والحلبية، والفراتية، واليمنية، والحجازية، والديار المصرية، والغرب.

وحد هذه البلاد والأقاليم وموانيها وسواحلها من البر الشامي من القسطنطينية والبلاد الرومية الساحلية، وهي: من طرابلس الغرب، وسواحل برقة، والإسكندرية، ودمياط، والطينة، وقطيا، وغزة، وعسقلان، ويافا، وأرسوف، وقيسارية، وعثليث، وحيفا، وعكا، وصور، وصيدا، وبيروت، وجبيل، والبيرون، وأنفة طرابلس الشام، وأنطرسوس، ومرقية، والمرقب، وساحل المرقب: بانياس

وغيرها، وجبلة، واللاذقية، والسويدية وجميع المواني والبرور إلى ثغر دمياط وبحيرة تنيس.

وحدها من البر الغربي: من تونس وإقليم إفريقية وبلادها وموانيها، وطرابلس الغرب وثغورها، وبلادها وموانيها، وبرقة وثغورها وبلادها وموانيها، إلى ثغر الإسكندرية ورشيد وبحيرة تنيس وسواحلها وبلادها وموانيها.

وما تحويه هذه البلاد والممالك المذكورة والتي لم تذكر، والمدائن والثغور والسواحل والمواني والطرقات في البر والبحر، والصدور والورود، والمقام والسفر، من عساكر وجنود وتركمان، وأكراد، وعربان، ورعايا، وتجار، وشواني، ومراكب، وسفن وأموال، ومواش، على اختلاف الأديان والأنفار والأجناس، وما تحويه الأيدي، من سائر أصناف الأموال والأسلحة والأمتعة والبضائع والمتاجر، قليلاً كان او كثيراً، قريباً كان أو بعيداً، براً كان أو بحراً – آمنة على الأنفس، والأرواح، والأموال، والحريم، والأولاد من الملك دون حاكم ومن أخويه وصهريه المذكورين، ومن أولادهم، وفرسانهم، وخيالتهم، ومعاهديهم، وعمائرهم، ورجالهم، وكل من يتعلق بهم، وكذلك كل ما سيفتحه الله تعالى على يد الملك الأشرف، وعلى يد أولاده وعساكره وجيوشه، من القلاع والحصون، والبلاد والأقاليم، فإنه يجري عليه هذا الحكم.

وعلى أن تكون بلاد الملك دون حاكم بلاد أخويه وصهريه وممالكه المذكورة في هذه الهدنة، وهي: أرغون وأعمالها وبلادها: صقلية وجزيرتها وبلادها وأعمالها، بربولية وأعمالها وبلادها، جزيرة مالقة، وقوصرة وبلادها وأعمالها، وميورقة ويابسة وبلادها، وأرسويار وأعمالها، وما سيفتحه الملك دون حاكم من بلاد أعدائه الفرنج المجاورين له بتلك الأقاليم – آمنين من الملك الأشرف وأولاده، وعساكره وجيوشه، وشوانيه وعمائره، هي ومن فيها من فرسان وخيالة ورعايا، وأهل بلاده آمنين مطمئنين على الأنفس والأموال، والحريم والأولاد، في البر والبحر، والصدور والورود.

وعلى أن الملك دون حاكم هو وأخواه وصهراه أصدقاء من يصادق الملك الأشرف

وأولاده، وأعداء من يعاديهم من سائر الملوك الفرنجية وغير الملوك الفرنجية.

وإن قصد الباب بRomية، أو ملك من ملوك الفرنج: متوجاً كان أو غير متوج، كبيراً كان أو صغيراً، أو من الجنوية، أو من البنادقة أو من سائر الأجناس على اختلاف الفرنج والروم، والبيوت: بيت الإخوة الديوية، والاسبتارية، والروم، وسائر أجناس النصارى - مضرة بلاد الملك الأشرف، بمحاربة أو أذية، يمنعهم الملك دون حاكم هو وأخواه وصهراه ويردونهم، ويعمرون شوانيهم ومراكبهم، ويقصدون بلادهم، ويشغلونهم بنفوسهم عن قصد بلاد الملك الأشرف وموانيه وسواحله وثغوره المذكورة، ويقاتلونهم في البر والبحر بشوانيهم وعمائرهم، وفرسانهم وخيالتهم ورجالتهم.

وعلى أنه متى خرج أحد من معاهدي الملك الأشرف من الفرنج عن شروط الهدنة المستقرة بينه وبينهم، ووقع ما يوجب فسخ الهدنة، لايعينهم الملك دون حاكم ولا أحد من أخويه ولا صهريه، ولا خيالتهم، ولا فرسانهم، ولا أهل بلادهم، بخيلٍ ولا خيالةٍ، ولا سلاح ولا رجالة، ولا مال ولا نجدة، ولا ميرة، ولا مراكب ولا شواني ولا غير ذلك.

وعلى أنه متى طلب الباب برومية، وملوك الفرنج، والروم، والتتار، وغيرهم من الملك دون حاكم أو أخويه أو صهريه أو من بلادهم، إنجاداً، أو معاونة: بخيالة، أو رجالة، أو مال، أو مراكب، أو سلاح - لا يوافقهم على شيء من ذلك، لا في سر ولا في جهر، ولا يعين أحداً منهم ولا يوافقه على ذلك. ومتى اطلعوا على أن أحداً منهم يقصد بلاد الملك الأشرف لمحاربته أو لمضرته بشيء، يعرف الملك الأشرف بخبرهم، وبالجهة التي اتفقوا على قصدها في أقرب وقت، قبل " حركتهم " من بلادهم، ولا يخفيه شيئاً من ذلك.

وعلى أن متى انكسر مركب من المراكب الإسلامية في بلاد الملك دون حاكم، أو بلاد أخويه أو بلاد صهريه، " فعليهم " أن يخفروهم، ويحفظوا مراكبهم وأموالهم، ويساعدوهم على العمارة مراكبهم، ويجهزوهم وأموالهم وبضائعهم إلى بلاد الملك الأشرف. وكذلك إذا انكسرت مركب من بلاد دون حاكم، وبلاد أخويه وصهريه، ومعاهديه في بلاد الملك الأشرف، يكون لهم الحكم المذكور أعلاه.

وعلى أنه متى مات أحد من تجار المسلمين من نصارى بلاد الأشرف، أو ذمة أهل بلاده، في بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهريه وأولاده ومعاهديه، لايعارضوهم في أموالهم ولا في بضائعهم، ويحمل مالهم وموجودهم إلى بلاد الملك الأشرف ليفعل فيه ما يختار. وكذلك من يموت في بلاد الملك الأشرف من أهل مملكة الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهريه ومعاهديهم، فلهم هذا الحكم المذكور أعلاه.

وعلى أنه متى عبر بلاد الملك دون حاكم أو بلاد أخويه أو صهريه أو معاهديه رسل من بلاد الملك الأشرف قاصدين جهة من الجهات القريبة أو البعيدة، صادرين أو واردين، أو رماهم الريح في " بلاده " ، تكون الرسل وغلمانهم وأتباعهم، ومن يصل معهم من رسل الملوك أو غيرهم – آمنين محفوظين في الأنفس والأموال، ويجهزهم إلى بلاد الملك الأشرف.

وعلى أن الملك دون حاكم وأخويه وصهريه متى جرى من أحد من بلادهم قضية توجب فسخ المهادنة، كان على كل من الملك دون حاكم وأخويه وصهريه طلب من يفعل ذلك وفعل الواجب فيه.

وعلى أن الملك دون حاكم وأخويه وصهريه يفسح كل منهم لأهل بلاده وغيرهم من الفرنج، أنهم يجلبون إلى الثغور الإسلامية، الحديد والبياض والخشب وغير ذلك.

وعلى أنه متى أسر أحد من المسلمين في البر أو البحر، من مبدأ تاريخ هذه المهادنة من سائر البلاد: شرقها وغربها، وأقصاها وأدناها، ووصلوا به إلى بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهريه ليبيعوه بها، فيلزم الملك دون حاكم وأخويه وصهريه فك أسره وحمله إلى بلاد الملك الأشرف.

وعلى أنه متى كان بين تجار المسلمين، وبين تجار الملك دون حاكم وأخويه وصهريه معاملة في بضائعهم، وهم في بلاد الملك الأشرف كان أمرهم محمولاً على موجب الشرع الشريف.

وعلى أنه متى ركب أحد من المسلمين في مراكب بلاد الملك دون حاكم وأخويه وصهريه، وحمل بضاعته معهم وعدمت البضاعة، كان الملك دون حاكم وعلى

أخويه وصهريه ردها إن كانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة.

وعلى أنه متى هرب أحد من بلاد الملك الداخلة في هذه المهادنة إلى بلاد الملك دون حاكم وأخويه وصهريه، أو توجه ببضاعة لغيره وأقام بتلك البلاد، كان على الملك دون حاكم وعلى أخويه وصهريه رد الهارب أو المقيم ببضاعة غيره، والمال معه إلى بلاد الملك الأشرف ما دام " المذكور " مسلماً؛ وإن تنصر، يرد المال الذي معه خاصة. ولمملكة الملك دون حاكم وأخويه وصهريه فيمن يهرب من بلادهم إلى بلاد الملك الأشرف هذا الحكم المذكور أعلاه.

وعلى أنه إذا وصل من بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهريه ومعاهديه من الفرنج من يقصد زيارة القدس الشريف، وعلى يده كتاب الملك دون حاكم وختمه إلى نائب الملك دون حاكم وختمه إلى نائب الملك الأشرف بالقدس الشريف، يفسح له في الزيارة مسموحاً بالحق ليقضي زيارته ويعود إلى بلاده آمناً مطمئناً في نفسه وماله، رجلاً كان أو امرأة، بحيث إن الملك دون حاكم لا يكتب لأحد من أعدائه ولا من أعداء الملك الأشرف في أمر الزيادة بشيء.

وعلى أن الملك دون حاكم يحرس جميع بلاد الملك الأشرف هو وأخواه وصهراه من كل مضرة، ويجتهد كل منهم في أن أحداً من أعداء الملك الأشرف لا يصل إلى بلاد الملك الأشرف، ولا ينجدهم على مضرة بلاد الملك الأشرف ولا رعاياه، وأنه يساعد الملك الأشرف في البر والبحر بكل ما يشتهيه ويختاره.

وعلى أن الحقوق الواجبة على من يصدر ويرد ويتردد من بلاد الملك دون حاكم وأخويه وصهريه، إلى ثغري الإسكندرية ودمياط، والثغور الإسلامية، والممالك السلطانية، بسائر أصناف البضائع والمتاجر على اختلافها، تستمر على حكم الضرائب المستقرة في الديوان المعمور إلى آخر وقت، ولا يحدث عليهم فيها حادث. وكذلك يجري الحكم على من يتردد من البلاد السلطانية إلى بلاد الملك دون حاكم وأخويه وصهريه.

تستمر هذه المودة والمصادقة على حكم هذه الشروط المشروحة أعلاه بين الجهات على الدوام والاستمرار، وتجري أحكامها وقواعدها على أجمل الاستقرار؛ فإن الممالك بها قد صارت مملكة واحدة وشيئاً واحداً؛ لا تنتقض بموت أحد من

الجانبين، ولا بعزل والٍ وتولية غيره، بل تؤيد أحكامها، وتدوم أيامها، وشهورها وأعوامها. وعلى ذلك انتظمت واستقرت في التاريخ المذكور أعلاه، وهو كذا وكذا، والله الموفق بكرمه إن شاء الله تعالى.

قلت: و هذه النسخ الخمس المتقدمة الذكر نقلتها من تذكرة محمد بن المكرم، أحد كتاب الإنشاء بالدولة المنصورية " قلاوون " المسماة: " تذكرة اللبيب، و نزهة الأديب " من نسخة بخطه، ذكر فيها أن النسخة الأولى منها كتبها بخطه على مدينة صفد. و ليس منها ما هو حسن الترتيب، رائق الألفاظ، بهج المعاني، بليغ المقاصد، غير النسخة الأخيرة المعقودة بين الملك الأشرف وبين الملك دون حاكم. أما سائر النسخ المتقدمة فإنها مبذلة الألفاظ، غيررائقة الترتيب، لا يصدر مثلها من كاتب عنده أدنى ممارسة لصناعة الكلام. و العجب من صدور ذلك في زمن " الظاهر بيبرس " و " المنصور قلاوون " و هما من عظماء الملوك و كتابة الإنشاء يومئذ بيد بني عبد الظاهر الذين هم بيت الفصاحة ورؤوس أرباب البلاغة!!! ولعل ذلك إنما وقع، لأن الفرنج كانوا مجاورين للمسلمين يومئذ ببلاد الشام، فيقع الاتفاق والتراضي بين الجهتين على فصل فصل، فيكتبه كاتب من كل جهة من جهتي المسلمين والفرنج بألفاظ مبتذلة غير رائقة، طلباً للسرعة، إلى أن ينتهي بهم الحال في الاتفاق التراضي إلى آخر فصول الهدنة، فيكتبها كاتب الملك المسلم على صورة ما جرى في المسودة، ليطابق ما كتب به كاتب الفرنج؛ إذ لو عدل فيها كاتب السلطان إلى الترتيب، وتحسين الألفاظ وبلاغة التركيب، لاختل الحال فيها عما وافق عليه كاتب الفرنج أولاً، فينكرونه حينئذ، ويرون أنه غير ما وقع عليه الاتفاق لقصورهم في اللغة العربية، فيحتاج الكاتب إلى ابقاء الحال على ما توافق عليه الكاتبان في المسودة. وبالجملة فإنما ذكرت النسخ المذكورة – على سخافة لفظها، وعدم انسجام ترتيبها – لاشتمالها على الفصول التي جرى فيها الاتفاق فيما تقدم من الزمان، ليستمد منها الكاتب ما لعله لا يحضر بباله من مقاصد المهادنات، أغنانا الله تعالى عن الحاجة إليها.

واعلم أنه قد جرت العادة، أنه إذا كتبت الهدنة، كتب قرينها يمين يحلف بها

السلطان أو نائبه القائم بعقد الهدنة، على التوفية بفصولها وشروطها، ويمين يحلف عليها القائم عن الملك الكافر بعقد الهدنة، ممن يأذن له في عقدها عنه، بكتاب يصدر عنه بذلك، أو تجهز نسختها إلى الملك الكافر أن يحلف عليها، ويكتب خطه بذلك، وتعاد إلى الأبواب السلطانية.

المذهب الثالث أن تفتتح المهادنة بخطبة مبتدأة بالحمد لله

وعلى هذا بنا صاحب " مواد البيان " أمره في كتابة الهدنة، حيث قال: والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على الهداية إلى دين الإسلام الذي أذل كل دين وأعز، وخذل كل شرع ونصره، وأخفى كل مذهب وأظهره، والتوغل في توحيده، وتقديسه وتمجيده، والثناء عليه بآلائه، والصلاة على خير أنبيائه، محمد صلى الله عليه وسلم. قلت: و لم يأت بصورة هدنة منتظمة على هذا الترتيب، بل أشار إلى كيفية عملها. ثم قال: و البليغ يكتفي بقريحته في ترتيب هذه المعاني إذا دفع الإنشاء فيها،إن شاء الله تعالى. ولم أقف لغيره على صورة هدنة مفتتحة بالتحميد، ولايخفى أن الابتداء به في كل مهم من العهود وجلائل الولايات ونحو هو المعمول عليه في زماننا.

الطرف الثاني فيما يشارك فيه ملوك الكفر ملوك الإسلام في كتابة نسخ من دواوينهم

اعلم أن الغالب في الهدن الواقعة بين ملوك الديار المصرية وبين ملوك الكفر أن تكتب نسخة تخلد بديوان الإنشاء بالديار المصرية، ونسخة تجهز إلى الملك المهادن. وربما كتبت نسخة من ديوانه مفتتحة بيمين.

وهذه نسخة هدنة وردت من جهة الأشكري، صاحب القسطنطينية في شهر

رمضان سنة ثمانين وستمائة؛ مؤرخة بتاريخ موافق لأواخر المحرم من السنة المذكورة، فعربت فكانت نسختها على ما ذكره ابن مكرم في " تذكرته " :

إذ قد أراد السلطان العظيم، النسيب، العالي، العزيز، الكبير الجنس، الملك،المنصور، سيف الدين " قلاوون " صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب، أن بينه وبين مملكتي محبة فمملكتي تؤثر ذلك، وتختار أن يكون بينها وبين عز سلطانه محبة. ولهذا وجب أن يتوسط هذا الأمر يمين واتفاق:لتدوم المحبة التي بهذه الصورة فيما بين مملكتي وعز سلطانه ثابتة بلا تشويش. فمملكتي " من " هذا اليوم، وهو يوم الخميس الثامن من شهر أيار من التاريخ " الرومي " التابع لسنة ستة آلاف وسبعمائة وتسع وثمانين لآدم – تحلف بأنا جيلا الله المقدسة،والصليب المكرم المحيى، أن مملكتي تكون حافظة للسلطان العظيم، النسيب،العالي، العزيز، الكبر الجنس، سيف الدين " قلاوون " صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب، ولولده ولوراث ملك عز سلطانه: محبة مستقيمة، وصادقة كاملة نقية، ولايحرك ملكي أبداً على عز سلطانه حرباً،أتعلى بلاده ولا على قلاعها، ولا على عساكره، ولا يتحرك ملكي أبداً على حروبه،بحيث إن هذا السلطان العظيم، النسيب،العالي،العزيز،الكبير الجنس،الملك المنصور سيف الدين " قلاوون " صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب، يحفظ مثل ذلك لمملكتي ولولد مملكتي الحبيب " الكمينوس، الانجالوس، الدوقس، البالاولوغس،الملك ايرلنك " ، ولا يحرك عز سلطانه على مملكتنا حرباً قط، ولا على بلادنا، ولا على قلاعنا، ولا على عساكرنا، ولا يحرك أحداً آخر أيضاً على حرب مملكتنا، وأن تكون الرسل المترددون عن عز سلطانه أيضاً مطلقاً " آمنين،لهم " أن يعبروا في بلاد مملكتي بلا مانع ولا عائق، ويتوجهوا إلى حيث يسيرون من عز سلطانه، وكذلك يعودون إلى عز سلطانه، وأن لا يحصل للتجار الواردين من بلاد عز سلطانه " ضرر " من بلاد مملكتي، ولا يحذرون من أحدٍ جوراً ولا ظلماً،بل يكون لهم مباحاً أن يعملوا متاجرهم. " ونظير هذا – التجار الواردون إلى بلا عز سلطانه من أهل بلاد ملكي، يقومون بالحق الواجب على بضائعهم، وليقم " كذلك التجار الواردون

من بلاد عز سلطانه إلى بلاد ملكي بالحق الواجب على بضائعهم. وإن حضر من بلاد " سوداق " تجار و أردوا السفر إلى بلاد عز سلطانه، فلا ينال تعويق في بلاد ملكي، بل في عبورهم وعودهم يكونون بلا مانع ولا عائق بعد القيام بالحق الواجب. وهؤلاء التجار الذين من بلاد عز سلطانه والذين من أهل سوداق إن حضر صحبتهم مماليك وتجار، فليعودوا بهم إلى بلاد عز سلطانه بلا عائق ولا مانع، ماخلا إن كانوا نصارى، لأن شرعنا وترتيب مذهبنا لا يسمح لنا في أمر النصارى بهذا. وأما إن كان في بلاد عز سلطانه مماليك نصارى: روم وغيرهم من أجناس النصارى، ، متمسكون بدين النصارى، ويحصلوا لقوم منهم العتق، فليكن للذين معهم عتائق مباح و مطلق من عز سلطانه ، أن يفدوا في البحر إلى بلاد مملكتي. وكذلك إن أراد أحد من أهل بلاد عز سلطانه أن يبيع مملوكاً نصرانياً هذه صورته لأحد من رسل مملكتي، أو لتجار وأناس بلاد مملكتي، أن لا يجد في هذا تعويقاً،بل يشتروا المذكور و يفدوا به في البحر إلى بلاد مملكتي بلا عائق. وأيضاً إن أراد هذا السلطان العظيم النسيب، أن يرسل إلى بلاد ملكي بضائع متجراً، وأرادت مملكتي أن ترسل إلى بلاد عز سلطانه بضائع متجراً، فليكن هكذا، وهو إن أراد عز سلطانه أن تكون بضائع متاجره في بلاد ملكي منجاة من القيام بكل الحقوق، وإن أراد أن تقوم متاجر ملكي في بلاده بالحقوق الواجبة " يقوم بمثل ذلك.وأيضاً أن يطلق عز سلطانه لملكي أن يرسل أناساً من بلاد مملكتي إلى بلاد عز سلطانه، فيشترون لي خيلاً جياداً ويحملونها إلى بلاد ملكي. وكذلك إن أراد عز سلطانه شيئاً من خيرات بلاد ملكي، فمملكتي أيضاً تطلق لعز سلطانه أن يرسل أناسه ليشتروه ويحملوه إلى عز سلطانه.

ولما كان في البحر " كرسالية " من بلاد غريبة، وقد يتفق في بعض الأوقات أن يعملوا خسارة في بلاد ملكي،وكذلك يجدون هؤلاء " الكر سالية " يفعلون ذلك في الآفاق في تخوم بلاد ملكي، لأجل هذا صار:إذا حضر قوم من بلاد سلطانه بمتجر يمسكون من أهل بلاد عز سلطانه ويغرمون. ولهذا فليصر مرسوم من عز سلطانه في كل بلاده أن أحداً من أهل بلاد مملكتي لايغرم بهذا السبب ولا يمسك، وإن

عرض أن يقول أحد من أهل بلاد عز سلطانه: إن غرم أو ظلم من أهل بلاد ملكي فليعرف ملكي بذلك. وإذا كان الذي وضع الغرامة من أهل بلاد ملكي، فملكي يأمر، وتعاد تلك الخسارة إلى بلاد عز سلطانه. وكذلك إن قال أحد من أهل بلاد مملكتي: إنه ظلم أو غرم من أحدٍ من بلاد عز سلطانه، يأمر عز سلطانه، وتعاد الغرامة إلى بلاد ملكي. وأيضاً إذ قد أزمعت المحبة أن نصير بهذه الصورة،وتكون الصداقة بين مملكتي وعز سلطانه خالصة، حتى إنه أرسل يقول لملكي على معونة ونجدة في البحر لمضرة العدو المشترك، فمملكتي تفوض هذا الأمر إلى اختيار عز سلطانه، أن يرتب في نسخة اليمين مع بقية الفصول المعينة فيه،وتأتي الصورة كيف تعين وتنجد مملكتي في البحر. وإن كان لا يريد نجدة ومعونة مملكتي، فمملكتي تسمح بهذا الفصل أن لا يضعه عز سلطانه في نسخة يمينه،وهذه اليمين منا بحفظ ملكي لعز سلطانه ثابتة غير متزعزعة إن كان هذا السلطان العظيم يحلف لي يميناً بمثلها، وأنه يحفظ المحبة لمملكتنا، ثابتة غير متزعزعة، والسلام.

وهذه نسخة اتفاق، كتبت من الأبواب السلطانية عن الملك المنصور " قلاوون " عن نظير الهدنة المتقدمة، الواردة من قبل صاحب القسطنطينية، مفتتحة بيمين موافقة لها، وهي: أقول وأنا فلان: إنه لما رغب حضرة الملك الجليل، كرميخائيل، الدوقس، الأنجالوس، الكمينيوس، البالاولوغس، ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى، أكبر ملوك المسيحية، أبقاه الله – أن يكون بين مملكته وبين عز سلطاني، محبة وصداقة ومودة لا تتغير بتغير الأيام، ولا تزول بزوال السنين والأعوام، وأكد ذلك بيمين حلف عليها، تاريخها يوم الخميس ثامن شهر أيار سنة ستة آلاف وسبعمائة وتسع وثمانين لآدم، صلوات الله عليه، بحضور رسول عز سلطاني، الأمير ناصر الدين بن الجزري، والبطرك الجليل " أنباسيوس " بطرك الإسكندرية، وحضر رسولاه فلان وفلان إلى عز سلطاني بنسخة اليمين، ملتمس أن يتوسط هذا الأمر أيضاً يمين واتفاقمن عز سلطاني، لتدوم المحبة فيما بين مملكته وعز سلطاني، وتكون ثابتة ومستمرة على الدوام والاستمرار.

فعز سلطاني من هذا اليوم، وهو يوم الاثنين مستهل رمضان المعظم، سنة ثمانين

وستمائة للهجرة النبوية المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، يحلف بالله العظيم، الرحمن الرحيم، عالم الغيب والشهادة، والسر والعلانية وما تخفي الصدور، وبالقرآن العظيم، وبمن أنزله، وبمن أنزل عليه، وهو النبي الكريم، محمد صلى الله عليه وسلم – على استمرار الصداقة، واستقرار المودة النقية، للملك الجليل كرميخائيل، ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى، ولولد مملكته الحبيب الكمينوس الانجالوس، الدوقس، البلاولوغس، الملك إيرإندروبنفوس ولوارثي مملكة ملكه، ولا يحرك عز سلطاني أبداً على مملكته حرباً، ولا على بلاده، ولا على قلاعه، ولا على عساكره، وبر ولا بحر، ولا يحرك عز سلطاني أحد آخر على حربه، بحيث إن الملك الجليل " كرميخائيل " يحفظ مثل ذلك لعز سلطاني، ولملكي، ولبلادي، ولقلاعي، ولعساكري، ولولدي، السلطان الملك الصالح علاء الدين " علي " ولوارثي ملكي من أولادي، ويستمر على هذه الصداقة والمودة النقية، ولا يحرك ملكه على عز سلطاني حرباً قط، ولا على بلادي، ولا على قلاعي، ولا على عساكري، ولا على مملكتي، ولا يحرك أحداً آخر على حرب مملكة عز سلطاني في البر ولا في البحر، ولا يساعد أحداً من أضداد عز سلطاني، ولا أعدائي من سائر الأديان والأجناس، ولا يوافقه على ذلك، ولا يفسح لهم في العبور إلى مملكة عز سلطاني لمضرة شيء فيها وطاقته.

وأن الرسل المسيرين من مملكة عز سلطاني إلى بر " بركة " وأولاده وبلادهم وتلك الجهات، وبحر " سوداق " بره، يكونون آمنين مطمئنين مطلقاً: لهم أن يعبروا في بلاد مملكة الجليل، كرميخائيل إلى بلاد عز سلطاني جور ولا ظلم، ويترددون آمنين مطمئنين يعملون متاجرهم، ولهم الرعاية في الصدور والورود، والمقام والسفر، بحيث يكون لتجار مملكة عز سلطاني في بلاد مملكة الملك الجليل كرميخائيل مثل ذلك، ويكونون مرعيين، لا يجدون من أحد في بلاد مملكة الملك الجليل كرميخائيل جوراً ولا ظلماً. ومن عليه واجب في الجهتين على ما استقر عليه الحال، يقوم به من غير حيف ولا ظلم.

وأن من حضر من التجار: من سوداق وغيرها بمماليك وجوار تمكنهم مملكة

الملك الجليل كرميخائيل من الحضور بهم إلى مملكة عز سلطاني ولا تمنعهم. وأن الكر سالية متى تعرضوا إلى أخذ أحد من التجار المسلمين في البحر، ونسبت الكر سالية إلى رعية مملكة الملك الجليل كرميخائيل، يسير عز سلطاني إليه في طلبهم، ولا يتعرض أحد من نواب مملكة عز سلطاني إلى هذا الجنس بسببهم، إلا أن يتحقق أنهم آخذون، أو تظهر عين المال معهم، على ما تضمنته نسخة يمين الملك الجليل كرميخائيل؛ ولمملكة الملك الجليل كرميخائيل من بلاد عز سلطاني مثل ذلك.

وعلى أن الرسل المترددين من الجهتين: من مملكة عز سلطاني، ومن مملكة الملك الجليل كرميخائيل، يكونون آمنين مطمئنين في سفرهم ومقامهم: براً وبحراً، وتكون رعية بلاد عز سلطاني، ورعية بلاد الملك الجليل كرميخائيل، في الجهتين من المسلمين وغيرهم آمنين مطمئنين، صادرين واردين، محترمين مرعيين. وهذه اليمين ل تزال محفوظة ملحوظة، مستقرة مستمرة، على الدوام والاستمرار.

قلت: وهذه النسخة الواردة من صاحب القسطنطينية المتقدمة عليها، وإن عبر عنهما في خلالهما بلفظ اليمين، فإنهما بعقد الصلح أشبه، واليمين جزء من أجزاء ذلك، ولذلك أوردتها في عقود الصلح دون الأيمان.

الباب الخامس من المقالة التاسعة في عقود الصلح الواقعة بين ملكين مسلمين وفيه فصلان

الفصل الأول في أصول تعتمد في ذلك

اعلم أن الأصل في ذلك ما ذكره أصحاب السير وأهل التاريخ، أنه لما وقع الحرب بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وبين معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه، في صفين في سنة سبع وثلاثين من الهجرة - توافقا على أن يقيما

حكمين بينهما، ويعملا بما يتفقان عليه. فأقام أمير المؤمنين عليّ أبا موسى الأشعري حكماً عنه، وأقام معاوية عمرو بن العاص حكماً عنه؛ فاتفق الحكمان على أن يكتب بينهما كتاب بعقد الصلح، واجتمعا عند علي رضي الله عنه، وكتب كتاب القضية بينهما بحضرته، فكتب فيه بعد البسملة: هذا ما تقاضى أمير المؤمنين علي، فقال عمرو: هو أميركم، أما أميرنا فلا. فقال " الأحنف: لا تمح اسم أمير المؤمنين فإني أخاف إن محوتها أن لا ترجع إليك أبداً. لا تمحها وإن قتل الناس بعضهم بعضا، فأبى ذلك علي ملياً من النهار. ثم إن الأشعث " بن قيس قال: أمح اسم أمير المؤمنين؛ فأجاب علي ومحاه. ثم قال علي: الله أكبر! سنة بسنة " ومثل بمثل " . والله إني لكاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، فكتبت: محمد رسول الله، فقالوا: لست برسول الله، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فأمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحوه، فقلت: لا أستطيع أن أفعل! فقال إذن فأري نه فأريته فمحاه بيده، وقال: " إنك ستدعى إلى مثلها فتجيب " .
وهذه نسخة كتاب القضية بين أمير المؤمنين علي وبين معاوية، فيما رواه أبو عبد الله الحسين ابن نصر بن مزاحم المنقري، في " كتاب صفين والحكمين " بسنده إلى محمد بن علي الشعبي؛ وهو: " بسم الله الرحمن الرحيم " .

هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما، فيما تراضيا من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه محمد صلى اله عليه وسلم، قضية علي على أهل العراق ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب، وقضية معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب، إنا رضينا أن ننزل عند حكم كتاب الله بيننا حكماً فيما اختلفنا فيه من فاتحته إلى خاتمته، نحي ما أحيا، ونميت ما أمات. على ذلك تقاضينا، وبه تراضينا. وإن علياً وشيعته رضوا أن يبعثوا عبد الله بن قيس ناظراً ومحاكماً، ورضي معاوية وشيعته أن يبعثوا عمرو بن العاص ناظراً ومحاكماً، على أنهم أخذوا عليهما عهد الله وميثاقه، وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه، ليتخذان الكتاب إماماً فيما بعثا له، لا يعدوانه إلى غيره في الحكم بما وجدا فيه مسطوراً، وما لم يجداه مسمى في الكتاب رداه إلى سنة رسول الله

الجامعة، لا يعتمدان لها خلافاً، ولا يتبعان في ذلك لهما هوى، ولا يدخلان في شبهة.

وأخذ عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص على علي ومعاوية عهد وميثاقه بالرضا بما حكما به من كتاب الله وسنة نبيه، ليس لهما أن ينقضا ذلك " ولا يخالفا " إلى غيره، وأنهما آمنان في حكومتهما على دمائهما وأموالهما وأهليهما، ما لم يعدوا الحق، رضي بذلك راض أو أنكر منكر، وأن الأمة أنصار لهما على ما قضيا به من العدل.

فإن توفي أحد الحكمين قبل انقضاء الحكومة، فأمير شيعته وأصحابه يختارون رجلاً، " يألون " عن أهل المعدلة والإقساط، على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق والحكم بكتاب الله وسنة رسوله، وله مثل شرط صاحبه.

وإن مات واحد من الأميرين قبل القضاء، فليشعته أن يولوا مكانه رجلاً يرضون عدله.

وقد وقعت " هذه " القضية بيننا و " معها " الأمن والتفاوض، ووضع السلاح، وعلى الحكمين عهد الله وميثاقه: ليحكمان بكتاب الله وسنة نبيه، لا يدخلان في شبهة ولا يألون اجتهاداً، ولا يعتمدان جورا، ولا يتبعان هوى، ولا يعدوان ما في كتاب الله تعالى وسنة رسوله، فإن لم يفعلا برئت الأمة من حكمهما، ولا عهد لهما ولا ذمة. وقد وجبت القضية على ما سمينا في هذا الكتاب من موقع الشرط على الأميرين والحكمين والفريقين، والله أقرب شهيداً وأدنى حفيظاً، والناس آمنون على أنفسهم وأهلهم وأموالهم إلى انقضاء مدة الأجل، والسلاح موضوع، والسبيل مخلى، والشاهد والغائب من الفريقين سواء في الأمر. وللحكمين أن ينزلا منزلاً عدلاً بين أهل العراق وأهل الشام، ولا يحضرهما فيه إلا من أحبا عن ملإ منهما وتراض. وأجل القاضيين المسلمون إلى رمضان: فإن رأى الحكمان تعجيل الحكومة فيما وجها له، عجلاها، وإن أرادا تأخيرها بعد رمضان إلى انقضاء الموسم، فإن ذلك إليهما. فإن هما لم يحكما بكتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الموسم، فالمسلمون على أمرهم الأول في الحرب، ولا شرط بين واحد من الفريقين. وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام على ما في هذا الكتاب. وهم يد

على من أراد في هذا الكتاب إلحاداً أو ظلماً، أو أراد له نقضاً.
شهد على ما في هذا الكتاب من أصحاب عليك الأشعث بن قيس " الكندي " ، وعبد الله بن عباس، والأشتر بن الحارث، وسعيد بن قيس الهمداني، والحصين والطفيل ابنا الحارث بن المطلب، وأبو أسيد بن ربيعة الأنصاري، وخباب بن الأرت، وسهل بن حنيف الأنصاري، وأبو اليسر بن عمرو الأنصاري، ورفاعة بن رافع بن مالك الأنصاري، وعوف بن الحارث بن المطلب القرشي، وبريدة الأسلمي، وعقبة بن عامر الجهني، ورافع بن خديج الأنصاري، وعمرو بن الحمق الخزاعي، والحسن والحسين ابنا علي، وعبد الله بن جعفر الهاشمي، واليعمر بن عجلان الأنصاري، وحجر بن عدي الكندي، وورقاء بن سمي البجلي، وعبد الله ابن الطفيل الأنصاري، ويزيد بن حجية الدكري،ومالك بن كعب الهمداني، وربيعة بن شرحبيل، وأو صفرة، والحارث بن مالك، وحجر بن يزيد، وعقبة بن حجية.

ومن أصحاب معاوية: حبيب بن مسلمة الفهمي، و " أبو " الأعور السلمي، وبسر بن ارطاة القريشي، ومعاوية بن حديج الكندي، والمخارق بن الحارث الحميري، وزميل بن عمرو السكسكي، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي، وحمزة بن مالك الهمداني، وسبع بن زيد الحميري، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعلقمة بن مرثد الكلبي، وخالد بن الحصين السكسكي، وعلقمة بن يزيد بن الحر العبسي، ومسروق بن حملة العكي، ونمير بن يزيد الحميري، وعبد الله بن عامر القرشي، ومروان بن الحكم، والوليد بن عقبة القرشي، وعقبة ابن أبي سفيان، ومحمد بن أبي سفيان، ومحمد بن عمرو بن العاص، ويزيد بن عمرو الجذامي، وعمار بن الأخوص الكلبي، ومسعدة بن عمر القيني، وعاصم بن المستنير الجذامي، وعبد الرحمن بن ذي كلاع الحميري، والصباح بن جلهمة الحميري، وثمامة بن حوشب، وعلقمة بن حكيم، وحمزة بن مالك " الهمداني " .
وإن بيننا على ما في هذه الصحيفة عهد الله وميثاقه. وكتب عمير يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين.
وأخرج أيضاً بسنده إلى أبي إسحاق الشيباني أن عقد الصلح كان عند سعيد بن أبي

بردة في صحيفة صفراء عليها خاتمان: خاتم في أسفلها، وخاتم في أعلاها. في خاتم علي " محمد رسول الله " وفي خاتم معاوية " محمد رسول الله " .

قلت: وذكر روايات أخرى فيها زيادة ونقص زيادة ونقص أضربنا عن ذكرها خوف الإطالة، إذ فيما ذكرنا مقنع. على أن المؤرخين لم يذكروا من ذلك إلا طرفا يسيراً.

الفصل الثاني من الباب الخامس من المقالة التاسعة ما يكتب في الطرة والمتن

فيما جرت العادة بكتابته بين الخلفاء وملوك المسلمين على تعاقب الدول مما يكتب في الطرة والمتن

أما الطرة: فليعلم أن الذي ينبغي أن يكتب في الطرة هنا: " هذا عقد صلح " ويكمل على ما تقدم في الهدنة، ولا يكتب فيه: " هذه هدنة " لما يسبق إلى الأذهان من أن المراد من الهدنة ما يجري بين المسلمين والكفار.

وأما المتن فعلى نوعين:

النوع الأول ما يكون العقد فيه من الجانبين

ولم أر فيه للكتاب إلا الاستفتاح بلفظ: " هذا " ، وعليه كتب كتاب القضية بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وبين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، على ما تقدم ذكره.

وعلى ذلك استكتب هارون الرشيد ولديه: محمداً الأمين، وعبد الله المأمون: العهدين اللذين عهد فيهما بالخلافة بعده لابنه الأمين، وولى خراسان ابنه المأمون، ثم عهد بالخلافة من بعد الأمين للمأمون، وأشهد فيهما، وبعث بهما إلى مكة فعلقا في بطن الكعبة، في جملة المعلقات التي كانت تعلق فيها، على عادة العرب

السابقة: من تعليق القصائد ونحوها. وبذلك سميت القصائد السبع المشهورة: بالمعلقات لتعليقهم إياها في جوف الكعبة.

أما عهد الأمين، فنسخته بعد البسملة – على ما ذكره الأزرقي في أخبار مكة – ما صورته: هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين، كتبه محمد ابن أمير المؤمنين في صحة من بدنه وعقله، وجواز في أمره، طائعاً غير مكره.

إن أمير المؤمنين هارون ولاني العهد من بعده، وجعل لي البيعة في رقاب المسلمين جميعاً، وولى أخي عبد الله ابن أمير المؤمنين هارون العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين من بعدي، برضا مني وتسليم، طائعاً غير مكره، وولاه خراسان بثغورها، وكورها، وجنودها، وخراجها، وطرازها، وبريدها، وبيوت أموالها، وصدقاتها، وعشرها وعشورها، وجميع أعمالها، في حياته وبعد وفاته، فشرطت لعبد الله ابن أمير المؤمنين علي الوفاء بما جعله له أمير المؤمنين هارون: من البيعة والعهد،وولاية الخلافة وأمور الخلافة وأمور المسلمين بعدي، وتسليم ذلك له، وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها، وما أقطعه أمير المؤمنين هارون من قطيعة، أو جعل له عقدة أو ضيعة من ضياعه وعقده، أو ابتاع له من الضياع والعقد، وما أعطاه في حياته وصحته: من مال، أو حلي، أو جوهر، أو متاع، أو كسوة، أو رقيق، أو منزل، أو دواب، قليلاً أو كثيراً، فهو لعبد الله ابن أمير المؤمنين موفراً عليه، مسلماً له. وقد عرفت ذلك كله شيئاً فشيئاً باسمه وأصنافه ومواضعه، أنا عبد الله ابن هارون أمير المؤمنين. فإن اختلفنا في شيء منه فالقول فيه قول عبد الله ابن هارون أمير المؤمنين لا أتبعه بشيء من ذلك ولا آخذه منه، ولا أنتقصه، صغيرا ولا كبيراً " من ماله " ولا من ولاية خراسان ولا غيرها مما ولاه أمير المؤمنين من الأعمال، ولا أعزله عن شيء منها، ولا أخلعه، ولا أستبدل به غيره، ولا أقدم عليه في العهد والخلافة أحداً من الناس جميعاً، ولا أدخل عليه مكروهاً في نفسه ولا دمه، ولا شعره ولا بشره، ولا خاص ولاعام من أموره وولايته، ولا أمواله، ولا قطائعه، ولا عقده، ولا أغير عليه شيئاً لسبب من الأسباب، ولا آخذه ولا أحداً من عماله وكتابه وولاة أمره –

ممن صحبه وأقام معه – بمحاسبة، ولا أتتبع شيئاً جرى على يديه وأيديهم في ولاية خراسان وأعمالها وغيرها مما ولاه أمير المؤمنين في حياته وصحته: من الجباية، والأموال، والطراز، والبريد، والصدقات، والعشر والعشور، وغير ذلك، ولا آمر بذلك أحداً من الناس، ولا أرخص فيه لغيري، ولا أحدث نفسي فيه بشيء أمضيه عليه، ولا ألتمس قطيعة له، ولا أنقص شيئاً مما جعله له هارون أمير المؤمنين وأعطاه في حياته وخلافته وسلطانه من جميع ما سميت في كتابي هذا.

وآخذ له علي وعلى جميع الناس البيعة، ولا أرخص لأحد – من جميع الناس كلهم في جميع ما ولاه – في خلعه ولا مخالفته، ولا أسمع من أحد من البرية في ذلك قولاً، ولا أرضى بذلك في سر ولا علانية، ولا أغمض عليه، ولا أتغافل عنه، ولا أقبل من بر من العباد ولا فاجر، ولا صادق ولا كاذب، ولا ناصح ولا غاش، ولا قريب ولا بعيد، ولا أحد من ولد آدم عليه السلام: من ذكر ولا أنثى – مشورة، ولا حيلة، ولا مكيدة في شيء من الأمور: سرها وعلانيتها، وحقها وباطلها، وظاهرها وباطنها، ولا سبب من الأسباب، أريد بذلك إفساد شيء مما أعطيت عبد الله بن هارون أمير المؤمنين من نفسي، وأوجبت له علي، وشرطت وسميت في كتابي هذا.

وإن أراد به من الناس أجمعين سوءاً أو مكروهاً، أو أراد خلعه أو محاربته، أو الوصول إلى نفسه ودمه، أو حرمه، أو ماله، أو سلطانه أو ولايته: جميعاً أو فرادى، مسرين أو مظهرين له فإني انصره وأحوطه، وأدفع عنهن كما أدفع عن نفسي، ومهجتي، ودمي، وشعري، وخالفه، و لا أسلمه " و لا أخذله " ولا أتخلى عنه، ويكون أمري وأمره في ذلك واحداً " أبداً " ما كنت حياً.

وإن حدث بأمير المؤمنين هارون حدث الموت، وأنا وعبد الله ابن أمير المؤمنين بحضرة أمير المؤمنين، أو أحدنا، أو كنا غائبين عنه جميعاً: مجتمعين كنا أو مفرقين، وليس عبد الله بن هارون أمير المؤمنين في ولايته بخراسان " فعلي لعبد الله ابن أمير المؤمنين أن أمضيه إلى خراسان " وأن أسلم له ولايتها بأعمالها كلها وجنودها، ولا أعوقه عنها، ولا أحبسه قبلي، ولا في شيء من البلدان دون

خراسان، وأعجل إشخاصه إلى خراسان والياً عليها مفرداً بها، مفوضاً إليه جميع أعمالها كلها، وأشخص معه من ضم إليه أمير المؤمنين: من قواده، وجنوده، وأصحابه، وكتابه، وعماله، ومواليه، وخدمه، ومن تبعه من صنوف الناس بأهلهم وأموالهم، ولا أحبس عنه أحداً، ولا أشرك معه في شيء منها أحداً، ولا أرسل أميناً ولا كاتباً ولا بنداراً، ولا أضرب على يديه في قليل ولا كثير.

وأعطيت هارون أمير المؤمنين و عبد اللهبن هارون على ما شرطت لهما على نفسي، من جميع ما سميت وكتبت في كتاب هذا – عهد الله وميثاقه، وذمة أمير المؤمنين وذمتي، وذمة آبائي و ذمم المؤمنين، وأشد ما أخذ الله تعالى على النبيين والمرسلين وخلقه أجمعين: من عهود ومواثيق، والأيمان المؤكدة التي أمر الله عز وجل بالوفاء بها، ونهى عن نقضها وتبديلها.

فإن نقضت شيئاً مما شرطت لهارون أمير المؤمنين ولعبد الله بن هارون أمير المؤمنين وسميت في كتابي هذا، أو حدثت نفسي أو أن أنقص شيئاً مما أنا عليه، أو غيرت أو بدلت، أو حلت أو غدرت، أو قبلت " ذلك " من أحد من الناس: صغيراً أو كبيراً، برا أو فاجرا، ذكراً أو أنثى، وجماعة أو فرادى – فبرئت من الله عز وجل، ومن ولايته، ومن دينه، ومن محمد صلى الله عليه وسلم، ولقيت الله عز وجل يوم القيامة كافراً مشركاً؛ وكل امرأة هي اليوم لي أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً، البتة، طلاق الحرج، وعلي المشي إلى بيت الله الحرام ثلاثين حجة: نذراً واجباً لله تعالى في عنقي، حافياً راجلاً، لا يقبل الله مني إلا الوفاء بذلك، وكل مال هو لي اليوم، أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدي بالغ الكعبة الحرام، وكل مملوك هو لي اليوم، أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله عز وجل.

وكل ما جعلت لأمير المؤمنين ولعبد الله بن هارون أمير المؤمنين، وكتبته وشرطه لهما، وحلفت عليه، وسميت في كتابي هذا لازم لي الوفاء به، ولا أضمر غيره، ولا أنوي إلا إياه؛ فإن أضمرت أو نويت غيره فهذه العقود والمواثيق والأيمان كلها لازمة، واجبة عليّ، وقواد أمير المؤمنين وجنوده وأهل الآفاق والأمصار في حل من خلعي وإخراجي من ولايتي عليهم، حتى أكون سوقة من السوق، وكرجل

من عرض المسلمين، لا حق لي عليهم، ولا ولاية، ولا تبعة لي قبلهم، ولا بيعة لي في أعناقهم، وهم في حل من الأيمان التي أعطوني، براء من تبعتها ووزرها في الدنيا والآخرة.

شهد سليمان ابن أمير المؤمنين المنصور، وعيسى بن جعفر، وجعفر بن جعفر، وعبد الله بن المهدي، وجعفر بن موسى أمير المؤمنين، وإسحاق بن موسى أمير المؤمنين، وإسحاق بن عيسى بن علي، وأحمد بن إسماعيل بن علي، وسليمان بن جعفر بن سلميان، وعيسى بن صالح بن علي، ودواد بن عيسى بن موسى، ويحيى بن عيسى بن موسى، وداود بن سليمان ابن جعفر، وخزيمة بن حازم، وهرثمة بن أعين، ويحيى بن خالد، والفضل بن يحيى، جعفر بن يحيى، والفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين، والقاسم بن الربيع مولى أمير المؤمنين، ودماثة بن عبد العزيز العبسي، وسليمان بن عبد الله بن الأصم، والربيع بن عبد الله الحارثي وعبد الرحمن بن أبي الشمر الغساني، ومحمد بن عبد الرحمن قاضي مكة، وعبد الكريم بن شعيب الحجبي، وإبراهيم بن عبد الله الحجبي، وعبد الله بن شعيب الحجبي، ومحمد بن عبد الله بن عثمان الحجبي، وإبراهيم بن عبد الرحمن بن نبيه الحجبي، وعبد الواحد بن عبد الله الحجبي، وإسماعيل بن عبد الرحمن بن نبيه الحجبي، وأبان مولى أمير المؤمنين، ومحمد بن منصور، وإسماعيل بن صبيح، والحارث مولى أمير المؤمنين، وخالد مولى أمير المؤمنين.

وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة: وأما ما كتبه المأمون، فنصه بعد البسملة:

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين، في صحة من عقله، وجواز من أمره، وصدق نية فيما كتب من كتابه، ومعرفة ما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته ولجماعة المسلمين.

إن أمير المؤمنين هارون ولاني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه بعد أخي محمد بن هارون أمير المؤمنين، وولاني في حياته وبعده خراسان وكورها، وجميع أعمالها: من الصدقات والعشر والبريد والطراز وغير ذلك،

واشترط لي على محمد ابن أمير المؤمنين الوفاء بما عقد لي من الخلافة والولاية للعباد والبلاد بعده، " وولاية " خراسان وجميع أعمالها، ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين أو ابتاع لي من الضياع والعقد والدور والرباع، أو ابتعت منه " لنفسي " من ذلك، وما أعطاني أمير المؤمنين هارون من الأموال والجوهر والكسا والمتاع والدواب " والرقيق وغير ذلك، ولا يعرض لي ولا لأحد من عمالي وكتابي بسبب محاسبة " ، ولا يتتبع لي في ذلك لأحد منهم أثرا، ولا يدخل عليّ ولا على أحد ممن كان معي ومني، ولا عمالي ولا كتابي، ومن استعنت به من جميع الناس – مكروهاً: في دم، ولا نفس، ولا شعر، ولا بشر، ولا مال، ولا صغير، ولا كبير " من الأمور " فأجابه إلى ذلك وأقر به، وكتب له به كتاباً كتبه على نفسه ورضي به أمير المؤمنين " هارون وقبله وعرف صدق نيته فيه، فشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين " وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد ابن أمير المؤمنين وأطيعه ولا أعصيه، وأنصحه ولا أغشه، وأوفي ببيعته وولايته، ولا أغدر ولا أنكث، وأنفذ كتبه وأموره، وأحسن مؤازرته و مكانفته، وأجاهد عدوه في ناحيتي بأحسن جهاد ما وفى لي بما شرط لي ولعبد الله هارون أمير المؤمنين، وسماه في الكتاب الذي كتبه لأمير المؤمنين ورضي به أمير المؤمنين، ولم ينقص شيئاً من ذلك،ولم ينقض أمراً من الأمور التي اشترطها لي عليه هارون أمير المؤمنين.

وإن احتاج محمد بن هارون أمير المؤمنين إلى جند وكتب إلي يأمرني بإشخاصهم إليه، أو إلى ناحية من النواحي، أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد نقص شيء من سلطانه و سلطاني الذي أسنده هارون أمير المؤمنين إلينا و ولاناه – " فعلي " أن أنفذ أمره ولا أخالفه، ولا أقصر في شيء كتب به إلي.

وإن أراد محمد بن أمير المؤمنين هارون أن يولي رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدي، فذلك له، ما وفى لي بما جعل لي أمير المؤمنين هارون واشترط لي عليه، وشرطه على نفسه في أمري، وعلي إنفاذ ذلك والوفاء له بذلك، ولا أنقض ذلك ولا أغيره، ولا أبدله، ولا أقدم " قبله " أحداً من ولدي، ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين،إلا أن يولي هارون أمير المؤمنين أحداً من ولده العهد من بعدي،

فيلزمني " ومحمداً " الوفاء بذلك.
وجعلت لأمير المؤمنين ومحمد بن أمير المؤمنين علي الوفاء بما اشترطت وسميت في كتابي هذا، ما وفى لي محمد ابن أمير المؤمنين هارون بجميع ما اشترط لي هارون أمير المؤمنين عليه في نفسي، وما أعطاني أمير المؤمنين هارون من جميع الأشياء المسماة في الكتاب الذي كتبه له، " وعلي " عهد الله تعالى وميثاقه، وذمة أمير المؤمنين، وذمتي، وذمة آبائي، وذمم المؤمنين، وأشد ما أخذ الله عز وجل على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين من عهوده ومواثيقه، والأيمان المؤكدة التي أمر الله عز وجل بالوفاء بها " ونهى عن نقضها وتبديلها " ؛ فإن أنا نقضت شيئاً مما اشترط وسميت في كتابي هذا له، أو غيرت، أو بدلت، أو نكثت، أو غدرت – فبرئت من الله عز وجل ومن ولايته ومن دينه، ومن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقيت الله سبحانه وتعالى يوم القيامة كافراً مشركاً، وكل امرأة لي اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة " طلاق " الحرج، وكل مملوك لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله تعالى، وعلي المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة، نذراً واجباً علي وفي عنقي، حافياً راجلاً، لا يقبل الله مني إلا الوفاء به، وكل مال هو لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدي بالغ الكعبة، وكل ما جعلت لعبد الله هارون أمير المؤمنين أو شرطت في كتابي هذا لازم لي، لا أضمر غيره ولا أنوي سواه.
شهد فلان وفلان، بأسماء الشهود المقدم ذكرهم في كتاب الأمين المبتدإ بذكره.

قال الأزرقي: ولم يزل هذان الشرطان معلقين في جوف الكعبة حتى مات هارون الرشيد؛ وبعدما مات بسنتين، في خلافة الأمين " كلم " الفضل بن الربيع محمد بن عبد الله الحجبي في إيتانه بهما، فنزعهما من الكعبة وذهب بهما إلى بغداد، فأخذهما الفضل فخرقهما وحرقهما بالنار.
قلت: وعلى نحو من ذلك كتب أبو إسحاق الصابي مواصفة بالصلح بين شرف الدولة وزين الملة أبيس، وصمصام الدولة وشمس الملة أبي كاليجار، ابني عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه، في النصف من صفر سنة ست و سبعين

وثلاثمائة.

ونصها بعد البسملة الشريفة: هذا ما اتفق واصطلح وتعاهد وتعاقد عليه شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس، وصمصام الدولة أبو كاليجار، ابنا عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع بن ركن الدولة أبي علي، موليا أمير المؤمنين الطائع لله – أطال الله بقاءه، وأدام عزه وتأييده، ونصره وعلوه وإذنه.

اتفقا وتصالحا، وعاهدا وتعاقدا، على تقوى الله تعالى وإيثار طاعته، والاعتصام بحبله وقوته، والالتجاء إلى حسن توفيقه ومعونته، والإقرار بانفراده ووحدانيته، لا شريك له ولا مثل، ولا ضد ولا ند، والصلاة على محمد رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً، والطاعة لأمير المؤمنين الطائع لله، والالتزام بوثائق بيعته، وعلائق دعوته، والتوازر على موالاة وليه، ومعاداة عدوه، وعلى أن يمسكا " ذات " بينهما بالسير الحميدة، والسنن الرشيدة، التي سنها لهما السلف الصالح من آبائهما وأجدادهما في التآلف والتوازر، والتعاضد والتظافر، وتعظيم الأصغر للأكبر، وإشبال الأكبر على الأصغر، والاشتراك في النعم، والتفاوض في الحظوظ والقسم، والاتحاد بخلوص الطوايا والخفايا، وسلامة الخواطر، وطهارة الضمائر، ورفع ما خالف ذلك من أسباب المنافسة، وجرائر المضاغنة، وجوالب النبوة، ودواعي الفرقة، والإقران لأعداء الدولة، والإرصاد لهم، والاجتماع على دفع كل ناجم، وقمع كل مقاوم، وإرغام أنف كل ضار متجبر، وإضراع خد كل متطاول مستكبر، حتى يكون الموالي لأحدهم منصوراً من جماعتهم، والمعادي له مقصوداً من سائر جوانبهم، فلا يجد المنابذ على أحدهم مفزعاً عند أحد من الباقين ولا اعتصاماً له، ولا التجاء إليه، لكن يكون مرمياً بجميع سهامهم، ومضروباً بأسياف نقمتهم، ومأخوذاً بكلية بأسهم وقوتهم، ومقصوداً بغالب نجدتهم وشدتهم؛ إذ كانت هذه الآداب القويمة، والطرائق السليمة، جارية للدول مجرى الجنن الدافعة عنها، والمعاقل المانعة لها، وبمثلها تطمئن النعم وتسكن، كما أن بأضدادها تشمئز وتنفر.

ولما وافق الله تعالى شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس، وصمصام الدولة وشمس الملة أبا كاليجار اعتقاد هذه الفضائل وإيثارها، والتضاهر بها واستشعارها، ودعاهما الطائع لله أمير المؤمنين إلى ما دعاهما إليه كاليجار

بمراسلة شرف الدولةأبي الفوارس في إحكام معاقد الأخوة، وإبرام وثائق الألفة – امتثل ذلك وأصغى إليه شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس: أصغى إليه شرف الدولة إصغاء المستوثق المستصيب، وتقبله تقبل العالم اللبيب، وأنفذ إلى باب أمير المؤمنين رسوله أبا نصر " خرشيد بن ديار بن مأفنة " بالمعروف من كفايته، والمشهور من اصطناع الملك السعيد عضد الدولة وتاج الملة رضوان الله عليه له، وإيداعه وإياه وديعة الإحسان التي يحق عليه أن يساوي في حفظها بين الجهتين، ويوازي في رعايتها بين كلا الفريقين.

فجرت بين صمصام الدولة وشمس الملة أبي كاليجار وبينه مخاطبات استقرت على أمور أتت المفاوضة عليها، وأثبت منها في هذه المواصفة ما احتيج إلى إثباته منها " أمر " عام للفريقين، وقسمان يختص كل واحد منهما بواحد منهما.

فأما الأمر الذي يجمعهما عمومه، ويكتنفهما شموله، فهو: أن يتخالص شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس، وصمصام الدولة وشمس الملة أبو كاليجار في ذات بينهما، ويتصافيا في سرائر قلوبهما، ويرفضا ما كان جره عليهما سفهاء الأتباع: من ترك التواصل، واستعمال التقاطع، ويرجعا عن وحشة الفرقة، إلى أنس الألفة، وعن منقصة التنافر والتهاجر، إلى منقبة التبار والتلاطف، فيكون كل واحد منهما مريداً لصاحبه من الصلاح مثل الذي يريده لنفسه، ومعتقداً في الذب عن بلاده وحدوده مثل الذي يعتقده في الذب عما يختص به، ومسرا مثل ما يظهره: من موالاة وليه، ومعاداة عدوه، والمراماة لمن راماه، والمصافاة لمن صافاه؛ فإن نجم على أحدهما ناجم، أو راغمه مراغم، أو هم به حاسد، أو دلف إليه معاند، اتفقا جميعاً على مقارعته: قريباً كان أو بعيداً، وترافدا على مدافعته: دانيا كان أو قاصياً، وسمح كل منهما لصاحبه عند الحاجة إلى المواساة في ذلك في سائر أحداث الزمان ونوبه، وتصاريفه وغيره، بما يتسع ويشتمل عليه طوقه من مال وعدة، ورجال ونجدة، واجتهاد وقدرة، لا يغفل أخٌ منهما عن أخيه، ولا يخذله ولا يسلمه، ولا يترك نصرته، ولا ينصرف عن مؤازرته ومظاهرته بحال من الأحوال التي تستحيل بها النيات: من إرغاب مرغب، وحيلة محتال، ومحاولة

محاول، ولا يقبل أحدهما مستأمناً إليه من جهة صاحبه: من جندي، ولا عامل، ولا كاتب، ولا صاحب، ولا متصرف في وجه من وجوه التصرفات كلها، ولا يجير عليه هارباً، ولا يعصم منه مواربا، ولا يتطرف له حسداً، ولا يتحيفه حقاً، ولا يهتك له حريماً، ولا يتناول منه طوفاً، ولا يخيف له سبيلاً، ولا يتسبب إلى ذلك بسبب باطن، ولا باعتلال ظاهر، ولا يدع موافقته، وملاءمته، ومعاونته ومظافرته في كل قول وفعل، وسر وجهر، على سائر الجهات، وتصرف الحالات، ووجوه التأويلات. يلتزم كل واحد منهما ذلك لصاحبه التزاماً على التماثل والتعادل، والتوازي والتقابل.

وأما الأمر الذي يختص شرف الدولة و زين الملة به ويلتزمه صمصام الدولة وشمس الملة له، فهو أن يقدمه صمصام الدولة وشمس الملة على نفسه، ويعطيه ما أعطاه الله له من فضل سنه، ويطيعه في كل ما أفاد الدولة الجامعة لهما صلاحاً، وهاض من عدوهما جناحاً، وعاد على وليهما بعز، وعلى عدوهما بذل، وأن يقيم صمصام الدولة الدعوة على منابر ما في يده من مدينة السلام وسائر البلدان والأمصار، التي أحاطت بهما حقوقه، وضربت عليهما حدوده، لأمير المؤمنين ثم لشرف الدولة وزين الملة أبي الفوارس، ثم لنفسه ويجري الأمر في نقش سكك دور الضرب التي يطبع بها الدينار والدرهم في جميع هذه البلاد على المثال، ويوفي صمصام الدولة وشمس الملة كاليجار شرف الدولة وزين الملة أبا الفوارس في المكاتبات والمخاطبات حق التعظيم، وشعار التفخيم، على التقرير بينه وبين خرشيد بن ديار بن مأفنة في ذلك.

وأما الأمر الذي يختص صمصام الدولة وشمس الملة أبو كاليجار به، ويلتزمه شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس له، فهو ترك التعرض لسائر ممالكه، وما يتصل بها من حدودها الجارية معها، والإفراج منها عما يؤده ويسرع إليه أصحاب شرف الدولة وزين الملة، وتجنب التخيف لها أو لشيء من الحقوق الواجبة فيها، ومراعاته في الأمور التي يحتاج فيها إلى نظره وطوله، وإجماله وفضله، وما يجب على الأخ الأكبر مراعاة أخيه وتاليه فيه، مما ثبتت في هذه المواصفة جملته، واشتملت المفاوضة مع خورشيد بن ديار بن مأفنة على تفصيله.

اتفق شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس، وصمصام الدولة وشمس الملة أبو كاليجار، بأمر أمير المؤمنين الطائع لله، وعلى الاختيار منهما، والانشراح من صدورهما من غير إكراه ولا إجبار، ولا اصطبار ولا اضطرار - على الرضا بذلك كله، والالتزام له، ويصير جمعيه عهداً مرجوعاً إليه، وعقداً معمولاً عليه، وحلف كل منهما على ما يلتزمه من ذلك يميناً عقدها بأن يحلف صاحبها بمثلها، على ما يلتزمه منه. فقال صمصام الدولة: والله الذي لا إله إلا هو " ويستتم اليمين " .

النوع الثاني مما يجري عقد الصلح فيه بين ملكين مسلمين ما يكون العقد فيه من جانب واحد وللكتاب فيه مذهبان:

المذهب الأول أن يفتتح عقد الصلح بلفظ هذا

كما في النوع السابق

وهذه نسخة عقد صلح من ذلك، كتب بها أبو إسحاق الصابي، بين الوزير أبي نصر سابور بن أزدشير، والشريفين: أبي أحمد الحسين بن موسى، وأبي الحسن محمد ابنه الرضي، بما انعقد من الصلح والصهر بين الوزير المذكور، وبين النقيب أبي أحمد الحسين وولده محمد، حين تزوج ابنه محمد المذكور بنت سابور المذكور، وجعله على نسختين، لكل جانب نسخة، بعد البسملة ما صورته: هذا كتاب لسابور بن أزدشير، كتبه له الحسين بن موسى الموسوري، وولده محمد بن الحسين الموسوري.

إنا وإياك - عندما وصله الله بيننا من الصهر والخلطة، ووشجه من الحال والمودة - آثرنا أن ينعقد بيننا وبينك ميثاق مؤكد، وعهد مجدد، تسكن النفوس إليهما،

وتطمئن القلوب معهما، وتزداد الألفة بهما على مرّ الأيام، وتعاقب الأعوام، ويكون ذلك أصلاً مستقراً نرجع جميعاً إليه، ونعول ونعتمد عليه، وتتوارثه أعقابنا، وتتبعنا فيه أخلاقنا.

فأعطيناك عهد الله وميثاقه، وما أخذه على أنبيائه المرسلين، وملائكته المقربين، صلى الله عليهم أجمعين، عن صدور منشرحة وأمال في الصلاح منفسخة - أنا نخلص لك جميعاً وكل واحد منا إخلاصاً صحيحاً يشاكل ظاهره باطنه، ويوافق خافيه عالنه، وأنا نوالي أولياءك، ونعادي أعداءك، ونصل من وصلك، ونقطع من قطعك، ونكون معك في نوائب الزمان وشدائده، وفي فوائده وعوائده، وضمنا لك ضماناً شهد الله بلزومه لنا، ووجوبه علينا، وأنا نصون الكريمة علينا، الأثيرة عندنا، فلانة بنت فلان - أدام الله عزها - المنتقلة إلينا، كما تصان العيون بجفونها، والقلوب بشغافها، ونجريها مجرى كرائه حرمنا، ونفائس بناتنا، ومن تضمه منازلنا وأوطاننا، ونتناهى في إجلالها وإعظامها، والتوسعة عليها في مراغد عيشها وعوارض أوطارها، وسائر مؤنها ومؤن أسبابها، والنهوض والوفاء بالحق الذي أوجبه الله علينا لها ولك فيها، فلا نعدم شيئاً ألفته: من إشبال غليها وإحسان إليها، وذب عنها، ومحاماة دونها، وتعهد لمسارها، وتوخ لمحابها، ونكون جميعاً وكل واحد منا مقيمين لك ولها على جميع ما اشتمل عليه هذا الكتاب في حياتك - أطالها الله - وبعد الوفاة إن تقدمنا، وحوشيت من السوء في أمورك كلها وأحوالك أجمعها.

ثم إنا نقول - وكل واحد منا طائعين مختارين، غير مكرهين ولا مجبرين، بعد تمام هذا العقد بيننا وبينك، ولزومه لنا ولك: والله الذي لا إله إلا هو الطالب الغالب، المدرك المهلك، الضار النافع، المطلع على السرائر، المحيط بما في الضمائر، الذي يعلم خائنه الأعين وما تخفي الصدور وحق محمد النبي، وعلي الرضي - صلى الله عليهما وسلم وشرف ذكرهما

وسادتنا الأئمة الطيبين، الطاهرين، رحمة الله عليهم أجمعين، وحق القرآن العظيم، وما أنزل فيه من تحليل وتحريم، ووعد ووعيد، وترغيب وترهيب، لنفين لك يا

سابور بن أزدشير، والكريمة الأثيرة ابنتك فلانة – أحسن الله رعايتها – بجميع ما تضمنه هذا الكتاب، وفاءً صحيحاً، ولنلتزمن لك ولها شرائطه ووثائقه، فلا نفسخها، ولا ننقضها، ولا نتبعها، ولا نتعقبها، ولا نتأول فيها، ولا نزول عنها، ولا نلتمس مخرجاً ولا مخلصاً منها، حتى يجمعنا الموقف بين يدي الله، والمقدم على رحمة الله، ونحن يومئذ ثابتان عليها، ومؤديان للأمانة فيها، أداء يشهد الله تعالى به وملائكته يوم يقوم الأشهاد، ويحاسب العباد؛ فإن نحن أخللنا بذلك أو بشيء منه، أو تأولنا فيه أو في شيء منه، أو أضمرنا خلاف ما نظهر، أو أسررنا ضد ما نعلن، أو التمسنا طريقاً إلى نقضه، أو سبيلاً إلى فسخه، أو ألممنا بإخفار ذمة من ذممه، أو انتهاك حرمة من حرمه، أو حل عصمة من عصمه، أو إبطال شرط من شروطه، أو تجاوز حد من حدوده – فالذي يفعل ذلك منا يوم يفعله أو يعتقده، وحين يدخل فيه ويستجيزه – بريء من الله جل ثناؤه، ومن نبوة رسوله محمد، ومن ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلى الله عليهما وسلم، ومن القرآن الحكيم العظيم، ومن دين الله الصحيح القويم، ولقي الله يوم العرض عليه، والوقوف بين يديه، وهو به – سبحانه – مشرك، ولرسوله صلى الله عليه وسلم مخالف، ولأهل بيته معادٍ، ولأعدائهم موالٍ، وعليه الحج إلى بيت الله الحرام العتيق الذي بمكة: راجلاً، حافياً، حاسراً، وإياؤه عواتق، ونساؤه طوالق، طلاق الحرج والسنة، لا رجعة فيه ولا مثنوية، وأمواله – على اختلاف أصنافها – محرمة عليه، وخارجة عن يديه، وحبيسة في سبيل الله، وبرأه الله من حوله وقوته، وألجأه إلى حوله وقوته.

وهذه اليمين لازمة لنا، وقد أطلق كل واحد منا بها لسانه، وعقد عليها ضميره؛ والنية في جميعها نية فلان، لا يقبل الله من كل واحد منا إلا الوفاء بها، والثبات عليها، والالتزام بشروطها، والوقوف على حدودها، وكفى بالله شهيداً، وجازياً لعباده ومثيباً. وذلك في يوم كذا، من شهر كذا، من سنة كذا.

المذهب الثاني افتتاح عقد الصلح بالحمد لله

أن تفتتح عقد الصلح بخطبة مفتتحة ب " الحمد لله وربما كرر فيها التحميد
إعلاماً بعظيم موقع النعمة

وهذه نسخة عقد صلح كتب بها أبو الحسين أحمد بن سعد عن بعض الأمراء لمن كان......

ونصها على ما ذكره في " كتاب البلاغة " في الترسل، بعد البسملة: الحمد لله الذي خلق العباد بقدرته، وكون الأمور بحكمته، وصرفها على إرادته. لم يلطف عنه خفي، ولا امتنع عنه قوي؛ ابتدع الخلائق على اختلاف فطرها، وتباين صورها، من غير مثال احتذاه، ولا رسم اقتفاه، وأيديهم بنعمته، فيما ركبه فيهم من الأدوات الدالة على ربوبيته، الناطقة بوحدانيته، واكتفوا بالمعرفة به - جل جلاله - بخبر العقول، وشهادة الأفهام، ثم استظهر لهم في التبصرة، وغلبهم في الحجة، برسل أرسلها، وآيات بينها، ومعالم أوضحها، ومنارات لمسالك الحق رفعها، وشرع لهم الإسلام ديناً وارتضاه واصطفاه، وفضله واجتباه، وشرفه وأعلاه، وجعله مهيمناً على الدين كله، وقدر العز لحزبه وأهله، فقال جل جلاله: " هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون " وأيده بأنبيائه الداعين

إليه، والناهجين لطرقه، والهادين لفرائضه، والمخبرين عن شرائعه، قرناً بعد قرن، وأمة بعد أمة، وفترة بعد فترة،وبينة بعد بينة، حتى انتهى تقديره - جل جلاله - أن بعث النبي الأمي، الفاضل الزكي، الذي قفى به على الرسل، ونسخ بشريعته شرائع الملل، وبدينه أديان الأمم، على حين تراخي فترة، وترامي حيرة؛ فأباخ به نيران الفتن بعد اضطرامها، وأضاء به سبل الرشاد بعد إظلامها، على علم منه - تعالى ذكره - بما وجده عنده من النهوض بأعباء الرسالة، والقيام بأداء الأمانة، فأزاح بذلك العلة، وقطع المعذرة، ولم يبق للشاك موضع شبهة، ولا لمعاند دعوة مموهة، حتى مضى حميداً تشهد له آثاره، وتقوم بتأييد سنته أخباره، قد خلف في أمته، ما أصارهم به إلى عطف الله ورحمته، والنجاة من عقابه وسخطه، إلا

من شقي بسوء اختياره، وحرم الرشاد بخذلاته، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين أفضل صلاة وأتمها، وأوفاها وأعمها.

والحمد لله الذي خص سيدنا الأمير بالتوفيق، وتوحده بالإرشاد والتسديد، في جميع أنحائه، ومواقع آرائه، وجعل همته " إذ كانت الهمم منصرفة إلى هشيم الدنيا وزخارفها، التي يتحلى بها الأنبياء وتدعوها إلى نفسها " مقصورة على ما يجمع له رضا ربه، وسلامة دينه، واستقامة أمور مملكته، وصلاح أحوال رعيته، وأيده في هذه الحال المعارضة، والشبهة الواقعة، التي تحار في مثلها الآراء، وتضطرب الأهواء، وتتنازع خواطر النفوس، وتفتلج وساوس الصدور، ويخفى موقع الصواب، ويشكل منهج الصلاح - بما اختار له من السلم والموادعة، والصلح والموافق، الذي أخبر الله تعالى في كتابه على فضله، والخير الذي في ضمنه، بقوله جل وعز: " الصلح خير " وقوله جل ذكره: " وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله " حتى أصبح السيف مغموداً، ورواق الأمن ممدوداً، والأهواء متفقة، والقلوب مؤتلفة، والكلمة مجتمعة، ونيران الفتن والضلالة خامدة، وظنون بغاتها والساعين لها كاذبة، وطبقات الأولياء والرعية - بما أعيد إليهم من الأمنة تعقب الخيفة، والأنسة من بعد الوحشة - مستبشرة، وإلى الله عز وجل - في إطالة بقاء الأمير وإدامة دولته، وحراسة نعمته وتثبيت وطأته - راغبينن وفي مسالمته مخلصين. ولو لم يكن السلم في كتاب الله مأموراً به، والصلح مخبراً عن الخير الذي فيه، لكان فيما ينتظم به: من حقن الدماء، وسكون الدهماء، ويجمع من الخلال المحمودة، والفضائل الممدودة، المقدم ذكرها - ما حدا عليه، ومثل للعقول السليمة والآراء الصحيحة موضع الخير فيه، وحسن العائدة على الخاص والعام به، فيما يتجلى للعيون، من مشتبهات الظنون، إذ الدين واقع، والشك جانح بين المحق والمبطل، والجائز والمقسط، وقد قال الله جل ثناؤه: " ولولا رجال مؤمنون نساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرةبغير علم " ناظراً للمسلمين من معرة أو مضرة تلحق بعضهم بغير علم، ومؤثراً تطهيرهم من ظن العدوان، مع رفعه عنهم فرطات النسيان، وكافاً أيدي المسلمين عن المشركين، كما كف أيديهم عن المسلمين، تحننا على بريته، وإبقاءعلى أهل معصية، إلى أن يتم

لهم الميقات الذي أدناه، والأمر الذي أمضاه، وموقع الحمد في عاقبته، والسلامة في خاتمته، وبلغهم من غاية البقاء أمدها، ومن مرافق العيش أرغدها، مقصورة أيدي النوائب عما خوله، ومعصومة أعين الحوادث عما نوله، إنه جوادٌ ماجدٌ.
قلت: وعلى هذا الذهب كتب عقد الصلح بين السلطان الملك الناصر أبي السعادات " فرج " بن السلطان الملك الظاهر " برقوق " ، وبين المقام الشريف القطبي تيمور كوركان صاحب ما وراء النهر، بعد طروقه الشام وفتحه دمشق وتحريقها وتخزينها، وإرسال كتابه في معنى طلب الصلح، وإرسال الأمير أطلمش لزمه، المأسور في الدولة الظاهرية " برقوق " صحبة الخواجا نظام الدين مسعود الكججاني. جهز ذلك إليه قرين كتاب من الأبواب السلطانية صحبة الخواجا مسعود المذكور، والأمير شهاب الدين بن أغلبك، والأمير قانبيه، في جمادى الأولى سنة خمس وثمانمائة، بإشارة المقر الفتحي صاحب ديوان الإنشاء الشريف، من إنشاء الشيخ زين الدين طاهر، ابن الشيخ بدر الدين حبيب الحلبي، أحد كتاب الدست الشريف بالأبواب السلطانية، وهو مكتوب في قطع...... بقلم...... وفي طرته ما صورته:

" مرقوم شريف جليل عظيم، مبجل مكرم جميل نظيم، مشتمل على عقد صلح افتتحه المقام الشريف، العالي، القطبي، نصرة الدين، تيمور كوركان، زيدت عظمته، يكون بينه وبين المقلم الشريف، السلطان، المالك، الملك الناصر أبي السعادات " فرج " بن السلطان الشهيد، الملك الظاهر أبي سعيد " برقوق " خادم الحرمين الشريفين، خلد الله تعالى ملكه، انعقد بمباشرة السفير عن المقام الشريف القطبي، المشار إليه ووكيله في ذلك، الخواجا نظام الدين مسعود الكججاني، بشهادة منحضر صحبته من العدول بالتوكيل المذكور، على حكم إشارة مرسله إليه ومضمون مكاتبته، وقصده تجهيز الأمير أطلمش لزمه، وحلف المقام القطبي على الموافاة والمصافاة، واتحاد المملكتين، وإجراء الأمور على السداد، وعمل مصالح العباد والبلاد " والبياض ثلاثة أوصال بوصل الطرة، والبسملة في أول الوصل الرابع بهامش عن يمينها، وتحت البسملة سطر، ثم بيت العلامة. والعلامة بجليل

الثلث بالذهب ما صورته: " الله أملي " .

ونسخة المكتوب بعد البسملة ما صورته: الحمد لله الذي جعل الصلح خير ما انعقدت عليه المصالح، والإصلاح بين الناس أولى ما اتصلت به أسباب المناجح، ةأحق ما نطقت به ألسن المحامد وأثنت عليه أفواه المدائح.

نحمده على نعمه التي جمعت أشتات القلوب الطوائح، وأضافت إلى ضياء الشمس نور القمر فاهتدى بهما كل غادٍ ورائح، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تبلغ قائلها أهنى المنائح، وتتعطر مجالس الذكر بعرف روائحها الروائح، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل من آخى بين المتحاكمين فنصح لله ولأى الصلح من أعظم النصائح، وأكمل رسول انقادت لأخلاقه الرضية، وصفاته المرضية، جوانح النفوس الجوانح، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد، فإن أولى ما اجتمعت عليه آراء أولي الألباب، وركنت إليه قلوب ذوي المعرفة من أهل المودة والأحباب – ائتلاف القلوب بعد اختلافها، واتصافها بالتلبس بأحسن أوصافها، والعمل على الصلح الذي هو أصلح للناس، وأربح متاجر الدنيا والأخرة وأدفع لليأس والبأس، إذ هو مفتاح أبواب الخيرات الشاملة، ومصباح مناهج الفكر الصحيحة الكاملة، والداعي إلى كل فعل جميل، والساعي بكل قول هو شفاء صدى الغليل ونجاة من داء العليل.

ولما كان المقام الشريف، العالي، الكبيري، العالمي، العاملي، المؤيدي، المظفري، الملجئي، الملاذي، الوالدي، القطبي، نصرة الدين، ملجأ القاصدين، وملاذ العابدين، قطب الإسلام والمسلمين، تيمور كوركان، زيدت عظمته – هو الباديء بإحياء هذه السنة الحسنة، والحادي إلى العمل بمقتضى مفاوضته الشريفة التي هي لذلك متضمنة، الواردة إلى حضرة عبد الله ووليه، السلطان المالك، الملك الناصر، زين الدنيا والدين، أبي السعادات " فرج " بن السلطان الشهيد الملك الظاهر، أبي سعيد " برقوق " خادم الحرمين الشريفين – خلد الله تعالى ملكه – على يد سفير حضرته، المجلس السامي، الشيخي، النظامي، مسعود الكججاني، المؤرخة بمستهل شهر ربيع الأول سنة تاريخه.

وجل مضمونها، وسر مكنونها – قصد إيقاع الصلح الشريف بين المشار إليهما، ونسج المودة والمحبة والمصادقة بينهما، وإسبال رداء محاسنها عليهما، بمقتضى تفويض المقام الشريف القطبي المشار إليه الأمر في الصلح المذكور إلى الشيخ نظام الدين مسعود المذكور، وتوكيله إياه فيه، وإقامته مقام نفسه الشريفة، وجعل قوله من قوله، وإنه – عظم الله تعالى شأنه – أشهد الله العظيم عليه بذلك، وأشهد عليه من يضع خطه من جماعته المجهزين صحبة الشيخ نظام الدين مسعود المذكور، وهما: الشيخ بدر الدين أحمد بن الشيخ الإمام العالم شمس الدين محمد بن الجزري الشافعي، والصدر الأجل كمال الدين كمال أغا، وأن ذلك صدر عن المقام الشريف القطبي المشار إليه، لموافقته على الصلح الشريف، وإجابة القصد فيه بإطلاق الأمير أطلمش لزم المقام القطبي المشارإليه، وتجهيزه إلى حضرته العالية، وأنه عاهد الله عز وجل بحضور جم غفير من أمراء دولته وأكابرها، ومن حضر مجلسه، باليمين الشرعية الجامعة لأشتات الحلف: بالله الذي لا إله إلا هو رب البرية وبارئ النسم، على ذلك جميعه، وعلى أنه لا يدخل إلى البلاد الداخلة في مملكة مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه، وأنه مهما عاهد وصالح وعاقد عليه الشيخ نظام الدين مسعود الوكيل المذكور يقضي به المقام القطبي المشار إليه، ويمضيه ويرتضيه، وانفصل الأمر على ذلك.

فعندما وقف مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه – خلد الله تعالى ملكه – على المكاتبة الشريفة المشار إليها، وتفهم مضمونها، ورأى أن المصلحة في الصلح: تبركاً بما ورد في كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم – استخار الله عز وجل، وأمر بتجهيز الأمير أطلمش المذكور، وتسليمه للشيخ نظام الدين مسعود المذكور، وأذن لهما في التوجه إلى حضرة المقام الشريف القطبي المشار إليه: بموافقة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله – أدام الله تعالى أيامه – على ذلك، وحضور الشيخ الإمام الفرد الأوحد، شيخ الإسلام، سراج الدين،عمر البلقيني – أعاد الله تعالى على المسلمين من بركاته – وقضاة القضاة الحكام – أعز الله تعالى أحكامهم – ومشايخ العلم الشريف والصلاح، وأركان الدولة الشريفة، ومن يضع خطه في هذا الصلح الشريف بالشهادة بمضمونه.

وعقد الصلح الشريف بين مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه – خلد الله تعالى ملكه – وبين الشيخ نظام الدين مسعود الوكيل المذكور عن المقام الشريف القطبي المشار إليه – زيدت عظمته – على حكم مضمون مفاوضته الشريفة المقدم ذكرها، وما قامت به البينة الشرعية، بشهادة العدلين المذكورين الواصلين صحبة الوكيل المذكور بالتوكيل المشروح فيه، فكان صلحاً صحيحاً شرعياً، تاماً كاملاً معتبراً مرضياً، على أحسن الأمور وأجملها، وأفضل الأحوال وأكملها.

وحلف مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه – خلد الله ملكه – وعاهد الله عز وجل نظير ما حلف وعاهد عليه المقام الشريف القطبي المشار إليه من القول والعمل، واستقرت بمشيئة الله تعالى الخواطر، وسرت القلوب وقرت النواظر، لما في ذلك من حفظ ذمام العهود الشريفة وإقامة منار الشرع الشريف وامتداد ظلال أعماله الوريفة، وإجراء كلمة الصدق، على لسان أهل الحق، وصون أمانة الله تعالى وشعار دينه بين الخلق، فلا يتغير عقد هذا الصلح الشريف على مدى الليالي والأيام، ولا ينقضي حكمه ولا ينحل إبرامه على توالي السنين والأعوام.

هذا: على أن لا يدخل أحد من عساكرهما وجندهما ومماليكهما إلى حدود مملكة الآخر ، ولا يتعرض إلى ما يتعلق به من ممالك وقلاع، وحصون وسواحل وموان وغير ذلك من سائر الأنواع، ورعاياهما من جميع الطوائف والأجناس، وما هو مختص ببلاد كل منهما ومعروف به بين الناس: حاضرها وباديها، وقاصيها ودانيها، وعامرها وغامرها، وباطنها وظاهرها، ولا إلى من فيها من الرعية والتجار والمسافرين، وسائر الغادين والرائحين في السبل والطرق: متفرقين ومجتمعين.

هذا على أن لا يكون كل من المقامين الشريفين المشار إليهما مع الآخر على أكمل ما يكون في السراء والضراء: من حسن الوفاء، وجميل المودة والصفاء، ويكونا في الاتحاد كالوالد والولد، وعلى المبالغة في الامتزاج والاختلاط كروحين في جسد، ما يضاف إلى ذلك من مصادقة الأصدقاء، ومعاداة الأعداء، ومسالمة المسالمين، ومحاربة المحاربين، في السر والإعلان، والظهر والكتمان؛ وبالله

التوفيق، وهو العالم بما تبدي الأعين وما تخفي الصدور وعليه التكلان في كل الأمور، في الغيبة والحضور، والورود والصدور.

الباب السادس من المقالة التاسعة في الفسوخ الواردة على العقود السابقة وفيه فصلان

الفصل الأول الفسخ وهو ما وقع من أحد الجانبين دون الآخر

قال في " التعريف " وقل أن يكون فيه إلا ما يبعث به على ألسنة الرسل. قال: وقد كتب عمي الصاحب شرف الدين " أبو محمد " عبد الوهاب رحمه الله، سنة دخول العساكر الإسلامية ملطية، سنة أربع عشرة وسبعمائة فسخاً على " التكفور " متملك سيس، كان سبباً لأن زاد قطيعته.

ولم يذكر صورة ما كتبه في ذلك.

وقد جرت العادة أنه إذا كان الفسخ من الجانب الواحد أن يذكر الكاتب فيه موجب الفسخ الصادر عن المفسوخ عليه: من ظهور ما يوجب نقض العهد، ونكث العقد، وإقامة الحجة على المفسوخ عليه من كل وجه.

قال في " التعريف " : والذي أقول فيه: أنه إن كتب فيه، كتب بعد البسملة: هذا ما استخار الله تعالى فيه فلان، استخارة تبين له فيها غدر الغادر، وأظهر له بها سير الباطن ما حققه الظاهر؛ فسخ فيها على فلان ما كان بينه وبينه ومن المهادنة التي كان آخر الوقت الفلاني آخر مدتها، وطهر السيوف الذكور فيها من الدماء إلى انقضاء عدتها، وذلك حين بدا منه من موجبات النقض، وحل المعاقدة التي كانت يشد بعضها ببعض " وهي كذا وكذا، وتذكر وتعد " مما يوجب كل ذلك إخفار الذمة، ونقض العهود المرعية الحرمة، وهد قواعد الهدنة، وتخلية ما كان قد أمسك من الأعنة؛ كتب إنذاراً، وقدم حذاراً؛ وممن يشهد بوجوب هذا الفسخ، ودخول ملة

تلك الهدنة في حكم هذا النسخ، ما تشهد به الأيام، ويحكم به عليه النصر المكتتب للإسلام؛ وكتب هذا الفسخ عن فلان لفلان وقد نبذ إليه عهده، وأنجز وعده، وأنفذ إليه سهمه بعد أن صبر ملياً على ممالاته، وأقام مدة يداري مرض وفائه ولا ينجح فيه شيء من مداواته، ولينصرن الله من ينصره، ويحذر من يأمن مكره من يحذره؛ وأمر فلان بأن يقرأ هذا الكتاب على رؤوس الأشهاد، لينقل مضمونه إلى البلاد، أنفة من أمر لا يتأدى به الإعلان، وينصب به هذا الغادر لواء لا يقال إذا يقال: هذا اللواء لغدرة فلان بن فلان.

الفصل الثاني المفاسخة هي ما يكون من الجانبين جميعاً

قال في " التعريف " : وصورة ما يكتب فيها: هذا ما اختاره فلان وفلان من فسخ ما كان بينهما من المهادنة التي هي إلى آخر مدة كذا . اختارا فسخ بنائها، ونسخ أنبائها، ونقض ما أبرم من عقودها، وأكد من عهودها، جرت بينهما على رضا من كل منهما بإيقاد نار الحرب التي كانت أطفئت، وإثارة تلك الثوائر التي كانت كفيت، نبذاه على سواء بينهما، واعتقاد من كل منهما، أن المصلحة في هذا لجهته، وأسقط ما كان يحمله للآخر من ربقته، ورضي فيه بقضاء السيوف، وإمضاء أمر القدر والقضاء في مساقات الحتوف، وقد أشهدا عليهما بذلك الله وخلقه ومن حضر، ومن سمع ونظر وكان ذلك في تاريخ كذا وكذا.

المقالة العاشرة في فنون من الكتابة يتداولها الكتاب وتتنافس في عملها ليس لها تعلق بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها فيها بابان

الباب الأول في الجديات وفيه ستة فصول

الفصل الأول في المقامات

وهي جمع مقامة بفتح الميم؛ وهي في أصل اللغة اسم للمجلس والجماعة من الناس. وسميت الأحدوثة من الكلام مقامة، كأنها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها. أما المقامة بالضم، فبمعنى الإقامة، ومنه قوله تعالى حكاية عن أهل الجنة: " الذي أحلنا دار المقامة من فضله " .

واعلم أن أول من فتح باب عمل المقامات، علامة الدهر، وإمام الأدب، البديع الهمذاني: فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه، وهي في غاية من البلاغة، وعلو الرتبة في الصنعة. ثم تلاه الإمام أبو محمد القاسم الحريري، فعمل مقاماته الخمسين المشهورة، فجاءت نهاية في الحسن، وأتت على الجزء الوافر من الحظ، وأقبل عليها الخاص والعام، حتى أنست مقامات البديع وصيرتها كالمرفوضة. على أن الوزيرضياء الدين بن الأثير في " المثل السائر " لم يوفه حقه، ولا عامله بالإنصاف، ولا أجمل معه القول، فإنه قد ذكر أنه ليس له يد في غير المقامات، حتى ذكر عن الشيخ أبي محمد أحمد بن الخشاب أنه كان يقول:إن الحريري رجل مقامات، أي إنه لم يحسن من الكلام المنثور سواها، فإن أتى بغيرها فلا يقول شيئاً. وذكر أنه لما حضر بغداد، ووقف على مقاماته، قيل: هذا يستصلح لكتابة الإنشاء في ديوان الخلافة، ويحسن أثره فيه، فأحضر وكلف كتابة كتاب فأفحم، ولم يجر لسانه في طويله ولا قصيره، حتى قال فيه بعضهم:

شيخ لنا من ربيعة الفرس ... ينتف عثنونه من الهوس
أنطقه الله بالمشان وفي ... بغداد أضحى الملجوم بالخرس!

واعتذر عنه بأن المقامات مدارها جميعها على حكاية تخرج إلى مخلص، بخلاف المكاتبات فإنها بحر لا ساحل له، من حيث أن المعاني تتجدد فيها بتجدد حوادث الأيام، وهي متجددة على عدد الأنفاس.

وهذه المقامة التي قدمت الإشارة إليها في خطبة هذا الكتاب، إلى أني كنت أنشأتها

في حدود سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، عند استقراري في ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة، وأنها اشتملت – مع الاختصار – على جملة جمة من صناعة الإنشاء، ووسمتها ب " الكواكب الدرية، في المناقب البدرية " ووجهت القول فيها لتقريظ المقر البدري، بن المقر العلائي، بن المقر المحيوي، بن فضل الله، صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية يومئذ، جعلت مبناها على أنه لا بد للإنسان من حرفة يتعلق بها، ومعيشة يتمسك بسببها، وأن الكتابة هي الحرفة التي لا يليق بطالب العلم سواها، ولا يجوز له العدول عنها إلى ما عداها، مع الجنوح فيها إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها، وتقديمها على كتابة الديونة وترشيحها. وقد اشتملت على بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد، وما ينبغي أن يسلكه من الجواد، مع التنبيه على جملة من المصطلح بينت مقاصده، ومهدت قواعده، على ما ستقف عليه في خلال مطاويها إن شاء الله تعالى؛ وهي: حكى الناثر ابن نظام، قال: لم أزل من قبل أن يبلغ بريد عمري مركز التكليف، ويتفرق جمع خاطري بالكلف بعد التأليف؛ أنصب لاقتناص العلم أشراك التحصيل، وأنزه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل، مشمراً عن ساق الجد ذيل الاجتهاد، مستمراً على الوحدة وملازمة الانفراد، أنتهز فرصة الشباب قبل توليها، وأغتنم حالة الصحة قبل تجافيها؛ وقد حالف جفني السهاد، وخالف طيب الرقاد، أمرن النفس على الاشتغال كي لا تمل فتنفر عن الطلب وتجمح، مميلاً جانب قصدها عن ركوب الأهواء والميل إليها، صارفاً وجه غايتها عن المطالب الدنيوية والركون إليها، متخيراً أليق الأماكن وأوفق الأوقات، قانعاً بأدنى العيش راضياً بأيسر الأقوات، أونس من شوارد العقول وحشيها، وأشرد عن روابض المنقول حوشيها، وألتقط ضالة الحكمة حيث وجدتها، وأقيد نادرة العلم حيث أصبتها، مقدماً من العلوم أشرفها، ومؤثراً من الفنون ألطفها، معتمداً من ذلك ما تألفه النفس ويقبله الطبع، مقبلاً منه على ما يستجلي حسنه النظر ويستحلي ذكره السمع، منتقياً من الكتب أمتعها تصنيفاً، وأتمها تحريراً وأحسنها تأليفاً، منتخباً من أشياخ الإفادة أوسعهم علماً وأكثرهم تحقيقاً، ومن أقران المذاكرة أروضهم

بحثاً وألطفهم تدقيقاً، عارفاً لكل عالم حقه، وموفياً لكل علم مستحقه؛ قد استغنيت بكتابي عن خلي ورفيقي، وآثرت بيت خلوتي على شفيقي وشقيقي؛ أجوب فيافي الفنون لتظهر لي طلائع الفوائد وأشهدها عياناً، وأجول في ميدان الأفكار لتلوح لي كمائن المعاني فلا أثني عنها عنانا، وأشن غارات المطالعة على كتائب الكتب فأرجع بالغنيمة، وأهجم على حصون الدفاتر ثم لا أولي عن هزيمة، بل كلما لاحت لي فئة من البحث تحيزت إليها، أو ظهرت لي كتيبة من المعاني حملت عليها، إلىأن أتيح لي من الفتح مأأفاضته النعمة، وحصلت من الغنيمة على ما اقتضته القسمة.

فبينما أنا أرتع في رياض ما نفلت، وأجتني ثمار ما خولت، إذ طلع علي جيش التكليف فحصرني، وخرج عليّ كمين التكليف فأسرني، فأمسيت أضيق خناق، وأشد وثاق، قد عاقني قيد الاكتساب عن الاشتغال، وصدني كل الكد عن الاهتمام بالطلب والاحتفال، فغشني من القبض ما غشيني، وأخذني من الوحشة ما أخذني، وتعارض في حكم العقل بين الكسب وطلب العلم، وتساوياً في الترجيح فلم تجنح واحدة منهما إلى السلم، فصرت مدهوشاً لا أحسن صنعاً، وبقيت متحيراً لا أدري إي الأمريين أقرب إليّ نفعاً: إن طلبت العلم للكسب فقد أفحشت رجوعاً، وإن تركت الكسب للعلم هلكت ضيعة ومت جوعاً.

فلما علمت أن كلاً منهما لا يقوم إلا بصاحبه، ولا يتم الواجب في أحدهما ما لم يقم في الآخر بواجبه، التمست كسباً يكون للعلم موافقاً، وبحملته لائقاً، ليكون ذلك الكسب للعلم موضوعاً والعلم عليه محمولاً، والجمع ولو بوجه أولى، فجعلت أسبر المعايش سبر متقصد وأسير في فلوات الصنائع سير متعهد، لكي أجد حرفة تطابق أربي، أو صنعة تجانس طلبي.

فبينما أنا أسير في معاهدها، وأردد طرفي في مشاهدها، إذ رفع لي صوت قرع سمعي برنته، وأخذ قلبي بحنته، فقفوت أثره متبعاً، وملت إليه مستمعاً، فإذا رجل من أحسن الناس شكلاً، وأرجحهم عقلاً، وهو يترنم وينشد:

إن كنت تقصدني بظلمك عامداً ... فحرمت نفع صداقة الكتاب
السائقين إلى الصديق ثرى الغنى ... والناعشين لعثرة الأصحاب

والناهضين بكل عبء متقل ... والناطقين بفصل كل خطاب
والعاطفين على الصديق بفضلهم ... والطيبين روائح الأثواب
ولئن حجدتهم الثناء فطالما ... جحد العبيد تفضل الأرباب!

فلما سمعت منه ذلك، وأعجبنيمن الوصف ما هنالك، دنوت منه دنو الواجل، وجاست بين يديه جلوس السائل، وقلت: هذه وأبيك صفات الملوك بل ملوك الصفات، وأكرم الفضائل بل أفضل المكرمات، ولم أكأظن أن للكتابة هذا الخطر الجسيم، وللكتاب هذا الحظ العظيم، فأعرض مغضباً، ثم فوق بصره إلي معجباً، وقال: هيهات فاتك الحزم، وأخطأك العزم، إنها لمن أعظم الصنائع قدراً، وأرفعها ذكراً، نطق القرآن الكريم بفضلها، وجاءت السنة الغراء بتقديم أهلها، فقال تعالى جل ثناؤه، وتبركت أسماؤه: " اقرأوربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم " فأخبر تعالى أنه علم بالقلم، حيث وصف نفسه بالكرم، إشارة إلى أن تعليمها من جزيل نعمته، وإيذانا بأن منحها من فائض ديمه؛ وقال جل قدرته: " ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك مجنون " فأقسم بالقلم وما سطرته الأقلام، وأتى بذلك في آكد قسم فكان من أعظم الأقسام. وقال تقدست عظمته: " وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين " فجعل الكتابة من وصف الكرام، كما قد جاء فعلها عن جماعة من الأنبياء عليهم السلام؛ وإنما منعها النبي، صلى الله عليه وسلم، معجزة قد بين تعالى سببها، حيث ذكر إلحادهم بقوله: " وقالوا أساطير الأولين اكتتبها " . هذا: وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في كثرة الكتاب راغباً، فقد روي أنه كان له عليه أفضل الصلاة والسلام نيف وثلاثون كتاباً، هم نخبة أصحابه، وخلاصة أترابه، ومن ائتمنهم على أسرار الوحي والتنزيل، وخطب بالسنة أقلامهم ملوك الأرض وأجابوا بالإذعان على البعد والمدى الطويل؛ وكتب الملوك أيضاً إليه ابتداءً وجواباً، وكاتب أصحابه وكاتبوه فأحسن استماعاً وأفحم خطاباً، وبذلك جرت سنة الخلفاء الراشدين فمن تلاهم، وعلى نهجه مشت ملوك الإسلام ومن ضاهاهم.

فالكتابة قانون السياسة، ورتبتها غاية رتب الرياسة؛ عندها تقف الإنافة، وإليها تنتهي مناصب الدنيا بعد الخلافة؛ والكتاب عيون الملوك المبصرة وآذانهم الواعية،

وألسنتهم الناطقة وعقولهم الحاوية، بل محض الحق الذي لا تدخله الشكوك؛ وإن الملوك إلى الكتاب أحوج من الكتاب إلى الملوك؛ وناهيك بالكتابة شرفاً، وأعل بذلك رتبة وكفى، أن صاحب السيف والعلم يزاحم الكاتب في قلمه، ولا يزاحم الكاتب صاحب السيف والعلم في سيفه وعلمه.

وعلى الجملة فهم الحاوون لكل وصف جميل، وشأن نبيل؛ الكرم شعارهم، والحلم دثارهم، والجود جادتهم، والخير عادتهم، والأدب مركبهم، واللطف مذهبهم؛ ولله و القائل:

وشمول كأنما اعتصروها ... من معاني شمائل الكتاب!

فلما انقضى قيله، وبانت سبيله، قلت: لقد ذكرت قوماً راقني وصفهم، وشاقني لطفهم، ودعاني طيب حديثهم، وحسن أوصافهم، وجميل نعوتهم، إلى إن أحل بناديهم وأنزل بواديهم، فأجعل حرفتهم كسبي، وصنعتهم دأبي، ليجتمع بالعلم شملي، ويتصل بالاشتغال حبلي، فأكون قد ضفرت بمنيتي، وفزت ببغيتي، فأي قبيل من الكتاب أرادت؟ وإلى أي نوع من الكتاب أشرت؟ أكتابة الأموال؟ أم كتابة الإنشاء والخطابة؟ ، أم غيرهما من أنواع الكتابة؟ فنظر إلي متبسماً، وأنشد مترنماً:

قوم إذا أخذوا الأقلام من غضب ... ثم استمدوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا ... ما لم ينالوا بحد المشرفيات!

فقلت: كأنك تريد كتابة الإنشاء دون سائر الكتابات، وهي التي تقصدها بالتصريح وتشير إليها بالكنايات؛ فقال: وهل في أنواع الكتابة جملة نوع يساويها، أو في سائر الصنائع على الإطلاق صنعة تضاهيها؟ إن لها للقدح المعلى، والجيد المحلى، والذروة المنيفة، والرتبة الشريفة؛ كتابها أس الملك وعماده، وأركان الملك وأطواده، ولسان المملكة الناطق، وسهمها المفوق الراشق؛ ولله حبيب بن أوس الطائي حيث يقول:

ولضربة من كاتب ببنانه ... أمضى وأقطع من رقيق حسام!
قوم إذا عزموا عداوة حاسد ... سفكوا الدما بأسنة الأقلام!

قلمها يبلغ الأمل، ويغني عن البيض والأسل؛ به تصان المعاقل، وتفرق الجحافل:

فلكم يفل الجيش وهو عرمرم ... والبيض ما سلت من الأغماد!
فقلت: إن كتاب الأموال يزعمون أن لهم في ذلك المقام الأعلى، والطريقة المثلى، ويستشهدون لفضلها، تقدم أهلها، وتقدم أهلها، بقول الإمام أبي محمد القاسم الحريري، رحمه الله، في مقاماته: " صناعة الحساب مبنية على التحقيق، وصناعة الإنشاء مبنية على التلفيق، وقلم الحاسب ضابط، وقلم المنشيء خابط؛ وبين إتاوه توظيف المعاملات، وتلاوة طوامير السجلات، بون لا يدركه قياس، ولا يعتوره التباس؛ إذ الأتاوة تملأ الأكياس، والتلاوة تفرغ الرأس، وخراج الأوراج، يغني الناظر، واستخراج المدارج، يعني الخاطر؛ يعني الخاطر؛ والحسبة حفظة الأموال، وحملة الأثقال؛ والنقلة الأثبات، والسفرة الثقات؛ وأعلام الإنصاف والانتصاف، والشهود المقانع في الاختلاف؛ ومنهم المستوفي الذي هو يد السلطان، وقطب الديوان؛ وقسطاس الأعمال، والمهيمن على العمال؛ وإليه المآب في السلم والهرج، وعليه المدار في الخل والخرج؛ وبه مناط الضر والنفع، وفي يده رباط الإعطاء والمنع؛ ولولا قلم الحساب، لأودت ثمرة الاكتساب، ولا تصل التغابن إلى يوم الحساب؛ ولكان نظام المعاملات محلولاً، وجرح الظلامات مطلولاً، " وجيد التناصف مغلولاً " ، وسيف التظالم مسلولاً؛ على أن يراع الإنشاء متقول، ويراع الحساب متأول، والمحاسب مناقش، والمنشيء أبو براقش " فوصف كتابة الأموال بأتم الصفات، ونبه من شيم أهلها وشياتهم على أكرم الشيم وأحسن الشيات.

فقال هذه الحجة معارضة بمثلها، بل باطلة من أصلها؛ وأين ذلك من قوله في صدر كلامه؟: " اعلموا أن صناعة الإنشاء أرفع، وصناعة الحساب أنفع؛ وقلم المكاتبة خاطب، وقلم المحاسبة حاطب؛ وأساطير البلاغات تنسج لتدرس، ودساتير الحسبانات تنسج وتدرس؛ والمنشيء جهينة

الأخبار، وحقيبة الأسرار، ونجي العظماء، وكبير الندماء؛ وقلمه لسان أسرار الدولة، وفارس الجولة، ولقمان الحكمة، وترجمان الهم؛ وهو البشير والنذير، والشفيع والسفير به تستخلص الصياصي، وتملك النواصي، ويقتاد العاصي،

ويستدنى القاصي؛ وصاحبه بريء من التبعات، آمن كيد السعاة، مقرظ بين الجماعات، غير معرض لنظم الجماعات،.

فهذه أرفع المراتب، وأشرف المناقب، التي لا يعتورها شين، ولا يشوبها مين؛ وصدر الكلام يقتضي الترجيح ويؤذن بالترشيح؛ والرفع، أبلغ في الوصف من النفع؛ فقد ينتفع بالنزر اليسير، ولا يرتفع إلا بالأمر الكبير، على أنه لو أعتبر نفع كتابة الإنشاء لكان أبلغ، وإقامة الدليل عليه أسوغ؛ وأنى لكتاب الأموال، من التأثير في فل الجيوش من غير قتال، وفتح الحصون من غير نزال؛ فهذه هي الخصيصى التي لا تساوى، والمنقبة التي لا تناوى:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيباً بماء فعاد بعد أبوالا!

فقلت: الآن قد انقطعت الحجة، وبانت المحجة، فما الذي يحتاج كاتب الإنشاء إلى ممارسته؟ فقال: إذاً قد تعلقت من الصنعة بأسبابها، وأتيت البيوت من أبوابها.

اعلم أن كاتب الإنشاء لا تظهر فصاحته، وتبين بلاغته، وتقوى يراعته، وتجل براعته، إلا بعد تحصيل جملة من العلوم، ومعرفة الاصطلاح والاحاطة بالرسوم؛ ثم أهم ما يبدأ بتحصيله، ويعتمد عليه في جملة الأمر وتفصيله، حفظ كتاب الله العزيز الذي هو معدن الفصاحة، وعنصر البلاغة، وإدامة قراءته وتكرير مثانيه، مع العلم بتفسيره وتدبر معانيه، حتى لا يزال دائراً على لسانه حاضراً في ذكره، ولا يبرح معناه ممثلاً في قلبه مصوراً في فكره، ليكون مستحضراً له في الوقائع التي يحتاج إلى الاستشهاد به فيها، ويضطر إلى إقامة الأدلة القاطعة عليها، فلله الحجة البالغة، ولآياته الأجوبة الدامغة؛ خصوصاً السير والأحكام، وما يتعلق بذلك من مهمات الدين وقواعد الإسلام، وما اشتمل عليه كلام النبوة من الألفاظ البديعة التي أبكمت الفصحاء، والمعاني الدقيقة التي أعيت البلغاء؛ مع النظر في معانيها ومعرفة غريبها، والاطلاع على ما للعلماء في ذلك من الأقوال بعيدها وقريبها، لتكون أبداً حجته ظاهرة، وأدلته قوية متظاهرة؛ فإن الدليل إذا استند إلى النص انقطع النزاع وسلم المدعى ولزم؛ والفصاحة والبلاغة غايتهما – بعد كتاب الله تعالى – في كلام من أوتي جوامع الكلم؛ والعلم بالأحكام السلطانية وفروعها، وخصوصها وشيوعها، والتوغل في أشعار العرب والمولدين، وأهل الصناعة من

المحدثين، وما ورد عن كل فريق منهم من الأمثال نثراً ونظماً، وما جرى بينهم من المحاورات والمناقضات حرباً وسلماً؛ والتعويل من ذلك على الأشعار البديعة التي اختارها العلماء بها، فتمسكوا بأوتادها وتعلقوا بسببها، والأمثال الغريبة التي انتقوها، ودونوها ورووها، واستيضاح القسمين واستكشاف غوامضهما، واستظهار النوعين واستمطار عوارضهما، والاطلاع على خطب البلغاء، ورسائل الفصحاء، وما وقع لهم في مخاطباتهم، ومكاتباتهم، والعلم بأيام العرب وحروبهم، وما كان من الوقائع بين قبائلهم وشعوبهم، والنظر في التواريخ وأخبار الدول الماضية، والقرون الخالية، وسير الملوك وأحوال الممالك، ومعرفة مكايدهم في الحرب المنقذة من المهاوي والمنجية من المهالك مع سعة الباع في اللغة التي هي رأس ماله، وأس مقاله، وكنزه المعد للإنفاق، ومعينه بل مغيثه وقت الضرورة على الإطلاق، والنحو الذي هو ملح كلامه، ومسك ختامه، والتصريف الذي تعرف به أصول أبنية الكلمة وأحوالها، وكيفية التصرف في أسمائها وأفعالها وعلوم المعاني والبيان والبديع التي هي حلية لسانه، وآية بيانه، ومعرفة أبوابها وفصولها، وتحقيق فروعها وأصولها: من الفصاحة وطرائقها، والبلاغة ودقائقها، واختيار المعاني و ترتيبها، ونظم الألفاظ وتركيبها، والفصل والوصل ومواقعهما، والتقديم والتأخير ومواضعهما؛ ومواطن الحذف والإضمار، وحكم الروابط والأخبار، وغير ذلك من الحقيقة والمجاز، والبسط والإيجاز، والحل والعقد، وتمييز الكلام جيده من رديه بصحة النقد، مع معرفة أنواع البديع وطرائقها، والاطلاع على غوامض أسرارها وفرائد دقائقها.

على أن آكد شيء يجب تحصيله قبل كل حاصل، ويستوي في الاحتياج إلى معرفته المفضول من الكتاب والفاضل، العلم بالخط وقوانينه: من الهجاء والنقط والشكل، والفرق بين الضاد والطاء والمتخالفين في الصورة والشكل، مع المعرفة بآلات الكتابة وصفاتها، وتباين أنواعها واختلاف صفاتها.

هذه أصوله التي يبنى عليها، وقواعده التي يرجع إليها؛ فإذا أحاط بهذه الفنون علماً، وأتقنها فهماً، غزرت عنده المواد، واتضحت له الجواد فأخذ في الاستعداد،

وسهل عليه الاستشهاد؛ فقال عن علم وتصرف عن معرفة واستحسن ببرهان، وانتقد بحجة وتخير بدليل وصاغ بترتيب وبنى على أركان، واتسع في العبارة مجاله، وفتح له من باب الأوصاف أقفاله، وتلفى كل واقعة بما يماثلها، وقابل كل قضية بما يشاكلها، وعلم المجيد فنسج على منواله، وظهر له القاصر فأعرض عن أقواله، وحصل له القوة على فهم الخطاب، وأنشأ الجواب بحسب الوقائع والأعراض، على طبق المقاصد والأغراض؛ ومتى أخل بشيء من ذلك فاتته الفضائل، وعلقت به الرذائل، وقلت بضاعته، ونقصت صناعته، وساءت آثاره، وقبحت أخباره؛ وخلط الغرر بالعرر، ولم يميز بين الصدف والدرر، فأخرج الصنعة عن أماكنها، وطمس من الكتابة وجوه محاسنها، فجر اللوم إلى نفسه، وأمسى مهزأة لأبناء جنسه.

ووراء ذلك علوم هي كالنافلة للكاتب، والزيادة للراغب: منها ما تكمل به صناعته، وتعظم به مكانته: كعلم الكلام، وأصول الفقه وسائر الأحكام، والمنطق والجدل، وأحوال الفرق والنحل والملل، وعلم العروض والميزان المحكم، وعلم القوافي وحل المترجم؛ والحساب الفتوح وما يترتب عليه من المعاملة، وما تستخرج به المجهولات: من حساب الخطأين والدرهم والدينار والجبر والمقابلة، وحساب الدور والوصايا، والتخت والميل وما لأعمله على غيرها من المزايا، والعلم بالفلاحة، وأحوال المساحة، وعلم عقود الأبنية والمناظر المحققة، ومراكز الأثقال والمرايا المحرقة، وعلم جر الأثقال الأبية، والعلم بالآلات الحربية، وعلم المواقيت والبنكامات، والتقاويم والزيجات، وعلم تسطيح الكرة والتوصل بها إلى استخراج المطالب الفلكية، وكيفية الأرصاد وأحكام النجوم والآلات الظلية، وعلم الطب والبطرة، وأحوال سائر الحيوان وعلم البيزرة.

ومنها ما تكمل به ذاته،وتتم به أدواته، كعلم التعبير وعلم الأخلاق وعلم السياسة، وعلم تدبير المنزل وعلم الفراسة، وغير ذلك من العلوم التي أضربنا عن ذكرها خشية الإطالة، وعرضنا عن إيرادها خوف الملالة؛ فهذه علوم فضلة يعظم بعلمها أمره، وفضيلة يرتفع بتحصيلها ذكره؛ بل لا يستغني عن العلم برؤوس مسائلها، وإشارات أربابها الآخذة من بحارها بأطراف سواحلها؛ على أنه قد ترد عليه

أوقات لا يسعه جهل ذلك فيها، وتمر عليه أزمان يود لو تشتري فيشتريها.
قلت: قد لي علومها، فما رسومها؟ قال: أعباءها لباهظة حملا، وإنها لكبيرة إلا؛ ولكن سأحدث لك مما سألت ذكرا، وأنبئك بما لم تحط به خبرا.

فمن ذلك: المعرفة بالولايات ولواحقها، على اختلاف مقاصدها وتباين طرائقها، من البيعات وأحكامها، والعهود وأقسامها، والتقاليد وصفاتها، والتفاويض ومضاهاتها، والمراسيم وأوضاعها، والتواقيع وأنواعها، والخطب ومناسباتها، والوصايا ومطابقاتها، ثم العلم بالمناشير ومراتبها، والمربعات الجيشية ومعايبها، ومعرفة رتب المكاتبات وطبقاتها، ومن يستحق من الرتب أو يستوجب الرفع إلى أعلى درجاتها: من المكاتبات الصادرة عن الأبواب الشريفة الخليفتية، والمكاتبات الواردة عليها وعلى أرباب المناصب من سائر الآل والعترة النبوية، وملوك المسلمين والقانات، وملوك الكفر وأرباب الديانات، وأهل المملكة من النواب والكشاف والولاة، والأمراء والوزراء والعربان والقضاة، وسائر حملة الأقلام، وأهل الصلاح وبقية الأعلام، ونساء الملوك والخوندات، ومكاتبات التجار وما عساه يطرأ من المكاتبات المستجدات، وكتب البشرى بوفاء النيل والقدوم من الغزو والسفر، واسترهاف العزائم، والبطائق المحمولة على أجنحة الحمائم، والملطفات التي يضطر إليها، ويعول في الأمور الباطنة عليها، وأوراق الجواز في الطرقات، والإطلاقات في التسفير والمثالات المطلقات، ومعرفة الأوصاف التي يكثر في المكاتبات تكرارها، ويتسق في جيد المراسلات إيرادها
وإصدارها:كوصف الأنواء والكواكب، والأفلاك العلية المراتب، والآلات الملوكية الجديدة المقدار، والسلاح وآلات الحصار، والخيل المسومة، والجوارح المعلمة، وجليل الوحش وسباعه، وطير الواجب وأتباعه، والأمكنة والرياض، والمياه والغياض، وغير ذلك مما يعز ويغلو، ويرتفع ويعلو؛ وإخوانيات المكاتبات وطبقاتها، وتميز كل طبقة منها عن أخواتها، وما تشتمل عليه من الابتداء والجواب، والتشوق والعتاب، والترفق والاعتذار، والشفاعة وطلب الصفح والعفو عند الاقتدار، والتهاني والتعازي، وما يكتب مع الهدية ويجاب عنها من المجازي

وغير المجازي.

وغير ذلك من مقاصد المكاتبات التي يتعذر حصرها، ويمتنع على المستقصي ذكرها؛ ومعرفة الطغراة والطرة والعنوان والتعريف، والعلامة في الكتب على أماكنها الفارقة بين انحطاط القدر والتشريف، وتتريب الكتاب وطيه وختمه، وتعمية ما في الكتب بضرب من الحيلة وإخفاء ذلك وكتمه، ونسخ الأيمان التي يستخلف بها، ويتمسك للوفاء بسببها، كيمين البيعة العامة للموافق والمخالف، وما يختص من ذلك بالنواب وأرباب الوظائف، وأيمان أصحاب البدع والأهواء، وأهل الممل والحكماء، وكتابة الهدن والمواصفات، والأمانات والدفن والمفاسخات، ومعرفة الأسماء والكنى والألقاب، وبيان المستندات ومحلها المصطلح عليه بين الكتاب؛ وكتابة التاريخ وما أخذت به كل طائفة وثابت إليه تمسكاً، وما يفتتح به في الكتابة تيمناً ويختتم به تبركاً؛ ومعرفة قطع الورق: من كامل البغدادي والشامي والثلثين والنصف والثلث والمنصوري والعادة، ومن يستحق من هذه المقادير أعلاها أو يوقف به مع أدنى رتبها من غير زيادة؛ والأقلام المناسبة لهذه الأقدار، من الرقاع والتواقيع والثلث ومختصر الطومار؛ والعلم بالأوضاع وكيفية الترتيب، ومقادير البياض ومباعدة ما بين السطور والتقريب؛ ومعرفة الرزاديق وقطانها، والنواحي والبلدان وسكانها، والأمم وممالكها، وطرق الأقاليم ومسالكها، ومراكز البريد ومسافاتها وأبراج الحمام ومطاراتها، وهجن الثلج والسفن المعدة لنقله، والمحرقات المؤدية إلى اجتياح العدو وتفريق شمله، والمناور وأماكنها، والقصاد ومكامنها.

هذه رسومها على سبيل الإجمال، والإشارة إلى مصطلحاتها بأخصر الأقوال.

واعلم أن حسن الخط من الكتابة واسطة عقدها، وقوة الملكة على السجع والازدواج ملاك حلها وعقدها، على أن خير الخط ما قري، وأحسن السجع ما سلم من التكلف وبري؛ وللكتاب في بحر الكتابة سبح طويل، وتفنن يسفر عن كل وجه جميل.

قلت: فهل لهذه الرتبة الرئيسة، والمنقبة النفيسة، سمط يلمها، أو سلك يضمها؟

فقال: سبحان الله: إن بيتها لأشهر من " قفانبك " ، وأظهروا للعيان من شامخات جبال النبك؛ أيخفى من البدر ضوءه الباهر، ونوره الزاهر؟ إن ذلك لقاصر على " آل فضل الله " حقاً، ومنحصر في المقر البدري صدقاً؛ فهو قطبها الذي تدور عليه، وابن بجدتها التي ترجع في علومها ورسومها وسائر أمورها إليه، فلو رآه " الفاضل عبد الرحيم " لم ير لنفسه فضلاً ولا رضي لفيه مقالا، أو عاينه " عبد الحميد الكاتب " لقال:هكذا هكذا وإلا فلا لا، أو عاصره " قدامة " لجلس قدامه، أو أدركه " ابن قتيبة " لاتخذه في " أدب الكاتب " شيخه وإمامه، أو بصر به " الصابي " لصبا إليه ومال، أو قارن زمانه " الحسن بن سهل " بل " الفضل " أخوه لأقام ببابه ومازال، أو جنح " ابن العديم " إلى مناوأته لأدركه العدم، أو جرى " الصاحب ابن عباد " في مضمار فضله لكبا وزلت به القدم، أو اطلع " ابن مقلة " على حسن خطه لقال: هذا هو الجوهر الثمين، أو نظر " ابن هلال " إلى بهجة رونقه لقال: إن هذا لهو الفضل المبين؛ إن تكلم نفث سحراً، أو كتب خلت زهراً أو تخيلت دراً.

يؤلف اللؤلؤ المنثور منطقه ... وينظم الدر بالأقلام في الكتب!

قد علا نسبا، وفاق حسبا، وورث الفضل لاعن كلالة، واستحق الرتبة بنفسه وإن كانت له بالأصالة:

فحيهلاً بالمكرمات و بالعلا ... وحيهلاً بالفضل والسؤدد المحض!

فلما سمعت ذلك زال عني الإلباس، وقلت: ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس.

ثم قلت: أقسمت عليك بالذي تشير إليه، إلا تدلني عليه، فقال: إنه صفي الملك ونجيه، وكاتب سره ووليه، والقريب منه إذا بعدوا، والمخصوص بالمقام إذا طردوا، والموجه إليه الخطاب إذا حضروا، والمستأثر بالورود إذا صدروا، والمتكلم بلسان الملك إذا سكتوا، والناطق بفصل الخطاب إذا بهتوا، والصائل بحسام لسانه وخطي قلمه، والحامي الممالك بجيوش سطوره وجند كلمه، والمشتت شمل العدو ببديع ألفاظه ودقيق حكمه، والحائز قصب السبق بكرم فضله وفضل كرمه، والمروي ظمأ الوافدين إليه بواكف وبله وفائض ديمه، والمجلي غياهب

الظلم بنير بدره ومضيء أنجمه:

فمازال بدراً في سماء سيادة ... يشار إليه في الورى بالأنامل
بسيط المساعي المجد يركب نجدة ... من الشرف الأعلى وبذل الفواضل
إذا سال أعيى السامعين جوابه ... وإن قال لم يترك مقالاً لقائل

قلت :حسبك! قد دلني عليه عرفه، وأرشدني إليه وصفه، وبان لي محتده الفاخر وحسبه الصميم، وعرفت أصله الزاكي وفرعه الكريم، " ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم " .

ثم عرجت إلى حماه، وملت إلى حيه كي أراه ، فإذا به قد برز تتلألأ أنواره، وتشرق بالجلالة أقماره؛ قد علته الهيبة وغشيته السكينة وحفته الرياسة وجللته السعادة، وحكمت بعز منال قدره الأقدار كما اقتضته الإرادة.

فلما رأيته استصغرت الرتبة مع شرفها الباذخ في جانبه، وعلمت أن ما تقدم من المدح لم يوف حقه ولم يقم ببعض واجبه؛ فغلبت هيبته إقدامي، وحالت حرمته بيني وبين مرامي، فقلت: إنا لله !قد فاتتني مآربي،ورجعت من فوري إلى صاحبي، فأظهرت له الأسف، وقصصت عليه القصة قال: لا تخف؛ إنها لمنقبة عمرية، وأثرة عدوية؛ فالفاروق جده، وبنو عدي قبيله وجنده.

هذا وإنه لألطف وأرق من النسيم الساري، والماء الجاري، وأحيى من العذراء في خدرها، وأشفق من الوالدة إذا ضمت ولدها إلى صدرها، وأحلم من " معن بن زائدة " ، وإن كان أفصح من " قس بن ساعدة " .

يغضي حياءً ويغضى من مهابته ... فلا يكلم إلا حين يبتسم !

بالعزائم الفاروقية فتحت الأمصار، وبالهيبة العمرية أقر المهاجرون والأنصار؛ ويشهد لذلك قصة " ابن عباس " في العول وسكوته في خلافة عمر وصمته، وجوابه بعد ذلك للقائل له: هلا قلت ذلك في زمن عمر ؟ بقوله: إنه كان مهيباً فهبته؛ كيف؟ وما سلك فج إلا وسلك الشيطان فجاً غير فجه وضاقت عليه الفجاج، ولم تماثل هيبته بهيبة غيره وإن عظمت سطوته حتى قال الشعبي: إن درة عمر لأهيب من سيف الحجاج؛ وهو مع ذلك يلطف بالأرامل والمساكين، ويعين الفقراء والمحتاجين؛ فقد اتضحت لك القضية،وتحققت أنها سمات إرثية.

فعند ذلك ذهب روعي، وقوي روعي؛ وقلت: فهل أتباع من الكتاب فأتعلق بحبالهم، وأتأسى بهم في أقوالهم وأفعالهم ؟ لكي أتسم بسمة الكتاب، وأثبت في جملة غلمان الباب، قال : أجل ! رأس الدست الشريف صنوه الكريم، وقسيمه في حسبه الصميم؛ به شد عضده، وقوي كتده، فاجتمع الفضل له ولأخيه،وورثا سر أبيهما " والولد سر أبيه " ؛ ثم كتاب ديوان الإنشاء جنده وأتباعه، وأولياؤه وأشياعه؛وكتاب الد ست منهم أرفع في المقام ، وكتاب الدرج أجدر بالكتابة وصنعة الكلام.

قلت: القسم الثاني أليق بمقداري، وأقرب إلى أوطاري؛ ثم ودعت صاحبي شاكراً له على صنيعه وحامداً له على أدبه، وتركته ومضيت وكان ذلك آخر العهد به؛ ثم عدت إليه هو فرفعت إليه قصتي، وسألته الإسعاف بإجابة دعوتي، فقابلها بالقبول، وأنعم بالمسؤول، وقررني في كتابة الدرج الشريف، واكتفى بالعرف عن التعريف؛ وطابق الخبر الخبر، وأستغنيت بالعيان عن الأثر؛ ثم قمت عجلاً، وأنشدت مرتجلاً:

إذا ما بنو الفاروق في المجد أعرقوا، ... ونالوا بفضل الله ما لا كمثله
وجلت دجى الظلماء أنوار بدرهم، ... وعمت بقاع الأرض أنواء فضله
تعالت ذرى العلياء فيهم وأنشدت : ... أبى الفضل إلا أن يكون لمثله!

ثم تشرفت بتقبيل يده،ومضيت إلى ما أن بصدده؛ قد منعتني هيبتي من اللياذ به والقرب إليه ،وصيرت عاطر مدحي وخالص أدعيتي وقفاً عليه؛ وصرت إلى الديوان، فوجدت قوماً قد حفهم الحسن وزانهم الإحسان؛ فقلت الحمد لله! هؤلاء فتية ذاك الكهف بلا امتراء،وأشبال ذاك الأسد من غير افتراء؛ فجاست جلوس الغريب، وأطرقت إطراق الكئيب؛ إذ كنت في هذه الصنعة عصامياً لا عضامياً، ومتهماً لا تهامياً؛ غير أني تعلقت منها بحبال القمر، واستوقدت نارها من أصغر الشرر؛ فتلقوني بالرحب، وأحلوني من ديوانهم بالمكان الرحب، وقابلني بالجميل قبل المعرفة، وعاملوني بالإحسان والنصفة.

فلما رأيت ذلك منهم حمدت مسراي، وشكرت مسعاي،ودعوت لصاحبي أولاً إذ حبب صنعتهم إلي وشاقني، ودلني عليهم وساقني.

ولما تحققت أني قد أثبت في ديوانه، وكتبت من جملة غلمانه، رجعت القهقرى عن طلب الكسب، واستوى عندي المحل والخطب، واكتفيت بنظري إليه عن الطعام والشراب، وتيقنت أن نظرة منه إلي ترقيني إلى السحاب، وتلوت بالسان الصدق على الملإ وهم يسمعون : " قل بفضل الله وبرحمته بذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون " .

وفيما تضمنته هذه المقامة من فضل الكتابة وشرف الكتاب مقنع من غيرها. ومغنٍ عن سواها، والحمد لله والمنة.

وهذه نسخة مقامة أنشاها أبو القاسم الخوارزمي في لقائه لأديب يعرف بالهيتي، وانقطاعه في البحث، وغلبة الخوارزمي له. أوردها ابن حمدون في " تذكرته " وهي: وصية لكل لبيب، متيقظ أريب، عالم أديب يكره مواقف السقطات،ويتحفظ من مصادف الغلطات، ويتلطف من مخزيات الفرطات،أن يدعي دون مقامه، ويقتصر من تمامه، ويغض من سهامه، ويظهر بعض شكيمته، ويساوم بأيسر قيمته، ويستر كثيراً من بضاعته، ويكتم دقيق صناعته، ولا يبلغ دقيق غاية استطاعته، وأن يعاشر الناس بصدق المناصحة، وجميل المسامحة، وأن لا يحمله الإعجال بما يحسنه، على الازدراء بمن يستقرنه، والافتراء على من يعرضه ويلسنه، ليكون خبره أكثر من خبره، ونظرته أروع من منظره، ويكون أقرب من الاعتذار، وأبعد من الخجلة والانكسار.

فليس الفتى من قال: إني أنا الفتى ... ولكنه من قيل : أنت كذلكا
وكم مدعٍ ملكاً بغير شهادةله خجلة إن قيل:أن لست مالكا!

ولقد نصرت بالاتضاع، ذي نباهة وارتفاع، وذلك أني أصعدت في بعض الأعوام، مع جماعة من العوام، بين تاجر وزائر، إلى العزل والحائر، حتى انتهينا إلى قرية شارعة، آهلة زارعة، وما منا إلا من أملته السمرية فاعترضه، وأسقمته وأمرضته، وفترته وقبضته، وكثر منا الجوار، واستولى علينا الدوار، فخرجنا منهاخروج المسجون،وقد تقوسنا تقوس العرجون،فاسترحنا بالصعود، من طول القعود:

كأننا الطير من الأقفاص ... ناجية من أحبل القناص
طيبة الأنفس بالخلاص ... منفضات الريش والنواصي؟؟؟

فما استتمت الراحة، ولا استقرت بنا الراحة، حتى وقف علينا واقف،وهتف بنا هاتف:أيكم الخوارزمي؟ فقالوا له: ذلك الغلام المنفرد، والشاب المستند،فأقبل إلي، وسلم علي، وقال :إن الناضر يستزيرك،فليعجل إليه مصيرك،فقمت معه،يتقدمني وأتبعه،حتى انتهى بي إلى جلة من الرجال، ذوي بهاء وجلال،وزينة وجمال،من أشراف الأمصار وأعيان ذوي الأخطار،من أهل واسط وبغداد، والبصرة والسواد.

ترى كل مرهوب العمامة لاثماً ... على وجه بدر تحته قلب ضيغم

فقام إلي ذو المعرفة لإكرامه، وساعده الباقون على قيامه،وأطال في سؤاله؛ وجذبوني إلى صدر المجلس فأبيت، ولزمت ذناباه و احتبيت؛ وأخذوا يستخبروني عن الحال، والمعيشة والمال، وداعية الارتجال، وعن النية والمقصد،والأهل والولد، والجيران والبلد.

وما منهم إلا حفي مسائل ... وواصف أشواق ومثن بصالح
ومستشفع في أن أقيم لياليا ً ... أروح وأغدو عنده غير بارح

ثم قال قائلهم: هل لقيت عين الزمان وقلبه، ومالك الفضل وربه،وقليب الأدب وغربه،إمام العراق، وشمس الآفاق؟. فقلت: ومن صاحب هذه الصفة المهولة، والكناية المجهولة،فقالوا: أو ما سمعت بكامل هيت، ذذذي الصوت والصيت؟:

ذاك الذي لو عاش " دهراً " إلى ... زمان هذا وابن صوحان
وابن دريد وأبو حاتم ... وسيبويه وابن سعدان
وعامر الشعبي وابن العلا ... وابن كريز وابن صفوان

قالوا مجاب كلهم : أنه ... سيدنا، أو قال : غلماني.

فقلت لهم: قد قلدتم المنة، وهيجتم الجنة، إلى لقاء العالم المذكور، السيد المشهور،وقد كانت الرياح تأتيني بنفخات هذا الطيب، وهدر هذا ؟الخطيب، فالآن لا أثر بعد عين، سأصبح لأجله عن سرى القين، اغتناماً للفائدة، والنعم الباردة،ووجداناً للضالة الشاردة.

أين أمضي وما الذي أنا أبغي ... بعد إدراكي المنى والطلابا؟
فإذا ما وجدت عندكم العلم قريباً فما أريد الثوابا
اذهبوا أنتم فزوروا عليا ... لأزور الهنيتي والآدابا
لن أبالي إن قيل الخوارز ... مي أخطأ فعله أوأصابا؟

فقالت الجماعة: بل أصبت، ووجدت ما طلبت؛ وقديماً كنا ننشر أعلاقك، ونتمنى اتفاقك، ونحب مضافك؛ ونكبر لديه ذكرك، ونعظم لديه قدرك، فيتحرك منك ساكنه، وتتقلقل بك أماكنه، ونسأل الله سبحانه أن يجمع بينك وبينه بمحضرنا، وتلامح عينك عينه بمنظرنا، ويلتف غبارك بغباره،ويمتزج تيارك بتياره، ويختلط مضمارك بمضماره، فيعرف منكما السابق والسكيت، والسوذانق والكعيت، ويتبين من الذي يحوي القصب، فإنكما كما قال الشاعر:

هما رمحان خطيان كانا ... من السمر المثقفة الصعاد تهال الأرض أن يطأ عليهابمثلها نسالم أو نعادي! فقال " بعض الجماعة " لقد تنكبتم الإنصاف، وأخطأتم الاعتراف، وأبعدتم القياس، وأوقعتم الالتباس؛ أين ابن ثلاثين، إلى ابن ثمانين؟ وابن اللبون، من البازل الأمون؟ والرمح الرازح، من الجواد القارح، والكودن المبروص، من المجرب المروض.

وابن اللبون إذا ما لز في قرن ... لم يستطيع صولة البزل القناعيس!

كم لديهم بطائح وسباخ، وساكن صرائف وأكواخ، بين يديه سوادية أنباط، وعلوج أشراط، ورعاع أخلاط، وسفل سقاط، في بلدة أن رأيت سورها، وعبرت جسورها، صحت: وأغربتاه، وإن رأيت وجهاً غريباً ناديت: واأبتاه، لا أعرف غير النبطية كلاماً، ولا ألقى سوى والدي إماماً، في معشر ما عرفوا الترحال، ولا ركبوا السروج والرحال، ولا فارقوا الجبال والطلال.

أولئك معشر كبنات نعش ... خوالف لا تغور مع النجوم!

" فأنى له " بمصاولة رجل جوال، رحال حلال، بهيت وضع، وبالكوفة أرضع، وببغداد أثغر، وبواسط أحفر، وبالحجاز وتهامة فطامه، وبمصر والمغرب كان احتلامه، وبنجد والشام بقل عارضه، وباليمن وعمان قويت نواهضه، وبخراسان

بلغ أشده، وببخارى وسمرقند تناهى جده، وبعزنة والهند شاب واكتهل، ومن سيحون وجيحون علّ ونهل، وبميسان والبصرة عود وقرح، وبالجبال جله وجلح؛ فهو يعد " المازني " إمامه، وابن " جني " غلامه، و " المتنبي " من رواته، و " المعري " حامل دواته، و " الصابي " باري قلمه، و " الصاحب " رافع علمه، و " ابن مقلة " من ناقلي غاشيته، و " بني أبي حفصة " بعض حاشيته، وقد قرأ الكتب وتلاها، وحفظ العلوم ورواها، ودرس الآداب ورعاها، ودون الدواوين وألفها، وأنشأ الحكم وصنفها، وفصل المشكلات وشرحها، وارتجل الخطب ونقحها؛ فهو البحر المورود،والإمام المقصود،والعلم المصمود،هذا بون ومرتقى شديد.

أتلقون بالأعزل الرامحا ... وبالأكشف الحاسر الدارعا
وبالكودن السابق السابحا ... وبالمنجل الصارم القاطعا؟

فما استتم كلامه حتى أقبل: فإذا نحن به قد طلع مهرولاً، وأقبل مستعجلاً، فرأيت رجلاً أجلح، أهتم أفلح، أفطح أردح، طويلاً عنطنط، يحكي ذئباً أمعط، أجمع أحبط، فتلقوه مغظمين، وله مفخمين، فقصد في المجلس صدره، وأسند إلى المخدة ظهره؛ فما استقر به المكان، حتى قيل له: هذا فلان؛ فقبض من أنفه، ونظر إلى بشطر من طرفه، وقال ببعض فيه: هلموا ما كنتم فيه، تسعاً للشوهاء وجالبيها، والقرعاء وحالبيها:

جاء زيد مجرراً رسنه ... فحل لا يمنع سننه!
أحبه قومه على شوق ... إن القربنى في عين أمها حسنة؟

كان لنا شيخ بالأنبار، كثير الأخبار، قد بلغ من العمر أملاه، ومن السن أعلاه، قرأت عليه جميع الكتاب، وعلم الأنساب، " ومسائل ابن السراج " ، و " ديوان ابن العجاج " ، و " كتاب الإصلاح " ، و " مشروح الإيضاح " ، وشعر الطرماح، و " العين " للفرهودي، و " الجمهرة " للأذدي؛ وأكثر من المصنفات، والمجهولات والمعلومات؛ ينفخفي شقاقته، ويزبد في بقابقه، ويتعاظم في مخارقه؛ وجعل القوم يقسمون بيننا الألحاظ، ويحسبون الألفاظ؛ وما منهم إلا من اعتاظ لسكوتي وكلامه، وتأخيري وإقدامه.

ثم هذى الشيخ إذ وصف له رجل على الغيب ثم رآه، فاحتقره وازدراه؛ وأنشد

متمثلاً:

لعمر أبيك تسمع بالمعيدي ... بعيد الدار خير أن تراه

فقال: هذا المعيدي هو ضمرة، بن ضمرة بن جابر، بن قطن، بن نهشل، بن دارم، بن مالك، ابن زيد مناة، بن تميم، بن مرة، بن أد، بن طابخة، بن اليأس، بن مضر، بن نزار، بن معد، ابن عدنان، والمعيدي تصغير معدي؛ وهو الذي قالت فيه نادبته:

أنعى الكريم النهشلي المصطفى ... أكرم من خامر أو تخندفا!

فقلت: ما بعد هذا المقال، وجه للاحتمال، وما يجب لي بعد هذه المواقحة، غير المكافحة، ولم يبق لي بعد المغالبة، من مراقبة:

ما علتي وأنا جلد نابل ... والقوس فيه وتر عنابل
تزل عن صفحته المعابل!
ما علتي وأنا " رجل " جلد ... والقوس فيه وتر عرد
مثل ذراع البكر أو أشد

فعطفت عليه عطف الثائر العاسف، والتفت إليه التفات الطائر الخاطف، فقلت له: يا أخاهيت، قد قلت ما شيت، فأجب الآن إذا دعيت، والزم مكانك، وغض عنانك، وقصر لسانك؛ إن نادبة ضمرة خندفته، لما وصفته، وما سمعت في نسبتك إياه لخندف ذكراً، فأبن عن ذلك عذرا؛ فقال: إن خندف هي امرأة اليأس بن مضر، غلبت على بنيها فنسبوا إليها، كطهية ومزينة، وبلعدوية عرنية، والسلكة وجهينة، وندبة وأذينة، وكشبيب ابن البرصاء وابن الدعماء. فقلت له: سئلت، فأجبت وأصبت؛ فأخبرني عن خندف هل هو اسم موضوع، أو لقب مصنوع؟؛ فوقف عند ذلك حماره، وخمدت ناره، وركد جريانه، وسكن هذيانه، وفتر غليانه، وظهر حرانه، وذل وانقمع،وانطوى واجتمع، فاضطره الحياء، وألجاه الاستجداء، إلى أن قال وهو يخفي لفظه، ويطرق لحظه: أظنه لقباً. فقلت: هو كما ظننت فما معناه وما سببه؟ وكيف كان موجبه؟ فلم يجد بدا من أن يقول: لا أدري، فقال وقد أذقته مر الأماتة، وأحسن من القوم بتظاهر الشماتة:

وودّ بجدع الأنف لو أن صحبه ... تنادوا وقالوا في المناخ له:نم!

ثم أقبلوا إلي، وعكفوا عليّ، بأوجه متهللة، وألسنة متوسلة؛ في شرح الحال، والقيام بجواب السؤال، فقلت: هذا بديع عجيب، أنا أسأل وأنا أجيب؛ إن اليأس بن مضر تزوج ليلى بنت ثعلبة، بن حلوان، بن إلحاف، بن قصاعة، بن معدّ، " في بعض النسب " ، فولد له منها: عمرو وعامر وعمير؛ فقدتهم ذات يوم، فألحى على ليلى باللوم، فقال: اخرجيفي أثرهم، وأتيني بخبرهم؛ فمنعت في طلبهم، وعادت بهم، فقالت: ما زلت أخندف في اتباعهم، حتى ظفرت بلقائهم، فقال لها اليأس: أنت خندف. والخندفة في الاتباع، تقارب الخطو في إسراع، وقال عمرو: يا أبتي أنا أدركت الصيد فلويته، فقال له: أنت مدركه إذ حويته، وقال عامر أنا طبخته وشويته، فقال له: أنت طابخه إذ شويته، فقال عمير: أنا انقمعت في الخباء، فقال له: أنت قمعة للاختباء؛ فلصقت بها وبهم هذه الألقاب، وجرت بها إليهم الأنساب. فقال حينئذ: هذا علم استفدته، وفضل استزدته؛ وقد قال الحكيم: مذاكرة ذوي الألباب؛ نماء في الآداب؛ فقلت له متمثلا

أقول له والرمح ياطر متنه ... تأمل خفافاً: إنني أن ذلكا!

ثم لم يحتبس إلا قليلاً، ولم يمسك طويلاً، حتى عاد إلى هديره، وأخذ في تهذيره، طمعاً بأن يأخذ بالثار، ويعود الفيض له في القمار، فعدل عن العلوم النسبية، وجال في ميدان العربية، ولم يحس أن باعه فيها أقصر، وطرفه دون حقائقها أحسر، فقال: حضرت يوماً حلبات العلوم، وموسماً من مواسم المنثور والمنظوم، وقد غص بكل خطيب مصقع، وحكم مقنع، وعالم مصدع، ومليء من كل عتيق صهال، وفتيق صوال، ومنطيق جوال؛ فأخذوا في فنون المعارضات، وصنوف المناقضات، وسلكوا في معاني القريض، كل طويل عريض، حتى أخذ السائل منهم بالمخنق، ببيت " الفرزدق " .

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع ... من المال إلا مسحتاً أو مجلف!

فكثر فيه الجدال، وطال المقال؛ وما منهم إلا من أجاد القياس، وأصاب القرطاس،

ووقع على الطريق، وأتى بالتحقيق؛ فلما رأيتهم في غمرتهم ساهون، وفي ضلالتهم يعمهون، فناديتهم: إلي فسارعوا، ومني فاسمعوا؛ فإني أنا ابن بجدتها، وعالم ما تحت جلدتها؛ ثم إني أبديت لهم سراره، وأبقيت ناره، وحللت عقده، ومخضت زبده، وأطرت لبده، وبجست حجره، وأبثثتهم عجره وبجره، فقالوا: لله أبوك! فإنك أسبقنا إلى غاية، وأكشفنا لغياية، وأجلانا لشبهة، وأضوأنا في بدهة؛ وما أعلم اليوم على ظهرها من يقوم بعلم ما فيه، ويطلع على خافيه.

فأدركني الامتعاض، وأخذني الانتفاض، فأنشدته:

من ظن أن عقول الناس ناقصة ... وعقله زائد أزرى به الطمع!

وقلت له: ادعيت، فوق ما وعيت؛ فأخبرني عن أول هذا البيت، يا مجري الكميت، وكيف ننشده: وعض بالفتح أو وعض بالضم؟ فقال: كلاهما مروي، فقلت: نبتديء بالفعل ثم نعود إلى الاسم ياذا الإعجاب، تهيأ للسائل في الجواب، وأخبرني لم فتحت آخر الماضي؟ فأسرع من غير التغاضي، وقال: لأنه مبني عليهن لا يضاف سواه إليه. فقلت: هذا جواب نعلمه، ومن صبيان المكتب لا نعدمه؛ وإنما ألتمس منك الفائدة فيها، وأطلب كشف خافيها. فقال: ما جاء عن أمة النحاة، وسائر الرواة، في هذا غير ما شرحته، ولا زاد على ما أوضحته. فقلت: دع عنك هذا وأخبرني عن هذا البناء، ألعلة أم لغيرها؟ فأقبل يتردد و يتزحزح، ويتثاءب تارة ويتنحنح. فلما سد عليه من طريقه، وحصل في مضيقه، وغص بريقه،قال: لا أعلم!. فقالت الجماعة: أعذر إليك من ألقى سلاحه، وغض جماعه، ومن أدبر بعد إقباله، عدال عن قتاله:

والحق أبلج لا يحد سبيله ... والحق يعرفه ذوو الألباب !

والآن فقد فازت قداحك، وبانت غررك وأوضاحك، وأجدت النضال، وأدركت الخصال، فأوضح لنا عما سألت، وأرشدنا إلى ما دللت، لئلا يقال: هذا بهت، ومحال بحت؛ فقلت حباً وكرامة، اسمع أنت يا طغامة؛ إن الفعل من فاعله، كالولد من ناجله، لايخلو الفعل من علامة الفاعل في لفظ كل قائل، وهي الفتحة من ماضيه وواقعه، والزوائد في مستقبله و مضارعه. وبيان ذلك: أن الفتحة لا تكون

مع التاء والنون...... فتثبت الفتحة، ثم تقول: أخرجت وأخرجنا، فتسقط ما ذكرنا، وعلامتان لمعنى محال، لا يوجبهما الحال؛ فإن كانت النون التي مع الألف ضمير المفعول عادت الفتحة، فتقول: أخرجنا الأمير، فهذا بين؛ فصفقت الجماعة وسمحت، وحسنت وبحبحت، وجعل الأديب يضطرب اضطراب العصور، ويتقلب تقلب الصقور، متيقناً أن أسده صار جرذاً ، وبازيه عاد صرداً؛ ودوره انقلبت مخشلباً، وزيتونه تحول عرباً، وقناه تغير قصباً، وأن مستقيمه تعوج؛ وجيده تبهرج، وصحيحه تدحرج، وجديده تكرج؛ فقال منشدهم:

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وتحت ثيابه أسد مزير،
ويعجبك الطرير فتبتليه ... فيخلف ظنك الرجل الطرير.
فما عظم الرجال لهم بفخر ... ولكن فخرهم كرمٌ وخير!

فأخذه الإبلاس، وضاقت به الأنفاس، وسكنت منه الحواس، ورفضه الناس، وجعل ينكت الأرض، ويواصل بكفه العض، ويتشاءم بيومه، ويعود على نفسه بلومه؛ يمسح جبينه، ويكثر أنينه؛ فقمت فقامت معي الجماعة وتركته، واستهانت به وفركته؛ فلما بقي وحده، تمنى لحده، وأسبل دمعته، وود أن الأرض بلعته.

وكان كمثل البو ما بين روم ... تلوذ بحقويه السراة الأكابر
فأصبح مثل الأجرب الجلد مفرداً ... طريداً فما تدنو إليه الأباعر!

فقام فتبعني، ووقف وودعني، وأطال الاعتذار، وأظهر التوبة والاستغفار، وقال: مثلك من ستر الخلل، وأقال العثرة والزلل؛ فقال اغتررت من سنك بالحداثة، ومن أخلاقك بالدماثة؛ فقلت: كل ذلك مفهوم معلوم، وأنت فيه معذور لا ملوم؛ وما جرى بيننا فهو منسي غير مذكور، ومطوي غير منشور، ومخفي غير مشهور:

و " جدال " أهل العلم ليس بقادح ... ما بين غالبهم إلى المغلوب!

ثم سكت فما أعاد، ونزلت وعاد، وكان ذلك أول عهد به وآخره، وباطن لقاء وظاهره، وكل اجتماع وسائره.

الفصل الثاني من الباب الأول من المقالة العاشرة في الرسائل

وهي جمع رسالة، والمراد فيها أمور يرتبها الكاتب: من حكاية حال من عدو أو صيد، أو مدح وتقريض، أو مفاخرة بين شيئين، أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى. وسميت رسائل من حيث إن الأديب المنشئ لها ربما كتب بها إلى غيره مخبراً فيها بصورة الحال، مفتتحة بما تفتتح به المكاتبات، ثم توسع فيها فافتتحت بالخطب وغيرها.

ثم الرسائل **على أصناف:**

الصنف الأول منها الرسائل الملوكية وهي على ضربين:

الضرب الأول رسائل الغزو وهي أعظمها وأجلها

وهذه نسخة رسالة أنشأها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، رحمه الله بفتح " الملك الظاهر " لقيسارية من بلاد الروم، واقتلاعها من أيدي التتار، واستيلائه على ملكها، وجلوسه على تخت بني سلجوق، ثم العود منها إلى مملكة الديار المصرية؛ كتب بها إلى الصاحب بهاء الدين بن حنا، وزير السلطان الملك الظاهر، ومعرفة ماكان في تلك الغزوة، وما اشتملت عليه حال تلك السفرة؛ وهي: يقبل الأرض بساحات الأبواب الشريفة السيدية، الصاحبية البهائية - لا زالت ركائب السير تحث إلى أرجائها السير وصروف الزمن تسالم خدامها وتحل الغير بالغير، ولا برحت موطن البر ومعدن الجود وبحر الكرم وعكاظ الخير - وينهي بعد رفع أدعيته التي لا تزال من الإجابة محوطة، ولا تبرح يداه بها مبسوطة، أن العبيد من شأنهم إتحاف مواليهم بما يشاهدونه في سفراتهم من عجائب، وإطلاعهم على ما يرونه في غزواتهم من غرائب؛ليقضوا بذلك حقوق الاسترقاق، وتكون نعم ساداتهم قد أحسنت لأفواههم الاستنطاق، ويتعرضوا لما عساه يعن من مراحمهم التي ما عندهم غيرها ينفد وما عندها باق.

ولما كان المملوك قد انتظم في سلك الخدم والعبيد، وأصبح كم له قصيد في مدح هذا البيت الشريف كل بيت منها بقصيد بيت القصيد، وأن في مآثره الرسائل الت يقد شاعت، وضاعت نفحاتها في الوجود وكم رسالة غيرها في غيره ضاعت – رأى أن يتحف الخواطر الشريفة من هذه الغزوة بلمح يختار منها من يؤلف، ويسند إليها من يؤرخ أو يصنف؛ وإنما قصد أن يتحف بها أبواب مولانا مع بسط القول واتساع كلماته، لأن الله قد شرف المملوك بعبودية مولانا: و " الله أعلم حيث يجعل رسالاته " . فإن كان المملوك قد طول في المطارحة، فمولانا يتطول في المسامحة؛ وإن قال أحد: هذا هذى، فما زال شرح الوقائع مطولاً كذا؛ وتالله ما ورخ مثلها في التواريخ الأول، ولعمري إن خيراً من سيرة ذلك البطال سيرة هذا البطل، والأمر أعلى في قراءتها واستماعها، والتمهل في حجلها حتى تسفر حسن نقابها وترفع مسدول قناعها........

قد أحاطت العلوم الشريفة بالعزمات الشريفة السلطانية، وأنها استصحبت ذلك، حتى تصفحت المهالك؛ وسرنا لا يستقر بنا في شيء منها قرار، ولا يقتدح من غير سنابك الخير نار، ولا نمر على مدينة إلا مرور الرياح على الخمائل في الأصائل والأبكار، ولا نقيم إلا بمقدار ما يتزيد الزائر من الأهبة، أو يتزود الطائر من النغبة؛ نسبق وفد الريح من حيث ننتحي، وتكاد مواطئ خيلنا بما تسحبه أذيال الصواف تمتحي، تحمل همنا الخيل العتاق، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق، وكل يقول لسلطاننا نصره الله:

أين أزمعت أيهذا الهمام؟ ... نحن نبت الربا وأنت الغمام!

ومر لا يفعل السيف أفعاله، ولا يسير في مهمه إلا عمه ولا جبل إلا طاله: تسايره السواري والغوادي، ولا ينفك الغيث من انسكاب في كل ناد ووادي:

فباشر وجهاً طالما باشر القنا ... وبل ثياباً طالما بلها الدم!

وكان مولانا السلطان من حلب قد أمر جميع عساكره بادرع لا مات حربهم، وحمل آلات طعنهم وضربهم:

فجاز له حتى على الشمس حكمه ... وبان له حتى على البدر ميسم
يمد يديه في المفاضة ضيغم ... وعينيه من تحت التريكة أرقم!

ورحلوا من حلب في يوم الخميس ثاني ذي القعدة جرائد على الأمر المعهود، قد خففوا كل شيء حتى البنود والعمود، فسرنا في جبال نشتهي بها سلوك الأرض، وأودية تهلك الأشواط فيها إذا ملئت الفروج من الركض، نزور دياراً ما نحب مغناها، ولا نعرف أقصاها من أدناها، واستقبلنا الدرب فكان كما قال المتنبي:

رمى الدرب بالخيل العتاق إلى العدا ... وما علموا أن السهام خيول
شوائل تشوال العقارب بالقنا ... لها مرح من تحته وصهيل
فلما تجلى من دلوك وصنجة ... علت كل طود راية ورعيل
على طرق فيها على الطرق رفعة ... وفي ذكرها عند الأنيس خمول!

ومررنا على مدينة دلوك، وهي رسوم سكانها،ضاحكة عن تبسم أزهارها وقهقهة غدرانها، ذات بروج مشيدة، وأركان موطدة، ونيران تزاويق موقدة، في عمد من كنائسها ممددة؛ وسرنا منها إلى مرج الديباج نتعادى، وذلك في ليلة ذات أندية وإن لم تكن من جمادى؛ ظلماتها مدلهمة، وطرقاتها قد أصبح أمرها علينا غمة؛ لا يثبت تربها تحت قدم المار، وكأنما سالكها يمشي على شفا جرف هار؛ فبتنا هنالك ليلة نستحقر بالنسبة إلى شدتها ليلة الملسوع، وتتمنى العين بها هجعة هجوع؛ وأخذنا في اختراق غابات أشجار تخفي الرفيق عن رفيقه، وتشغله عن اقتفاء طريقه، ينبري منها كل غصن يرسله المتقدم إلى وجه رفيقه، كما يخرج السهم بقوة من منجنيقه؛ حولها معاثر أحجار كأنها قبور بعثرت، أو جبال تفطرت، بينها مخائض، لا بل مغائض، كأنها بحار فجرت؛ ما خرجنا منها إلا إلى جبال قد تمنطقت بالجداول وتعممت بالثلوج، وعميت مسالكها فلا أحد إلا وهو قائل: " فهل إلى خروج من سبيل " أو إلى سبيل من خروج؛ تضيق مناهجها بمشي الواحد، وتلتف شجراتها التفاف الأكمام على الساعد؛ ذات أوعار زلقة، وصدور شرقة، وأودية بالمزدحمين مختنقة؛ بينما يقول منتحيها: قد نلت السماء بسلم من هذه الشواهق، إذا هو متضائل قد هبط في مأزق متضايق؛ لم تزل هذه الجبال تأخذنا وترمينا، وتلك المسارب تضمنا وتلك المشارب تظمينا:

تسود الشمس منا بيض أوجهنا ... و " لا " تسود بيض العذر واللمم
ونترك الماء لا ينفك من سفر ... ما سار في الغيم منه سار في الأدم!

حتى وصلنا الحدث الحمراء المسماة الآن بكينوك، ومعناها المحرقة، " كان الملك قسطنطين والد صاحب سيس قد أخذها من أصحاب الروم وأحرقها، وتملكها وعمرها، بقصد الضرر لبلاد الإسلام والتجار، فلما كان في سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة سيرمولانا السلطان إليها عسكر حلب فافتتحها بالسيف وقتل من كان بها من الرجال وسبى الحريم والذرية، وخربت من ذلك الحين ، وما بقي بها من يكاد يبين، فشاهدنا ما بنى سيف الدولة بن حمدان منها والقنا تقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم، وقيل حقيقة هناك: على قدر أهل العزم تأتي العزائم، وهي التي عناها أبو الطيب بقوله:

غصب الدهر والملوك عليها ... فبناها في وجنة الدهر خالا
فهي تمشي مشي العروس اختيالا ... وتثنى على الزمان دلالا! "

فبتنا بها " وانثنينا " وخيلنا مبثوثة فوق " الأحيدب " كما نثرت الدراهم فوق العروس، " وحوافرها على الوكور في أعلى القنن تدوس " ؛ إذا زلقت " تمشي على صلد الصفا " كالأراقم على البطون، وأن تكاسلت جر بعضها بعضاً بالصهيل: " والحديث شجون " ؛ وخضنا في أثناء ذلك مخائض سوافح كأنها لأجل عوم الخيل بها سمي كل منها لأجل ذلك سابح؛ كلما قلنا: هذا بحر قد قطعناه اعترض لنا جبل، وكلما قلنا: هذا جبل طلعناه بان لنا واد يستهان دون الهوي فيه نفاد الأجل؛ لم نزل كذلك حتى وصلنا كوكصوا وهو البهر الأزرق، وهو الذي رد الملك الكامل منه سنة الدر بندات لما قصد التوجه إلى الروم، وهذا النهر بين " جبال هو " مهوى رجامها، ومثوى غمامها، وملوى زمامها، ومأوى قتامها، فللوقت عبرناه ركضاً، وأعجلت الخيل فما درت هل خاضت لجة أم قطعت أرضاً؛ " وسارت العساكر متسللة في تلك الجبال الشم " ووقع السنابك يسمع من تلك الجبال الصم؛ حتى وصلوا إلى أقجا دربند فما ثبتت يد فرس لمصافحة صفاها، ولا نعله لمكافحة رحاها، ولا رجله لمطارحة قواها؛ وتمرنت الخيل على الاقتحام والازدحام في التطرق، وتعودت ما تعودته الأوعال من التسرب والتسلق،

فصارت تنحط انحطاط الهيدب، وترتفع ارتفاع الكوكب، وتسري سريان الخيال، وتمكن حوافرها الجياد فتزول منها الجبال؛ حتى حصل الخروج من منتهى أقجا دربند، وهو خناق ذلك المأزق الذي كم أمسك على طارق، وفم ذلك الدرب الذي كم عضت أنيابه على مساوق ومسابق، وذلك في يوم الأربعاء ثامن ذي القعدة، وبات السلطان والناس في وطأة هناك، وسمحت السحب بما شاءت من برد وبرد، وجاءت الرياح بما آلامت الجلد واستنفدت الجلد؛ وانتشرت العساكر في وطأة هناك حتى ملأت المفاوز، وملكت الطرق على المار وأخذتها على الجائز، وقدم مولانا السلطان الأمير شمس الدين سنقراً الأشقر في الجاليش في جماعة من العساكر، فوقع على ثلاثة آلاف فارس من التتار مقدمهم كراي، فانهزموا من بين يديه وأخذ منهم من قدم للسيف السلطاني فأكل نهمته وأسار، واستمرت تلك سنة فيمن يأخذ من التتار ويؤسر؛ وذلك في يوم الخميس تاسع ذي العقدة.
وبات التتار على أجمل ترتيب لأنفسهم وأجمل منظر، وبات المسلمون على أتم تيقظ وأعظم حذر، ولم يتحققوا قدوم مولانا السلطان في جيوش الإسلام، ولا أنه حضر بنفسه النفيسة ليقوم في نصرة دين الله ذها المقام. فلما كان يوم الجمعة عاشر ذي القعدة تتابع الخبر بعد الخبر بأن القوم قد قربوا، وأنهم ثابوا ووثبوا:
وقد تمنوا غداة الدرب في لجب ... أن يبصروه فلما أبصروه عموا!
" وشرع مولانا السلطان فوصى جنوده بالتثبت عند المصدمة، والاجتماع عند المصادمة " ورتب جيش الإسلام اللجب، على ما يجب، وأراهم من نور رأيه ما لا على بصر ولا بصيرة يحتجب، فطلعت العساكر مشرفة على صخرات هوني من بلد أبلستين وكان العدو ليلته تلك بائتاً على نهر زمان، وه أصل نهر جهان، وهو نهر جيحان المذكور في الحديث النبوي، وإنما الأرمن لا تنطق بالهاء.

فلما أقبل الناس من علو الجبل شاهدوا المغل قد ترتبوا أحد عشر طلباً كل طلب يزيد على ألف فارس حقيقة، وعزلوا عسكر الروم عنهم خيفة منهم، وجعلوا عسكر الكرج طلباً واحداً بمفرده، ولما شاهدوا سناجق مولانا السلطان المنصورة ومن حولها من المماليك الظاهرية، وعليهم الخود الصفر المقترحة، وكأنها في

شعاع الشمس نيران مقتدحة، رجعوا إلى ما كانوا عقدوا من العزائم فحلوا، وسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا، " وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون " وعلى الموت يتراسلون؛ فانصبت الخيل إليهم من أعلى الجبل انصباب السيل، وبطلت الحيلة منهم ونفي الحيل؛ فشمروا عن السواعد، ووقفوا وقفة رجل واحد؛ وهؤلاء المغل كان طاغية التتار آبغا - أهلكه الله - قد اختارهم من كل ألف مائة، ومن كل مائة عشرة، ومن كل عشرة واحداً لأجل هذا اليوم، وعرفهم بسيما الشجاعة وعرضهم لهذا السوم؛ وكان فيهم من المقدمين الكبار " تدلون " ؛ ومعنى هذا الاسم النفاذ يعني أنه ما كان في عسكر قط إلا نفذة، والمقدم الآخر " يفوا " وإليه أمر بلاد الروم وعساكر المغل بها، وأرختوا أخو تدلون، وبهادر بخشى، ومن مقدمي الألوف دنرك، وصهر آبغا، وقرالق وخواصه:

بيض العوارض طعانون من لحقوا ... من الفوارس شلالون للنعم ؟
قد بلغوا بثناهم فوق طاقته ... وليس يبلغ ما فيهم من الهمم
في الجاهلية إلا أن أنفسهم ... من طيبهن به في الأشهر الحرم

فعندما شاهدوا نجد الملائكة، وتحققوا أن نفوسهم هالكة، أخلدت فرقة منهم إلى الأرض فقالت، وعاجت المنايا على نفوسهم وعاجلت، وباعت نفوس المسلمين لهموتاجرت، وكسرتوما كسرت، وجاء الموت للعدو من كل مكان، وأصبح ما هناك منهم وقد هان؛ وللوقت خذلوا وجدلوا، ولبطون السباع وحزاصل الطيور حصلوا، وصاروا مع عدم ذكر الله بأفواههم وقلوبهم، يقاتلون قياماً وقعدوا وعلى جنوبهم، فكم من شجاع ألصق ظهره إلى ظهر صاحبه وحامى، وناضل ورامى، وكم فيهم من شهم، وما سلم قوسه حتى لم يبق في كنانته سهم، وذي سن طارح به فما طرحه حتى يثلم، وذي سيف حادثه بالصقال فما جلى محادثة حتى تكلم؛ وأبانوا عن نفوس في الحرب أبية، وقلوب كافرة نخوة عربية، واشتدت فرقة من العدو من جهة الميسرة معرجين على السناجق الشريفة من خلفها، منقلبين بصفوفهم على صفها:

فلزهم الطراد إلى قتال ... أحد سلاحهم فيع الفرار!

فثاب مولانا إليهم، ووثب عليهم، فضحى كل منهم بكل أشمط وأفرى الأجساد

فأفرط؛ ولحق مولانا السلطان منهم من قصد التحصين بالجبال فأخذهم الأخذة الرابية، " وقتلهم فهل ترى لهم من باقية " .

وما الفرار إلى الأجبال من أسد ... تمشي النعامبه في معقل الوعل؟

وانهزمت جماعة يسيرة طمع فيها من العوام من كان لا يدفع عن نفسه، وأخذتهم المهاوي فما نجا منهم إلا آيس من حياة غده في أمسه.

مضوا متسابقي الأعضاء فيه ... لأرؤسهم بأرجلهم عثار
إذا فاتوا الرماح تناولهم ... بأرمح من العطش القفار!

وقصدت ميمنة عسكرنا جماعة من المغل ذوو بأس شديد، فقاتلهم المسلمون حتى ضجر الحديد؛ وكان مولانا الصاحب زين الدين – حرس الله جلاله – لما دعيت نزال أول مسابق، وأسرع راشق، وأقرب مطاعن، وأعظم معاون؛ فذكر من شاهده أنه أحسن في معركته، وأجمل في كرته، وأجاد في طعنته، وزأر زئير الليث، وسابق حتى لم يبق حيث، ووقف دريئة للرماحمن عن يمينه وشماله، وخضب بما تحدر من دم عدوه أكناف سرجه وعنان لجامه، وكانت غليهمن الله باقية واقية في تقدمه وإقدامه، وشاهدناه وقد خرج من وسط المعركة وهو شاكي السلاح، وقد أخذ نصيبه ونصيب فرسه من سالم الجراح؛ وأراد الله أن لا يخليه من إسالة دم يعظم الله الأجر بسائله – فجعله – والمنة لله – من بعض أطراف أنامله.

ولقد ذكر الأمير عز الدين أيدمر الدوادار الظاهري، قال: لقيتني وقد تكسر رمحي، وعاد – لولا لطف الله – إلى الخسارة ربحي، فأعطاني المولى الصاحب زين الدين رمحه فإذا فيه نصول، وبسنة من قراع الدار عين فلول؛ ورأيت دبوس المولى الصاحب زين الدين وقد تلثم، وكان الخوف عليه في ذلك اليوم شديداً ولكن الله سلم؛ ولقد بلغ مولانا السلطان خبره فسأله فما أجابه بغير أن قال: سيف مولانا السلطان هو الذي سفك، وعزمه هو الذي فتك.

ومن يك محفوظاً من الله فلتكن ... سلامته ممن يحاذر هكذا
ويخرج من بين الصفوف مسلماً ... ولا من بيديه ولا ناله اذى!!

وأما العدو فتقاسمت الأيدي ما يمتطونه من الصواهل والصوافن، وما يصولون به من سيوف وقسي وكنائن، وما يلبسونه من خود ودروع وجواشن، وما يتمولونه من جميع أصناف المعادن؛ فغنم ما هنالك، وتسلم من استشهد من المسلمين رضوان وتسلم من قتل من الكفار مالك.

وكان الذين استشهدوا في هذه الموقعة من المقدمين: شرف الدين قيران العلائي " أحد مقدمي الحلقة " وعز الدين أخو الأمير جمال الدين المحمدي، ومن المماليك السلطانية: شرف الدين " فلحق " الجاشنكير الظاهري، وأبيك الشفيقي الذي كان وزير الشقيف. وكان المجرحون عدة لطيفة لم يعلم عددها لقلتها، بل لخفتها؛ وأورث الله المسلمين منازلهم فنزلوها، ووطاقاتهم وخركاواتهم فتملوها، وكان مولانا السلطان وكان أعداؤه كما قيل:

فمساهم وبسطهم حرير ... وصحبتهم وبسطهم تراب!!

" وأصبح الأعداء لا ترى إلا أشلاؤهم، ولا تبصر إلا أعياؤهم؛ كأنما جزر أجسادهم جزائر يتخللها من الدماء السيل، وكأنما رؤوسهم المجموعة لدى الدهليز المنصور أكر تلعب بها صوالجة من الأيدي والأرجل من الخيل " :

ألقت إلينا دماء المغل طاعتها ... فلو دعونا بلا حرب أجاب دم!

فكم شاهد مولانا السلطان منهم مهيب الهامة، حسن الوسامة، تتفرس في جهامة وجهه الفخامة، قد فض الرمح فاه فقرع السن على الحقيقة ندامة:

ووجوهاً أخافها منك وجه ... تركت حسنها له والجمالا!

أو كما قيل:

لا رحم الله أرؤساً لهم ... أطرن عن هامهن أقحافاً!

وأقبل بعض الأحياء من الأسارى على الأموات يتعارفون، ولأخبار شجاعتهم يتواصفون؛ فكم من قائل: هذا فلان وهذا فلان، وهذا كان وهذا كان؛ وهذا كان يحدث نفسه بأنه يهزم الألوف، وهذا يقرر في ذهنه أنه لا تقف بين يدي الصفوف؛ وكثرت الأسارى من المغل فاختار السلطان من كبرائهم البعض، وعمل فيهم بقول الله عز وجل: " ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض " . فجعلهم للسيوف طعمة، وأحضرت الأسارى من الروم فترقب مولانا السلطان فيهم الإل

والذمة:

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ... ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا!

وكان في جملة الأسارى الروميين مهذب الدين بكلارنكي، يعني أمير الأمراء ولد البرواناه، ونور الدين جاجا أكبر الأمراء، وجماعة كثيرة من أمراء الروم ومقدمي عساكره، فكان البرواناه أحق بقول ابي الطيب:

نجوت بإحدى مقلتيك جريحة ... وخلفت إحدى مهجتيك تسيل!
أتسلم للخطية ابنك هارباً ... ويسكن في الدنيا إليك خليل؟

لأنه شمر الذيل، وامتطى – هربا – أشهب الصبح وأحمر الشفق وأصفر الأصيل وأدهم الليل؛ وثم يخبر من خلفه بما تم، وهم قلبه رفيقه حين هم:

فنحن في جذل الروم في وجل ... والبر في شغل والبحر في خجل

ودخل البرواناه مدينة قيصرية في تاريخ يوم الأحد ثاني عشر الشهر المذكور، فأفهم غياث الدين سلطانها، والصاحب فخر الدين، " وزيرها " ، والأتابك مجد الدين، والأمير جلال الدين المستوفي، والأمير بدر الدين ميكائيل النائب، والأمير فلان الدين الطغرائي، وهو ولد عز الدين أخي البرواناه، وهو الذي طرر المناشير – أن المسلمين " أسروا " بعض المغل وبقيتهم منهزمون، ويخشى منهم دخول قيصرية وإتلاف ما يكون بها في طرائقهم حنقاً على الإسلام؛ فأخذهم جرائد، وأخذ زوجته كرجي خاتون بنت غياث الدين صاحب أرزن الروم، فاستصحبت معها أربعمائة جارية لها، وكان لها مالا كان لصاحب الروم من البخاتي والخيام والآلات، وتوجهوا كلهم إلى خربة توقات، وهو مكان حصين مسيرة أربعة أيام من قيصرية، ولما خرجوا من قيصرية حملهم على سرعة الهرب، وأنذرهم عذاباً قد اقترب، وهول على بقية أمراء الروم فاتبعوه إلا قليلاً منهم، وأخفى البرواناه أمره وأمر من معه حتى ولا مخبر يخبر عنهم.

وكان مولانا السلطان قد جرد الأمير شمس الدين سنقراً الأشقر في عدد مستظهراً به لإدراك من فات من المغل " والتوجه لقيسارية، وأمن أهلها " ، فمروا طريقهم بفرقة " من التتار " معها بيوتهم فأخذ منها جانباً، ودخل عليهم الليل فمر كل في

سربه ذاهلاً ذاهباً. ورحل مولانا السلطان في بكرة السبت حادي عشر ذي العقدة من مكان المعركة، فنزل قريب القرية المعروفة بريان، وهذه القرية قريب الكهف والرقيم حقيقة، لا ما يقال: إنه قريب حسبان من بلاد البلقاء، وقريباً منه صلد من الصفا عليه كتابة بالرومية أو غيرها من الخط القديم، وأما القرية المذكورة المسماة بريان فإن بيوتها بنيت سن جبل قائم كالهرم إلا أنه ملموم، وعمرت البيوت في سفحه حوله بيتاً فوق بيت فبدت كأنها مجرة النجوم، وما من بيت منها إلا وبه مقاعد ذوات درابزينات منجورة، ورواشن قد بدت في أجمل صورة، يختمها من أعلاها أحسن بنيان، ويعلوها من رأسها منزل مسنم الرأس كما يعلو الصعد السنان، وتطوف بهذه القرية جبال كأنها أسوار بل سوار، كأنها في وسطها إناء فيه جذوة نار؛ ويتفرع منها أنهار، هي في تلك الأودية كأنها بهبوطها كثيب قد انهار؛ ذوات قناطر لا تسع غير راكب، ومضايق لا يلفى غبرها لناكب؛ قدر الله أن العساكر خلصت منها ولكن بعد مقاساة الجهد، وخرجت وقد رق لها قلب كل وهد؛ ونزلنا قريباً منها حتى تخلص من تخلص، وحضر من كان في المضايق قد تربص، وقال: كل الأرض حصحص.

ورحلنا من هناك في يوم الأحد ثاني عشر شهر ذي القعدة وكانت السماء قد حيت الأرض بتيجان أمطارها، وأغرقت الهوام في أحجارها، والفتخ في أوكارها، وأصبحت الأرض لا تتماسك حتى ولا لمرور الأراقم، والجبال لا تتماسك أن تكون للعصم عواصم؛ تضع بها من الدواب كل " ذات " حمل، وتزلق في صقليها أرجل النمل؛ وسرنا على هذه الحالة نهارنا كله إلى قريب الغروب، وقطعناه بتسلمنا أيدي الدروب من أيدي الدؤوب، ونزلنا عشاء في منتقع أرض تطوف بها جبال شاهقة، ومياه دافقة، تعرف قاعة تلك الأرض بوطأة " قشلا وسار " من أعمال أصاروس العتيق؛ ويقرب من تلك الجهة معدن الفضة.

وبينما نحن قد شرعنا في أهبة المبيت، ولم نقض الشمل الشتيت؛ إذا بالصادح قد صدح، والنذير قد سنح، رافعاً عقيرته بأن فوجاً من التتار في فجوة هنالك قد استتروا، وفي نجوة لغرة قد انتظروا؛ فركب مولانا السلطان وركب الناس في السلاح، وعزموا على المطار فعاقهم تتابع الغيث وكيف يطير مبلول الجناح؟؛ ثم

لطف الله وعاد مولانا السلطان وهو يقول للناس: لا بأس؛ فنمنا نومة السليم، وصدرت أفكارنا شاغرة فيكل واد تهيم، وأصبحنا فسلكنا جبالاً لا يحيط بها الوصف، وتتبسط عذراء الطرف فيها حين يكبو فيها الطرف؛ ننحط منها إلى جنادل، يضعف عن الهوي إليها قوي الأجادل؛ بينا نقول: قد أحسن الله لها نفاداً؛ ومنها نفاذاً؛ وإذا بعد الأدوية أدوية وبعد الجبال جبال نشكر عند ذاك هذه وذاك عند هذا؛ ومررنا على قرية " أتراك " ، وتحتها قناطروخان من حجر منحوت، ثم خان آخرللسبيل على رأس رابية هناك تعرف باشيبدي، قريباً من حصن سمندوا، التي عرض بها أبو الطيب في قوله:

فإن يقدم فقد زرنا سمندو ... وإن يحجم فموعده الخليج!

وكان مولانا السلطان قد سير إليها خواصه بكتاب إلى نائبها فقبله وقبله، وأذعن لتسليم حصنها المنيع وللنزول لأمر السلطان عنها إن استنزله؛ فشكر مولانا السلطان له تلك الإجابة، ووفاه من الشكر حسابه. وكذلك " والي " قلعة دوندا " ووالي " دوالوا، فكلهم أجابوا وأطاعوا ولكلمة الإذعان قالوا؛ ونزلنا في وطأة قريب قرية تعرف بحمرها، وكان الناس قد فرغت علوفات خيلهم أو كادت، والخيل قد باتت ليالي بلا عليق فما استفادت، وشاركتها خيول الكسوب(؟) في عليقها، وما ساعدتها في طروقها ولا في طريقها، فضعفت عن حمل نفوسها فما ظنك براكبيها؛ وكاد الفارط – لولا لطف الله عز وجل – أن يفرط فيها؛ فصادفنا في هذه الليلة بعض أتبان أمسكت أرماقها، وأحسنت إرفادها وإردافها.

وأصبحنا في يوم الثلاثاء رابع عشر ذي القعدة راحلين في جبال كأنها تلك الأول، وهابطين في أودية يتمنى سالكها من شدة مضايقها أن لو عاد إلى ترقي أعلى جبل؛ وما زلنا كذلك حتى أشرفنا على خان هناك يعرف بقرطاي يدل على شرف همة بانيه، وطلب ثواب الله فيه؛ وذلك أنه من أكبر الأبنية سعة وارتفاعاً، وأحسنها شكلاً وأوضاعاً؛ كله مبني بالحجر المنحوت المصقول الأحمر الذي كأنه رخام، ومن ظاهر أسواره وأركانه نقوش لا يتمكن أن يرسم مثلها بالأقلام؛ وله خارج بابه مثل الربض ببابين بأسوار حصينة، مبلط الأرض، فيه حوانيت. وأبواب

الخان حديد من أحسن ما يمكن استعماله، وداخله أواوين صيفية، وأمكنة شتوية، وإصطلاب على هذه الصورة لا يحسن الإنسان أن يعبر عنها بكيف، وما منها إلا ما يجده الإنسان رحلة للشتاء والصيف؛ وفيه الحمام والبيمارستان والأدوية والفرش والأواني والضيافة لكل طارق على قدره، حمل امولانا السلطان من ضيافته لما مر عليه، وكثر الناس فما وصل أحد إليها ولا إليه؛ وعليه أوقاف عظيمة، وضياع كثيرة حوله وفي غيره من البلاد، وله دواوين وكتاب ومباشرون يتولون استخراج أمواله والإنفاق فيه؛ ولم يتعرض التتار إلى إبطال شيء من رسومه، وأبقوه على عوائد تكريمه؛ وأهل الروم يبالغون في تبجيل بانيه – رحمه الله – وتعظيمه؛ ونزلنا تلك الليلة قريب قرية تقرب من قيصرية من حقوق وادي صلعومة شرقي الجبل المعروف بعسيب، فيه قبر امرئ القيس الشاعر، " وهو الذي يقول فيه " :

أجارتنا إن الخطوب تنوب ... وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ها هنا ... وكل غريب للغريب نسيب!!

وهذا الجبل يعلوه جبل " أرجاس " ، وهو الذي يضرب الروم الأمثال بتساميه، وتتضاءل الجبال في جميع الدنيا لتعاليه؛ لا يسحب ذيول السحائب إلا دون سفحه، ولا يعرف من ثلوجه شتاءً وصيفاً ومن مثال الأبخرة المتصعدة منه عشاؤه من صبحه.

ولما كان يوم الأربعاء منتصف ذي القعدة، وهو يوم شرف الزهرة ركبت العساكر المنصورة مترتبة، وملأت الفضاء متسربة؛ وركب مولانا السلطان في زمرته، وذوي أمره وإمرته، يختال جواده في أفسح ميدان، ويصيح به فرحاً ومرحاً كأنه نشوان درى أنه سلطان:

تظل ملوك الأرض خاشعة له ... تفارقه هلكى وتلقاه سجدا وخرج أهل قيصرية وأكابرها، وعلماؤها وزهادها وتجارها، ورعاياها ونساؤها وصغارها، فأكرم مولانا السلطان ممشاهم، وشكر مسعاهم، وتلقى قضاتهم وعلماءهم ركباناً، وحادثهم إنساناً فإنساناً؛ وحصلت لحماعة من الفقراء والناس حالات وجد مطربة، وصدحات ذكر معجبة. وكان دهليز السلطان غياث الدين صاحب الروم وخيامه

وشعار سلطنة الروم قد بني جميع ذلك في وطأة قريب الجوسق والبستان المعروف بكيخسرو، وترجل الناس على اختلاف طبقاتهم في الركاب الشريف من ملك وأمة ومأمور وأمير، وارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير:

رجا الروم من ترجى النوافل كلها ... لديه ولا ترجى لديه الطوائل!

ونزل مولانا السلطان في تلك المضارب المعدة لكرم الوفادة، وضربت نوبة سلجوق على باب دهليزه على العادة؛ وأذن مولانا السلطان في التقرب إلى شريف فسطاطة، وشملهم بنظرة واحتياطه؛ وحضر أصحاب الملاهي، فما ظفروا بغير النواهي، وقيل لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا، واذهبوا إلى واد غير هذا الوادي فاقتبسوا؛ فهذه الهناة لا تنفق هنا، وما هذا موضع الغناء بل هذا موضع الغنى؛ وشرع مولانا السلطان في إنفاق اللهى، وعين لكل جهة شخصاً وقال: أنت لها؛ وحكم وحكم، وعلم وعلم؛ واعتمد على الأمير سيف الدين جاليش في النيابة، وأعطى كلا بيمنه كتابه، " وكتب إلى أولاد قرمان، أمراء التركمان، وهم ألوف، وما فيهم للتتار ألوف، وأكد عليهم في الحضور " ، وأقام الحجة على من النتزح بالاستعطاف، وتأمين من خاف، فما خرج كبيرهم عن المخاتلة، ولا زعيمهم عن المطاولة؛ فلما علم مولانا السلطان أنهم لا يفلحون، ولغير التتار لا يصلحون، عاد عن تلك الوعود، واختارأن ما بدأ إليه يعود، وأن يبعث نفسه إلى ما بعثه الله إليه من المقام المحمود، فركب يوم الجمعة سابع عشر ذي القعدة مستقبلاً من الله كل الخير، ونصب " جتر " بني سلجوق على رأسه فشاهدالناس منه صاحب القبة والسبع وصاحب القبة والطير؛ ودخل قيصرية في بكرة هذا اليوم وكانت دار السلطنة قد فرشت لنزوله، وتخت بني سلجوق وقد هيئ لحلوله؛ وهي دار تزهو، ومنازل من يتعبد أو منازه من يلهو، أنيقة المبتنى، تحف بها بساتين عذبة الجنى؛ جدارنها بأحسن أصناف القاشاني مصفحة، وبأجمل نقوشه مصرحة؛ فجلس مولانا السلطان في مرتبة الملك في أسعد وقت، ونال التخت بحلوله أسعد البخت:

وما كان هذا التخت من حين نصبه ... لغير المليك الظاهر الندب يصلح
مليك على اسم الله ما فتحت له ... صوارمه البيض المواضي وتفتح

أتته وفود الروم والكل قائل ... " رأيناك تعفو عن كثير وتصفح "
فأوسعهم حلماً وجاد لهم ندى ... وأمسوا على من وأمن وأصبحوا
ولو أنهم لم يجنحوا لمنكب ... عن الحق والنهج القويم لأفلحوا
ولكنهم أعطوا يداً فوقها يد ... تصافح كفا زندها النار يقدح

وأقبل الناس على مولانا السلطان يهنؤونه، وعلى كفه الشريف يقبلونه؛ وبعد ذلك حضرت القضاة والفقهاء والعلماء والصوفية وذوو الواتب من أصحاب العمائم على عادة بني سلجوق في كل جمعة، ووقف أمير المحفل وهو كبير المقدار عندهم، له وسامة وفخامة، وله أكبر كم وأوسع عمامة، وأخذ في ترتيب المحفل على قدر الأقدار، وانتصب قائماً بين يدي مولانا السلطان منتظراً ما إليه به يشار؛ وشرع القراء يقرأون جميعاً وفرادى بأحسن تلحين، وأجمل تحسين، فأنت أصواتهم بكل عجيب، وعدلوا عن الترتيل إلى الترتيب. ولما فرغوا شرع أمير المحفل صارخاً، وبكور فمه نافخاً، فأنشد وأورد بالفارسية ما يعجب مدلوله، ويهول مقوله؛ وأطال وما أطاب، واستصوب من يعرف مقاله قوله، والله أعلم بالصواب.

ولما انقض ذلك مد سماط ليس يناسب همم الملوك، فأكل الناس منه للشرف لا للسرف، ثم عاد كل منهم إلى مقامه فوقف؛ وقام مولانا السلطان إلى مكان الاستراحة فأقام ساعة أو ساعتين، ثم خرج إلى مخيمه قرير العين؛ وكان بدار الملك حرم السلجوقية قد أصبحوا لا ترى إلا مسكنتهم ومساكنهم، قد نبت بهم مواطئهم ومواطنهم؛ على أبوابهم أسمال ستور من حرير، ومشايخ خدام يستحق كل منهم – لكبر سنة – أن يدعى بالكبير؛ عليهم ذلة الانكسار، وأماير الأفتقار، فخبرهم مولانا السلطان وآنسهم، وأحسن إليهم؛ وتوجه من توجه إلى صلاة الجمعة في قيصيرية وبها سبع جمع تقام، وبها خطباء إن هم إلا كالأنعام؛ فصلينا في جامع السلطان وهو جامع علي يدل على احتفال ملوكها ببيوت عبادتهم، ورأينا فيه من دلائل الخير ما يقضي بحسن إرادتهم؛ فحضر أهل المدينة وأكابرها، وجلسوا حلقاً لا صفوفاً، وأجروا من البحث بالعجمية صنوفاً، واجتمعت جماعة من حفظة الكتاب العزيز فتخارجوا القراءة آية آية، وهي قراءة بعيدة عن الدراية؛ بل إنها

تبرزها أصوات مترنمة، وألحان لتفريق الكلمات مقسمة، ينطوق بالحروف كيف اتفقت، ولا يتوقفون على مخارج الحروف أنها بها نطقت أو لا نطقت.

فلما آن وقت الأذان قام صبي عليه قباء من وسط جماعة عليهم أقبية قعود على دكة المؤذنين، فابتدأ بالتكبير أولاً وثانياً بمفرده من غير إعانة ولا إبانة. ولما تشهد ساعدوه جميعهم بأصوات محمحمة ملعلعة، ونغمات متنوعة، يمسكون له النغم بأحسن تلحين، ويترنمون بالأصوات إلى آخر التأذين؛ وفرغ الأذان وكلهم قعود ما منهم أحد غير الصبي وقف، وما منا أحد لكلمة من الأذان عرف؛ ولما فرغ الأذان طلع شيخ كبير السن يعرف بأمير محفل المنبر، وشرع في دعاء لا نعرفه، وادعاء لا نألفه: كأنه مخاصم، أو وكيل شرع أحضره لمشادة خصمه محاكم بين يدي حاكم؛ وطلع الخطيب بعد ذلك فخطب ودعا لمولانا السلطان بغير مشاركة، ودعا الناس بما تلقته من الأفواه الملائكة؛ وانقضت الجمعة على هذه الصورة المسطورة؛ وضربت السكة باسم مولانا السلطان، وأحضرت الدراهم إليه في هذا اليوم، فشاهدها فرأى أوجهها باسمة باسمه الميمون، وأقرت الألسنة بهذه النعمة وقرت العيون؛ وشاهدت بقيسارية مدارس وخوانق وربطاً تدل على اهتمام بانيها، ورغبتهم في العلوم الدينية والشرعية، مشيدة بأحسن الحجار الحمر المصقولة المنقوشة، وأراضيها بأجمل تلك مفروشة، وأوانيها وصففها مؤزرة بالقاشاني الأجمل صورة، وجميعها مفروشة بالبسط الكرجية والعالية، وفيها المياه الجارية، ولها الشبابيك على البساتين الحسنة، وسوق قيصرية طائف بها من حولها، وليس داخل المدينة دكان ولا سوق.

والوزير في بلاد الروم جميعها يعرف بالصاحب " فخر الدين خواجا علي " ولا يحسن الكتابة ولا الخط، وخلعته من مماليكه خاصة مائتا مملوك، ودخله في كل يوم – غير دخل أولاده وغير الإقطاعات التي له ولأولده وخواصه – سبعة آلاف درهم سلطانية. ولقد شاهدت في مدرسته من خيامه وخركاواته شيئاً لا يكون لأكبر الملوك، وله بر ومعروف، وهو بالخير موصوف:

والمسمون بالوزير كثير ... والوزير الذي لنا المأمول!

وعلي هذا وذاك علي ... وعلي هذا له التفضيل!
الذي زلت عنه شرقاً وغرباً ... ونداه مقابلي لا يزول!
ومعي أينما سلكت كأني ... كل وجه له بوجهي كفيل!

وأما معين الدين سليمان البرواناه وزوجته كرجي خاتون، فظهر لهما من الموجود البادل العيون كل نفيس، وبحمد الله استولى مولانا السلطان ومماليكه من موجوده ودار زوجته المذكورة على ملك سليمان وصرح بلقيس.

سولما أقام مولانا السلطان بقيصرية هذه المدة، فكر في أمر عساكره ومصالحه بما لا يعرفه سواه، ونظر في حالهم بما أراه الله، وذلك لأن الأقوات قلت، " وقيسارية ألقت ما فيها من المؤن وتخلت " والسيوف من المصارعة ملت، والسواعد من المصادمة كلت، وأنه ما بقي في الروم من الكفار من يغزى، ولا بجزاء السوء يجزى؛ ولا بقي في البلاد غير رعايا كالسوائم الهاملة، ولا دية – للكفر منهم على عاقل وعاقلة؛ وأنه أقام فالبلاد لا تحمله، ومواد بلاده لا تصله، وأعشاب الروم بالدوس قد اضمحلت، وعلوفاتها قد قلت، وزروعها لا ترتجى لكفاية، ولا ترضى خيول العساكر المنصورة بما ترضى به خيول الروم من الرعي والرعاية، وأن الحسام الصقيل الذي قتل التتار به في يد القاتل، وأنهم إن كان أعجبهم عامهم قيعودون إلى الروم فب قابل.

ورحل في يوم الاثنين عشرين من ذي القعدة بعد أن أعطى أمراءه وخواصه كل ما أحضر إليه من الأعنة والأزمة، وكل ما يطلق على تولية اسم النعمة؛ فنزل بمنزلة تعرف بعترلوا؛ وفي هذه المنزلة ورد إلى السلطان رسول من جهة غياث الدين سلطان الروم، ومن جهة البرواناه والكبراء الذين معه يسمى الدين الترجمان – وفي الحيقيقة هو من عند البرواناه – يستوقف مولانا السلطان عن الحركة وما علموا إلى أين، بل كان الأمر شائعاً بين الناس أن الحركة إلى جهة سيواس؛ فعدد مولانا السلطان عليه حسن وفائه بعهده، وأنهم ما وقفوا عند الشروط المقررة، ولا وفوا بمضون الرسائل المسيرة، وأنهم لما جاء الحق وزهق الباطل طلبوا نطرة إلى ميسرة، وأن أعنتهم للكفر مسلمة، وأنهم منذ استيلاء التتار " على الروم " هم

أصحاب المشامة؛ وعلم مولانا السلطان أن بلاد الروم ما بها عسكر يستخلصه لنفسه، ولا من يقابل المغل في غدة خوفاً مما شاهده كل منهم في أمسه، وأنهم أهل طيبة عيش، لا قواد جيش؛ فرد السلطان إلى سليمان البرواناه مد يده، وقال: قل له: إنني قد عرفت الروم وطرقاتها، وأخذت أمه أسيرة وابن بنته وولده، ويكفينا ما جرى من النصر الوجيز، " ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز " وما كل من قضى فريضة الحج يجب عليه المجاورة، ولا بعد هذه المناصرة مناصرة، ولا بعد هذه المحاورة محاورة، ونحن فقد ابتغينا فيما آتانا الله: من حقن دماء أهل الروم وعدم نهب أموالهم الدار الآخرة، وتنزهنا عن أموال كنتم للتتار تستحبونها، ومغارم كثيرة هي لهم من الجنات مغانم يأخذونها حين يأخذونها؛ وما كان جلوسنا في تخت سلطنتكم لزيادة بتخت آل سلجوق، " بل " لنعلمكم أنه لا عائق لنا عن أمر من الأمور يعوق؛ وإن أحداً لا ينبغي له أن يأمن لنا سطوة، وليتحقق كل أن كل مسافة جمعة لنا خطوة، وسروجنا - بحمد الله - أعظم من ذلك التخت جلالاً، وأرفع منالاً، وكم في ممالكنا كراسي ملك نحن آية ذلك الكرسي، وكم لنا فتح كله - والحمد لله - في الإنافة الفتح القدسي.

من كان فوق محل الشمس موضعه ... فليس يرفعه شيء ولا يضع!

واستصحب السلطان معه تحت الرضا والعفو من أكابر الروميين - الأمير سيف الدين جاليش النائب بالروم، وهو رجل شيخ نبيه له اشتغال بعلم؛ وكان له في الروم صورة، وهو أمير داريعني أمير المظالم. واستصحب ظهير الدين " متوج " مشرف الممالك، ومرتبته دون الوزارة وفيه فضل، ونسخ كثيراً من العلوم بخطه، مثل الصحاح في مجلد واحد، وغير ذلك. واستصحب الأمير نظام الدين أوحد بت شرف الدين بن الخطير، وأخوته وجماعته وجماعة والده، وأولاد عمه ضياء الدين بن الخطير المستشهد رحمه الله.

واستصحب من الأمراء: الأمير مظفر الدين محاف " ؟ " والأمير سيف الدين كجكيه الجاشنكير، والأمير نور الدين المنجنيقي، وأصحاب ملطية أولاد رشيد الدين أمير عارض، وهم: كمال الدين وأخوته، وأمير علي صاحب كركر.

واستصحب قاضي القضاة بملطية، وهو القاضي حسام الدين ابن قاضي العسكر،

ووالده الذي كان يترسل عن السلطان علاء الدين إلى الملوك، وهو رجل عالم فاضل. وأكثر هؤلاء حضروا ببيوتهم ونسائهم وغلمانهم وحفدتهم.
والذين حضروا تحت الغضب – ولد البرواناه المذكور، وولد خواجا يونس، وهو ابن بنت البرواناة ووالدة البرواناه، والأمير نور الدين جاجا، وهو أكبر أمراء الروم أصحاب النعمة والنعم، والأمير قطب الدين أحمد أخو الأتابك، والأمير سيف الدين سنقرجاه الروناشي، والأمير سراج الدين إسماعيل بن جاجا، والأمير نصرة الدين صاحب سيواس، والأمير كمال الدين عارض الجيش، والأمير حسام الدين ركاوك قريب البرواناه، والأمير سيف الدين الجاويش، والأمير سراج الدين أخو حسام الدين، والأمير شهاب الدين غازي بن علي شير التركماني.
ومن المغل: مقدمي الألوف والمئات – زيرك وسرطلق، وحنوكه، وسركده، وتماديه.

ثم رحل السلطان في اليوم الثاني ونزل بمنزلة قريب خان السلطان علاء الدين كيقباذ، ويعرف بكرواني صراي، وهذا الخان بنية عظيمة من نسبة خان قرطاي، وله أوقاف عظيمة. ومن جملة ما وجد قريباً منه أذواد كثيرة من الأغنام عبثت فيها العساكر المنصورة، سألت عنها فقيل: إنها وقف على هذا الخان يذبح نتاجها للواردين على هذا الخان، وهذه الاغنام له من جملة الوقوف، قدر الله استيفادها جملة لما كثرت على هذا الخان من الجيوش المنصورة الضيوف.
ورحلنا في اليوم الثالث وهو يوم الأربعاء ثاني عشرين من الشهر، ونزلنا في وطأة عادة التتار ينزلون بها تسمى روران كودلوا، وكودلوا اسم جبال تلك الوطأة.
ورحلنا في يوم الخميس ثالث عشرين من ذي القعدة، فعارضنا بها – في وطأة خلف حصن " سمندو " من طريق غير الطريق التي كنا توجهنا منها – نهر يعرف بنهر قزل صو، قريب كودلوا الصغير. ومعنى قزل صو النهر الأحمر؛ وهذا النهر صعب المخاض، واسع الاعتراض، عالي المهبط، زلق المسقط، مرتفع المرتقى، بعيد المستقى، لا يجد السالك من أوحال حافتيه إلا صعيداً زلقاً، فوقف مولانا السلطان بنفسه، وجرد سيفه بيده، وباشر العمل بنفسه هو وجميع خواصه،

حتى تهيأ المكان جميعه، ووقف راجلاً يعبر الناس أولاً فأولاً: من كبير وصغير وغلام، وهو في أثناء ذلك يكر على من يزدحم، ويكرر تأديب لمن يطلب بأذية رفيقه ويقتحم؛ وما زال من رابعة هذا النهار إلى الساعة الثامنة حتى عبرت الناس سالمين. ولما خفت البرور، ولم يبق إلا المرور، ركب فرسه وعبر الماء والألسنة له داعية، وعليه من الله واقية باقية، فنزل في واد هناك به " مرعى ولا كالسعدان " ، " ومرأى ولا كشعب بوان " .

ثم رحل في يوم الجمعة فنزل عند صحرات قراجار حصار، وهي قرية كانت عامرة فيما مضى، قريبة من " هدر رجال " قبالة بازاربلو، وهذا البازار هو الذي كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض، ويباع فيه كل شيء يجلب من الأقاليم، ويقرب من كودلوا الكبير.

وسرنا في يوم السبت سوقاً طول النهار، حتى نزلنا في وطأة الأبلستين، وفي هذا النهار عبر مولانا السلطان – نصره الله – على مكان المعركة لمشاهدة أمم التتار، وكيف تعاقبت عليهم من العقبان كواسرها، وكف بأسهم من النسور مناسرها، وكيف أصبحوا لا يندبهم إلا البوم، وتحققوا أن التي أهلكتهم زرق الأسنة لا زرق الروم، فرآهم لمن بقي عبرة، وعرضوا على ربهم صفاً وجاؤوه كما خلقوا أول مرة، وابصر الرياح لأشلائهم متخطفة، والهوام في أجسادهم متصرفة، وشاهدهم وقد هذأهم كل شيء حتى الوحوش والرياح: فهذه من صديدهم متكرعة وهذه عليهم متقصفة.

قد سودت شجر الحبال شعورهم ... فكأن فيه مسفة الغربان!

ولما عاينهم مولانا السلطان وعاينهم الناس أكثروا شكر الله على هذه النعم التي أمست لكافة الكفر كافة وشالة ودارزه، وأثنوا على مننه التي سنت إليهم خيار العساكر المنصورة حتى أصبحت تلك الأرض بهم بارزة، وحضرت من أهل الأبلستين هنالك جماعة من أهل التقى والدين، واستخبرهم مولانا السلطان عن عدة قتلى المغل فقالوا: " فاسأل العدين " ، فاستفهم من كبيرهم عن عدة المغل كم من قتيل، فقال: " قل الله أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل " وقال بعضهم ممن عدهم وممن عنده علم من الكتاب: أنا عددت ستة آلاف وسبعمائة وسبعين نفراً وضاع

الحساب؛ هذا: غير من آوى إلى جبل يعصمه من ماء السيوف فما عصمه، وغير من اعتقد أن فسه تسلمه فأسلمه:

" فلقد غدوا خلل الرماح كأنما ... غضبت رؤوسهم على الأجسام
أحجار ناس فوق أرض من دم ... ونجوم بيض في سماء قتام "

فتركهم مولانا السلطان ومضى والفلوات مزرعة لجسومهم، والدود - لأنهامؤمنة وهم كفار - وقد أثرت كالنواسر في لحومهم، فرسم مولانا السلطان بتقدم الأثقال والحراس والدهليز المنصور صحبة الأمير بدر الدين الخزندار، والدخول في " أقجه دربند " ، وأقام مولانا السلطان في ساقة العسكر المنصور بقية يوم السبت ويوم الأحد:

فهو يوم الطراد أول سابق ... وهو يوم القفول آخر سائق!

وانتظر في هذين اليومين صيداً من العدو يعن، وما من دمائهم إلى السيف يحن؛ فلما لم يجد أحداً رحل في يوم الاثنين فنزل قريباً من الخان الذي في الدربند، وركب يوم الاثنين من طريق غير التي حضر منها، فسلك طريقاً من الأوعار يبسا، وسلك من قلل الجبال في هضاب كأن كل منها ألف حملت من الأنجم قبسا؛ فقاسى العالم في هذا اليوم من الشدة ما لا يدخل في قياس، وكادوا يهلكون لولا أن الله عز وجل تدارك الناس، فتسابقوا ولكن على مثل حد السيف، وتسللوا ولكن سل حوافر الخيل كيف؟ وهبطوا من جبال يستصعبها كل شيء حتى طارق الطيف؛ يستصعب الحجر المحلق من شاهق وقوعه في عقابها، ويستهول النجم الثاقب ترفع شعابها، بالقرب منها جبل شاهق يعرف " بسقر " وما أدراك ما سقر، لا يبقي على شيء من الدواب ولا يذر، له عقبة لواحة للبشر، أعان الله على الهبوط منها، وفاز بمشيئة الله وبسعادة مولانا السلطان من زحزح عنها؛ وعدينا كوكصوا وهو النهر الأزرق، وبات مولانا السلطان هناك، وكان قضيم البغال تلك الليلة ورق البلوط، إلا من أمست عناية الله أن تيسر في شعير بخمسة عشر درهم كل مد يحوط.

ورحل مولانا السلطان يوم الأربعاء تاسع عشرين من ذي القعدة فنزل قريب

كسول(؟) المقدم ذكرها، وعدل إلى طريق مرعش فزال بحمد الله الداعي وقالوا للشعير: ما فينا لك مخاطب ولا منا فيك بماله مخاطر، وللخيول قد حصل لك فيمصر الربيع الأول في شعبان وفي الشام في ذي الحجة الربيع الآخر، فأرتعت لا يروعها أصحاب الموازين في تلك المساجد(؟)؛ وقسم مولانا السلطان تلك الأعشاب كما تقسمت في آفاق السماء النجوم، وأوقفكل أحد في مقام حتى قال: " وما منا إلا له مقام معلوم " ؛ فكم هنالك من مروج أعسبت فأعجبت، وانجابت السماء عنها فأنجبت، وأرت على زهر النجوم فاهتزت وربت:

يصد الشمس أنى واجهتنا ... فيحجبها ويأذن للنسيم

يتخللها هنالك أترع الحياض ،ويلهو بها كل شيء فكم قصف العاصي بها في تلك الرياض.

هذا كله: وخير من أرزنجان، حارة برجوان؛ وخير من أراضي توريز، قطعة من إيليز، وكوم من كيمان سفت ميدوم، خير من قصر قيصرية الروم؛ ونظرة إلى المقياس، خير من سيواس؛ ومناظر اللوق، خير من كيقباذ آل سلجوق؛ وتربة من ترب القرافه، خير من مروج العرافة؛ وشبر من شبرا، خير من سطا ومرا:

وجلوس في باب دارك خير ... من جلوس في " باب " إيوان كسرى
والتماحي لنور وجهك خير ... لي من أنني أشاهد بدرا؟؟؟
يا ولياً يولي الأيادي سراً ... ووزيراً فليس يكسب وزرا
ما رأينا والله فيمن رأينا ... لك مثلاً من البرية طرا
كم خبرنا الرجال في كل أرض ... فإذا أنت أعظم الخلق قدرا؟
كم فلان قالوا وقالوا فلاناً ... فإذا الناس دون علياك حسرى
لك مدح قد طبق الأرض سبحا ... ن إله به إلى الناس أسرى
ما رأينا مصراً كمص ولا مث ... لك فينا، والحمد لله شكرا

الضرب الثاني من الرسائل الملوكية رسائل الصيد

وهذه نسخة رسالة في صيد السلطان الشهيد الملك الناصر بن السلطان الشهيد الملك المنصور " قلاوون " من إنشاء القاضي تاج الدين البارنباري؛ وهي: الحمد لله الذي نعم النفوس الشريفة بإدراك الظفر، وأنعم على هذه الأمة بمحمدها الذي أنار كوكب نصره وسفر، وشرع لها على لسان نبيها صلى الله عليه وسلم - الغنيمة في السفر، وأسعف هذه الدولة الشريفة بدوام سلطانها الذي حفت أيامه بالعز والتأييد والظفر.

نحمده على أن أقر العيون بفضله بما أقر، ونشهد أ،لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ألانت قلب من نفر، وكرمت أسبابها فلا يتمسك بها إلا أعز فريق ونفر، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أعز من آمن وأذل من كفر، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين تجاوز الله عن ذنوبهم وغفر، وسلم تسليماً.

وبعد، فإن في ابتغاء النصر ملاذاً تدركها كل ذات شرفت، وتملكها السجايا التي تعارفت بالفخار وائتلفت، وتنالها النفوس التي مالت إلى العز وإلى تلقائه صرفت؛ ومنشؤها من حالتين: إما في موقف عز عندما تلمع بروق الصفاح، وتشيب من هول الحرب رؤوس الرماح، وتسرح جوارح النبال لتحل في الجوارح وتصيد في الأرواح؛ وإما في موطن سلم عندما تنبسط النفوس إلى امتطاء صهوات الجياد في الأمن والدعة، وتنشرح الصدور إلى معاطاة الصيود والمسرات مجتمعه، وتطلق البزاة فتصيد، وتتصرف بأمر الملوك الصيد وترسل الحوامي الممسكة، وتلقى علىما سنح من الوحش فلا ترى إلا مدركة؛ وتفاض النعم السلطانية وتجزل مواهبها، وتلوح العصابة الشريفة وتنبعث مواكبها.

وكان الله تعالى قد جمع للمواقف الشريفة، المعظمة، السلطانية، الملكية، الناصرية، خلد الله سلطانها - سعادة الحالتين حرباً وسلماً، وآتاه فيهما النصر الأرفع والعز الأسمى، ووسم بصدقاته وعزماته الأمرين وسما، ونصره نعتاً وعظمه سمعة وشرفه اسما، فأيام حروبه كلها رفعة وانتصار، واستيلاء واستظهار، وقوة تحيا بها المؤمنون وتفنى الكفار؛ وأيام سلمه كلها عدل وهبة، وصدقات منجية منجبة،

ورفع ظلامات متشعبة، وقمع نفوس متوثبة، وحسم خطوب مستدة، وحفظ الحوزة الإسلامية من كل بأس ووقايتها من كل شدة، وفي خلال كل عام تصرف عزائمه الشريفة إلى ابتغاء صيد الوحش والطير: لما في ذلك من تمرين النفوس على اكتساب التأييد، وحصول المسرة بكل ظفر جديد؛ فيرسم – خلد الله سلطانه – في الوقت الذي يرسم به من مشتى كل عام بإخراج الدهليز المنصور فينصب في بر الجيزة بسفح الهرم، في ساعة مباركة آخذة في إقبال الجود والكرم؛ فتمد بالتأييد أطنابه، وترفع على عمد النصر قبابه، ويحاط بحراسة الملائكة الكرام رحابه، وتضرب خيام الأمراء حوله وطاقاً، وتحف به " مثل " النجوم بالبدر اشراقا؛ ويستقل الركاب الشريف – شرفه الله – بعد ذلك بقصد عبور النيل المبارك فيظهر من القلعة المحروسة والسلامة تحجبه من المخافة، والحراسة تصحبه فيما قرب ونأى من المسافة، ولسان السعد قد خاطبه بالتحية وشافه، ومماليكه الأمراء قد حفوا به أطلاباً، وسني موكبه قد بعث أمامه من الإضاءة نجاباً؛ ولم يزل حتى يأتي النيل المبارك ويستوي على الكرسي في الفلك المشحون، محوطاً بالنصر الميمون والجيش المأمون، وقد استبشر باعتلائه البحر والنون، وأضحى لظهر الفلك من الفخار " بحضرته " المكرمة، ما لصهوات أجياده العتاق المسومة، فلهذا نشر أعلام بشراها، " وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها " ، فسارت به في اليم، ونصر الله قد تم، وصعد من فلكه، على ما يسر نفوس المؤمنين في كمال سلطانه وعزة ملكه، واستقر على جواد شرفت صهوته، وقرنت بالأناة والسكون خطوته، عربي النجار، يختال في سيره كأنما انتشى من العقار:

ويختال بك الطرف ... كأن الطرف نشوان
ترى الطرف درى أو ليس يدري أنك سلطان

وسار في زروع مخضرة، وثغور نبات مفترة؛ وقد طلعت للظفر شموسه وبدوره، وأعدت للصيد بزاته وصقوره، من كل متوقد اللحظ من الشهامة، محمول على الراحات من فرط الكرامة، يتوسم فيه النجاح، قبل خفق الجناح، ويخرج من جو السماء ولا حرج ولا جناح؛ وبازها الأشهب، يجيء بالظفر ويذهب بصدر مفضض وناظر مذهب، له منسر أقنى، طالما أعنى، كأنما هو شبا السنان وقد حباه

الكماة طعنا:

وصارم في يديك منصلت ... إن كان للسيف في الوغى روح
متقد اللحظ من شهامته ... فالجو من ناظريه مجروح

قد راش النجح جناحه، وقرن الله باليمين غدوه ورواحه، ونصره في حربه حيث جعل منسره رمحه ومخلبه صفاحه، في قوادمه السعد قادم، وفي خوافيه النصر ظاهر المعالم، كأنما ألهم قمله صلى الله عليه وسلم: " بورك لأمتي في بكورها " ، فيسرح والطير جاثمة في وكورها، ويخرج في إغباش السحر وعليه سواد، فيهابه الصادح في الجو والباغم في الواد، ويأمر – خلد الله سلطانه – أمراءه فيضربون على الطير حلقة وهي لاهية في التقاط حبها، غافلة عما يراد بها، فيذعرونها بخفق الطبول وضربها، ومولانا السلطان – خلد الله ملكه – لنافرها مترقب، ولطائرها بالجارح معقب، فما يدنو الكركي مقروراً، حتى يؤوب مقهوراً، ساقطاً من سمائه إلى أرضه، ومن سعته إلى قبضه، فسبحان من خلق كل جنس وقهر بعضه ببعضه؛ هذا: والجارح قد أنشب فيه مخالبه، وسد عليه سبله في جو السماء ومذاهبه؛ ولم يزل – خلد الله تعالى سلطانه – عامة يومه متوغلاً في التمتع بلذات صيوده، وأوقات سعوده، وحصول أربه ومقصوده، وجنود الملائكة حافون به وجنوده، حتى ينسخ النهار الليل بظلمائه، ويلمع الطارق بأضوائه، فيعود عند ذلك الركاب الشريف إلى المخيم المنصور والجوارح كاسبة، والأقدار واهبة، والجوارح مسرورة، والطيور مأسورة، والنفوس ممتعة، والمواهب منوعة، والأرجاء مضوعة، والله تعالى مع سلطانه بكلاءته: " ومن كان مع الله كان الله معه " ، فيرفع أمامه فانوسان توءمان، كأنهما كوكبان بينهما اقتران،أو فرقدان رفعتهما يدان، فيدنو إلى مخيمه المنصور في سرادق العز الحفيل، وعصابة النصر الأثيل، وتترجل الأنصار قبل فسطاطه المعظم على قدر ميل، ويسعى بالشموع لتلقيه، ويسوى تحت الملك لترقيه، فعند ذلك يطوف بالدهليز أمراء الحرس بالشموع المرفوعة، والمزاهر المسموعة، فإذا طلع الفجر مستطيلاً، وجاء الصبح شيئاً قليلاً، عرضت عليه النعم فأعطاها، والمهمات الإسلامية فقضاها،

وقدمت له الجياد المسومة فامتطاها، ويسرح إلى الصيد والجوارح التي صادت بالأمس قد استأسدت، وبسعادته إلى ظفرها قد أرشدت؛ فإذا سار ركابه الشريف فرقت على أثره عساكر الإسلام، وقوضت تلك الخيام كأنها الأيام.

ولم يبرح ذلك دأبه في كل يوم من أيام حركته حتى يأخذ حظه من صيد الطير، فعند ذلك يثني عنان السير، إلى اقتناص الوحش فيعد لإمساكها كل هيكل قيد الأوابد قد عقد الخير بناصيته فأصبح حسن المعاقد.

فمن أشهب: كريم المغار، ذي إهاب من النهار، وأديم كأنه صحيفة الأبرار، أبيض مثل الهدى، له في الصبح إثارة النصر وإغارة على العدا؛ علا قدر وغلا قيمة، وله إلى آل أعوج نسبة مستقيمة، إذا استن في مضمار يسبق البروق الخاطفة، ويخلف الريح حسرى وهي ولقفة، يجده الفارس بحرا، وله عند مجرى العوالي مع السوابق مجرى.

ومن أحمر: كأنما صبغ بدم الأعداء أديمه، وكأنما هو شقيق الشقيق وقسيمه؛ كرمت غرره وحجوله، وحسنت أعراقه وذيوله، مكلا مفر كجلمود صخر حطته من علي سيوله؛ حكى لونه محمر الرحيق، وله كل يوم ظفر جديد مع أنه عتيق.

ومن أدهم: مدرك كالليل، منصب كالسيل، كريم الناصية، جواب قاصية، كأن غرته صبح تنفس في الدجى الحالج، وكأنه من الليل باق بين عينيه كوكب يضيء المسالك، وكأن حجوله بروق تفرقت في جوانب الغسق فحسن منظراً لذلك؛ سنابكه يوري قدحها، وغرته ينير صبحها، وجوارحه مسود جنحها، وصهوته كمن فيها العز فلا يزال ظاهراً نجحها.

ومما سوى ذلك من الجياد المختبرة، والصافنات المعتبرة:

إذا ما صرفت اللحظ نحو شياته ... وألوانها فالحسن عنك مغير!

وإنما هي بصبرها على الظمى، وشدة عدوها في النور والظلما، وسبقها إلى غايات رهانها، وثباتها تحت رايات فرسانها.

وتليها الفهود الحسن منظرها، الجميل ظفرها، الكاسب نابها وظفرها؛ تفرق الليل في أهبها المجتمعة، وأدركت العواصم في هضابها المرتفعة، وجوهها كوجوه الليوث الخادرة، ووثباتها على الطريدة وثبات الفئة المؤمنة على المئة الكافرة،

مقلصة الخواصر، عزماتها على الوحش حواصر؛ ما أطلقت على صيد إلا قنصته سريعاً، ولا بصرت بعانة من حمر إلا أخذتها جميعاً.

ثم الحوامي المعلمة، والضواري التي أضحت بالنجح متوسمة، ما منها إلا طاوي الخاصرة، وثباته طائلة غير قاصرة، بنيوب كالأسنة، وساعدين مفتولين تسبق بهما ذوات الأعنة، لو رآه عدي بن حاتم رضي الله عنه لضمه إلى ما لديه، وأكل مما أمسك عليه.

وتضرب العساكر حلقة ما يلتقي طرفاها إلا إلى الليل في اتساعها، تحوي سائر الأوابد على اختلاف أنواعها.

فمن نعام: خضب ظليمها لما أكل ربيعاً، واحمرت أطراف ريشه فكأنها سهام أصابت نجيعاً، طالت أعناقها الناحلة فكأنها خطية، واشتددت قوائمها الحاملة فكأنها مطية، شاركت الطير في وجود الجناح، وفارقتها في كثافة الأشباح، وأشبهت الوحش في مسكن القفار، وشدة النفار، قد اجتمع في ظاهرها اللونان من الوحش والطير وائتلف في باطنها الضدان من ماء ونار.

ومن ظباء: مسودة الأحداق حكت الحبائب في كحل المقل وحسن سوالف الأعناق؛ ابيضت بطونها، واحمرت متونها، وراقت أوراقها، وحلكت آماقها؛ نافرة في صحرائها، طيب مرعاها فالمسك من دمائها.

ومن بقر وحشية: عفر الإهاب، ساكنة الهضاب؛ لها في حقاف الرمل مرابض، حذراً من قانص قابض؛ كم في ....من لوى يتهادى، كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادا.

ومن حمر إهابها أقمر منسوبة إلى أحد ولم تركب متونها، وقد حكى الجزع الذي لم يثقب في دجى الليل عيونها.

وعندما تلتقي حلقة العساكر يلحقها – خلد الله سلطانه – ومعه الجوارح الصائدة، والحوامي الصائلة، والأسهم النافذة، والفهود الآخذة، فتموج الوحش ذعراً، وترى مسالكها قد سدت عليها سهلاً ووعراً، وضرب دون نجاتها بسور من الجياد والفرسان، وحيل بينها وبين خلاصها بنبال وخرصان؛ فحينئذ تفر النعام عن

رمالها، والظباء عن ظلالها، والبقر عن جآذرها، والحمر عن بولها؛ ويقبض – خلد الله سلطانه – من جنس الوحش كل نوع، ولم يمسكها بجارح لأمسكها كما تمسك عداة الإسلام بالروع؛ وتجزل منها المكاسب، وتملأ منها الحقائب؛ فإذا أخذ حظه من القبض ولذة اكتسابه، رسم لأمرائه بالصيد عند صدور ركابه؛ فيصيدون ويقنصون، زادهم الله من فضله – فإنهم في طاعته مخلصون؛ فيكثر عند ذلك كل قنص ذبيح، ويأتي كل بما اقتنصه ليظهر الترجيح؛ فإذا استكمل أوقلت الصيد من الطير والوحش ثنى ركابه الشريف إلى جهة القلعة المحروسة والقفار قد شرفت بمرور مواكبه، والوحش والطير قد افتخرت بكونها أصبحت من مكاسبه.

هذا كلها وإن كانت النفس تراه لهواً، وتبلغ به كل ما تهوى، ففي طيه من تمرين الجنود على الحرب ما تشد به العزمات وتقوى؛ فيوم الركاب الشريف عائداً إلى سرير ملكه بالقلعة المحروسة،والسلامة قد قضت ما يجب عليها من حراسته،والأقدار قد وفت ما ينبغي من كلاءته؛ فلم يك إلا وهو صاعد إلى القلعة المحروسة وألسنة السعادة تخاطبه، وسريره قد اهتزت فرحاً بمقدمه جوانبه، والصيد المبارك قد سعدت مباديه وحمدت عواقبه،فيلقي أهبة السفر، ويأخذ فيما بطن من المصالح الإسلامية وظهر، وتنشده ألسنة السلامة ما أملى عليها العز والتأييد والظفر :

ملك البسيطة آب من سفره ... والنصر والتأييد في أثره
فكأنه في عز موكبه ... بدر تألق في سنا خفره
ما في البرية مثله ملك ... أوتي الذي أوتيه من ظفره!
يسري إلى أعدائه رهب ... مما يبث الناس من خبره
فالله رب الناس فاطرنا ... يؤتيه مايربي على وطره!!

الصنف الثاني من الرسائل ما يرد منها مورد المدح والتقريض

إما بأن يجعل المدح مورد الرسالة ويصدر بمدح ذلك الشخص المراد، وإما بأن يصدر بما جرية يحكيها المنشيء ويتخلص منها إلى مدح من يقصد مدحه

وتقريضه،وما يجري مجرى ذلك. وللكتاب وأهل الصناعة في ذلك أفانين مختلفة المقاصد، وطرق متباينة الموارد.
وهذه نسخة رسالة أنشأها أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ سماها " رسالة الشكر " قصد بها تقريض وزير المتوكل وشكر نعمه لديه، مصدراً لها بذكر حقيقة الشكر وبيان مقاصده؛ وهي: جعلت فداك، أيدك الله وأكرمك وأعزك، وأتم نعمته عليك وعندك.ليس يكون الشكر – أبقاك الله – تاماً، ومن حد النقصان خارجاً، حتى يستصبأربع خلال، ويشتمل على أربع خصال:

أولها: العلم بموقع النعمة من المنعم عليه، وبقدر انتفاعه بما يصل إليه من ذلك: من سد خلة، أو مبلغ لدة وعلو في درجة، مع المعرفة بمقدار احتمال المنعم للمشقة، والذي حاول من المعاناة والكلفة في بذل جاه مصون، أو مفارقة علق ثمين. وكيف لا يكون كذلك؟ وقد خول من نعمه بعض ما كان حبيساً على حوادث عدة، فزاد في نعم غيره بما انتقص من نعم نفسه وولده. فكلما تذكر الشاكر ما احتمل من مؤونة البذل، سهل عليه احتمال ما نهض به من ثقل الشكر.
والخصلة الثانية: الحرية الباعثة على حب المكافأة واستحسان المجازاة. والشكر من أكبر أبواب الأمانة، وأبعده من أسباب الخيانة؛ ولن يبلغ أحد في ذلك غاية المجد إلا بمعونة الطمع، وإلا الحرب سجال بينهما، والظفر مقسوم عليهما. كذلك حكم الأشياء إذا تساوت في القوة، وتقاربت في بلوغ المدة. وقد زعم ناس أن الشاكر والمنعم لا يستويان، كما أن البادئ بالظلم والمنتصر لا يعتدلان، لأن البادئ أخذ ما ليس له، والمنتصر لم يتجاوز حقه الذي هو له، ولأن البادئ لم يكن مهيجاً على الظلم بعلة جناها المنتصر، والمنتصر مهيج على المكافأة بعلة جناها البادئ، والمثور للطباع المغتصب، والمستخف المهيج أعذر من الساكن الوداع المطمئن.فلذلك قالوا: إن البادئ أظلم، والمنتصر أعذر. وزعموا أن المنعم هو الذي أودع صدر الشاكر المحبة بإنعامه عليه، وهيجه بذلك على مكافأته لإحسانه إليه فقد صار المنعم شريك الشاكر في إحسانه، وتفرد بفضل إنعامه دون مشاركة غيره؛ والمنعم هو الذي دفع للشاكر أداة الشكر، وأعاره آلة الوفاء، فهو من ههنا

أحق بالتقديم، وأولى بالتفضيل.

هذا: وقد قال بعض الحكماء والأدباء والعلماء: من تمام كرم المنعم التغافل عن حجته، والإقرار بالفضيلة لشاكر نعمته، لأن المحاجة مغالبة، ولا تتم مودة إلا مع المسامحة. ولذلك قال الربيعي لناس من العرب يختصمون: هل لكم في الحق أو مع المسامحة. ولذلك قال الربعي لناس من العرب يختصمون:هل لكم في الحق أو خير منه؟ قالوا: قد عرفنا الحق، فما الذي هو خير منه؟ قال: التغافل فإن الحق مر. ألا ترى إلى بنت هرم بن سنان لما قالت لابنة زهير بن أبي سلمى في بعض المناحات، أو في بعض الزاورات: إنه ليعجبني ما أرى من حسن شارتكم، ونقاء نفحتكم. قالت ابنة زهير: أما والله لئن قلت ماقلت، فما ذلك إلا من فضول ما وهبتم، ومن بقايا ما أنعمتم. قالت بنت هرم: لابل لكم الفضل، وعلينا الشكر؛ أعطيناكم ما يفنى، وأعطيتمونا ما يبقى. وقيل لعبد الله بن جعفر حين أجزل لنصيب الشاعر في الهبة، وكثر له في العطية: أتنيل هذا العبد الأسودكل هذا النيلن وتحبوه بمثل هذا الحباء؟ فقال عبد الله بن جعفر: أما والله لئن كان أسود الجلد إنه لأبيض الشعر؛ أعطيناه دراهم تفنى، وثياباً تبلى، ورواحل تنضى، وأعطانا ثناء يبقى، وحديثاً يثنى، ومكارم لا تبلى. فلهذه الخصال تكاملت خصال المجد فيهم، فظهر عنوان كرم الخير عليهم، فصاروا في زمانهم مناراً، ولمن بعدهم أعلاماً. وليس تتم معاني كرم المنعم، ومعاني وفاء الشاكر، ختى تتوافى أقوالهما، وتتفق أهواؤهما على تدافع الحجة، و الإقرار بالمعجزة، فيزداد بذلك المنعم فضلاً والشاكر نبلاً.

هذا جملة القول في خصلتين من الأربع التي قدمنا ذكرها، وشهرنا أمرها.

والخصلة الثالثة: الديانة بالشكر، والإخلاص للمنعم في تصفيه الود، فإن الدين قائد المروءة، كما أن المروءة خطام الحمية. وهذه الخصال وإن تشعبت في بعض الوجوه، وافترقت في بعض الأماكن، فإنها ترجع إلى نصاب يجمعها، وإلى إناء يحفظها، منه نجمت، وعنه انبثت، وإليه رجعت. ولاجتماع هذه الخصال على مخالفة الهوى، ومجانبة الهوينى، وعلى اتهام دواعي الشهوة، والامتناع من كلب الطبيعة – وفق الألوان بينها في جملة الاسم، وقارنوا بينها في جمهرة الحكم.

ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اعتبر عزمه بحميته، وحزمه بمتاع بيته.

ومدار جميع الأحوال المحمودة على الصبر، ولن يتكلف مرارة الصبر من يجهل عاقبة الصبر. وقالوا: لما صار ثقل الشكر لا يحتمل إلا بالصبر، صار الشكر من نتاج الصبر. وكما انه لا بد للحلم – مع كرم الحلم – من الصبر، فكذلك لا بد للشكر – مع كرم الشكر – من الصبر. فالصبر يجري مع جميع الأفعال المحمودة، كما يجري الهوى مع جميع الأفعال المذمومة. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " خلق الله عز وجل النار وحفها بالشهوات، وخلقالجنة وحفها بالمكاره " .

الخصلة الرابعة: وصف ذلك الإحسان باللسان البين، وتخيره بالبيان النير، وباللفظ العذب الشهي، والمعنى الشريف البهي؛ فإن الكلام إذا كان حسناً، جعلته الحكماء أدباً، ووجدت الرواة إلى نشره سبباً، حتى يصير حديثاً مأثوراً، ومجداً مذكوراً، وداخلاً في أسمار الملوك، وسوقاً من أسواق المتأدبين، ووصله في المجالس، وزيادة في العقل، وشحذاً للسان، وترهيفاً للقلب، وتلطيفاً للفكر، وعمارة للصدر، وسلماً إلى العظماء، وسبباً إلى الجلة الكبراء. وإذا لم يكن اللفظ رائعاً، والمعنى بارعاً، وبالنوادر موشحاً، وبالملح مجلوا، لم تضع له الأسماع، ولم تنشرح له الصدور بالدرس، ولم يجذل به قائل، ولم يلتذ به سامع. ومتى لم يكن كذلك كان كلاماً ككلام اللغو، ومعاني السهو، وكالهجر الذي لا يفهم، والمستغلق الذي لا يعلم.

وليس – أبقاك الله – شيء أحوج إلى الحذق، ولا أفقر إلى الرفق، من الشكر النافع، والمديح الناجع، الذي يبقى بقاء الوشم، ويلوح كما يلوح النجم. كما أنه لا شيء أحوج إلى وسع الطاقة، وإلى الفضل في القوة، وإلى البسطة في العلم، وإلى تمام العزم – من الصبر. وعلى أن الشكر في طبقات متفاوتة، ومنازل متباينة؛ وإن جمعها اسم، فليس يجمعها حكم؛ فربما كان كلاماً تجيش به الصدور، وتمجه الأفواه، وتجدف به الألسنة، ويستمل فيه الرأي المقتضب، والخاطر المحتار،

والكلام المرتجل، فيرمى به على عواهنه، وتبنىمصادرة على غير موارده، لا يتعذر فيه الشاكرون لانتفاع المنعمين، كما تعذر المنعمون لانتفاع الشاكرين.

وليست غاية القائل إلا أن يعد بليغاً مفوهاً، أو يستزيد به إلى نعمة السالفة نعماً آنفة؛ أوليس إلا ليعتز كريماً، أو يختدع غنياً لا يتفقد ساعات القول، ولا يتعرف أقدار المستمعين؟ وليس غايته إلا الكسب والتعرض والانتفاع والترنح؛ وعلى هذا يدور شكر المستأكلين، وإحماد المتكسبين.

وهذاالباب وإن جعلته العوام شكراً، فهو بغير الشكر أشبه، وبذلك أولى؛ وربما كان شكره عن تأنق وتذكير، وعن تخير تخيير، وعن تفقد للحالات، وتحصيل للأمور في المقامات التي تحيط بمهجته، وبحضرة عدو لايزال مترصداً لنعمته؛ فربما التمس الزيادة في غبطه، وربما التمس شفاء دائه وإصلاح قلبه، ونقض المبرم من معاقد حقده، على قدر الرد، وعلى قدر تصرف الحالات في المصلحة، لأن الشاكر كالرائد لأهله، وكزعيم رهطه، والمشار إليه عند مشورته؛ فربما اختار أن يكون شكره شعراً: لأن ذلك أشهر، وربما اختار أن يكون كلاماً منثوراً: لأن ذلك أنبل، وربما أظهر اليسر وانتحل الثروة، وجعل من الدليل على ذلك كثرة النفقة، وحسن الشارة، ويرى أن ذلك أصدق المدحين، وأنبل الشكرين، ويجعل قائده إلى هذا المذهب، وسابقه إلى هذا التدبير قول نصيب:

؟؟؟فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب!

ومما يدخل في هذا الباب وليس به – قول العنزي:

يا بن العلاء ويا بن القرم مرداس ... إني لأطريك في أهلي وجلاسي
حتى إذا قيل: ما أعطاك من صفد؟ ... طأطأت من سوء حال عندها راسي!
اثني غليك ولي حال تكذبني ... بما أقول فأستحي من الناس!

وبين هذين الشكرين طبقات معروفة، ومنازل معلومة. وموضع الشكر من قلب السامع في القبول والاستنامة، على قدر حسن النية، والذي يعرف به الشاكر من صدق اللهجة، ومن قلة السرف، واعتدال المذاهب، والاقتصاد في القول. وهذا باب سوى الباب الآخر من حسن الوصف، وجودة الرصف؛ ولذلك لما أحسن

بعض الواعظين فيالموعظة، وأبلغ في الاعتبار وفي ترقيق القلوب، ولما لم ير أحد يخشع، ولا عيناً تدمع، قال: ياهؤلاء إما أن يكون بي شر، أو يكون بكم شر.

وقيل لجلساء الفضل الرقاشي، وعبد الصمد بن الفضل الرقاشي: ما بال دموعكم عند الفضل أغزر، وكلام الفضل أنزر؟ قالوا: لأن قلب الفضل أرق،فصارت قلوبنا أرق،والقلوب تتجارى.

وقالوا: طوبى للممدوح إذا كان للمدح مستحقاً، وللداعي إذا كان للاستجابة أهلاً، وللمنعم إذا حظي بالشكر، وللشاكر إذا حظي بالقبول.

إني لست أحتشم من مدحك، لأني لست أتزيد في وصفك، ولست أمدحك من جهة معروفك عندي، ولا أصفك بتقديم إحسانك إلي، حتى أقدم الشكر الذي هو أولى بالتقديم، وأفضل الصنف الذي هو أحق بالتفضيل. وفي الخبر المستفيض، والحديث المأثور: " ما قل وكفى خير مما كثر وألهى. وقليل باقخير من كثير فان " .

تذاكر الناس عند بعض الحكماء طبقات السابقين في الفضل، وتنزيل حالاتهم في البر، ومن كانت الخصلة المحمودة فيه أكثر، والخصلة الثانية فيه أوفر، فقال ذلك الحكيم: ليس بعجب أن بعجب أن يسبق رجل إلى الإسلام، وكل شيء، فقد سبق إلى تقديمه ناس وأبطأ آخرون؛ وليس بعجب أن يفوق الرجل أترابه في الزهد، وأكفاءه في الفقه، وأمثاله في الذب: وهذا يوجد في كل زمان، ويصاب فيكل البلدان؛ ولكن العجب العجيب، والنادر الغريب، الذي تهيأ في عمر بن الخطاب رضي الله عنه واتسق له؛ وذلك أنه غبر عشر حجج: يفتح الفتوح، ويدوخ البلاد، ويمصر الأمصار، ويدون الدواوين، ويفرض الفروض، ويرتب الخاصة، ويدبر العامة، ويجبي الفيء، وترمي إليه الأرض بأفلاذ كبدها، وأنواع زخرفها، وأصناف كنوزها، ومكنون جوهرها، ويقتل ملوكها، ويلي ممالكها، ويحل ويعقد، ويولي ويعزل، ويضع ويرفع، وبلغت خيله إفريقية، ودخلت خراسان: كل ذلك بالتدبير الصحيح والضبط، والاتقان والقوة، والإشراف، والبصر النافذ، والعزم المتمكن، ثم قال: لا يجمع مصلحة الأمة، ولا يحوشهم على حظهم من الألفة

واجتماع الكلمة، وإقامتهم على المحجة، مع ضبط الأطراف، وأمن البيضة - إلا لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف. ثم غبر بعد ذلك سينه كلها على وتيرة واحدة، وطريقة مطردة؛ لاينجرف عنها، ولا يغيرها، ولا يسأمها، ولا يزول عنها: من خشونة المأكل والملبس، وغلظ المركب، وظلف النفس عن صغيرها وكبيرها، ودقيقها وجليلها، وكل ما يناجر الناس عليه؛ لم يتغير في لقاء ولا في حجاب، ولا في معاملة ولا في مجالسة، ولا في جمع ولا في منع، ولا قبض ولا بسط: والدنيا تنصب عليه صباً، وتتدفق عليه تدفقاً؛ والخصلة من خصاله، والخلة من خلاله، تدعو إلى الرغبة، وتفتح باب الألفة، وتنقض المبرم، وتفيد المروءة وتفسخ المنة، وتحل العقدة، وتورث الاعتزاز بطول السلامة، والاتكال على الدوام الظفر، ومواتاة الأيام، ومتابعة الزمان. وكان ثباته عشر حجج على هذه الحال أعجوبة، ومن البدائع الغريبة. وبأقل من هذا يظهر العجب، ويستمعل الكبر، ويظهر الجفاء، ويقل التواضع.

ونحن وإن لا نستجير أن نلحق أحداً بطباع عمر ومذهبه، وفضل قوته، وتمام عزمه، فأنا لانجد بداً من معرفة فضل كل من استقامت طريقته، ودامت خليقته، فلم يتغير عند تتابع النعم، وتظاهر الصنع، وإن كانت النعم مختلفة الأجناس، ومتفاوتة في الطبقات. وكيف يلحق به أحد؟ مع قوله: " لو أن الصبر والشكر بعيران ما باليت أيهما ركبت " ، ولكنا على حال لاندع تعظيم كل من بان من نظرائه في المرتبة، وأشباهه في المنزلة، إذ كان أدومهم طريقة، وأشدهم مريرة، وأمضاهم على الجادة الوسطى، وأقدارهم على المحجة العظمى.

ولا بد من أن يعطى كل رئيس قسطه، وكل زمان حظه؛ ولا يعجبني قول القائل: لم يدع الأول للآخر شيئاً، بل لعمري لقد ترك له العريض الطويل، والثمين الخطير، واللقم النهج، والمنهج الرحب. ولو أن الناس مذ جرت هذه الكلمة على أفواه العوام، وأعجب بها الأغمار من الرجال - قلدوا هذا الحكم، واستسلموا لهذا المذهب، وأهملوا الروية، ويئسوا من الفائدة، " إذن " لقد كان ارتفع من الدنيا نفع كثير، وعلم غزير.

وأي زمان بعد زمان النبي صلى الله عليه وآله أحق بالتفضيل، وأولى بالتقديم، من زمان ظهرت فيه الدعوة الهاشمية، والدولة العباسية، ثم زمان المتوكل على الله، والناصر لدين الله، والإمام الذي جل فكره، وكثر شغله بتصفية الدين وتهذيبه، وتلخيصه وتنقيحه، وإعزازه وتأييده، واجتماع كلمته، ورجوع ألفته. وقد سمعت من يقول - ويستشهد العيان القاهر، والخبر المتظاهر - : ما رأيت فيزماننا من كفاة السلطان وولاته، وأعوانه وحماته، من كان يؤمل لمحلك، ويتقدم في التأهب له، إلا وقد كان معه من البذخ والنفخ، ومن الصلف والعجب، ومن الخيلاء، ومن إفراط التغير للأولياء، والتهكم على الخلطاء، ومن سوء اللقاء، ما لا خفاء به على كاتب ولا على عامل، ولا على خطيب ولا على أديب، ولا على خاصي ولا على عامي.

فجمعت - والحمد لله على النعمة فيك - بين التواضع والتحبب، وبين الإنصاف وقلة التزيد؛ فلا يستطيع عدو معلن، ولا كاشح مسر، ولا جاهل غبي، ولا عالم مبرز، يزعم أنه رأى في شمائلك وأعطافك - عند تتابع النعم، وتظاهر المنن - تغيراً في لقاء ولا في بشر عند المساءلة، ولا في إنصاف عند المعاملة، واحتمال عند المطاولة: الأمر واحد، والخلق دائم، والبشر ظاهر، والحجج ثاقبه، والأعمال زاجية، والنفوس راضية، والعيون ناطقة بالمحبة، والصدور مأهولة بالمودة، والداعي كثير، والشاكي قليل؛ وأنت بحمد الله تزداد في كل يوم بالتواضع نبلا، وبالإنصاف فضلاً، وبحسن اللقاء محبة، وبقلة العجب هيبة.

وقال سهل بن هارون في دعائه لبعض من كان يعتني بشأنه: " اللهم زده من الخيرات، وابسط له في البركات، حتى يكون كل يوم من أيامه موفياً على أمسه، مقصراً عن فضيلة غده " . وقال في هذا المعنى أعشى همدان، وهو من المخضرمين:

رأيتك أمس خير بني معد ... وأنت اليوم خير منك أمس
وبعد غد تزيد الخير ضعفاً ... كذاك تزيد سادة عبد شمس!

قد - والله - أنعم الله عليك وأسبغ، فاشكر الله وأخلص. محتدك شريف، وأرومتك كريمة، والعرق منجب، والعدد دثر، والأمر جميل، والوجوه حسان، والعقول

رزان، والعفاف ظاهر، والذكر طيب، والنعمة قديمة، والصنيعة جسيمة، وما مثلكم إلا كما قال الشاعر:

إن المهالبة الكرام تحملوا ... دفع المكاره عن ذوي المكروه
زانوا قديمهم بحسن حديثهم ... وكريم أخلاق بحسن وجوه!

النعمة محفوظة بالشكر، والأخلاق مقومة بالأدب، والكفاءة محفوظة بالحذق مردود إلى التوكل، والصنع منوراء الجميع إن شاء الله.

هذا إلى ما أسبلك الله من القبول، وغشاك من المحبة، وطوقك من الصبر، فبقي الآن أن نشتهي ما أنت فيه شهوة في وزن هذه المرتبة، وفي مقدار هذه المنزلة، فإن الرغبة وإن قويت، والرهبة وإن اشتدت، فإنهما لا يثمران من النشاط، وينتجان من القوة على المباشرة والكد، ما تثمره الشهوة وإن ضعفت، والحركة من ذات النفس وإن قلت، لأن النفس لا تسمح بمكنونها كله، وتجود بمخزون قواها أجمع، إلا بالشهوة دون كل علة محركة،وكل سبب مهيج.

قال يحيى بن خالد لجعفر بن يحيى حين تقلد الوزارة، وتكلف النهوض بأعباء الخلافة: " أي بني، إني أخاف عليك العجز: لعظيم ما تقلدت، وجسيم ما تحملت. إني لست آمن أن تتفسخ تحت ثقلها تفسخ الجمل تحت الحمل الثقيل. قال جعفر: لكني أرجو القوة، وأطمع أن أستقل بهذا الثقل وأنا مبتهل غير مبهور، وأجيء قبل السوابق وأنا ثاني.يقول وأنا ثاني عناني، لأني لم أجهد فرسي ركضاً. قال يحيى: إن لكل رجاء سبباً، فما سبب رجائك؟ قال: شهوتي لما أنا فيه، والمشتهي للعمل لا يجد من ألم الكد ما يجده العسيف الأسيف. قال يحيى: إن نهضت بثقلها فبهذا، وإلا فلا. وأنا أسأل الله أن يصرف شهوتك إلى حب ذلك، وهواك إلى الاحتفاظ بنعمتك: بشكر المصلحين، والتوكل على رب العالمين.

وحق لمن كان غرس المتوكل على الله وابتدائه، ومن صنائعه واختباره، أن يخرج على أدبه وتعليمه، وعلى تثقيفه وتقويمه، وأن يحقق الله فيه الأمل، وينجز فيه الطمع، وأن يمد له في السلامة، ويجزل له من الغنيمة، وبطيب ذكره، ويعلى كعبه، ويسر صديقه، ويكبت عدوه.

وهذه نسخة رسالة تسمى " الإغريضية " ، أرسلها أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري التنوخي إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي؛ وهي:

" بسم الله لرحمن الرحيم وبه الإعانة " السلام عليك أيتها الحكمة المغربية، والألفاظ العربية؛ أي هواء رقاك، وأي غيث سقاك؛ برقة كالإحريص، وودقه مثل الإغريض؛ حللت الربوة، وجللت عن الهبوة؛ أقول لك ما قال أخو " بني " نمير، لفتاة بني عمير:

زكا لك صالح وخلاك ذم ... وصبحك الأيامن والسعود!

لأنا آسف على قربك من الغراب الحجازي، على حسن الزي، لما أقفر، وركب السفر، فقدم جبال الروم في نو، أنزل البرس من الجو، فالتفتت إلى عطفه وقد شمط فأسي، وترك النعيب أو نسي، وهبط إلى الأرض فمشى في قيد، وتمثل ببيت دريد:

صياما صبا حتى علا الشيب رأسه ... فلما علاه قال للباطل: ابعد!

وأراد الإياب، في ذلك الجلباب، فكره الشمات، فكمد حتى مات؛ ورب ولي أغرق في الإكرام، فوقع في الإبرام، إبرام السأم، لا إبرام السلم؛ فحرس الله سيدنا حتى تدغم الطاء في الهاء، فتلك حراسة بغير انتهاء؛ وذلك أن هذين ضدان، وعلى التضاد متباعدان، رخو وشديد، وهاد وذو تصعيد، وهما في الجهر والهمس، بمنزلة غد وأمس؛ وجعل الله رتبته التي " هي " كالفاعل والمبتدأ، نظير الفعل في أنها لا تنخفض أبدا، فقد جعلني: إن حضرت عرف شاني، وإن غبت لم يجهل مكاني، ك " يا " في النداء، والمحذوف من الابتداء، إذا قلت: زيد أقبل، والإبل الإبل، بعد ما كنت كهاء الوقف إن ألقيت فبواجب، وإن ذكرت فغير لازب.

إني وإن غدوت " في زمان " كثير الدد، كهاء العدد، لزمت المذكر، فأنت بالمنكر، مع إلف يراني في الأصل، كألف الواصل، يذكرني بغير الثناء، ويطرحني عند الاستغناء، وحال كالهمزة تبدل العين، وتجعل بين بين، وتكون تارة حرف لين، وتارة مثل الصامت الرصين، فهي لا تثبت على طريقة، ولا تدرك لها صورة في الحقيقة، ونوائب ألحقت الكبير بالصغير كأنها ترخيم التصغير، ردت المستحلس

إلى " حليس " ، " وقابوس " إلى قبيس؛ لأمدن صوتي بتلك الآلاء، مد الكوفي صوته في هؤلاء، واخفف عن حضرة سيدنا " الوزير " الرئيس الحبر، تخفيف المدني ما قدر عليه من النبر؛ إن كاتبت فلست ملتمس جواب، وإن أسهبت في الشكر فلست طالب ثواب، حسبي ما لدي من أياديه، وما غمر من فضل السيد الأكبر أبيه، أدام الله لهما القدر ما دام الضرب الأول من الطويل صحيحاً، والمنسرح خفيفاً سريحاً؛ وقبض الله يمين عدوهما عن كل معن،قبض العروض من أول وزن، وجمع له المهانة إلى التقييد، كما جمعا في ثاني المديد، وقلم قلم الفسيط، وخبل كسباعي البسيط، وعصب " الله " الشر بهامة شانئهما وهو مخزو، عصب الوافر الثالث وهو مجزو، بل أضمرته الأرض إضمار ثالث الكامل، وعداه أمل الآمل، وسلم سيدانا أعز الله نصرهما ومن أحباه وقرباه سلامة متوسط المجموعات، فإنه آمن من المروعات؛ فقد افتننت في نعمهما الرائعة، كافتتان الدائرة الرابعة، وذلك أنها أم ستة موجودين، وثلاثة مفقودين.

وأنا أعد نفسي مراسلة حضرة سيدنا الجليلة عدة ثريا الليل، وثريا سهيل، هذه القمر، وتلك عمر، وأعظمه في كل وقت، إعظاما في مقة وبعض الإعظام في مقت؛ فقد نصب للآداب قبة صار الشام فيها كشامة المعيب، والعراق كعراق الشعيب؛ أحسب ظلالها من البردين، وأغنت العالم عن الهندين، هند الطيب، وهند النسيب، ربة الخمار، وأرباب فمار، أخدان التجر، وخدينة الهجر..

ما حاملة طوق من الليل، وبرد من المرتبع مكفوف الذيل، أوفت الأشاء، فقالت للكئيب ما شاء؛ تسمعه غير مفهوم، لا بالرمل ولا بالمزموم؛ كأن سجيعها قريض، ومراسلها الغريض؛ فقد ماد لشجوها العود، وفقيدها لا يعود؛ تندب هديلاً فات، وأتيح له بعض الآفات – بأشواق إلى هديلها من عبده إلى مناسمه أنبائه، ولأوجد على إلفها منه على زيارة فنائه؛ وليست الأشواق، ولذوات الأطواق، ولا عند الساجعة، عبرة متراجعة، إنما رأت الشرطين، قبل البطين، والرشاء بعد العشاء، فحكت صوت الماء في الخرير، وأتت براء دائمة التكرير، فقال جاهل فقدت حميماً، وثكلت ولداً كريماً: وهيهات يا باكية، أصبحت فصدحت، وأمسيت

فتناسيت، لا همام لا همام، ما رأيت أعجب من هاتف الحمام: سلم فناح، وصمت وهو مكسور الجناح؛ إنما الشوق لمن يدكر في كل حين، ولا يذهله مضي السنين.

وسيدنا الوزير أطال الله بقاؤه القائل النظم في الذكاء مثل الزهر، وفي النقاء مثل الجوهر، تحسب بادرته التاج؛ ارتفع عن الحجاج، وغابرته الحجل في الرجل؛ يجمع بين اللفظ القليل، والمعنى الجليل، جمع الأفعون في لعابه بين القلة وفقد البلة؛ خشن فحسن، ولان فما هان؛ لين الشكير، يدل على عتق المحضير، وحرش الدينار آية كرم النجار؛ فصنوف الأشعار بعده كألف السلم، يلفظ بها في الكلام، ولا تثبت لها هيئة بعد اللام، خلص من سبك النقد خلوص الذهب من اللهب، واللجين من يد القين كأنه لآل في أعناق حوال، وسواه لط في عنق ثط، ما خانته قوة الخاطر الأمين، ولا عيب بسناد ولا تضمين؛ وأين النثرة من العثرة، والغرقد من الفرقد؟؛ فالساعي في أثره فارس عصا بصير، لا فارس عصا قصير.
وأنا ثابت على هذه الطوية ثبات حركة البناء، مقيم تلك الشهادة بغير استثناء، غني عن الأيمان فلا عدم، مقسم على ما قلت فلا حنث ولا ندم؛ وإنما تخبأ الدرة للحسناء الحرة، ويجاد باليمين في العلق الثمين، وما أنفسه خاطراً امترى الفضة من القضة، والوصاة من مثل الحصاة؛ وربما نزعت الأشباه، ولم يشبه المرء أباه؛ ولا غرو لذلك: الخضرة أم اللهيب، والخمرة بنت الغربيب.
وكذلك سيدنا: ولد من سحر المتقدمين، حكمة للحنفاء المتدينين؛ كم له من قافية تبني السود، وتثني الحسود، كالميت، من شرب العاتقة الكميت: نشوره قريب، وحسابه تثريب؛ أين مشهور الناقة بالفدن، والصحصح برداء الردن؛ وجب الرحيل، عن الربع المحيل؛ نشأ بعدهم واصف، غودر رأله كالمناصف، إذا سمع الخافض صفته للسهب الفسيح، والرهب الطليح، ود أن حشيته بين الأحناء، وخلوقه عصيم الهناء، وحلم بالقود في الرقود، وصاغ برى ذوات الأرسان، من برى البيض الحسان، شنفاً لدر النحور، وعيون الحور، وشغفاً بدر بكي، وعين مثل الركي، وإعراضاً عن بدور، سكن في الخدور، إلى " حول " ، كأهله المحول؛ فهن أشباه القسي، ونعام السي؛ وإن أخذ في نعت " الخيل " فياخيبة من سبه الأوابد

بالتقييد، وشبه الحافر بقعب الوليد، نعتاً غبط به الهجين المنسوب، والبازي اليعسوب، إذ رزق من الخير، ما ليس لكثير من سباع الطير؛ وذلك أنه على الصغر، سمي بعض الغرر؛ وقد مضى حرس وخفت جرس؛ وللقالع أبغض طالع، والأزرق، يجنبك عنه الفرق.

فالآن سلمت الجبهة من المعض، وشمل بعضها بركات بعض، فأيقن النطيح، أن ربه لا يطيح، والمهقوع، نجاء راكبه من الوقوع، فلن يحرب، قائد " المغرب " ، ولن يرجل سائس الأرجل، والعاب، وإن لحق الكعاب، فإنه ناكب، عن ناقلات المراكب. وقالت خيفانة امرئ القيس: الدباءة، لراعي المباءة، والأثفية، للقدر الكفية نقماً على جاعل " عذرها " كقرون العروس، وجبهتها كمحذف التروس؛ وأنى للكندي، قواف كهجمة السعدي:

إذا اصطكت بضيق حجرتاها ... تلاقى العسجدية واللطيم!

فالقسيب، في تضاعيف النسيب، والشباب في ذلك التشبيب؛ ليس رويه بمقلوب، ولكنه من إرواء القلوب؛ قد جمع أليل ماء الصبا وصليل ظماء الظبا؛ فالمصراع كوذيلة الغريبة، حكت الزينة والريبة، وأرت الحسناء سناها، والسمجة ما عناها؛ فأما الراح فلو ذكرها لشفت من الهرم، وأنتفت من الكرم إلى الكرم، ولم ترض دنان العقار، بلباس القار، ونسج العناكب، على المناكب، ولن تكسى من وشي ثيابا، ويجعل طلاؤها زريابا؛ ولقد سمعته ذكر خيمة يغبط المسك جارها من الشيام، ويود سعد الأخبية أنه سعد الخيام.

ووقفت على " مختصر إصلاح المنطق " الذي كاد بسماة الأبواب، يغني عن سائر الكتاب، فعجبت كل العجب من تقييد الأجمال، بطلاء الأحمال؛ وقلب البحر، إلى قلت النحر وإجراء الفرات في مثل الأخرات؛ شرفاً له تصنيفاً شفى الريب، وكفى من ابن قريب، ودل على جوامع اللغة بالإيماء، كما دل المصمر على ما طال من الأسماء.

أقول في الإخبار: أمرت أبا عبد الجبار؛ فإذا أضمرته، عرف متى قلت: أمرته؛ وأبل من المرض والتمريض، بما أسقط من شهود القريض؛ كأنه في تلك الحال،

شهدوا بالمحال، عند قاض، عرف أمانتهم بالانتقاض، على حق علمه بالعيان، فاستغنى فيه عن كل بيان.

وقد تأملت شواهد " إصلاح المنطق فوجدتها عشرة أنواع في عدة أخوة الصديق، لما تظاهرو على غير حقيق، وتزيد على العشرة بواحد، كأخ ليوسف لم يكن بالشاهد. والشعر الأول وإن كان سبب الأثرة، وصحيفة المأثرة، فإنه كذوب القالة، نموم الإطالة؛ وإن " قفى نبك " " على حسنها " ، وقدم سنها، لتقر بما يبطل شهادة العدل الرضا، فكيف بالبغي الأنثى؟! قاتلها الله عجوزاً لو كانت بشرية، كانت من أغوى البرية. وقد تمادى بأبي يوسف رحمه الله الاجتهاد، في إقامة الأشهاد، حتى أنشد رجز الضب، وإن معداً من ذلك لجد مغضب؛ أعلى فصاحته يستعان بالقرض، ويستشهد بأحناش الأرض؟! ما رؤبة عنده في نفير، فما قولك في ضب دامي الأظافير؟! ومن نظر في كتاب يعقوب وجده كالمهمل إلا باب فعل وفعل، فإنه مؤلف على عشرين حرفاً: ستة مذلقة، وثلاثة مطبقة، وأربعةمن الحروف الشديدة، وواحد من المزيدة، ونفيثتين: الثاء والذال، وآخر متعال والأختين العين والحاء، والشين مضافة إلى حيز الراء. فرحم الله أبا يوسف لو عاش لفاض كمدا، أو أحفاظ حسدا؛ سبق ابن السكيت ثم صار السكيت، وسمق ثم حار وتداً للبيت؛ كان الكتاب تبراً في تراب معدن بين الحث وبين المتدن؛ فاستخرجه سيدنا واستوشاه، وصقله فكره ووشاه، فغبطه النيرات على الترقيش، والآل النقيش؛ فهو محبوب ليس بهين، على أنه ذو وجهين؛ ما نم قط ولا هم، ولا نطق ولا أرم، فقد ناب في كلام العرب الصميم، مناب مرآة المنجم في علم التنجيم؛ شخصها ضئيل ملموم، وفيها القمران والنجوم.

وأقول بعد في إعادة اللفظ: إن حكم التأليف في ذكر الكلمة مرتيين، كالجمع في النكاح بين الأختيين: الأولى حل يرام، والثانية بسل حرام؛ كيف يكون في الهودج لميسان،وفي السبة خميسان؛ يأم الفتيات حسبك من الهنود ويا أبا الفتيان شرعك من السعود؛ عليك أنت بزينب ودعد، وسم أيها الرجل بسوى سعد؛ما قل أثير،والأسماء كثير.

مثل يعقوب مثل خود كثيرة الحلي ضاعفته على التراق، وعطلت الخصر والساق؛ كان يوم قدوم تلك النسخة يوم ضريب حشر الوحش مع الإنس، وأضاف الجنس إلى غير الجنس؛ ولم يحكم على الظباء بالسباء، ولا رمى الآجال بالأوجال؛ ولكن الأضداد تجتمع، فتستمع؛ وتتصرف بلذات، من غير أذاة؛ وإن عبده موسى لقيني نقابا؛ فقال: هلم كتابا؛ يكون لك شرفاً، وبموالاتك في حضرة سيدنا – أطال الله بقاءه – معترفاً؛ فتلوت عليه هاتين الآيتين: " إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى " . وأحسبه رأى نور السؤدد فقال لمخلفيه ما قاله موسى صلىالله عليه لأهليه: " إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى " ، فليت شعري: ما يطلب؟ أقبس ذهب؟ أم قبس لهب؟ بل يتشرف بالأخلاق الباهرة، ويتبرك بالأحساب الطاهرة:

باتت حواطب ليلى يقتبسن لها ... جزل الجذى غير خوار ولا دعر!

وقد آبى من سفرته الأولى ومعه جذوة من نار قديمة: إن لمست فنار إبراهيم، أو أونست فنار الكليم؛ واجتنى بهاراً حبت به المرازبة كسرى، وحمل في فكاك الأسرى، وأدرك نوحاً مع القوم، وبقي غضاً إلى اليوم؛ وما انتجع موسى إلا الروض العميم ولا اتبع إلا أصدق مقيم؛ وورد عبده الزهيري من حضرته المطهرة وكأنه زهرة بقيع، أو وردة ربيع، كثيرة الورق، طيبة العرق؛ وليس هو في نعمته كالريم، في ظلال الصريم؛ والجاب، في السحاب المنجاب؛ لأن الظلام يسفر، والغمام ينسفر؛ ولكنه مثل النون في اللجة، والأعفر تحت جربة.

وقد كنت عرفت سيدنا في ما سلف أن الأدب كعهود في غب عهود، أروت النجاد فما ظنك بالوهود؟؛ وأني نزلت من ذلك الغيث طسم، كأثر الوسم؛ منعه القراع، من الإمراع؛ " يابوس، بني سدوس " العدو حازب، والكلأ عازب؛ يا خصب بني عبد المدان؛ ضأن في الحربث وإبل في السعدان؛ فلما رأيت ذلك أتعبت الأظل، فلم أجد إلا الحنظل، فليس في اللبيد إلا الهبيد؛ جنيته من شجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. لبن الإبل عن المرار مر، وعن الأراك طيب حر.

هذا مثلي في الأدب، فأما في النشب، فلم تزل لي بحم الله تعالى وبقاء سيدنا بلغتان: بلغة صبر، وبلغة وفر، أنا منهما بين الليلة المرعية، واللقوح الربعية، هذه

عام، وتلك مال وطعام، والقليل، سلم إلى الجليل، كالمصلي يريغ الضوء، باسباغ الوضوء، والتكفير، بإدامة التعفير، وقاصد بيت الله يغسل الحوب، بطول الشحوب.

وأنا فيمكاتبة حضرة سيدنا الجليل، والميل عن حضرة سيدنا الأجل والده - أعز الله نصره - كسب بن يعرب، لما ابتهل في التقرب، إلى خالق النور، ومصرف الأمور، نظر فلم ير أشرق من الشمس يدا، فسجد لها تعبدا. وغير ملوم سيدنا لو أعرض عن شقائق النعمان الربيعية، ومدائحه اليربوعية؛ ملاً من أهل هذه البلد المضاف إلى هذا الاسم؛ فغير معتذر ممن أبغض لأجلهم بني المنذر، وهم إلى حضرته السنية رجلان: سائل، وقائل؛ فأما السائل فألح، وأما القائل فغير مستملح؛ وقد سترت نفسي عنها ستر الخميص، بالقميص؛ وأخي الهتر، بسجوف الستر، فظهر لي فضله الذي مثله مثل الصبح إذا لمع تصرف الحيوان في شؤونه وخرج من بيته اليربوع، وبرز الملك من أجل الربوع، وفد يولع الهجرس، بأن يجرس، في البلد الجرد، قدام الأسد الورد. وإني خبرت أن تلك الرسالة الأولى عرضت بالمعرض الكريم: فأوجب ذلك رحيل أختها، متعرضة لمثل بختها؛ وكيف لا تنفع، وفي اليم تقع، وهي بمقصد سيدنا فاخرة، ولو نهيت الأولى لانتهت الآخرة.
كملت الرسالة " التي كتبها أبو العلاء إلى الوزير الكامل أبي القاسم المغربي "
قلت: وهذه رسالة أنشأتها في تقريض المقر الكريم الفتحي، أبي المعالي فتح الله، صاحب دواوين الإنشاء بالديار المصرية والممالك الإسلامية، أدام الله معاليه، في شهور سنة أربع عشرة وثمانمائة؛ وهي: الحمد لله الذي جعل الفتح محط رحال القرائح الجائدة، ومستقر نواها، ومحيط دائرة الأفكار الواردة، ومركز شعاع كواها، ومادة عناصر الأفهام الجائلة، وعتاد شكيمة قواها.
نحمده على أن خص المملكة المصرية من إيداع سرها المصون بأوسع صدر رحيب، وأنهض بتدبير مصالحها من إذا سرت كتائب كتبه إلى عدو أنشد من شدة الفرق: قفا نبك من ذكرى حبيب، وأقام لنصرتها بأسل الأقلام وصفاح المهارق من إذا طرقها على البعد طارق تلا لسان يراعته: " نصر من الله وفتح قريب " ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تسير بها برد الهداية إلى آفاق

الأخلاق فتشيد لقلاع الإيمان بأقطار القلوب أركانا، وترقم أسرار شعائرها بنقس القبول في صحف الإقبال فتبدل داعيها بإذاعة خبرها من الإسرار إعلانا، وتدين بطاعتها ملوك الممالك النائية خضوعاً فتتخذ كتب رسائلها على المفارق بعد اللثم تيجانا، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل نبي سن المعروف وندب إليه، وأكرم رسول جعل خير بطانتي الملك التي تأمره بالخير وتحثه عليه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين سلكوا في السير سبيله واتبعوا في السيرة سننه واقتفوا فيه سننه، واتبعوا في المعروف آثاره فتلا عليهم تالي الإخلاص: " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة " ، صلاة تتنافل على مر الزمان أخبارها، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد، فإن رياسه أهل الدول تتفاوت باعتبار قرب الرئيس من ملكه في مخاطبته ومناجاته، واعتماد تصرفه في أمور دولته وتنفيذ مهماته، والاستناد على رأيه في جليل خطوبه وعظيم ملماته:

فعال تمادت في العلو كأنما ... تحاول ثأراً عند بعض الكواكب

ولا خفاء أن صاحب ديوان الإنشاء من هذه الرتبة بالمحل الأرفع، والمنزلة التي لا تدافع ولا تدفع، والمقام الذي تفرد بصدارته فكان كالمصدر لايثنى ولا يجمع؛ إذ هو كليم الملك ونجيه، ومقرب حضرته وخطيه، بل عميد المملكة وعمادها، وركنها الأعظم وسنادها، حامي حومتها وسدادها، وعقدها المتسق ونظامها، ورأس ذروتها العلياء وسنامها، وجهينة خبرها، وحقيبة وردها وصدرها، ومبلغ أنبائها وسفيرها، وزند رأيها الموري ومشيرها.

فحيهلاً بالمكرمات وبالعلى ... وحيهلاً بالفضل والسؤدد المحض

هذا، وهو الواسط بين الملك ورعيته والمتكفل لقصيهم بدرك قصده وبلوغ بغيته، والمسعد للمظلوم من عزائم توقيعاته بما يقضي بنصرته؛ وحينئذ فلا يصلح لها إلا من كان من كرام الخيم بارز الخيام لا صطناع المعروف، ومع سمو الرتبة سامي الهمة لإغاثة الملهوف، ومع عز الجناب لدى ملكه لين الجانب لذي المسألة، ومع قربه بحضرة سلطانه قريباً من الرعية حتى من المسكين والأرملة.

وغير خاف أن كل وصف من هذه الأوصاف مع مقابلة كالضدين اللذين لا يجتمعان بحال، والنقيضين اللذين قضى العقل بأن الجمع بينهما محال، وأنى يجتمع العالي والهابط، والمرتفع والساقط؟ أم كيف تتصل الأرض بالسماء، أو يقع امتزاج عنصر النار بعنصر الماء؟ ومن ثم عز هذا المطلب لهذه الوظيفة حتى إنه لأعز من الجوهر الفرد، وقل وجوده حتى لم يوجد إلا الواحد الفذ " الفرد " ، فلا تراه إن تراه إلا في حيز النادر، ولا تظفر به إلا ظفرك ببيض الأنوق إن كان يظفر به ظافر؛ إلا أنه ربما سمح الدهر فأتى بالفذ من هذا النوع في الزمن المتباعد، أو أسعد الدهر فأسعف بالواحد بعد ألف واحد.

ثم قد مضت برهة من الأيام وجيد ديوان الإنشاء من نظر من هو متصف ببعض هذه الأوصاف عاطل، والدهر يعد بمن يقوم فيه بتفريج كربة الملهوفين ولكنه يماطل:

يرفه ما يرفه في التقاضي ... وليس لديه غير المطل نقد!

إلى أن طلع نير الزمان وتوضح شروقه، وظهرت تباشير صباحه وأفل بطلوع السعد عيوقه، فأقبلت الدولة الظاهرية بسعادتها، وتلقتها الأيام الناصرية جارية منها على وفق عادتها، ووفر للدولتين من انتخاب الأصفياء قسمتها، ومخضت لها الرأي الصائب حتى ظهرت في الوجود زبدتها؛ فكان خلاصة اصطفائهما، وزبدة انتقائهما، المقر الأشرف، العالي، المولوي، القاضوي، الكبيري، السفيري، المشيري، الفتح، نظام الممالك الإسلامية وزمام سياستها، ومنفذ أمورها، وجامع رآستها؛ أبو المعالي فتح الله صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، زاد الله تعالى في ارتقائه على تعاقب الدول، وأجراه من خفي اللطف على أجمل العوائد وقد فعل، فألقي إليه من أسرار المملكة مقاليدها، واتفقت بحسن سفارته باتفاق الرواة أسانيدها، فنفذت بتنفيذه أمورها، وكملت بصحيح رأيه كسورها، فجرت الأمور بحسن تدبيره على السداد، ومشت الأحوال بلطف سفارته على أتم المراد، واعترفت له الكافة بالسيادة فأطاعت، وعرفت له الرعية تقدمه في الرآسة فرعت حرمته وراعت.

وإن أمور الملك أضحى مدارها ... عليه كما دارت على قطبها الرحى؟!

قد استعبد الخط فأصبح له كالخديم، وأتى من المعروف بكل غريب فأنسى من أثر عنه ذلك في الزمن القديم؛ فلو رآه " خالد بن برمك " لأحجم عن ملاقاته عظماً، أو ناوأه " يحيى بن خالد " لمات من مناوأته عدماً، أو سابقه " الفضل وجعفر " ابناه لسبقهما كرماً:

مناقب لو أني تكلفت نسخها ... لأفلست في أقلامها ومدادها!

أو سمع به " الحسن بن سهل " لقطع إليه الحزن والسهل، أو بصر به " الفضل " أخوه، لما أنه للفضل أهل، أو عاينه أبو علي بن مقلة " لعلم أنه فاقه حظا وخطا، أو نظر " ابن هلال " إلى أهلة نوناته لتحقق أنه سبقه إلى تحرير هندسة الحروف وما أخطا:

إذا أخذ القرطاس خلت يمينه ... تفتح نوراً أو تنظم جوهرا!

فإن تكلم أتىمن بيانه بالسحر الحلال، أو حاور أتى من البلاغة بما يقصر عن رتبته " سحبان " في المقال، أو ترسل أعيى " عبد الحميد " في رسائله " ، أو كتب رتعت من روض خطه في زهر خمائله:

يؤلف اللؤلؤ المنثور منطقه ... وينظم الدر بالأقلام في الكتب!

فرأيه السيف لا ما صنع الهند، وعقله الصارم لا ما استودع الغمد:

ففي رأيه نجح الأمور ولم يزل ... كفيلاً بإرشاد الحيارى موفقا!

أقلامه تزري بالصوارم وتهزأ بالأسل، وتجري بصلة الأرزاق فتزيد على الأماني وتربو على الأمل:

بت جاره فالعيش تحت ظلاله ... واستسقه فالبحر من أنوائه!

فمكارمه تغني من الإملاق، وبواكره بالإسعاد تبادر الغدو والإشراق، وعطاياه تسير سير السحاب فتمطر الغيث على الآفاق.

كريم مساعي المجد يركب نجدة ... من الشرف الأعلى وبذل الفواضل

قد خدمته الحظوظ وأسعدته الجدود، وقسمت المنازل السنية فكان له منها سعد السعود:

لو عدد الناس ما فيه لما برحت ... تثني الخناصر حتى ينفذ العدد!

فلو غرس الشوك أثمر العنباء أنى أرادها، أو حاول العنقاء في الجو لصادها، أو

زرع في السباخ لكان ذلك العام العام والسنة الخصبة، ولضوعفت مضاعفة حسناته فأنبتت كل حبة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة:

وإذا السعادة لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان
واصطد بها العنقاء فهي حبائل ... واقتد بها الجوزاء فهي عنان!

قد لبس شرفاً لا تطمع الأيام في خلعه، وتقمص من الفضل جلباباً لا تتطلع الأيام إلى نزعه، وانتهى إليه المجد فوقف، وعرف الكرم مكانه فانحاز إليه وعطف. فقصرت عنه خطا من يجاريه، وضاق عنه من يباريه:

نالت يداه أقاصي الكرم الذي ... مد الحسود إليه باعاً ضيقا!

فمناقبه تسبق أقلام الكاتب، وتستغرق طاقة الحاسب؛ ليس لارتفاعها غاية، ولا لتدولها نهاية؛ فلا توفى جامعة بشرطها، ولا تقوم جريدة ببسطها:

وقد وجدت مكان القول ذا سعة ... فإن وجدت لساناً قائلاً فقل!

قد هتف بمدحه خطباء الأقلام علىمنابر الطروس، ونطقت بفضله أفواه المحابر فنكست لرفعة قدره شوامخ الرؤوس، وطلعت في أفق المهارق سعود إيالته السعيدة فأفلت لوجوده النحوس، ورقمت محاسنه بنقس الليل على صفحات النهار فارتسمت، وحملت أخبار معروفه فتزاحمت الآفاق على انتشاق أرج ريحه العبقة واستهمت:

لقد كرمت في المكرمات صفاته ... فما دخلت لاء عليها ولا إلا!

اتفقت الألسنة على تقريضه فمدح بكل لسان، وتوافقت القلوب على حبه فكان له بكل قلب مكان، واستغرقت ممادحه الأزمنة والأمكنة فاستولى شكره على الزمان والمكان:

ولم يخل من إحسانه لفظ مخبر ... ولم يخلي من تقريضه بطن دفتر!

على أني أستقيل عثرتي من التقصير من إطرائه، والتعرض من مدحه لما لا أنهض بأعبائه؛ فلو أن " الجاحظ " نصيري، و " ابن المقفع " ظهيري، و " قس بن ساعدة " يسعدني، و " سحبان وائل " ينجدني، و " عمر بن الأهتم " يرشدني، لكان اعترافي بالعجز في مدحه أبلغ مما آتيه، وإقراري بالتقصير في شكره أولى مما

أصفه من توالي طوله وأياديه:

ولو أن لي في كل منبت شعرة ... لساناً يطيل الشكر فيه لقصرا!

وهذه نسخة رسالة للشيخ الإمام العالم معين الدين تاج العلماء، خطيب الخطباء، زين الأئمة، قدوة الشريعة، الصدر أبي الفضل يحيى بن جعفر بن الحسن بن محمد الحصكفي رحمه الله، سماها: " عتاب الكتاب، وعقاب الألقاب، المشتملة على أوصال الغريب والإغراب " وهي: عذيري من وزراء النصبة وكنابها، وكبراء الدسوت وأربابها، وأواخي في زم نشر الأحوال، وساسة الممالك، وصحف أسرار المالك، الشامخين بأنوف التيه والكبرياء، والساحبين ذيول العجب والخيلاء، الرافلين في حلل البهاء والغافلين عن فروض العلاء، الذين تبوؤوا السؤدد من غير سداد، وتسنموا الرتب بلا إعداد فكأنهم الحاصب، وعدو الله المناصب؛ شغلهم الأشر والفجور، وكل على بسطته يجوز؛ همهم محح الأجراح، وشج الراح بالماء القراح، وامتطاء المرد، والعتاق الجرد؛ أملهم تنجيد الأفنية، وتشييد الأبنية، وزيادة في الرقيق والكراع والخول والاتباع، وليس بغال، كثرة خيل وبغال، بما باعوه من الورع والديانة وأضاعوه من العفة والصيانة:

قد ملكوا الدنيا على غرة ... ونافسوا فيها السلاطينا!
؟؟؟توزعوا الدولة والملك ... والحضرة والإسلام والدنيا
شادوا بأعمالهم دورهم ... وأخربوا فيها الدواوينا
عفوا وما عفوا بأقلامهم ... مساكناً تحوي مساكينا
عزتهم الدنيا بأن أظهرت ... عن غلطة تضمرها لينا
والدهر كم جرع في مرة ... مراً وحيناً ساقه حينا
يا أنفساً ذلت بإتيانهم ... ويك أتأتين الأتاتينا
لا ترغبي في رسلهم إنما ... تمرين في القعب الأمرينا!
وكان يجدي القصد لو أنهم ... يدرون شيئاً أو يدرونا
موتى همو فليك تقريظهم ... إن كنت لا تأبين تأبينا
لا يعتني الفضل بإطراء من ... يكون فيه الهجو مغبونا
لو رمت شيئاً دون أقدارهم ... لهجوهم لم تجد الدونا!!!

قد أخلدوا إلى الوضاعة، عن تحصيل البضاعة، وكفاهم من البراعة، بري اليراعة، وعنوا باسوداد الليقة، عن سؤدد الخليقة، وأحالوا على الرمم، عند قصور الهمم؛ ومن أعظم الآفات، فخرهم بالعظم الرفات.

وكأنهم لصميم هاشم ... أو من لهاميم العباشم
غشموا فما يغشاهم ... بالطوع إلا كل غاشم

لا يعين أحدهم على مروة، ولا ينعش ذا أخوة، ولا يرعى وارث أبوة، ولو اعتزى إلى نبوة، فهو غير أس بجوده، ولا مواس بموجوده؛ يروقك كيسه والغلام، وتروعك والأقلام؛ فإذا استنطق قلمه الصامت، أجذل عدوه الشامت؛ فزاد أدراجه ناكصاً.

فهو الذي أملى لهم حلمه ... مع الخنا والنكد الباهض:
لو أنني وليت تأديبهم ... شفيت صدر النقه الناهض!
من ناظر يضحي بلا ناظر ... وعارض يمسي بلا عارض
ومشرف للدين ما قصده ... في الوطب إلا زبدة الماخض
وخازن إن لف مرضاته ... من حلوهم عف عن الحامض
ومن خبيث جاءنا ذكره ... في الذكر بين البكر والباهض
وكاتب لو انصفوا مهره ... لكان أولى منه بالرائض !!

إن وقع، رأيت اللفظ المرقع، وإن أطال وأسهب، أدال عرضه وأنهب، وكان أحق بتقليد العهود، وأولى بشطر المناشير، عن سطر المناشير، وأجدر بقبض الروح، إذا انبسط للشروح، وأخذ في ذكر الوقائع والفتوح، كفه بالجلم، أولى منها بالقلم، وأخلق بالمسحاة، من السحاة، وأليق بالؤوس، من الطروس، ويبري ويقط، ولا يدري ما يخط، إذ ليس في السفط، غير السقط؛ إن قاتحته أو طارحته، ظفرت بغصة الماتح، وخشر المفاتح؛ إن خط: فنونه كلامه وخلط فنونه في كلامه.

إن وقعوا وقعوا في ذم كل فم ... أو لأنفذوا أنفذتهم أسهم الكلم
أو قلدوا قلدوا خزياً يجللهم ... أو اقطعوا قطعوا شتماً بجعلهم
أراقم المال والأعمال إن رقموا ... جاؤوا من الرقم والألفاظ بالرقم

فالله يأخذ منهم للدواة ... وللأنقاس بالحق والقرطاس والقلم!!

فالجديد بهم سمل،والسوام بينهم همل، ولا علم عندهم ولا عمل؛ لهفي على الفضل المذال، برفعة الأنذال، وضياع الحقوق، وانصياع البيضة عن العقوق.

ثم ما على سيدنا الوزير، مع اصطحاب البم والزير، ونفاق سوقه، وانغماسه في فسوقه، واتصال صبوحه بغبوقه، وتخليه في البهو، للعب واللهو، من ظهرغي يركب، وذي يسار ينكب، وساع يشي، وراع يرتشي، ورسوم حيف تجدد، وسوآت تعدد، ما يضره من شكوى الجارح البغاث، وصريخ لا يغاث، ووال يعسف بأهل مصره، وإن شركه في أصره، وقاض لا ينصف الرعية، ولا يتبع القضايا الشرعية، وفقيه يسف إلى تحصيل عرض زائل، وتعجيل غرض من سائل؛ ماله ولحفظ المال، ومحاسبة العمال؟:

أم ما على العامل نمس الدجاج ... إن نقص الكرم وزاد الخراج؟

عليه أن يحصل في كمه ... شيء وإن أخلى جميع الخراج

وهو خراج عند ما ينتهي ... يبط بالمبضع ما في الخاج!!

شغلهم بالشهد المشور لا بمشهد يوم النشور، وقصدهم الجمع والاكتساب، ومتى الجمع والحساب، إنما هو مال يحتقب، لا مال يرتقب، وفساد في الأرض، لا إعداد ليوم العرض:

إني لأرثي للمراتب تحتوي ... عليها قرود فوقهن برود

سراع إلى السوآت فيما يسينهم ... ولكنهم عما يزين ركود

يقاظ إذا ما ثوب اللؤم داعياً ... وعند نداء المكرمات رقود

وما غرني إلا حلاوز حولهم ... وإلا قيام بينهم وقعود

لقد حسدوا ظلماً على ما أتاهم ... وهل لأخي نقص يسود حسود؟

وللسيد المحسود كف عن العلى ... تذود وأخرى بالنوال تجود

لحا الله دنيانا التي ضل سعيها ... وفيها علينا بالضلال شهود

إذا صغرت كاسم الحسين محلة ... علت وعلا فيها يزيد يزيد

إنما الصدر من صدره كماله، وحسنت أعماله، وجرد العزمات، فشرد الأزمات، ونفى بدبه الكربات، واصطفى لربه القربات، فسهل الغنى، وأفعم الإنا، ووضع

مواضع النقب الهنا؛ فهو يهش للنوال، ويبش عند السؤال؛ لا يشوب ورده القذا، ولا يبطل منه بالمن والأذى؛ يبشر بشره بمحاسن الأخلاق، وينشر نشره الطيب في الآفاق، ويحسم بدواته داء الإملاق، ويحرز بقصبته قصب السباق:

يجردها من مثل وفضة نابل ... أجنتها من نافذات المعابل
وفي خطه المنسوب تزري شباتها ... بلهذم منسوب إلى الخط ذابل
وإن بذرت عن حبة القلب أنبتت ... من البر قبل البر سبع سنابل!!

دؤوبه لإقالة العاثر، وعمارة الداثر، وإشاعة المآثر؛ همه في معضلة تراض، ومعدلة تفاض، وخلل يسد، وجلل يصد، وعان بظهره يعان، وعات بقهره يهان؛ بابه مفتوح، وخيره ممنوح، وما أقل اللائم، لمن أكثر الولائم، وأغفل الجادب، لمن صنع المآدب، وأخلص الإخاء، لمن استخلص السخاء فبذل الرغوة والصريح، والسنام والإطريح، لا كمن يشح بالقتار، لفرط الإقتار، ويضن بالوضر، على المحتضر؛ ويبخل بالعراق، عمن روحه في التراق، ويسر الغميرة، لمن يبتغي الميرة، ويبطن الداء، لمن ينتظر الغداء، ويسعر الأحشاء، لمن ترقب العشاء:

مسلط سيرته نقمة ... وجائر قسمته ضيزى
ليس بذي لب يمل الثأى ... ولا لباب يملأ الشيزى!

يحقد على الإخوان، عند ظهور الخوان؛ فتراه يحدق، إلى من يشدق، وينتقم، ممن يلتقم، ويذل الأكيل، ويحل به التنكيل، ويبغض الشريب، وإن كان الخدن القريب؛ فالحائن من يرد، فيزدرد، والخائن من ينبسط، فيسترط؛ يشنأ من الأجراس، صوت الأضراس، وحشرجة البلاعم، بدحرجة المطاعم، وهرهرة الشدوق، وجرجرة الحلوق، وقد صدت حواجز بلواه، أفواهاً تصدت لحلواه، وحكمت لجامه، بحكمة لجامه، وعدت بكيوانه لهى وعدت بألوانه؛ رغيفه أعرز من الغريف، وأغرب من الشيء الطريف؛ صريف بابه، دون صريف نابه، ويحكم صك بابه، عن كبابه، ويعد سديف جفانه، من سديف أجفانه، يمانع بلديده، عن سفود قديده، ويصافح بصفحة وريده عن صحفة ثريده؛ حمله من نجوم الحمل، وسمكه فوق السماك الأعزل، وحوته الفرقد؛ دون عجته ارتفاع العجاجة، بين الحوت والأسد، وجديه

عند جدي وتحت دجاجته ذنب الدجاجة:

يدرج في القدر دراجه ... ليلتقط الحبّ وطيهوجه
ففي السموات سماناته ... وعند ديك العرش فروجه

يحرس مائدته الدلو والعقرب، وهما منا أدنى وأقرب؛ يعجبه التثمير والاحتجان، ويلذ له التوفير والاختزان؛ وقصر مفاجأة أحوال، تصرح عن أهوال؛ وكأنك بالأيام بعد الابتسام، شاهرة للحسام؛ قد كشرت عن أنيابها العصل، في بكرها والأصل، وأجلت عن سليب مسحوب، لتتكر مصحوب؛ وآخر يتردد في البوس، ويخلد في الحبوس؛ قد حصل على سلة الحاوي، من سلة الحلاوي، ومن طعم العسل، على طعن الأسل، ومن العذب البارد، على حز المبارد:

تقبض من خطوه الكبول ... فهو على قيده يبول
خلا من الخير فهو طبل ... وهكذا تضرب الطبول
يشكو إلى الله مستغيثاً ... وما له عنده قبول
ذاك بما كان مستطيلاً ... تردي دواهبه والميول!

فهم بين حصى تعصر، وقفاً يقصر، وكعاب مثقوبة، وأنواع عقوبة؛ أو يقال فلان أنارته شعوب، وورارته الحبوب، واكتفى بسلفة الممات، من المقدمات؛ وما ظنك بالشلو الطريح، في ضنك الضريح، تحته البرزخ الموصود، وفوقه الجبل المنضود؛ انظر كيف هجر بابه المقصود، وجانبت جنابه الوفود، وأخلقت رباعه، وتفرقت أتباعه؛ ثم تشويه الحوب، أبشع من تشويه الشحوب؛ وويل للقوم البور، من بعثرة القبور:

ويا خسارة الأنفس الغاوية ... من بعد تلك الحفر الهاوية
وكل من خفت موازينه ... فأمه في بعثه هاويه
وليس يدري ويحه ماهيه ... نار على سكانها حاميه!

أعادنا الله من خلال يقضي جهلها بالشنار، وأفعال تفضي بأهلها إلى النار، بكرمه وإحسانه، وطوله وامتنانه.

الصنف الثالث من الرسائل المفاخرات

وهي على أنواع منها: المفاخرة بين العلوم.

وهذه نسخة رسالة في المفاخرة بين العلوم، أنشأتها في شهور سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، لقاضي القضاة شيخ الإسلام، علامة الزمان، جلال الدين، عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام، بقية المجتهدين، أبي حفص عمر البلقيني الكناني، الشافعي، - أمتع الله تعالى المسلمين ببقائه

ذكرت فيها نيفاً وسبعين علماً، ابتدائها بعلم اللغة، وختمتها بفن التاريخ؛ ذاكراً فخر كل علم على الذي قبله، محتجاً عليه بفضائل موجودة فيه دون الآخر؛ وجعلت مصب القول فيها إلى اشتماله على جميعها، وإحاطته بكلها، مع الإشارة إلى فضل والده، شيخ الإسلام، ومساهمته له في الفضل، على ما ستقف عليه إن شاء الله تعالى؛ وهي: الحمد لله الذي جعل العلم جلالاً تود جلائل الفضائل أن تكون له أتباعاً، وأطلق ألسنة الأقلام من جميل ثنائه بما أنطق به ألسنة العالم ليكون الحكم بما ثبت من مأثور فضله إجماعاً، وأجرى من قاموس فكره جداول أنهار العلوم الزكية فنعش قلوباً ونزه أبصاراً وشنف أسماعاً.

أحمده على أن أفاض نتائج الأفكار على الأذهان السليمة لذي النظر الصحيح، وبث جياد الألسنة في ميدان الجدال فحاز قصب السبق منها كل لسان ذلق فصيح، وأشهد أم لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي قهرت بينات دلائله الملحد المعاند، وبهرت قواطع براهينه الألد الخصيم والجدل المكايد، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أظهر من واضح الحجج الجلية ما سقط بحجيته دعوى المعارض، وأتى من فضل الخطاب بما أفحم به الخصوم فلم يستطع أشدهم في البلاغة شكيمة أن يأتي له بمناقض، صلى عليه وعلى آله وصحبه الذين فازوا من جليل المناقب بكل وصف جميل، واشتهرت في الوجود مفاخرهم فلم يحتج في إثباتها إلى إقامة دليل، صلاة يتمسك في دعوى الشرف بمتين حبلها، وتتفق أدلة العقل والنقل على القطع بعلو شأنها وتوفر فضلها.

وبعد، فلما كانت العلوم مشتركة في أصل التفصيل، متفقة الفضل في الجملة وإن تفاوتت في التفصيل، مسلماً أصل الشرف فيها من غير منازع، مجمعاً على أنه لاشيء من العلم من حيث هو علم بضار ولاشيء من لجهل من حيث هو جهل بنافع، مع اختلافها في التفاضل باختلاف موضوعاتها، وتفاوتها في الشرف بحسب الحاجة إليها أو وثاقة حججها نفاسة غاياتها؛ عطس كل منها بأنف شامخ غير مسلم للآخر ولا مسالم، ومد إلى العلياء يد المطاولة فتناول الثريا قاعداً غير قائم، وادعى كل منها أن بحره الطامي، فضله النامي، وجواده الطامح، وسماكه الرامح، زاعماً أن حسامه القاطع وغضبه القاضب، وقدحه المعلى وسهمه الصائب، ونجمه الساري وشهابه الثاقب، وأن نشر الثناء على مجامره موقوف، وخطيب المحامد بمنابره معروف، وفلك الفضل على قطبه دائر، وكل شرف عليه محبس وكل فخر عليه قاصر؛ فماس بعطفه ومال، وبسط في الكلام لسانه فقال وطال.

هذا: وإنها اجتمعت يوماً اجتماع معنى لا صورة، وقامت لها سوق بالبحث معروفة وعلى الجدال مقصورة، وتفاوضت بلسان الحال وتخاطبت، وتحاورت في دعوى الشرف وتجاوبت، وألمت بالمنافرة فتنافرت، وتسابقت في ميدان الافتخار فتفاخرت، وأخذ كل منها في نصرة مذهبه، وتحقيق مطلبه، بأنواع الحجج والاستدلالات، وإقامت البراهين والأمارات، وما يتوجه على ذلك من الأسئلة والاعترضات. فكان أول باديء بدأ منها بالكلام وفتح باب الجدال والخصام، " علم اللغة " فقال: قد علمتم معشر العلوم أني أعمكم نفعاً، وأوسعكم مجالاً وأكثركم جمعاً؛ على قطب فلكي تدور الدوائر، وبواسطتي تدرك المقاصد ويستعلم ما في الضمائر، وبدلا ليتعلم المعاني المفردات، ويتميز ما يدل على الذوات مما يدل على الأدوات، وتتبين دلالات العام والخاص، ويتعر ف ما يرشد إلى الأنواع والأجناس وما يختص بالأشخاص؛ على أن كلكم كل علي، ومحتاج في ترجمة مقصوده إلي؛ فلفظي " المحكم " وأقوالي " الصحاح " ، وكلامي " الجامع " وسيف لساني " المجرد " ناهيك من سلاح، وفضلي " المجمل " لايحتاج إلى بيان. استأثر الله تعالى بتعليمي لآدم عليه السلام، وآثره بي معرفة على الملائكة فكان خصيصة له على الملائكة الكرام.

فلما انقضى قيله،وبانت للمستبين سبيله، ثاب إليه " علم التصريف " مبتدراً، ولنفسه ولسائر العلوم منتصراً، فقال: رويدك أيها المساجل، وعلى رسلك يا ذا المناضل؛ فقد ذل من ليس له ناصر، وحط قدر من ترفع على أبناء جنسه ولو عقدت عليه الخناصر، وما يجدي البازي بغير جناح، أو يغني الساعي إلى الحرب بغير سلاح؛ وأنى يطعن رمح بغير سنان، أو يقطع سيف لم يؤيد بقائم ولم تقبض عليه بنان؛ إنك وإن حويت فضلاً، وأعرقت أصلاً، وكنت للكلام نظاماً، وإلى بيان المقاصد إماماً، فأنت غير مستقل بنفسك، ولا قائم برأسك؛ بل أنا المتكفل بتأسيس مبانيك، والملتزم بتحرير ألفاظك وتقرير معانيك، بي تعرف أصول أبنية الكلمة في جميع أحوالها، وكيفية التصرف في أسمائها وأفعالها، وما يتصل بذلك من أحوال الحروف البسيطة وترتيبها، واختلاف مخارجها، وبيان تركيبها، والأصلي منها والمزيد، والمهموس والرخو والشديد؛ و.. تقديره، والصحيح والمعتل وتحريره، وكيفية التثنية والجمع، والفصل والوصل والابتداء والقطع، وأنواع الأبنية وتغيرها عند اللواحق، وكيفية تصريف الفعل عند تجرده عن العوائق، وأمثلة الألفاظ المفردة في الزنى والهيئة وما يختص من ذلك بالأسماء والأفعال، وتمييز الجامد منها والمشتق وأصناف الاشتقاق، وكيف هو على التفصيل والإجمال.

على أنك لو خليت ومجرد التعريف، وبيان المقاصد بالاصطلاح أو التوقيف، لكان " علم الخط " يقوم مقامك في الدلالة الحالية لدى الملتقى، ويترجح عليك ببعد المسافة مع طول البقا؛ مع ما فيه من زيادة ترتيب الأحوال، وضبط الأموال، وحفظ العلوم في الأدوار، واستمرارها على الأكوار، وانتقال الأخبار من زمان إلى زمان، وحملها سراً من مكان إلى مكان؛ بل ربما اكتفي عنك بالإشارة والتلويح، وقامت الكناية منها مقام التصريح.

فعندها غضب علم النحو واكفهر، وزمجر واشمخر، وقال: يا لله؟؟؟! " استنت الفصال حتى القرعا " ، و " استنترت البغاث " فكان أشد ثلمة وأعظم صدعا، لقد ادعيت ما ليس لك ففاتك الحبور، و " من تشبع بما لم ينل فهو كلابس ثوبي زور " ؛ وهل أنت إلا بضعة مني؟، يسند إلي وتنقل عني، لم يزل علمك باباً من أبوابي، وجملتك داخلة في حسابي، حتى ميزك " المازني " فأفردك بالتصنيف، وتلاه " ابن

جني " فتبعه في التأليف؛ واقتصر " بن مالك " منك في تعريفه على الصروري الراجب، وأحسن بك " ابن الحاجب " في شافيته فرفع عنك الحاجب، وأنت مع ذلك كله مطوي ضمن كتبي، نسبتك متصلة بنسبتي وحسبك لاحق بحسبي، أنا ملح الكلام، ومسك الختام، لا يستغني عني متكلم، ولا يليق جهلي بعالم ولا متعلم؛ بي تتبين أحوال الألفاظ المركبة في دلالتها على المقاصد، ويرتفع اللبس عن سامعها فيرجع من فهمها الصلة والعائد؛ فلو أتى المتكلم في لفظه بأجل معنى ولحن لذهبت حلاوته، وزالت طلاوته، وعيب على قائله وتغيرت دلالته، وقد كانت الخلفاء تحث على النحو وترشد إليه، وتحذر اللحن وتعاقب عليه:

وإذا طلبت من العلوم أجلها ... فأجلها عندي مقيم الألسن!

فبينما هو كذلك إذ برزت " علوم المعاني والبيان والبديع " جملة، وحملت عليه بصدق العزم في اللقاء حملة، وقالت: جعجعة رحاً من غير طحن، وتصويت رعد من غير مزن؛ لقد أتيت بغير معرب، وأعربت عن لحن ليس بمطرب، الحق أبلج، الباطل لجلج؛ إن الفوز لقد حنا، والوري لقدحنا؛ نحن لب العربية وخلاصتها، والمعترف لنا بالفضل عامتها وخاصتها؛ وهل أنت إلا شيء جرى عليك الاصطلاح، وساعدك الاستعمال فأمنت الاطراح؛ فلو اصطلح على نصب الفاعل ورفع المفعول لم يخل بالتفاهم في المقاصد، وها كلام العامة لذلك أقوم دليل وأعظم شاهد.

فقال " علم الشعر " : أراكم قد نسيتم فضلي الذي به فضلتم، وصرمتم حبلي الذي من أجله وصلتم؛ أنا حجة الأدب، وديوان العرب؛ علي تردون، وعني تصدرون؛ وإلي تنتسبون، وبي تشتهرون، مع ما اشتملت عليه من المدح الذي كم رفع وضعا، وجلب نفعا، ووصل قطعا، وجبر صدعا؛ والهجو الذي كم حط قدرا، وأخمد ذكرا، وجعل بين الرفيع والوضيع في حطيطة القدر نسباً وصهرا؛ إلى غير ذلك من أنواعي الشعرية التي شاع ذكرها، وأضواعي العطرية التي فاح نشرها؛ بل لا يكاد علم من العلوم الأدبية يستغني عن شواهدي، ولا يخرج في أصواله عن قوانيني وقواعدي حتى " علم النثر " الذي هو شقيقي في النسب، وعديلي في لسان

العرب، لم يزل أهله يتطفلون علي في بيت يحلونه، ويقفون من بديع محاسني عند حد لا يتعدونه.

فقال " علم القافية " : إنك وإن تألق برق مباسمك، وطابت أيام مواسمك، فأنت موقوف على مقاصدي، ومغترف من روي مواردي؛ أنا عدة الشاعر، وعمدة الناثر، لا يستغني عني شعر ولا خطابة، ولا يستكنف عن الوقوف على أبوابي ذو ترسل ولا كتابة؛ طالما عثر الفحول في ميداني، وتشعبت عليهم طرقي فضلوا السبيل واختلفت عليهم المباني؛ فلم يفرقوا بين التكاوس والتراكب في التعارف، ولم يميزوا بين التدارك والتواتر والترادف.

فقال " علم العروض " : لقد أسمعت القول في الدعوى من غير توجيه فدخل عليك الدخيل، وأوقعك الوصل دون تأسيس في هوة النقص: فهل إلى خروج من سبيل؟؛ أنا معيار القريض وميزانه، وعلي تبني قواعده وأركانه؛ لم يزل الشعر في علو رتبته بفضلي معترفاً، وبأسبابي متعلقاً؛ بميزاتي محررة، وأجزاؤه بقسطاس تفاعيلي مقدرة، وبفواصلي متصلة، وبأوتادي مرتبطة غير منفصلة.

فقال " علم الموسيقى " : لقد أسرفت في الافتخار فضللت الطريق وبنت عنها، وورطت نفسك فيما لا فائدة فيه فلزمت دائرة لا تنفك عنها، وأتيت من طويل الكلام بما لا طائل تحته فثقل قولا، وجئت من بسيط القول بما لو اقتصرت منه على المتقارب لكان بك أولى؛ فأنت بين ذي طبع وزان لا يحتاج إلى معيارك في نظم قريضه، وآخر نبت طباعه عن الوزن فلم ينتفع من علمك بضربه ولا عروضه؛ فإذا لا فائدة فيك ولا حاجة إليك، ولا عبرة بك ولا معول عليك؛ وكفى بك هضماً، ونقيصة وذماً، واستدلالاً على دحض حجتك، وضعف أدلتك، قول ابن حجاج:

مستفعلن فاعلن فعول ... مسائل كلها فضول
قد كان شعر الورى صحيحاً ... من قبل أن يخلق الخليل!

على أنه إن ثبتت لك فائدة، وعاد منك على الشعر أوالشعراء عائدة، فإنما تفاعيلك مقدمة لألحاني، وأوزانك وسيلة إلى أوزاني؛ نعم أنا غذاء الأرواح، وقاعدة عمود الأفراح، والمتكفل ببسط النفوس وقبضها، والقائم من تعديلها وتقويتها بنقلها

وفرضها؛ أحرك النفس عن مبدئها فيحدث لها الفكر في العواقب وتزايد الهموم والندم؛ فتارة أستعمل في الأفراح وزوال الكروب، وتارة في علاج المرضى وأخرى في ميادين الحروب، وآونة في محل الأحزان واجتماع المآتم، ومرة يستعملني قوم في بيوت العبادات فأبعثهم على طلب الطاعات واجتناب المحارم؛ وآتي من غريب الألحان، بما يشبع به الجائع ويروي به الظمآن، ويأنس به المستوحش وينشط به الكسلان، وتدنو لسماعه السباع، ويعنو له بعد الشدة الشجاع، مع ما يتفرع عني من " علم الآلات الروحانية " التي تنعش الأرواح، وتجلب الأفراح، وتنفي الأتراح، وتؤثر في البخيل السماح، وتفعل في الألباب ملا تفعل في اللبات بيض الصفاح.

فقال " علم الطب " : لقد أضعت الزمان في اللهو، وملت مع الأريحية فماس بك العجب وزاد بك الزهو، ودا خلك الطيش فقنعت بالإطراب،وعنيت بمعرفة اللحن ففاتك الإعراب؛ تذكر العشاق أحوال النوى فيسلمها الهوى إلى الهوان، وتتنقل في نواحي الإيقاع تنقل الهائم فتمسي في حجاز وتصبح في أصبهان؛ وأنت وإن ادعيت أنك العلم الروحاني، والمستولي بتحريك الطبائع الأربع على النوع الإنساني وغير الإنساني، فأنت غير مستغن عني، ولا فنك في

الحقيقة منفك عن فني؛ بل قواعدك مرتبة على قواعدي، وفوائدك مستفادة من فوائدي، وأهل صناعتك يتطفلون في معرفة الملائم والمنافي على ساقط لباب موائدي؛ وأنى تنبسط بك الروح مع وجود السقم، أو يستريح إليك القلب مع شدة مقاساة الألم؟؛ بل أنا قوام الأبدان، وغاية ملاك الإنسان؛ بي تحفظ صحة الأجسام، وتتمكن النفس من استكمال قوتيها النظرية والعملية بواسطة زوال الأسقام وانتفاء الآلام، مع ما يتضح بالنظر في التشريح الذي هو أحد أنواعي من سر قوله تعالى: " وفي أنفسكم أفلا تبصرون " ، وما يظهر من حال الصحة والمرض وسر الموت من أنه تعالى بدأ الخلق أول مرة وإليه يحشرون مع ما يلتحق بي من " علم خواص العقاقير " الغربية، والأحجار التي تؤثر بتمزيجها الصناعي التأثير العجيبة، وتأتي من نوادر الأفعال بالأعمال الغريبة؛ على أني لست بمختص في

الحقيقة ببدن الإنسان، ولا قاصر على نوع من أنواع الحيوان، وإنما أفردت بنوع البشر اهتماماً بشأنه، وتنبيهاً على جلالة قدره وعلو مكانه.

ثم ألحق بالإنسان في الاعتناء به الخيول فاشتق لها مني، " علم البيطرة " ، وتلاها في الاعتناء جوارح الطيور لاهتمام الملوك بشأنها فاستنبط لها من أجزائي " علم البيزرة " ، وأهمل ما سوى ذلك من جنس الحيوان فلم يعتن بأمره ولم يهتم له بشان.

فقال علم القيافة: لقد ارتقيت مرتقى صعباً، وولجت مولجاً صلباً، وأتيت من مشكلات القضايا بما ضاقت مطالبه، وعرضت نفسك لمغالبة الموت والموت لا شيء يغالبه، واقتصرت في تشريحك الأعضاء على ذكر منافعها وصفاتها،وأضربت عما تدل عليه بصورها وكيفياتها؛ أين أن من إلحاق الابن بالأب بالصفات المتاثلة،والحكم بثبوت النسب بدلائل الأعضاء كما يحكم بالبينة العادلة؟؛فهذه هي الفضيلة التي لاتساوى،والمنقبة التي لا تعادلو لا تناوى؛ وكفاك لذلك شاهداً، وعلى ثبوته في الشريعة المطهرة مساعداً؛ وأنه لا يعتور ذلك معارضة ولا نقض، استبشار النبي صلى الله عليه وسلم بقول مذحج المدلجي: " إن هذه الأقدام بعضها من بعض " .

فقال " ،علم قص الأثر " : نعم إن شأنك لغريب، وإن اجتهادك لمصيب؛ غير أني أنا أغرب منك شأنا، وأدق في الادراك معنى؛ إذ أنت إنما تلحق المحقق بالمشاهدة بمثله، وتقيس فرعاً على أصل ثم تلحق الفرع بأصله؛ وأنا فأدرك المؤثر من الأثر، واستدل على الغائب بما يظهر من اللوائح في الرمل والمدر؛ وربما ميزت أثر البعيد الشارد من المراتع، وفرقت بالنظر فيه بين الصحيح والظالع، فأدركت من الأمر الخفي ما تدركه أنت من الظاهر، وقضيت على الغائب بما تقضي به على الحاضر.

فقال " علم غضون الكف والجبهة " : ما الذي أتيت به من الغريب، أو أظهرته بعلمك من العجيب؟؛ فلو ابتليت بأرض صلبة لوقفت آمالك، أو محت الريح معالم الأثر لبطلت أعمالك، أو ولج من تقفي أثره الماء لفات حدسك الصائب، أو جعل الماشي مقدم نعله مؤخره لقلت: إن الذاهب قادم والقادم ذاهب؛ لكن أنا كاشف

الأسرار الخفية، والمستدل على لوازم الإنسان بما ركب فيه من الدلائل الخلقية؛ أستخرج من أسارير الجبهة وغضون الكف أموراً قد أرشدت الحكمة الإلهية إليها، وجعلت تلك العلامة في الإنسان دلالة عليها.

فقال " علم الكف " : إنه ليس في الاستدلال على الشيء بلازمه أمر مستغرب، ولا يقال فيه: هذا من ذاك أعجب، وإنما الشأن أن يقع الاستدلال على الشيء بما هو أجنبي منه، وخارج عنه، كما أستدل أنا بالخطوط الموجودة في كتف الذبيحة على الحوادث الغريبة، والأسرار العجيبة مما أجرى الله به العادة في ذلك، وجعله علامة دالة علىما هنالك.

فقال " علم خط الرمل " : لقد علمت أنك لست بمحقق لما أنت له متوسم، ولا واثق بالإصابة فيما أنت عنه تترجم؛ وغايتك الوقوف مع التجارب، والرجوع فيما تحاوله إلى التقارب، مع ما أنت عليه من الرفض والإهمال، وما رميت به من القطيعة وقلة الاستعمال؛ أما أنا ففارس هذا الميدان، ومالك زمام هذا الشان؛ فكم من ضمير أبرزته، وأمر خفي أظهرته، ومكان عينته فوافق، وأمد قدرته فطابق؛ على أنه ليس لك أصل ترجع إليه، ولا دليل تعتمد عليه؛ فأنا أثبت منك قواعد، وأوضح عند الاعتبار في الدلالة على المقاصد؛ فإن عدوت طورك، أو جزت في الاحتجاج خصمك، فمداك، أنه كان نبي يخط فمن وافق خطه فذاك.

فقال "علم تعبير الرؤيا" : إنك وإن أظهرت السرائر، وأبرزت الضمائر، فإن أمرك موقوف في حدسك على الدلالة الحالية، ومقصور في تخمينك على الأمور الاحتمالية؛ أين أنت مني حين أعبر عما شاهدته النفس في النوم من عالم الغيب؟ وكيف أكشف عنه الحجب بالتأويل فيقع كفلق الصبح من غير شك ولا ريب، فأخبر بحوادث تقع في العالم قبل وجودها، وآتي من حقائق النذارة والبشارة بما ينبه على التحذير من نحوسها والترقب لموافاة سعودها.

فقال " علم أحكام النجوم " : حقيق ماأولت، وصحيح ما عنه عبرت وعليه عولت؛ إلا أنك قاصر على وقائع مخصوصة ترشد إليها، وأمور محدودة تتبه عليها؛ على أنه ربما نشأت الرؤيا عن فكرة وقعت في اليقظة فاتصلت بالمنام، أو حدثت عن

سوء مزاج أو رداءة مطعم ونحو ذلك فكانت أضغاث أحلام؛ أما أنا فإني أدل بما أجراه الله تعالى من العادة، على الحوادث العامة مصاحباً لمقتضيات الإرادة، ليظهر ما في الحكمة الإلهية من قضايا التدبير، ويتبين ما اشتملت عليه الأفلاك العلوية من تقدير الترتيب وترتيب التقدير، مع ما يترتب على ذلك من الأعمال العجيبة، والأحوال الغريبة، التي تبهر العقول، ويمتنع إليها من غير طريقي الوصول: من " علم السحر " على الإطلاق، و " علم الطلسمات " الغريبة و " علم الأوفاق " ، وكذلك " علم النيرنجيات " و " علم السيمياء " الاخذ بالأحداق.

فقال " علم الهيئة " :مالك ولأباطيل تنمقها، وأكاذيب تزخرفها وتزبرقها وأماثيل يعتمدها المعتمد فتخيب، وأقاويل تارة تخطئ وتارة تصيب؛ ولقد وردت الشريعة المطهرة بالنهي عن اعتبارك، وجاءت السنة الغراء بمحو أخبارك وإعفاء آثارك؛ وناهيك بفساد هذا الاعتقاد ورد هذا المذهب، ما ثبت في الصحيح من أنه من قال: مطرنا بنوء كذا فهو كافر بالله مؤمن بالكوكب؛ على أنك في الحقيقة نوع من أنواعي،معدود من جندي ومحسوب من أتباعي؛ نعم أنا القائم من دليل الاعتبار في القدرة بتمام الفرض،والقائد بزمام العقل إلى التفكر في خلق السموات والأرض؛عني يتفرع علم الزيجات والتقاويم الذي به يعرف موضع كل واحد من الكواكب السيارة ومدة إقامتها، وزمن تشريقها وتغريبها ومقدار رجوعها واستقامتها، وحال ظهورها واختفائها في كل زمان، وما يتصل بذلك من الاتصال والانفصال والخسوف والكسوف واختصاص ذلك لمكان دون مكان.

فقال " علم كيفية الأرصاد " : ما علم الزيجات والتقاويم الذي تقدمه في الذكر علي، وتؤثره في الفضل بما لدي؛ إذ بي تتعرف كيفية تحصيل مقادير الحركات الفلكية، والتوصل إليها بالآلات الرصدية، التي عليها يترتب علم الزيجات، ويعرف في التقويم الاتصالات والانفصالات والامتزاجات، مع ما يلتحق بي من " علم الكرة " الذي منه تعرف كيفية اتخاذ الآلات الشعاعية، ويتوصل به إلى استخراج المطالب الفلكية.

فقال " علم المواقيت " : كيف وأنا سيد علوم الهيئة وزعيمها، وشريفها في الشريعة وكريمها؛ بي تعرف أوقات العبادت، وتستخرج جهة القبلة بل سائر الجهات، وتعلم

أحوال البلدان ومحلها من المعمور في الطول والعرض، ومقادير أبعادها وانحراف بعضها عن بعض، مع ما ينخرط في هذا السلك من معرفة السماوات وارتفاع الكواكب، ومطالعها من أجزاء البروج والطالع منها والغارب، وغير ذلك من الشعاعات المخروطة، والظلال القائمة والمبسوطة، إلى غير ذلك مما يلتحق بي، وينسب إلي ويتعلق بسببي: من علم " الآلات الظلية " التي تعرف بها ساعات النهار، ويظهر منها الماضي والباقي بأقرب ملتمس وألطف اعتبار، من نحو الرخامات القائمات، والمبسوطات منها والمائلات.

فقال " علم الهندسة " : إن فضلك لمشهور، ومقامك في الشرف غير منكور؛إلا أن آلاتك بي مقدرة، وأشكالك بأوضاعي محررة؛ فأنا إمامك الذي به تقتدي،ونجمك الذي به تهتدي؛ بل جميع علوم الهيئة في الحقيقة موقوفة علي، وراجعة في قواعدها إلي؛ لولاي لم يعرف السطح والكرة، ولم يميز بين الخطوط والقسي والدوائر المقدرة، مع ما ينشأ عني، ويستملى من صحابي ويقتبس مني، من أحوال المقادير ولواحقها، ومعرفة ظواهرها الواضحة ودقائقها، وأوضاع بعضها عند بعض ونسبها، وخواص أشكالها والطرق إلى عمل ما سبيله أن يعمل لها، واستخراج ما يحتاج إلى استخراجه بالبراهين اليقينية القاطعة، وإظهارها إلى الحس بالأشكال البينة والحدود الجامعة المانعة.

فقال " علم عقود الأبنية " : نعم، إلا أني أنا أجل مقاصدك، وأعذب مواردك، ونور عيونك، وعروس فنونك؛ مني يستفاد بناء الحصون والأسوار، ويتعرف شق الأقنية وحفر الأنهار، وعمارة المدن عقد القواصر، وسد البثوق وبناء القناطر، وتنضيد المساكن ووضع المنازل، ونصب الاشجار وترتيب الرياض ذوات الخمائل.

فقال علم " جر الأثقال " : صدقت ولكني أنا أساس مبانيك وقاعدة سنادك، وحامل أثقالك وعمود اعتمادك؛ بي تعرف كيفية نقل الثقل العظيم بالقوة اليسيرة، حتى تنقل مائة ألف رطل بقوة خمسمائة وذلك من الأسرار النفسية والأعمال الخطيرة.

فقال " علم مراكز الأثقال " : إلا محتاج إلي في أعمالك، ومتوقف علي في جميع

أحوالك، من حيث استخراج مراكز الأجسام المحمولة، وبيان معادلة الجسم العظيم بما هو دونه لتوسط المسافة بالآل المعمولة.

فقال " علم المساحة " : أراك قد غفلت عن معرفة المقادير والمسافات التي هي مقدمة عليك في وضع المباني، ومنفردة عنك بكثير من المعاني؛ من " أنواع " الخراج والزراعات، وتقدير الرساتيق والبياعات، وكيفية ذرع المثلثات، والمربعات، والمدورات، والمستطيلات، وغير ذلك من دقائق الأعمال، وإدراك كميات المقادير على التفصيل والإجمال. فقال " علم الفلاحة " فإذا قد اعترفت أنك من جملة لواحقي، مندرج في حقوقي وداخل تحت مرفقي؛ فأنا في الحقيقة المقصود منك في الوضع بالقياس، والمتحد بك دون غيري من غير التباس، مع ما أنا عليه من معرفة كيفية تدبير النبات من بدء كونه إلى تمام تدبيره، وتنمية الحبوب والثمار بإصلاح الأرض وما تخللها من المعفنات كالسماد وغيره، وما أبديه من اللطائف في إيجاد بعض الفواكه في غير فصله، وتركيب بعض الأشجار على بعض واستخراج بعضها من غير أصله.

فقال علم " إنباط المياه " : إلا أني أنا بداية عملك، وغاية منتهى أملك؛ لا يتم لك أمر بدوني، ولا تنبت لك خضراء ما لم تسق من بئاري وعيوني؛ فأنا الكفيل بإحياء الأرض الميتة وإفلاحها، والقائم بتلطيف مزاجها وإصلاحها.

فقال " علم المناظر " : ما الذي تجدي أنت وطرفي عنك مرتد، ونظري إليك غير ممتد؛ وأنى تستطيع مياهك الترقي من الأغوار إلى النجود، وتتنقل عيونك وأنهارك بين الهبوط والصعود، إذا لم أكن لك ملاحظاً، وعلى الاعتناء بأمرك محافظاً، مع ما أشتمل عليه غير ذلك من تحقيق المبصرات في القرب والبعد على اختلاف معانيها، وما يغلط فيه البصر كالأشجار القائمة على شطوط المياه حيث ترى وأسافلها أعاليها.

فقال علم " المرايا المحرقة " : إنك وإن دققت النظر، وحققت كل ما وقع عليه حاسة البصر، فأنا مقصدك الأعظم، ومهمك المقدم؛ طالما أحرقت القلاع بشعاعي، وحصنت الجيوش بدفاعي، وقمت بما لم يقم به الجيش العرمرم والعسكر الجرار، وأغنيت مع انفرادي عن كثرة الأعوان ومعاضدة الأنصار.

فقال " علم الآلات الحربية " : وإن حدك لكليل، وإن جداك لقليل، وإن المستنصر بك لذليل؛ وماذا عسى تصل في عسى تصل في الإحراق إليه، أو تسلط في الحروب عليه؟؛ أنا باع الحرب المديد، والمحصن من كل بأس شديد، والتالي بلسان الصدق على الأعداء: " قل جاء الحق وما يبديء الباطل وما يعيد " . فأنا نفس المقصود وعين المراد، وعمود الحق وقاعدة الجهاد.

فقال " علم الكيماء " : ما أنت والقتال، ومواقعة الحروب وقوارع النزال؛ وهل أنت إلا آلة من الآلات، لا تستقل بنفسك في حالة من الحالات؛ وأنى يغني السلاح عن الجبان مع خور الطباع، أو يحتاج إليه البطل الصنديد والمجرب الشجاع؛ فالعبرة بالمقاتل، لا بالذوابل، والعمدة على الرجال، لا ببوارق السيوف عند النزال؛ وبكل حال فالعمدة في الحروب وجمع العساكر على النقدين دون ما عداهما، والاستناد إلى الذهب والفضة بخلاف ما سواهما؛ وإلي هذا الحديث يساق وعلي فيه يعتمد، وعني يؤخذ وإلي في مثله يستند، أحاول بحسن التدبير، ما طبخته الطبيعة على ممر الدهور، فآتي بمثله في الزمن القريب، وأجانس بين المعادن في ممازجتها فيظهر عنها كل معنى غريب، وأبرز من خصائص الإكسير ما يقلب المريخ قمراً من غير لبس، ويحيل الزهرة شمساً وناهيك بإحالة الزهرة إلى الشمس فصاحبي أبداً عزيز المنال، شريف النفس عن الطلب عفيف اللسان عن السؤال.

فقال " علم الحساب المفتوح " : إنك وإن دفعت عنا، وجلبت غنى، فأموالك الجمة، وحواصلك الضخمة، محتاجة إلى حسابي، غير غنية عن كتابي؛ أنا جامع الأموال وضابط أصولها، والمتكفل بحفظ جملتها وتفصيلها، مع احتياج كثير من العلوم إلي في الضرب والقسمة والإسقاط. قد أخذت من " علم الارتماطيقي " الذي هو أصل علوم الحساب بجوابنه، وتعلقت منه بأسهل طرقه وأقرب مذاهبة؛ وناهيك بشرف قدري، ورفعة ذكري، قولأبي محمد الحريري في بعض مقاماته، منبهاً على شرف قلمي وسني حالاته: " ولولا قلم الحساب لأودت ثمرة الاكتساب، ولا تصل التغابن إلى يوم الحساب " .

فقال " علم حساب التخت والميل " : مه! فما أنت إلا علم العامة في الأسواق، تدور بين الكافة على العموم وتتداول بينهم على الإطلاق؛ تكاد أن تكون بديهياً حتى للأطفال، وضرورياً للنساء والعبيد في جميع الأحوال؛ يتسع عليك مجال الضرب فتقصر عنه همتك المقصرة، وتتشعب عليك مدارك القسمة فتأتي بها على التقريب غير محررة؛ أين أنت من سعة باعي، وامتداد ذراعي، وتحرير أوضاعي؟؛ لا يعتمد أهل الهيئة في مساحة الأفلاك والكواكب غير حقائق أموري، ولا يعولون فيها – على سعة فضائها – إلا على صحاحي وكسوري.

فقال " علم حساب الخطأين " : ما لي ولعلم لا يوصل إلى المقصود إلا بعد عمل طويل؟ ويحتاج صاحبه مع زيادة العناء إلى استصحاب تخت وميل، وقد قيل: كل علم لا يدخل مع صاحبه الحمام فجداه قاصر ونفعه قليل؛ وعلى أن غيرك يشارك فيما أنت فيه ويوصل إلى مقصودك بطريق لا يدخله الغلط ولا يعتريه؛ وإنما الشأن في استكشاف غامض أو إظهار غريب، ولا أعجب من أن تصيب إخراج المجهول من الأعداد بخطأين فيقال: أتى بخطأين وهو مصيب.

فقال " علم الجبر والمقابلة " : حسبك! فإنما أنت في استخراج المجهولات كنقطة من قطر، أو نغبة من بحر؛ تقتصر منها بطرقك القاصرة وأعمالك الناكبة، على ما أمكن صيرورته من العدد في أربعة أعدادٍ متناسبة؛ نعم أنا أبو عذرتها، وابن بجدتها، وأخو نجدتها؛ استخرج جميع المجهولات، من مسائل المعاملات، والوصايا والتركات، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى، وينحو هذا النحو ويسري هذا المسرى، مما يدخل تحت الأموال والجذور، والأعداد المطلقة من الصحاح والكسور.

فقال " علم حساب الدرهم والدينار " : مالك ولا دعاء التعميم في استخراج المجهولات وكشف الغوامض؟ وإنما أنت قاصر على استعلام المجهولات العديدة المعلومة العوارض، دون ما تزيد عدته على المعادلات الجبرية، فقد فاتك حينئذ الدعاوى الحصرية؛ لكني أنا كاشف هذه الحقائق، ومبين سبلها بألطف الطرائق؛ فبي إليها يتوصل، وعلى قواعد لاستخراج مقاصدها يجمل ويفصل.

فقال " علم حساب الدور والوصايا " : إن استخراج المجهولات وإن عظم نفعاً،

وحسن وضعاً، فأنا أعظم منه فائدة، وأجل منه عائدة؛ أبين مقدار ما يتعلق بالدور من الوصايا، حتى يتضح لمن يتأمل، وأقطع الدور فتعود المسألة من أظهر القضايا، ولولا ذلك لدار أو تسلسل.

فقال " علم الفقه " : وهل أنت إلا نبذة من الوصايا التي هي بارقة من بوارقي، تتعلق بأطنابي وتتدخل تحت سرادقي؛ بي تتميز معالم الأحكام، ويتبين الواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام، ويتعرف ما يتقرب به إلى الله تعالى من العبادات وسائر أنواع التكاليف الشرعية العملية مما تدعو إليه الضرورات وتجري به العادات؛ فأنا إمام العلوم الذي به يقتضي، وعميدها الذي عليه يعتمد ونجمها الذي به يهتدي؛ فلولا إرشادي لضل سعيي المكلفين، ولأمسوا في ديجاء مدلهمة فأصبحوا عن ركائب الخير مكلفين.وناهيك أن من جملة أفرادي، وآحاد أعدادي: - " علم الفرائض " الذي حض الشارع على تعلمه وتعليمه، وأخبر بأنه نصف العلم منبهاً على تعظيم شأنه وتفخيمه، وبالغ في إثبات قواعده وإحكام أسه، فقال: " إن الله لم يكل قسمة مواريثكم إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل بل تولاها فقسهما بنفسه " .

فقال " علم أصول الفقه " : إن مقالك لعال،وإن جيدك لحال؛غير أني أنا التكفل بتقرير أصولك،وتوجيه المسائل الواقعة في خلال أبوابك وفصولك؛ بي تعرف مطالب الأحكام الشرعية العملية وطرق استنباطها، ومواد حججها واستخراجها بدقيق النظر وتحقسق مناطها؛ فبأصولي فروعك مقررة، وبمحاسن استدلالي حججك منقحة محررة؛ قد مهدت طرقك حتى زال عنها الإلباس،وبنيت على أعظم الأصول فروعك فاسندتها للكتاب والسنة والإجماع والقياس.

فقال " علم الجدل " : قد علمت أن الدليل لا يقوم برأسه، ولا يستقل بنفسه، بل لا بد في تقريره من النظر في معرفة كيفية الاستدلال، والطريق الموصل إلى المطلوب على التفصيل والإجمال؛ وأنا المتكفل بذلك، والموصل بكشف حقائق البحث إلى هذه المدارك؛ بي تعرف كيفية تقرير الحجج الشرعية، وقوادح الأدلة وترتيب النكت الخلافية؛ فموضوعك علي محمول، ونظرك إلى نظري بكل حال

موكول.

فقال " علم المنطق " : خفض عليك! فهل أنت إلا نوع من قياساتي المنطقية أفردت بالتصنيف، وخصصت بالمباحث الدينية فخالطت أصول الفقه في التأليف؟؛ فأنت إذاً فرد من أفرادي، وواحد من أعدادي، مع ما اشتمل عليه سواك من القياسات البرهانية القاطعة في المناظرات،والقياسات الخطابية والبلاغات النافعة في مخاطبات الجمهور على سبيل المخاصمات والمساورات؛ كذلك حال القياسات الشعرية، وكيف يستعمل التشبيه المفيد للتخيل الموجب للانفعالات النفسانية: كالإغراء والتحذير، والترغيب والترهيب والتعظيم والتحقير، وغيره ذلك من معرفة الألفاظ والمعاني المفردة من حيث هي عامة كلية، وتركيب المعاني المفردة بالنسبة إلى الإيجابية والسلبية؛ تعصم مراعاتي الفكر عن الخطأ فلا يزل، ويهديه سواء السبيل فلا يحيد الصراط السوي ولا يضل، وأسري في جميع المعقولات فأتصرف فيما يدق منها ويجل.

فقال علم " دراية الحديث " : قد علمت بما ثبتت به الأدلة بالتلويح والتصريح، أنه لا مجال للعقل في تحسين ولا تقبيح؛ وحينئذٍ فلا بد من نص شرعي تعتمد عليه، وتستند في مقدماتك إليه؛ ولا أقوى حجة، وأوضح محجة، من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي لاينطق عن الهوى إذا تكلم؛ فإذا استندت إلى نصوصه، واعتمدت عليه في عمومه وخصوصه، فقد حسن منك المقدم والتالي، وكانت مقدماتك في البحث أمضى من المرهفات ونتائجك أنفع من العوالي؛ وقد تحققت أني إمام هذا المقام، ومالك قياد هذا الزمام.

فقال " علم رواية الحديث " : لقد ذكرت من الصحيح المتفق عليه بما لا طعن فيه لمريب، وتعلقت من النبوة بأوثق سبب فأتيت بكل لفظ حسن ومعنى غريب؛ إلا أن الدراية، موقوفة على الرواية؛ وكيف يقع نظر الناظر في حديث قبل وصوله إليه، أو يتأتى العلم بمعناه قبل الوقوف عليه؟؛ وهل يثبت فرع على غير أصل في مقتضى القياس، أو يرقى من غير سلم أو يبنى على غير أساس؟؛ فعلى المحدث تقديم العلم بالرواية بشرطها، ومعرفة أقواله صلى الله عليه وسلم بالسماع المتصل وتحريرها وضبطها.

فقال " علم التفسير " : قد تبين لدى العلماء بالشريعة أن حكم الكتاب والسنة واحد، وإن اختلفت في الأسماء فلم تختلف في المقاصد؛ إلا أنهما وإن اتفقا في الدلالة والإرشاد، فقد اختص الكتاب في النقل بالتواتر وجاء أكثر السنة بالآحاد.

فقال " علم القرآت " : إلا أنه لا ينبغي للمفسر أن يقدم على التفسير ما لم يكن بقراءة السبع والشاذ عالماً،وبلغاتها عارفاً وللنظر في معانيها ملازماً؛ مع ما يلتحق بذلك من علم قوانين القراءة المتعلق من المصاحف بخطها، والأشكال والعلامات المتكفلة بتحريرها وضبطها.

فقال " علم النواميس " : " وهو العلم بمتعلقات النبوة " : إنك لفرع من فروع الكتاب المبين، وما نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين؛ وإلي النظر في أحوال النبوة وحقيقتها، ومسيس الحاجة إليها في بيان الشريعة وطريقتها، والفرق بين النبوة الحقة، والدعاوى الباطلة غير المحقة، ومعرفة المعجزات المختصة بالأنبياء والرسل عليهم السلام، والكرامات الصادرة عن الصديقين الأبرار والأولياء الكرام؛ فأنا المقدم على سائر العلوم الشرعية، وإمام الأصلية منها والفرعية.

فقال " العلم الإلهي " : لقد تحققت أن اللازم المحتم، والواجب تقديمه على كل مقدم، العلم بمعرفة الله تعالى والطريق الموصل إليها، وإثبات صفاته المقدسة وما يجب لها ويستحيل عليها، وأنه الواجب الوجود لذاته، وباعث الرسل لإقامة الحجة على خلقه بمحكم آياته؛ وأنا الزعيم بإقامة الأدلة على ذلك من المعقول والمنقول، والمتكفل بتصحيح مقدماته البرهانية بتحرير المقدم والتالي والموضوع والمحمول.

فقال " علم أصول الدين " : فحينئذٍ قد فزت من جمعكما بالشرفين، وجمع لي منكما الفضل بطرفيه فصرت بكما معلم الطرفين، وميزت بين صحيح الاعتقاد وفاسده فكان لي منهما أحسن الاختيارين، وبينت طريق الحق لسالكها فكنت سبباً للفوز والنجاة في الدارين؛ فأنا المقصود للإنسان بالذات في كمال ذاته، وكل علم يستمد مني في مبادئه ويفتقر إلي في مقدماته.

فقال " علم التصوف " : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، إذ كان كل امريء بما

عمل مجازى وبما كسب رهيناً؛ إنه يجب على كل من كان بمعتقد الحق جازماً، أن يكون عن دار الغرور متجافياً ولأعمال البر ملازماً؛ فإنما الدنيا مزرعة للآخرة، إن حصلت النجاة فتلك التجارة الرابحة وإن كانت الأخرى فتلك إذاً كرة خاسرة؛ فمن لزم طريقتي في الإعراض عن الدنيا والزهد فيها سلم، ومن اغتر بزخرفها الفاني فقد خاب في القيامة وندم.

فلما كثرت الدعاوى والمعارضات، وتتابعت الحجج والمناقضات، نهض " علم السياسة " قائما، وقصد حسم مادة الجدال وطالما، وقال: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، وسائسها الكافي وحاكمها المهذب؛ لقد ذكر كل منكم من فضله ما يشوق السامع، وأظهر من جليل قدره ما تنقطع دونه المطامع، وأتى من واضح كلامه بما لا يحتاج في إثباته إلى دليل ظني ولا برهان قاطع؛ غير أنه لايليق بالمنصف أن يتخطى قدره المحدود ولا يتعدى جزءه المقسوم، ولكل أحد حد يقف عنده وما منا إلا له مقام معلوم؛ فلو سلك كل منكم سبيل المعدلة، وأنصف من نفسه فوقف عند ما حد له، لكان به أليق، ولمقام العلم أرفق.

فقال " علم تدبير المنزل " : لقد تحريت الصواب، ونطقت بالحكمة وفصل الخطاب؛ لكنه لابد لكم من حبر عالم، وإمام حاكم، يكون لشملكم جامعاً، ولموقع الشك في محل التفاضل بينكم رافعاً، محيط من كل علم بمقصوده ومراده، عارف بما تشمل عليه مبادئه من حده وموضوعه وفائدته واستمداده، ليبلغ به من الفضل منتهاه، ويقف به من الشرف عند حد لا يتعداه؛ فلا يدعي مدع بغير مستحق، ولا يطالب طالب ما ليس له بحق؛ إلا أن المحيط بكلكم علماً، والقائم بجميعكم فهماً، أعز من الجوهر الفرد والكبريت الأحمر، وأقل وجوداً من بيض الأنوق بل بيض الأنوق في الوجدان أكثر.

فقال " علم الفراسة " : على الخبير سقطت، وبابن بجدتها حططت أنا بذلكم زعيم، وبمظنته عليم؛ فللعلم عرف ينم على صاحبه، وتلوح عليه بوارقه وإن أكنه بين جوانبه؛ فحامل المسك لا تخفى ريحه على غير ذي زكام، والنهار لا يخفى ضوءه على غير ذي بصر وإن تسترت شمسه بأذيال الغمام؛ ولقد تصفحت وجوه العلماء الكاملة، الذين طواياهم على أجمل العلوم منطوية وعلى تفاصيلها مشتملة، وسبرت

وقسمت، وتفرست وتوسمت، فلم أجد من يليق لهذا المقام، ويصلح لقطع الجدال والخصام، ويعرف بلغة كل علم فيجيب بلسانه، ويحكم فلا ينقض حكمه غيره لانحطاطه عن بلوغ مكانه، إلا البحر الزاخر، و " الفاضل " الذي لا يعلم لفضله أول ولا يدرك لمداه آخر؛ حبر الأمة، وعلامة الأئمة، وناصر السنة وحاميها، وقامع البدعة وقاميها، نجل شيخ الإسلام، وخلاصة غرر الأيام، جلال الدين، بقية المجتهدين، أبو الفضل عبد الرحمن البلقيني الشافعي، الناظر في الحكم العزيز بالديار المصرية، وسائر الممالك الإسلامية وما أضيف إلى ذلك من الوظائف الدينية، لا زالت فواضل الفضائل معروفة: فهو العالم الذي إذا قال لا يعارض، والحاكم الذي إذا حكم لا يناقض، والإمام الذي لا يتخلل اجتهاده خلل، والمناظر الذي ما حاول قطع خصم إلا كان لسانه أمضى من السيف أذى يقال: " سبق السيف العذل " :

إذا قال بذ القائلين ولم يدع ... لملتمس في القول جدا ولا هزل

إن تكلم في الفقه فكأنما بلسان " الشافعي " تكلم، و " الربيع " عنه يروي و " المزني " منه يتعلم، أو خاض في أصول الفقه، قال " الغزالي " : هذا هو الإمام باتفاق، وقطع السيف " الآمدي " بأنه المقدم في هذا الفن على الإطلاق، أو جرى في التفسير، قال " الواحدي " : هذا هو العالم الأوحد وأعطاه " ابن عطية " صفقة يده بأن مثله في التفسير لا يوجد، واعترف له " صاحب الكشاف " بالكشف عن الغوامض، وقال الإمام " فخر الدين " : " هذه مفاتيح الغيب و أسرار التنزيل " فارتفع الخلاف واندفع المعارض، أو أخذ في القراءات والرسم أزرى بأبي " عمرو الداني " ، وعدا شأو " الشاطبي " في " الرائية " وتقدمه في " حرز الأماني " ، أو تحدث في الحديث شهد له " السفيانان " بعلو الرتبة في الرواية، واعترف له " ابن معين " بالتبريز والتقدم في الدراية، وهتف " الخطيب البغدادي " بذكره على المنابر، وقال " ابن الصلاح " : لمثل هذه الفوائد تتعين الرحلة وفي تحصيلها تنفذ المحابر، أو أبدى في أصول الدين نظراً تعلق منه " أبو الحسن الأشعري " بأوفى زمام، وسد باب الكلام على المعتزلة حتى يقول " عمرو بن عبيد " و " واصل بن

عطاء " ليتنا لم نفتح باباً في الكلام، أو دقق النظر في المنطلق بهر " الأبهري " في مناظرته، وكتب " الكاتبي " على نفسه وثيقةً بالعجز عن مقاومته، أو ألم بالجدل رمى " الأموري " نفسه بين يديه، وجعل " العميدي " عمدته في آداب البحث عليه، أو بسط في اللغة لسانه اعترف له " ابن سيده " بالسيادة، وأقر بالعجز لديه " الجوهري " وجلس " ابن فارس " بين يديه مجلس الاستفادة، أو نحا إلى النحو والتصريف أربى فيه على " سيبويه " ، وصرف " الكسائي " له عزمه فسار من البعد إليه، أو وضع أنموذجاً في علوم البلاغة وقف عنده " الجرجاني " ، ولم يتعد حده " ابن أبي الاصبع " ولم يجاوز وضعه " الزماني " ، أو روى أشعار العرب أزرى ب " الأصمعي " في حفظه، وفاق " أبا عبيدة " في كثرة روايته وغزير لفظه، أو تعرض للعروض والقوافي استحقها على " الجليل " ، وقال " الأحفش " : عنه أخذت " المتدارك " واعترف " الجوهري " بأنه ليس له في هذا الفن مثيل، أو أصل في الطب أصلاً قال " ابن سينا " : هذا هو القانون المعتبر في الأصول، وأقسم " الرازي " بمحيي الموتى إن " بقراط " لو سمعه لما صنف " الفصول " ، أو جنح إلى غيره من العلوم الطبيعية فكأنما طبع عليه، أو جذب له ذلك العلم بزمام فانقاد إليه، أو سلك في علوم الهندسة طريقاً لقال " أوقليدس " : هذا هو الخط المستقيم، وأعرض " ابن الهيثم " عن حل الشكوك وولى وهو كظيم، وحمد " المؤتمن بن هود " عدم إكمال كتابه " الاستكمال " وقال: عرفت قدر نفسي: وفوق كل ذي علم عليم، أو عرج على علوم الهيئة لاعترف " أبو الريحان البيروني " أنه الأعجوبة النادرة، وقال " ابن أفلح " : هذا العالم قطب هذه الدائرة، أو صرف إلى علم الحساب نظرة لقال " السموأل بن يحيى " : لقد أحيا هذا الفن الدارس، ونادى " ابن مجلي الموصلي " : قد أنجلت عن هذا العلم غياهبه حتى لم يبق فيه عمه لعامة ولا غمة على ممارس.

وقد وجدت مكان القول ذا سعة ... فإن وجدت لساناً قائلاً فقل!

وكيف لا تلقي إليه العلوم مقاليدها، وتصل به الفضائل أسانيدها، وهو ابن شيخ الإسلام وإمامه، وواحد الدهر وعلامه، وجامع العلوم المنفرد، ومن حقق وجوده في أواخر الأعصار إن الزمان لا يخلو من مجتهد، ومن لم يزل موضوع

الأوضاع المعتبرة محمولاً ومن كان على رأس المائة الثامنة مضاهياً لعمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى؛ فالخناصر عليه وعلى ولده تقعد، ولا غرو إن قام منشدهما فانشد:

إن المائة الأولى على رأسها أتى ... لها عمر الثاني لذا الدين صائنه
ووالي رجال بعد ذاك كمثله ... فها عمر وافى على رأس ثامنه
يظاهره نجلاً سعيد غدت به ... معاقل علم في ذرا الحق أمانة
إذا شيخ الإسلام أضاء سراجه ... رأيت جلالاً من سنا الفضل قارنه!
فلا يعدم الإسلام جمع علاهما ... ولن يبرح للدين دأبا ميامنه!

فقال " علم الأخلاق " : أصبت سواء الثغرة وجئت بالرأي الأكمل، وعرفت من أين تؤكل الكتف فطبقت المفصل بالمفصل؛ إلا أن من محاسن الأخلاق، ومعالم الأرفاق، أن تعودوا بفضلكم، وترجعوا بمعروفكم وبركم، إلى من جرى بكم في التفاخر مجرى الإنصاف، وبسط لسان كلمه بما اشتمل عليه كل منكم من جميل الأوصاف؛ ثم كان من شأنه أن وصل بالاتفاق والتئام حبلكم، وجمع بالمحل الكريم بعد التباعد شملكم، وذكركم بحسن المصافاة أصل الوداد القديم، وتلا بلسان الألفة فيكم: " فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم " ، بأن ينتصب كل منكم له شفيع إلى هذا السيد الجليل، ويكون له وسيلة إلى هذا الإمام الحفيل، إن يصرف إليه وجه العناية، وينظر إليه بعين الإقبال والرعاية ليعز في الناس جانبه، ويطلع في أفق السعد بعد الأفول غاربه، ويبلغ من منتهى أمله ما له جهد، ويسعد بالنظر السعيد جده فقد قيل: " من وقع عليه نظر السعيد سعد " .

على أنه – أمتع الله الإسلام ببقائه وبقاء والده، وجمع بينهما في دار الكرامة كما جمع لهما بين طارف المجد وتالده – قد فتح له من الترقي أول باب، ولا شك أن نظرة منه إليه بعد ذلك ترقيه إلى السحاب.

قأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه ... وأول الغيث قطرة ثم ينسكب!

فقال " علم التاريخ " : اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وقروا عينا فإلى القصد الجليل وصلتم، وعلى غاية الأمل – ولله الحمد – حصلتم؛ فقد بلوت الأوائل

والأواخر وخبرت حال المتقدم والمعاصر، فلم أرى فيمن مضى وغبر، وشاع ذكره واشتهر في ذوي المراتب العلية، والمناصب السنية، من يساوي هذا السيد الجليل فضلاً! أو يدانيه في المعروف قولاً وفعلاً؛ قد لبس شرفاً لا تطمع الأيام في خلعه، ولا يتطلع الزمان إلى نزعه، فانتهى إليه المجد فوقف، وعرف الكرم مكانه فانحاز إليه وعطف، وحلت الراسة بفنائه فاستغنت به عن السوى، وأناخت السيادة بأفنائه فألقت عصاها واستقر بها النوى، فقصرت عنه خطاً من يجاريه وضاق عنه باع من يناويه، واجتمعت الألسن على تقريضه فمدح بكل لسان، وتوافقت القلوب على حبه فكان له بكل قلب مكان:

ولم يخل من إحسانه لفظ مخبر ... ولم يخلو من تقريضه بطن دفتر!

فهو الحري بأن يكتب بالأقلام الذهب جميل مناقبه، وأن يرقم على صفات الأيام حميد مطالبه، فلا يذهب على ممر الزمان ذكرها، ولا يزول على توالي الدهور فخرها.

ولما تم للعلوم هذا الاجتماع الذي قارن السعد جلاله، وتفجرت ينابيع الفضل خلاله، أقبلوا بوجوههم على الشعر معاتبين، وبما يلزمه من تقريض هذا الحبر ومدحه مطالبين، وقالوا: قد أتى النثر من مدحه بقدر طاقته، وإن لم يوف بجليل قدره ورفيع مكانته، فلا بد من أن تختم هذه الرسالة بأبيات بالمقام لائقة، ولما نحن فيه من القضية الواقعة مطابقة، قائمة من مدحه بالواجب، سالكة من ذلك أحسن المسالك وأجمل المذاهب، لتكمل هذه الرسالة نظماً ونثراً، وتفتن في صناعة الأدب خطابة وشعراً، فقال سمعاً وطاعة، واستكانة وضراعة؛ ثم لم يلبث إن قام عجلاً، وأنشد مرتجلاً:

بشراكم معاشر العلوم أن ... جمعتم بصر حبر كامل!
فنونه لم تجتمع لعالم ... وفضله لم يكتمل لفضائل!
يشفي الصدور إن غدا مناظراً ... وبحثه فزينة المحافل!
كم عمرت دروسه من دارس ... وزينت بحليها من عاطل!
وأوضحت أقواله من مشكل ... لما أتى بأوضح الدلائل!
وكم غدت أراؤه حميدة ... ونبهت بجدها من خامل.

وحكمه فكم أقال عثرة ... وجوده ففوق قصد الأمل!
هذا: وقد فاق الورى رأسه ... محفوفة بألطف الشمائل!
من ذا يروم أن ينال شأوه؟ ... أنى له بأمثل الأمائل!
مولى على فوق السماك رتبة ... قد زينت بأفضل الفواضل!
فما له في فضله من مشبه، ... وما لبحر جوده من ساحل!
حاشى لراج فضله أن ينثني ... صفر اليدين أو ممنى الآجل!

قلت ولم أرى من تعرضللمفاخرة بين العلوم سوى القاضي الرشيد أبو الحسين بن الزبير في مقالته المقدم ذكرها؛ على أنها لم تكن جارية على هذا النمط، ولا مرتبة على هذا الترتيب، مع الاقتصار فيها على علوم قليلة، أشار إلى المفاضلة بينها على ما تقدم ذكره. ولكن الله تعالى قد هدى بفضله إلى وجوه الترجيح التي يرجح بها كل علم على خصمه، ويفلج به على غيره؛ والمنصف يعرف لذلك حقه. والذي أعانني على ذلك جلاله قدر من صنفت له وعلو رتبته، واتساع فضله، وكثرة علومه، وتعداد فنونه، إذ صفات الممدوح تهدي المادح وترشده.

ومنها المفاخرة بين السيف والقلم؛ وقد أكثر الناس منها: فمن عال وهابط، وصاعد وساقط.

وهذه رسالة في المفاخرة بين السيف والقلم،أنشأتها للمقر الزيني أبي يزيد الدوادار الظاهري، في شهور سنة أربعة وتسعين وسبعمائة، وسميتها: " حلية الفضل وزينة الكرم، في المفاخرة بين السيف والقلم " ؛ وهي: الحمد لله الذي عز السيف وشرف القلم، وأفردهما برتب العلياء فقرن لهما بين المجد والكرم، وسارى بينهما في القسمة فهذا للحكم وهذا للحكم.

أحمده على أن جمع بخير أمير بعد التفرق شملهما، ووصل بأعز مليك بعد التقاطع حبلهما، وأرغب إليه بشكر يكاثر النجوم في عديدها، ويكون للنعمة على ممر الزمان أبا يزيدها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يأتم الإخلاص بمذهبها، ولا ينجو من سيفها إلا من أجاب داعيها وأقربها، وأن محمداً عبده ورسوله الذي خص بأشرف المناقب وأفضل المآثر، واستأثر بالسؤدد في الدارين

فحاز أفخر المعالي ونال أعلى المفاخر، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قامت بنصرتهم دولة الإسلام فسمت بهم على سائر الدول، وكرعت في دماء الكفر سيوفهم فعادت بخلوق النصر لا بحمرة الخجل، صلاة ينقضي دون انقضائها تعاقب الأيام، وتكل ألسنة الأقلام عن وصفها ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام.

وبعد، فأنه ما تقارب اثنان في الرتبة إلا تحاسدا، ولا اجتمعاً في مقام رفعة إلا ازدحما على المجد وتواردا، ورام كل منهما أن يكون هو الفائز بالقدح المعلى، وأن يكون مفرقة هو المتوج وجيده وهو المحلى، وأدعى كل منهما أن جواده هو السابق في حلبة السباق، والفائز بقصب السبق بالاتفاق، وأن نجمه هو الطالع الذي لا يأفل، وسؤدده هو الحاكم الذي لا يعزل، وأن المسك دون عبيره، والبحر لايجيء نقطة في غديره، والدار لا يصلح له صدفاً، ونفيس الجوهر لا يعادله شرفاً، وأن منابر المعالي موقوفة على قدمه، ومجامر المفاخر فائحة بنشر كرمه. ولما كان السيف والقلم قد تدانيا في المجد وتقاربا، وأخذا بطرفي الشرف وتجاذبا؛ إذ كانا قطبين تدور عليهما دوائر الكمال، وسعدين يجتمعان في دائرة الاعتدال، ونجمين يهديان إلى المعالي، ومصباحين يستضاء بهما في حنادس الليالي، وقاعدتين تبنى الدول على أركانهما، وشجرتين يجتنى العز من أغصانهما؛ جر كل منهما ثوب الخيلاء فخراً فمشى ويبختر، وأسبل رداء العجب تيها فما تخبل ولا تعثر، واتسع لم المجال في الدعوى فجال، وطاوعته يد المقال فقال وطال، وترقت إليهما عقارب الشحناء ودبت، وتوقدت بينهما نار المنافسة وشبت، وأظهر كل منهما ما كان يخفيه فكتب وأملى، وباح بما يكنه صدره والمؤمن لا يكون حبلى؛ وبدأ القلم فتكلم، ومضى في الكلام بصدق عزم فما توقف ولا تلعثم، فقال: باسم الله تعالى استفتح، وبحمده أتيمن وأستنجح؛ إذ من شأني الكتابة، ومن فني الخطابة؛ وكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله تعالى فهو أجذم، وكل كلام لا يفتتح بحمده فأساسه غير محكم ورداؤه غير معلم؛ والعاقل من أتى الأمر من فصه، وأخذ الحديث بنصه؛ والحق أحق أن يتبع، والباطل أجدر أن يترك فلا يصغى إليه ولا يستمع؛ إني لأول مخلوق بالنص الثابت والحجة القاطعة، والمستحق لفضل السبق

من غير منازعة؛ أقسم الله تعالى بي في كتابه، وشرفني بالذكر في كلامه لرسوله وخطابه، فقال جل من قائل:ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون " ، وقال جلت قدرته: " إقرأ و ربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم " ، فكان لي من الفضل وافر القسمة، وخصصت بكمال المعرفة فجمعت شوارد العلوم وكنت قيم الحكمة

فقال السيف: بسم الله والله أكبر: " نصر من الله وفتح قريب " . لكل باغ مصرع، وللصائل بالعدوان مهلك لا ينجو منه ولا ينجع؛ وفاتح باب الشر يغلق به، وقادح زند الحرب يحرق بلهبه؛ أقول بموجب استدلالك، وأوجب الاعتراض عليك في مقالك: نعم أقسم الله تعالى بالقلم ولست بذلك، وكان أول مخلوق ولست المعني بما هنالك؛ إن ذلك لمعنى يكل فهمك عن إدراكه، ويضل نجمك أن يسري في أفلاكه؛ وأنت وإن ذكرت في التنزيل، وتمسكت في الامتنان بك في قوله: " علم بالقلم " بشبهة التفضيل؛ فقد حرم الله تعالى تعلم خطك على رسوله، وحرمك من مس أنامله الشريفة ما يؤسىعلى فوته ويسر بحصوله، لكني قد نلت في هذه الرتبة أسنى المقاصد، فشهدت معه من الوقائع ما لم تشاهد، وحلاني من كفه شرفاً لا يزول حليه أبداً، وقمت بنصره في كل معترك: وسل حنيناً وسل بدراً وسل أحداً؛ ذكر الله تعالى في القرآن الكريم جنسي الذي أنا نوعه الأكبر، ونبه على ما فيه من المنافع التي هي من نفعك أعم وأشهر، وما اجتمع فيه من عظيمي الشدة والبأس، فقال تقدست عظمته: " وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس " . على أنك لو اعتبرت جنسي القصب والحديد، وعرفت الكليل منهما والجليد، لتحققت تسلط الحديد عليك قطاً وبرياً، وتحكمه فيك أمراً ونهياً.

فقال القلم: فررت من الشريعة وعدلها، وعولت على الطبيعة وجهلها، فافتخرت بحيفك وعدوانك، واعتمدت في الفضل على تعديك وطغيانك، فملت إلى الظلم الذي هو إليك أقرب، وغلب عليك طبعك في الجور: و " الطبع أغلب " ؛ فلا فتنة إلا وأنت أساسها، ولا غارة إلا وأنت رأسها، ولا شر إلا وأنت فاتح بابه، ولا حرب إلا وأنت واصل أسبابه؛ تؤكد مواقع الجفاء، وتكدر أوقات الصفاء، وتؤثر القساوة،

وتؤثر العداوة؛ أما أنا فالحق مذهبي، والصدق مركبي، والعدل شيمتي، وحلية الفضل زينتي؛ إن حكمت أقسطت، وإن استحفظت حفظت وما فرطت؛ لا أفشي سراً يريد صاحبه كتمه، ولا أكتم علماً يبتغي متعلمه علمه؛ مع عموم الحاجة إلي، والافتقار إلى علمي والاكتساب مما لدي؛ أدير في القرطاس كاسات خمري فأزري بالمزامير وأزهرأ بالمزاهر، وأنفث فيه سحر بياني فألعب بالألباب وأستجلب الخواطر، وأنفذ جيوش سطوري على بعد فأهزم العساكر:

فلكم يفل الجيش وهو عرموم ... والبيض ما سلت من الأعماد!

فقال السيف: أطلت الغيبة، وجئت بالخيبة، وسكت ألفاً، ونطقت خلفاً.

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

إن نجادي لحلية للعواتق، ومصاحبتي آمنة من البوائق؛ ما تقلدني عاتق إلا بات عزيزاً، ولا توسدني ساعد إلا كنت له حرزاً حريزاً؛ أمري المطاع وقولي المستمع، ورأيي المصوب وحكمي المتبع؛ لم أزل للنصر مفتاحاً، وللظلام مصباحاً، وللعز قائداً، وللعداة ذائداً؛ فأنى لك بمساجلتي، ومقاومتي في الفخر ومنافرتي؟؛ مع عري " جسمك " ونحافة بدنك، وإسراع تلافك وقصر زمنك، وبخس أثمانك على بعد وطنك، وما أنت عليه من جرى دمعك، وضيق ذرعك، وتفرق جمعك، وقصر باعك، وقلة اتباعك.

فقال القلم: مهلاً أيها المساجل، وعلى رسلك أيها المغالب والمناضل؛ لقد أفحشت مقالاً، ونمقت محالاً، فغادرتك سبل الإصابة، وخرجت عن جادت الإنابة، وسؤت سمعاً فأسأت جابة؛ إني لمبارك الطلعة وسيمها، شريف النفس كريمها، آخذ بالفضائل من جميع جهاتها، مستوف للممادح بسائر صفاتها؛ فطائري ميمون، وغولي مأمون، وعطائي غير ممنون؛ أصل وتقطع، وأعطي وتمنع، وتفرق وأجمع؛ وإن ازدراءك بي من الكبر المنهي عنه، وغضك عني من العجب المستعاذ منه؛ ومن حقر شيئاً قتله، ومن استهان بفضائل فضله؛ وإني وإن صغر جرمي فإني لكبير الفعال، وإن نحف بدني فإني لشديد البأس عند النزال؛ وإن عري جسمي فكم كسوت عارياً، وإن جرى دمعي فكم أرويت ظامياً، وإن ضاق ذرعي فإني بسعة المجال مشهور، وإن قصر باعي فكم أطلقت أسيراً وأنا في

سجن الدواة مأسور؛ إذا امتطيت طرسي، وتدرعت نقسي، وتقلدت خمسي، وجاشت على الأعداء نفسي:

رأيت جليلاً شأنه وهو مرهف ... ضنى وسمينا خطبه وهو ناحل!

أنسيت إذ أنت في المعدن تراب تدامس بالأقدام؟ وتنسفك الرياح وتزري بك الأيام؟ ثم صرت إلى القين تقعد لك السنادين بالمراصد، وتدمغك المقامع وتسطو بك المبارد؛ ثم لولا صقالك لأذهبك الجرب وأكلك الصدى، مع قلة صبرك على المطر والندى.

فقال السيف: إنا لله! لقد استأسدت الثعالب، واستنسرت البغاث فعد العصفور نفسه من طير الواجب، وجاء الغراب إلى البازي يهدده، ورجع ابن أوى على الأسد يشرده؛ فلو عرفت قدر نفسك، ولزمت في السكينة طريق أبناء جنسك ووقفت عند ما حد لك، وذكرت عجزك وكسلك، لكان أجدر بك وأحمد لعاقبتك وأليق بأدبك.

إن الملوك لتعدني لمهماتها، وتستنجد بي في ملماتها وتتعالى في نسبي، وتتغالى في حسبي، وتتنافس في قنيتي وتتحاسد، وتجعلني عرضة لأيمانها فتتعاقد بالحلف علي وتتعاهد، وتتدخرني في خزائنها ادخار الأعلاق وتعدني أنفس ذخائرها على الإطلاق، فتكللني الجواهر، وتحلني العقود وأظهر في أحسن المظاهر؛ أبرز للشجعان خدي الأسيل فأنسيهم الخدود ذوات السوالف، وأزهو بقدي فأسلبهم هيف القدود مع لين المعاطف، وأوهم الظمآن من قرب أن بأنهاري ماء يسيل، وأخيل للمقرور من بعد أني جذوة نار فيطلبني على المدى الطويل؛ ويخالني متوقع الغيث برقاً لامعاً، و يظنني الجائز في الشرق نجماً طالعاً؛ فالشمس من شعاعي في خجل، و الليل من ضوئي في وجل، و ما أسرعت في طلب ثأر إلا قيل: " فات ما ذبح " و " سبق السيف العذل " .

فقال القلم: برق لمن لا عرفك، وروج على غير الجوهري صدفك؛ فما أنت من بزي ولا عطري، ولست بمساوٍ حدك القاطع بقلامة ظفري؛ إن برقك لخلب، وإن ريحك لأزيب، وإن ماءك لجامد، وإن نارك لخامد؛ ومن ادعى ما ليس له فقد باء بالفجور، ومن تشيع بما لم يعط فهو كلابس ثوب زور.

ومن قال: إن النجم أكبرها السهى ... بغير دليل كذبته ذكاء!

أنا جذيلها المحكك، و عذيقها المرجب، و كريمها المبجل و عالمها المهذب؛يختلف حالي في الأفعال السنية باختلاف الأعراض،و أمشي مع المقاصد الشريفة بحسب الأغراض،وأتزيا بكل زي جميل،فأنزل في كل حي وأسير في كل قبيل؛ فتارة أرى إماماً عالماً و تارة لدر الكلام ناثراً و أخرى لعقود الشعر ناظماً، و طوراً تلفيني جواداً سابقاً،و مرة تجدني رمحاً طاعناً و سهماً راشقاً،و آونةً تخالني نجماً مشرقاً، و حيناً تحسبني أفعواناً مطرقاً؛ قد فقت الشبابة في الطرب، و برزت عليها في كل معنى و إن جمع بيننا جنس القصب؛ فكانت للأغاني، و كنت للمعاني،و جاءت بغريب النغم، وجئت ببديع الحكم، و لعبت بالأسماع طرباً، وولعت بالألباب فأتخذت لدهرها مما عراها عجباً.

فقال السيف:ذكرتني الطعن و كنت ناسياً، وطلبت التكثر فازددت قلة وعدت خاسياً، فكنت كطالب الصيد في عرسة الأسد إن لقيته أهلكه،وخالفت النص فألقيت بيديك إلى التهلكة؛ فاقنع من الغنيمة بالإياب،وعد الهزيمة مع السلامة من أربح الأكساب؛ فلست ممن يشق غباري،ولا يقابل في الهيجاء ضرمي ولا يصطلني بناري؛ فكم من بطل أبطلت حراكه،وكم من شجاع عجلت هلاكه، وكم صنديد أرقت دمه، وكم ثابت الجأش زلزت قدمه.

وأراد القلم أن يأخذ في الكلام، ويرجع إلى الجدال والخصام، فغلب عليه رقة طبعه وحسن موارده،وسلاسة قيادة وجميل مقاصده، فمال إلى الصلح وجنح إلى السلم،وأعرض عن الجهل وتمسك بالحلم، وأقبل على السيف بقلب صاف، ولسان رطب غير جاف، فقال:قد طالت بيننا المجادلة،وكثرت المراجعة والمقاولة،مع ما بيننا من قرابة الشرف،وأخذ كل منا من الفضل بطرف؛ فنحن في الكرم شقيقان، وفي المجد رفيقان؛ لايستقل أحدنا بنفسه، ولا يأنس بغير صاحبه وإن كان من غير جنسه؛ وقد حلبت الدهر أشطره،وعلمت أصفاه وأكدره، وقلبته ظهراً وبطناً،وجبت فيافيه سهلاً وحزناً؛ وإن معاداة الرفيق، ومباينة الشقيق، توجب شماتة العدو وتغم الصديق؛ فهل لك أن تعقد للصلح عقداً لا يتعدى حده، ولا يحل على طول الزمان عقده؟ لنكون أبداً متآلفين، وعلى السراء والضراء متصاحبين،حتى لا يضرب

بنديمي جذيمة مع اصطحابنا مثل،ولا يتشبه بنا الفرقدان إلا باءا بالخطل.
ولست بمستبق أخاً لا تلمه ... على شعث، أي الرجال المهذب

فقال السيف:لقد رأيت صواباً، ورفعت عن وجه المحجة نقاباً، وسريت أحسن مسرى وسرت أجمل سير، وصحبك التوفيق فأشرت بالصلح:والصلح خير.
وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا!
ثم قالا: لا بد من حكم يكون الصلح على يديه،وحاكم نرجع في ذلك إليه، لنحظى بزيادة الشرف، ونظفر من كمال الرفعة بغرف من فوقها غرف؛ ولسنا بفائزين بطلبتنا، وظافرين ببغيتنا،إلا لدى السيد الأكمل، والمالك الأفضل، الماجد السري، والبطل الكمي، والبحر الخضم، والغيث الأعم، مولى المعالي ومولي النعم،وممتطي جواد العز ورافع أعلام الكرم، جامع أشتات الفضائل ومالك زمامها، وضابط أمر الدولة الظاهرية وحافظ نظامها، المقر الكريم، العالي، المولوي، الزيني، أبي يزيد الدوادار الظاهري: ضاعف الله تعالى حسناته المتكاثرة، وزاده رفعة في الدارين ليجمع له الارتقاء بين منازل الدنيا والآخرة؛ فهوقطب المملكة الذي عليه تدور، وفارسها الأروع وأسدها الهصور، وبطلها السميدع وليثها الشهير، أبو عذرتها حقاً من غير نكرٍ وابن بجدتها الساقطة منه على الخبير، ومعقلها الأمنع وحرزها الحصين، وعقدها الأنفس وجوهرها الثمين، وتلادها العليم بأحوالها، والجدير بمعرفة أقوالها وأفعالها، وترجمانها المتكلم بلسانها، وعالمها المتفنن في أفنانها، وطبيبها العارف بطبها، ومنجدها الكاشف لكربها.
هذا: وإنه لمالك أمرنا، ورافع قدرنا، والصائل منا بالحدين، والجامع منا بين الضدين؛ فلو لقيه " فارس عبس " لولى عابساً،أو طرق حمى " كليب " لبات من حماه آيسا، أو قارعه " ربيعة بن مكدم " لعلا بالسيف مفرقه أو نازله " بسطام " لبدد جمعه وفرقه؛ كما أنه لو قرن خطه بنفس الجوهر لعلاه قيمة، أو قاسمه " ابن مقلة " في الكتابة لما رضي أن يكون قسيمه،أو فاخره " ابن هلال " لرأى انه سبقه إلى كل كريمة.

وبالجملة فعزه الظاهر وفضله الأكمل، وسماكه الرامح وسماك غيره الأعزل؛ فلا يسمح الزمان أن يأتي له بنظير، ولا أراد مدع بلوغ شأوه إلا قيل: اتئد فلقد حاولت الانتهاض بجناح كسير:

فحيهلاً بالمكرمات وبالعلى ... وحيهلاً بالفضل والسودد والمخض

فالحمد لله الذي جمعنا بأكرم محل وأفضل، وأحسن مقام وأجمل؛ فهلم إليه يعقد بيننا عقد الصلح، ونبايعه على ملازمة الخدمة والنصح.

ثم لم يلبثا أن كتبا بينهما كتاب بالصلح والمصافاة، وتعاهدا على الود والموافاة، وأعلن بعقد الصلح مناديهما، وحدا بذكر التعاضد والتناصر حاديهما وراح ينشد:

حسم الصلح ما اشهته الأعادي ... وأذاعته ألسن والحساد !

وزالت عنهما الأحقاد والإحن، وباتا في أعز مكان وأشرف وطن، وثلث قرانهما فأسعد، ثم قام منشدهما فأنشد:

لا ينكر الصلح بين السيف والقلم ... فعاقد الصلح عالي القدر والهمم!
أبو يزيد نظام الملك مالكنا ... وواصل العلم في علياه بالعلم.
فهو المراد بما أبديه من مدح ... وغاية القصد من ترتيب ذا الكلم!
وإن جرى مدح سيف أو علا قلم، ... فذاك وصف لما قد حاز من كرم!

قلت: وسبب إنشائي لهذه الرسالة أن الأمير أبا يزيد الموضوعة له، تغمده الله تعالى بالرحمة والرضوان، كان من جودة الخط وتحرير قواعده في الطبقة العليا، وعظمت مكانته عند سلطانه الملك الظاهر " برقوق " وعلت رتبته حتى ولاه وظيفة الدوادارية بإمرة تقدمة ألف، ولم يزل مقدماً عنده حتى مات هو متوليها، وأولاني عند عملها له من الصلة والبر المتوالي ما يقصر عنه الوصف، ويكل عنه اللسان.

الصنف الرابع من الرسائل الأسئلة والأجوبة وهي على ضربين:

الضرب الأول الأسئلة الأمتحانية

قد جرت عادة مشايخ الأدب وفضلاء الكتاب أنهم يكتبون إلى الأفاضل بالمسائل يسألون عنها: إما على سبيل الاستفهام واستماحة ما عند المكتوب إليه في ذلك، وأما على سبيل الامتحان والتعجيز. ثم تارة يجاب عن تلك الأسئلة بالأجوبة فتكتب، وتارة لا يجاب عنها، بحسب ما تقتضيه الحال.

وهذه رسالة كتبها الشيخ جمال الدين بن نباتة المصري إلى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي صاحب ديوان الإنشاء بالمملكة الشامية، وقد بلغه أن بعض أهل الديوان نال منه، وأن الشيخ شهاب الدين المذكور ناضل عنه ودافع، فكتب إليه يشكره على ذلك ويسأل كتاب الديوان عن أسئلةٍ بعضها يرجع إلى صنعة الإنشاء، وأكثرها يرجع إلى فن التاريخ. وقد بينت بعضها ونبهت عليه في مواضيعه في خلال هذا الكتاب، وهي:

لا يخرج الكره مني غير نائبة ... ولا ألين لمن لا يبتغي ليني!

الاستفتاح ب " لا " تيمن ببركة الشهادة، وهي ههنا مقراض يقطع من العيب المدة ويحسم المادة؛ فحسم الله عن سيدنا الإمام العلامة القدوة، شهاب الدين، مكمل الآداب، وملك الشعراء والكتاب، شر كل عين حاسدٍ ولو أنها عين الشمس، وحماه عن مد ألسنة ذوي الاغتياب والارتياب من الهمج والهمس، وهيأ له أسباب الخير حتى يكون يومه فيه مقصراً عن الغد زائداً على الأمس، واستخدام له الأقدار حتى تكون فرائض تقبيل أنامله العشر عندهم كفرائض الخمس، وجعل ما يرد عنه العين من العيب – بعد شأنه عن متناول – وقاية عن اللمس، حتى يكون المعنى بقول القائل:

ولا عيب فيه غير أن علاءه ... إذا حددوه كان قد جاوز الحدا
ولا عيب أيضاً في مآثر بيته ... سوى أنها يروي بألسنة الأعدا؟!

وحتى يؤمن عليه القائل:

ما كان أحوج ذا الكمال إلى ... عيب يوقيه من العين!

ويقبل من الآخر قوله:

شخص الأنام إلى كمالك فاستعذ ... من شر أعينهم بعيب واحد!

العبد يخدم بسلام ما روضة نقطها الجو بدر سحائبه، وأفرغ عليها الأفق سفط كواكبه، وامتد نوء الذراع لتدبيج سمائها، وتأريج أرجائها، وتخميش معاصم أنهارها المنشقة بأفنائها، وصقال نسماتها السحرية، ومغازلة عيونها السحرية، وهوان الغالية بنفحاتها الشجرية، تصرف دنانير أزهارها الصروف، ويسل جدولهاعلى الهموم السيوف، وتجذب حمائمها القلوب بالأطواق، ويتشفع دوحها إلى النواظر بالأوراق؛ قد ترقرق في وجناتها ماء الشباب، وغني مطرب حمامها وعنترة في حك من الذباب، وبحرها رونق السيف وفي قلب روضته الذباب.

فما كل أرض مثل أرض هي الحمى ... وما كل نبت مثل نبت هو البان!

يوماً بأبهج منه أشواقاً، وأطيب منه انشقاقاً واتساقاً، والطيبون للطيبات، ولكل غيث نبات، وما لذلك الغيث إلا هذا النبات.

ونعود فنقول: لا أدري أتعجب:

على أنها الأيام قد صرن كلها ... عجائب حتى ليس فيها عجائب!!

من قوم هم ما هم: شرب مناسب، وطيب مكاسب، قد أمكنتهم المعالي، وطاوعتهم الأيام والليالي، وخدمتهم جواري السعود وتطامنت لكل منهم مراقي الصعود، كابر بسكون الجأش منحدر(؟) وكنت قد استجديت كلاً منهم ولكن بالكلام، واستسقيت ولكن قطرة من غمام الأقلام:

وأيسر ما يعطي الصديق صديقه ... من الهين الموجود أن يتكلما!

" وليسعد النطق إن لم يسعد الحال " فضن وضن ما ضن، واستعطف بنسيم الكلام غصن يرعاه فما عطف ولا حن، وبخل بما رزقه الله فإن الفضيلة من الرزق، وحرمني لذة ألفاظه التي إذا أدخلت في رق دخل حر البلاغة تحت ذلك الرق؛ وهل هو البحر فكيف شح بمدة من مده، والغيث ولا أقول: إن الذي حبسه إلا ما قسمه الله تعالى من الحظ عند عبده:

وإذا الزمان جفاك وهو أبو الورى ... طرا فلا تعتب على أولاده!

فأعلى الله كلمة سيدنا العلامة في الدارين، وشكر غني جود كرمه وكلمه الدارين؛ " فهو " صاحب ديوانهم، وحجة زمانهم؛ فلقد وصفني بما يزيد على الجواب، و شافهني من الشكر بما لا يتوارى من الرزق بحجاب، وأمنني العز والزمان حرب، ونصرني والأيام سيوف تتنوع من الضرب في كل ضرب، وأعطاني كرمه والمحل محل، وفي قلب الزمان دخل، ونحلني شهدة إحسانه والأوقات كإبر النحل، حتى عذرني في حبه من كان من اللائمين، واهتديت من لفظه وفضله بقمرين لا يميل أحدهما ولا يمين، وصلت من جاهه وماله بيدين إلا أن كلتيهما في الإعراض يمين.

ويلومني في حب علوة نسوة ... جعل الإله خدودهن نعالها!

وحرس الله سيدنا شهاب زمانهم، كما حرس به سماء ديوانهم؛ فلقد أسمعني من الشكر ما أربى على الأرب، وجعلني كحاجب حين دخل على كسرى وهو واحد من العرب خرج وهو سيد العرب، وهدتني أنواره وأنا أخبط من ليل القريحة في عشواء، وجادت على أنواؤه وناهيك بتلك الأنوار من الأنواء، ورفعتني ألفاظه ولكن على السماك برغم حسودي العواء؛ وهذه قصائده في تتدارسها ألسنة الأقلام، وتكتب بأنقاس الليالي على صفحات الأيام؛ من كل بيت هو بيت مال لا ينقصه الإنفاق، ولولا التقى لقلت: إنه البيت الذي أمر الله تعالى بحجة الرفاق من الآفاق؛ فمتى أتفرغ لطلب مدحه، وقد شغلني بمنحه؟ ومتى أجاريه بامتداح وإنما مدحي له من فوائد مدحه:

وما هو إلا من نداه وإنما ... معالية تمليني الذي أنا كاتبه!

أم أتعجب ممن ثنيت عنان الثناء إليه، وجلوت عرائس المدائح عليه وعاديت في تنضيد أوصافه الكرى، وأنضيت بالقلم له في نهار الطرس وليل النقس من السير والسرى، ومدحته بملء في اجتهدت في وصفه وكان سواء على أن أجهدت، في وصفه أو اجتهدت، فجازاني مجازاة السنمار، وأوقعني من عنت عتبه في النار، وجعل محاسني التي أدلي بها ذنوباً فكيف يكون الاعتذار؟:

وكان كذئب السوء إذ قال مرةً ... لعمروسة والذئب غرثان مرمل:

أأنت التي من غير سوء شتمتى؟ ... فقالت: متى ذا؟ قال: ذا علم أوّل
فقالت: ولدت الآن بل رمت غدوة ... فدونك كلني لا هنالك مأكل!

وحل هذا المترجم، وتحقيق هذا الظن المرجم، أنه بلغني أن جماعة من الذين استفتيتهم استنباطاً لفوائدهم، والتقاطاً لفرائدهم، لا تكليفاً لهم فيما لا يقوم به إلا الأقوى من الأقوام، ولا يستنجد به في هذا الوقت إلا بأرباب صفحات السيوف لا أرباب قصبات الأقلام، أرادوا الغض مني، ونفي الإحسان عني؛ وهيهات! أنا أبو النجم وشعري شعري هأنا وبضاعتي، وهذه يدي لا أني ألقيت بها السلم ولكن لأعرض صناعتي: هو الحمى ومغانيه وإنهم اجتمعوا بالميدان على حديثي، وذكروا قديمي وحديثي،وتسابقوا في الغيبة أفراس رهان، واعجب كلا منهم أن يقول: هذه الشقراء في يدي وهذا الميدان؛ ولاموا وعذلوا، وهموا بالسب وفعلوا،واستطابوا لحم أخيهم فسلقوه بألسنة حداد وأكلوا، حتى تعدى ذلك إلى من جاد علي بالجواب، وفعله إما جزاء للمدح وإما للثواب:

فقلت لها عيثي جعار وجرري ... بلحم امريء لم يشهد اليوم ناصره!

وما كان المليح أن يغري بي من سبق مدحه إلي، ومن انتصر بعزه لنفسه فما انتصر لدي " وهذا لعمري جهد من لا له جهد " وما تخلوا هذه الأفعال: إما أن تكون مجازة على مدحه،فأين الكرام وفضلهم، والمنصفون وعدلهم؟ أو ضناً أني عرضت بهم فيمن عرضت، فأين ذكاء الألباء وأين عقله؟ وهل تضن السماء أن يدأ تصل إليها، والنجوم أن خلقاً تحكم عليها؟ والذهب محروس لا يصدى جرمه، والجوهر معروف لا يجهل حكمه؛ ومن الذي تحدثه نفسه أن يجحد الشمس فضلها الطائل، أو يحسن له عقله أن يقول: سبحان وائل كباقل ؟؛ " فقلت " أدركني ذلك اليوم ولما أمزق، وأنجدني بكل لفظة هي أمضى من السهم وأرشق، وأضوء من النجم وأشرق؛ وما أعرف كيف صبري على هذا الحرب في صورة السلم؟ وما أضنه أراد إلا أن يعلم قلبي الذي في يده الحكم، كما علمه القلم؛ وحيث قضى الحديث ما قضى، ومضى الوقت وما كان إلا سيفاً في عرض العبد مضى:

فكرت تبتغيه فصادفته ... على دمه ومصرعه السباعا

فأنا أنشد الله تعالى هؤلاء السادة الغائبين، أو القوم العاتبين، هل يعرفون أن الذي عرضت به منهم قوم قد استولى عليهم العي بجريضه، ونزل فيهم الجهاد بقضه وقضيضه ،وأصبح بابهم لهم كبستان بلاثمار، وديوانهم على رأي أبي العلاء كديوان أبي مهيار؛ لا يحسن أحدهم في الكتابة غير العمامة المدرجو،والعذابة المعوجة، والعباءة الضيقة والأثواب المفرجة، ويتناول السلم باليمين وكتابه إن شاء الله تعالى بالشمال،ومشى هذا على هذا ولكن على الضلال؛ لو سئل أحدهم عن " البديع " في الكتابة لم يعرف من السؤال غير الترديد،وعن " عبد الحميد " لزاد في الفكر ونقص: وعبد الحميد عبد الحميد،و " الصاحب " لقال: إنه تبرقع بمجلسي، و " الخوارزمي " لقال: سرج فرسي ،و " الفاضل " لقال: ها هوذا ذيل ملبسي. فأن كان الأمر كذلك ففيم الملام والتنفيذ:

علقوا اللحم للبزا ... ة على ذروتي حضن
ثم لاموا البزاة أن ... قطعت نحوها الرسن
لو أرادوا صيانتي ... حجبوا وجهك الحسن!

الوجه الحسن ههنا وجه المنصب وحجابه عن شين تلك الآثار،وتخميش تلك الألفاظ.

وإن كان غير ذلك فما مثلي مع من ذكرني إلا قول القائل: سافر بطرفك حيث شئت فلن ترى إلا بخيلا! فقيل له: بخلت الناس، فقال: كذبوني بواحد. وهأنا فلتكذبوني بواحد ممن عرضت، وصحيح ممن أمرضت، وليبرز إلى مضجعة، وليكن على يقين من مصرعه؛ ولا يترك شيئاً من أدواته، ولا يأتي إلا ومعه نادبته من حمائم همزاته.

وأنا أقترح عليه من مسائل الكتابة بعض ما اقترحه الفضلاء، ونبه عليه العلماء؛ وإلا فما أنا أبو عذرته، ومالك إمرته، ولا يلوم إلا القائل:

من تحلى بغير ما هو فيه ... فضحته شواهد الإمتحان!

فإنه الذي نبتهي عليه وإن لم أكن ساهياً، وذكرني الطعن وما كنت ناسياً، حتى رميته من هذه المسائل، في مجاهل، لا يهتدي فيها بغير الذهن الواقد، واقتحمت به في بحار لا يعصم منها جبل الفكر الجامد؛ على أنها فيما أغفلت كالثمد من البحار،

واللمحة من النهار، ولولا الاختصار، لأتيت منها بالجمع الجم فلنحمد الله والاختصار، فأقول: من كتب الورق واستنبطه؟ ومن ختم الكتاب بالطين وربطه؟ ومن غير طين الكتاب بالنشأ وضبطه؟ ومن قال: أما بعد في كتابه؟ ومن جعلها في الخطب وأسقطها في ابتدائته في المكاتبة وجوابه؟ ومن كره الاستشهاد في مكاتبات الملوك بالأشعار؟، وكيف تركها على ما فيها من الآثار، ومن الذي أراد أن يكتب نثراً فجاء شعراً؟، ومن وضع هذه الطرة في التقاليد واخترعها؟، وما حجته إذ قدمها على اسم الله ورفعها؟، ومن الذي باعد بين السطور ووسعها؟، وكيف ترك بالتعاظم في كتبه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولميسعه من التواضع ما وسعها؟، ومن استغنى بكتابة آية من كتاب الله عن الجواب؟، ومن اكتفى ببيت من الشعر عما يحتاج من تطويله الكتاب؟، ومن الذي عانى المترجمات ورتبها؟ وأخفى ملطفات الجواسيس وغيبها؟، ومن الذي سن البرد وبعثها في الملمات؟، ومن حاكى شيئاً من ملك سليمان فاستخدم الطيور في بعض المهمات؟، وما أوجز مكاتبة كتب بها عن خليفة في معنى؟، وما أبلغ جواب وأوجزه أجاب به عن خليفة من لا سمى لا كنى؟، ولم أرخ بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم؟ وكيف لم يؤرخ بمولده أو غير ذلك من الأيام؟، ومن الذي أمره الخليفة بكتابة معنى فارتج عليه الكلام ولقنه في المنام؟، ومن الذي وصف برسالة طويلة شيئاً لم يصفه بنثار ولا نظام؟، وكيف جاز للكاتب أن يكتب آية من الكتاب في لفظه يحسبها من لا يحفظ أنها من عنده لا من حفظه؟، مثل قوله مع الرسول: " وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عن فانتهوا " ، وقول الآخر في كتابه: " هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق " ، وكثير من هذا؟ وهل يؤخذ عليه في مثل ذلك ما أخذ على الحجاج في أسماء المستغيثين به من أهل السجن: " اخسؤوا فيها ولا تكلمون " ؟، وما الفرق بينهما؟

وعلام يطول الكاتب باء البسملة؟ " ولا يثبت إلا قليلاً واو الحسبله؟، ولا يحمدل ولا يبسمل على ما ألف، وكيف يعلم في بعض السجعات على الأسماء المقصورة بالياء والأصل فيها الألف؟؛ وأسأله كيف يصف القراطيس والأقلام ويستدعيها؟،

والسكين والدواة ويستهديها، وكيف يكتب ملك طلب منه عدو قطيعة عن جيشه يعطيها؟، وكيف يكتب عن خليفة استسقى ولم يمطر؟، وخليفة صارع فصرع كالمعتصم وكيف يعذر؟، وما الذي يكتب في نار وقع في حرب النبي صلى الله عليه وسلم؟ وما الذي يكتب عن المهزوم إلى من هزمه في معنى ركونه إلى الإحجام؟، وكيف يهني خليفة خلع فرجع، وعرب عن السجن وطلع؟، وأسره العدو ثم تخلص واستقام بعد ما نهضه الدهر بمرض، أو تمرض فانتهض؟، وكيف يهني من زوج بعد موت أبيه أمه، ويعزي والداً قتل ولده وولداً قتل والده ويصوب حكمه؟، ويكتب عمن حاصر حصناً وتركه بعد تسهيل المسالك، وكيف يكتب في نيل لم يوف لا أحوج الله لذلك؟، ويعزي كافراً عن بعض الأعزاء الألزام، وينشئ عهد يهودي بوزارة أمير المؤمنين عليه السلام؟، ويكتب تقليداً لثلاثة أو أربعة من الحكام، ويستنجد بأموال أو مساكين(؟) من عدو كافر على كافر؟ ويبشر عدواً بأخذ بلاده منه، ويعتذر عن ملك أخذت شوانيه وحجزت عنه؟، ويهني خصياً بزواجه، ويعتذر عمن فر وترك ولده تحكم الظبا في أوداجه؟، ويكتب لملك بنى مباني فاحترقت أو وقعت، أو أجرى خيول رهان فسبقت خيله وانقطعت؟، أو خرج لصيد فلم يجد ما يصاد، أو لبرزة بندق احتفل فيها ولم يصرع شيئاً من الواجب المعتاد؟، أو ركب أول يوم من تملكه فتقطر به الجواد، أو وضعت له أنثى فضلها بكلام على ما يرجوه من ذكور الأولاد.

ومن ههنا أكف القلم عن شوطه، وأرفع عنه ما وضعه اللسان من سوطه، خوفاً من الملال والصخب، وكفى بالغرفة عن معرفة النهر.

فإذا نشط هذا الكاتب من هذا العقال، وتصرف في فنون هذا المقال، وخرج من هذه الأسئلة خروج السيف من الصقال، امتدت كف الثريا في هذا النسيان بمسح جبهته، وجاء بجواب هذا النكث كما يقال: برمته، وأماط لثامها، وشمر عن أزهارها أكمامها – انقطعت الأطماع دون غايته، وبسطت أيدي رسائل البلغاء لمبايعة رسالته، بل أتته وحمل قلمه على أقلام فرسان الكلام سوداء رايته، وبان هنالك ظلم العائب وحيفه، فكان كمن سل لنحره سيفه، وعذر على توالي التأنيب مؤنبه، وكان يومئذ له الويل لا لمن يكذبه، وامتاز هذا الفاضل بما تحدثه هذه

الواقعة من الفخر وتجلبه:

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب !

والمسؤول من إحسان سيدنا أن يسد الخلل كيف ما وجده، ويصلح الخطأ والخطل كما عودته منه وكما عوده؛ فإنه أمير هذه الصناعة ونحن الرعايا، وشيخ الفصاحة ونحن الفقراء الذين كم وجدنا في زواياه منها خبايا؛ وما هذه الرسالة يد امتدت تسأل الحلم ما يسعها، وهذه السطور إلا حبائل تتصيد من عوائده ما ينفعها ويرفعها.

فأرخي عليها ستر معروفك الذي ... سترت به قدماً علي عواري!

والله تعالى العالم أنها قردت عن قلب مذهول عن حسن الإيقان، معدد عليه نوائب الدهر بأنامل الخفقان، مرمي بسهام الأعادي في قسي الضلوع، غائص في بحر الهم وكلما رمت أن يلقي إلي در الكلام ألقى در الدموع:

أبكي فتجري مهجتي في عبرتي ... وكأن ما أبكيته أبكاني!

لا يدع لي الفكر في قلة " مصافاة " الإخوان وقتاً أستنبط فيه معنى، ولا يفسح لي التعجب من أبناء الزمان لنقصهم أن أصحح نقداً ولا وزنا؛ أجنح لسلم الأيام فكأني لحربها جنحتس وأقدح فكرتي في استعطاف الزمان فكأني فيه قد قدحت؛ فلو قضى الله لي بالمنية من المنية لأرحت الزمان واسترحت:

فالأرض تعلم أنني متصرف ... من فوقها وكأنني من تحتها!

ولا فرق فيما بيننا غير أننا ... بمس الأذى ندري ومن مات لا يدري

ولا بد لي أن أطلق هذه الصناعة طلاقاً قطعياً، لا طلاقاً رجعياً، وأجاهرها جهاراً حربياً لا جهاراً عينياً، وأضع صعدة حملها من أدب عن بدني، وأتولى قوس داله مع سهم بائها فما أصبت غير كبدي؛ " كأنما القوس منها موضع الوتر " ، و " قلت اذهبي يا صبوتي بسلام " فماذا لقيت من آفاتها ومنيت به من الخوف في عرفاتها، ومطرت لا من عوارض قطرها ولكن عوارض مرجفاتها:

وإني رأيت في الحب في القلب والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهبا!

ومع هذا الحديث لم أشك أن أحداً سينتقد على تشبيهي، وطرقه قديمة في استفتاح

المكاتبة، واستنجاح المخاطبة، ويقول: تلك أمة قد خلت، ودولة فاضلة أدبرت مثل ما أقبلت؛ فكيف تبعها وترك طريقة فضلاء عصره، وأبناء مصره؛ فالجواب ما قاله القاضي السعيد بن سناء الملك رحمه الله تعالى، فما كان أسعد خاطره!، وأكثر ذهب لفظه وجواهره!!:

إني رأيت الشمس ثم رأيتها ... ماذا علي إذا عشقت الأحسنا؟!

" وذكرت أن الاس عدره ونسيت أن الاس أفعالها " .

انتهت إلى هذا الموضع، والديك قد نعى بعيد الظلام، وبلغ عن الصبح السلام، والأزهار قد سلبته عينه فقام من كراه يصيح، وميدان الغصون قد أصخب بمغنى الأطيار وشغب الريح، ونسر السماء قد فر من الغداة وبازيها، والنجوم قد حملت إلى ملحدها من الغرب على نعوش دياجيها، والمجرة من الجوزاء عاطلة الخصر، وخاقان الصبح قد حمل على نجاشي الظلام راية النصر.

لا برح سيدنا معصوم الروية والارتجال، مسجلاً بشجاعة اليراعة والحرب سجال، محمود المواقف والمساعي " والنفس نقع والطروس مجال " ، والسلام.

الصنف السادس من الرسائل ما تكتب به الحوادث والماجريات ويختلف الحال فيها باختلاف الوقائع: فإذا وقعت للأديب ماجرية وأراد الكتابة بها إلى بعض إخوانه، حكى له تلك الماجرية في كتابه مع تنميق الكلام في ذلك، إما ابتداءً وإما جوابا، عند مصادفة ورود كتابه إذ ذاك إليه.

وهذه نسخة رسالة أنشأها الإمام قاضي قضاة المسلمين محيي الدين، أبو الفضل يحيى، ابن قاضي الإمام محيي الدين أبي المعالي محمد، بن علي، بن محمد، بن الحسين، بن علي، بن عبد العزيز، بن علي، بن الحسين، بن محمد، بن عبد الرحمن، بن القاسم، بن الوليد، بن القاسم، بن أبان، بن عثمان، بن عفان، رضي الله عنه، لما ورد إلى القاهرة المحروسة في التاسع من جمادى الأولى من سنة تسع وعشرين وستمائة وتعرف " برسالة النمس " ؛ وهي: وردت رقعة سيدنا أسعده الله بتوفيقه، وأوضح في اكتساب الخيرات سبل طريقه، فوقفت عليها وقوف السار بورودها، المستسعد بوفودها، المبتهل إلى الله في إبقاء مهجته التي يتشرف الوجود بوجودها:

وليس بتزويق اللسان وصوغه ... ولكنه قد مازج اللحم والدما!

وفضضتها عن مثل النور تفتحه الصبا، وبرود الرياض تساهمت في اكتساء وشيها الأهضاب والربا؛ يكبو جواد البليغ في مضمار وصفها، وينبو غضب لسانه عن مجاراتها في رصفها؛ يخجل محيا النهار بياض طرسها، ويود الليل لو نفضت عليه صبغة نقسها، وتحسد الكواكب رائق معانيها، وتتمنى لو أعيرت فضل إرشاقها وتلايتها، في كل فقرة روضة وكل معنى كأس مدام، وكل ألف ساق وكل سين طرة غلام، وكل واو عطفه صدغ وكل نون تقويس حاجب، وكل لام مشقة عذار وكل صاد خطة شارب؛ تصيب من سامعها أقصى ما يراد بالنفث في العقد، وتستولي بلفظها على لبه استيلاء الجواد على الأمد.

فلما اجتليت منها المعاني المسبهة في اللفظ الموجز، وأجل الطرف منها ما بين نزهة المطمئن وعقلة المستوفز، وأسلمت قيادي إلى سحرها المحلل وإن جنى قتل العاشق المتحرز – علمت أن سيدنا أجرى في حلبه السباق فحاز قصب سبقها، وذللت له البلاغة فتوغل في شعابها وطرقها، وحكمت يده في أعنة الفضائل فسلمت القوس إلى باريها، ودرجات العلى إلى مستحقيها؛ فمن وائل؟ومن سحبان؟ومن عبد الحميد؟وابن صوحان،وأي خبر يقابل العيان؟ ومن يقاوم ما هو كائن بما كان؟؛ فسألت خاطري الجامد أن يعارض بوابله طلها، وأن يقابل بجثمانه ظلها، وأن يجاريها في حلبة المساجلة وإن دعي بالسكيت، ولقد أسمعت لو ناديت حياً وكيف بنطق من ميت؛ وأنى يطمع في مجاراة البحر ولات حين لعل أوليت؛ فوجدته أصلد من الصخرة مساً، وألفيت " باقلا " لديه " قسا " ؛ فما كل من طرق قرى، ولا من إذا خلق فرى؛ وهذا المعهود من خاطري إذا كان جاماً فكيف وقد نضب مأوه وكدرت الحوادث بحر علمه والغير، فمن دون أن تستخرج منه الدرر أن يلين لضرس الماضع الحجر؛ فبذل جهده لما شعبت الهموم سبله، وتقنع بالخلق من لا جديد له.

هذا مع واقعة وقعت له فأصبح متشنتاً، وثنى عنانه عن كل شيء إليها متلفتاً، وذلك أنه في بارحته استولى عليه القلق بسلطانه، واستلبت يد الأرق كراه من بين

أجفانه، كأنه ساورته ضئيلة سمها ناقع، أو مدت إليه خطاطيف حجن لها أيدي الخطوب نوازع:

إذا الليل ألبسني ثوبه ... تقلب فيه فتى موجع

فتارة فكرته متوجهة نحو قلة حظه، وآونة لا يقع إلا على ما يقذفه طارف لحظه؛ وإن يد الخمول قد استولت عليه، وأزمة المطالب صرفت عنه وحقها أن تصرف إليه، والسعادة شاردة عنه وما أجدرها أن تطيف ببابه وتستقر بين يديه:

لئن كان أدلى حابل فتعذرت ... عليه وكانت رادة فتحظت
لما تركته رغبة عن حباله ... ولكنها كانت لآخر خطت!!

ولقد جهد في سلم الدهر وهو يحاربه، " وكيف توقى ظهر ما أنت راكبه " ؟ فما شام بارقة أمل إلا أخفقت ورجع يخفي حنين، وقرت أعين أعاديه كلما سخنت منه العين، فلقد أصبح " أفرغ من حجام ساباط " وإن كان " أشغل من ذات النحيين " . وكلما تأمل جده العاثر الناكص، ونظر رزقه الناضب الناقص، وقابله الدهر بالوجه العابس الكالح، ومنى نفسه عقبى يوم صالح، ربع عليها فمن لي بالسانح بعد البارح؟ وناجى نفسه بأعمال الركائب، والاضطراب في المشارق والمغارب، وأن يرى بالجود طلعة نائر بالعرمس غرة آئب، ويصل التهجير بالسرى، ويبت من قيد الأوطان موثقات العرى؛ وإن كسدت فضيلة من فضائله، أو رثت وسيلة من وسائله، اكتسب بأخرى من أخواتها، ونفث من عقدها ومت بها وقال: أنا ابن بجدتها؛ فإلام وعلام وحتى متى، أجاور من أنا فيهم أضيع من قمر الشتا؟ وحالي أظهر من أن يقام عليه دليل، و " إذا ذل مولى المرء فهو ذليل " :

وما أنا كالعير المقيم بأهله ... على القيد في بحبوحة الدار يرتع

ثم استهول تقحم الإغوار والإنجاد، واستفتح لقادح زناد الحظ الإكداء والإصلاد، وأقول: أخطأ مستعجل أو كاد، فأثوب مثاب من حلب الدهر أشطره، وأخذ إذا ارتفع عن الدنية من حظه أيسره، وبنى كما بنى سلفه وقرر ما قرره، فأقول: أرفض الدنية ولا تلو عليها، فتكون " أحمق من الممهورة إحدى خدمتيها " " فالحرة تجوع ولا تأكل بثدييها " :

ولسنا بأول من فاته ... على رفقه بعض ما يطلب

وقد يدرك الأمر غير الأريب ... وقد يصرع الحول القلب!

وتارة يخطر أن لو شكوت حالي إلى أصدقائي من ذوي الجاه، وسألتهم بإلحاقي بهم في الابتغاء من فضل الله، وأحضهم على انتهاز فرصة الإحسان قبل الفوت، وأضرب لهم: " أعن أخاك ولو بالصوت " فليس على مثلي ممن يخيفه الدهر في ذلك من جناح، " وهل ينهض البازي بغير جناح " ؛ ثم أرى أنهم لو فضل عنهم شيء لجادوا، بل لو زويت الأرض لهم لازدادوا، ولو ملكوا ظل الله لأصبحت لديهم ضاحياً، وما حالي بخاف عليهم وكفى برغائها منادياً، وقبلي بغى علي ففاته وأدرك الجد السعيد معاويا؛ وإلى كم أعلل تعليل الفطيم بالخضاب:

سئمت العيش حين رأيت دهري ... يكلفني التذلل للرجال!

وأخرى يسلي نفسه عن مصابها ومصائبها، وينميها كر الأيام بيعاقبها، ويقص عليها تقلب الليالي بالأمم الماضية في قوالبها، وأنها ما قدمت لأحد سعادة إلا عقبتها بتغيير، وما سقت صفو الأماني بشر إلا شابت كأسه بتكدير، وأن سبيل كل أحد منها سبيل ذي الأعواد، وقصاراي ولو اتخذت الأرض مسكناً وأهلها خولاً سبيل رب القصر من سنداد، ولو عمرت عمر نوح كنت كأني وآدم وقت الوفاة على ميعاد؛ فإن شئت فارفع عصا التسيار أوضع؛ فما هو إلا : " حارب بجد أودع " .

فبينا أنا أعوم في هذه الخواطر متفكرا، وأقرع سن الندم على تقضي عمري في غير مآربي متحسراً، وأتسلى بمصارع الأولين آخرى متعبراً، ولو أنجزتني الأيام مواعيد عرقوبة، لأفضت بي إلى أحلى من ميراث العمة الرقوب، ولقد تقاعس أملي حتى قنعت بحالي " وشر ما ألجاك إلى مخه عرقوبة " ثم يخاطبني حجاي بأن تثبت واصبر، فالليل طويل وأنت مقمر، فستبلغ بك الأسباب، وينتهي بك إلى المقدور الكتاب؛ فلا تعجل " فجري المذكيات غلاب " .

فاستروحت إلى باب كان مرتجاً، وارتدت باستجلاء محيا السماء من بعض همي فرجاً، وانتشقت من نسيم السحر ما وجدت به من ضيق فكري مخرجاً، ففتحته عن شباك كتخطيط الأوفاق، أو كرقعة شطرنج وضعت بين الرفاق؛ ألبس من صبغة

الليل شعاراً، واتخذ لاستجلاء وجه الغزالة نهاراً؛ جلد على القيام والكد، صبور على الحالين في الحر والبرد؛ يحول جثمان المرء عما واراه، ويبيخ إنسان الطرف رعي حماه؛ يديل من ظلمة الليل ضوء النهار، وينمو بما استودعته من الأسرار؛ يشرف إلى غيضه قد التفت أشجارها، وتهدلت ثمارها، ورقصت أغصانها إذ غنت أطيارها، واطردت بصافي الزلال أنهارها، ونمت بعرف العنبر الشحري

أزهارها؛ وقد قامت عرائس النارنج على أرجلها، تختال في حليها وحللها؛ قد ألبست من أوراقها خلعاً خضراً، وحليت من ثمارها تبراً، ونظم قداحها في جيادها لؤلؤاً رطباً ورنحها نسيم السحر فمالت عجباً؛ وقد مدت في أرضها من البنفسج مفارش سندس فروزت بالجداول، كبساط أخضر سلت أيدي القيون عليه صقيلات المعاول، وقد حدقت عيون الرقباء من النرجس قائمة على ساق، ولعبت بها يد النسيم فتمايلت كعناق المحبين عند الفراق؛ فاجتليت محياً وسيماً تتبلج أسرته، ومنظراً جسيماً تروق بهجته؛ قد مد السماط بساطاً أزرقاً، بزهر الكواكب مشرقاً، وطرزه بالشفق طرازاً مذهباً، وأبدى تحته للأصباح مفرقاً أشيباً:

ورث قميص الليل حتى كأنه ... سليب بأنفاس الصبا متوشح
ورقع منه الذيل صبح كأنه ... وقد لاح شخص أشقر اللون أجلح
ولاحت بقيات النجوم كأنها ... على كبد الخضراء نور يفتح!

وجنح البدر للغروب فتداعت الكواكب تتبعه كوكباً فكوكباً، فكأنه ملك اتخذ المجرة عليه مضرباً، وتوج بالثريا إكليلاً، وخنست الكواكب بين يديه توقيراً له وتبجيلاً، واصطفت حوله خدماً وجنوداً، ونشرت من أشعتها ألويةً وبنوداً، وأخذت مقاماتها في مراكزها كجيوشٍ عبئت للقاء مناجزها، ومسابقها أخذ فصة النصر ومناهزها:

ولاح سهيل من بعيد كأنه ... شهاب ينحيه عن الريح قابس!

وانبرى نسيم السحر عليلاً، وجر على أعطاف الأزهار ذيلاً بليلاً، وروى أحاديث الرياض بلسان نشره، مذيعاً لأسرار خزاماه وزهره، وغردت خطباء الطير على منابر الأغصان، واستنبطت من قلوب المحبين دفائن الأشجان، وحث داعي الفلاح، طائفة التقى والصلاح، على أن تؤدي فرضها ونفلها، وترتقي بخضوعها بين يدي مولاها درجات السعادة التي كانت أحق بها وأهلها، وهتف بشير النجح

بمن أحيا ليلته لما تمزق قميص الليل وانفرى: " عند الصباح يحمد القوم السرى "
.

فبينا أنا أتفكر في أن جملة ما عاينته سيصبح زائلاً، وعن تلك الصبغة العجيبة حائلاً، وأتدبر: " ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً " إذ أهدت إلي الأيام إحدى طرفها وغرائبها، وكبرى أوابدها وعجائبها، فطرق سمعي من الشباك نبأة، وتلتها وجبة تتبعها وثبة، فاستعذت من كيد الشيطان المريد، وقلت: أسعد أم سعيد؛ وإذا بنمس قد فارق وجاره إلى جاري، واختارني على الصحراء جاراً فارتضيته لجواري، فولج مستأنساً، ومرح بين يدي آنساً، وأراني أحد كتفيه في الاسترسال ليناً والآخر بالتمنع شامساً، فمد له الحرص على جوره حبائل مكره وشباكه، ويد الغبش تحول دون قنصه وإمساكه، وبقايا الظلام تقضي بتمنعه، وتصد عن جعله من الوثاق في موضعه، وأنا ملازمه ملازمة المعسر لرب الدين، حتى يتبين الصبح لذي عينين.

فلما خشيت على صلاتي الفوت عدلت إلى تأدية فرضها، وتوجيهها بين يدي موجبها وعرضها؛ فلما انفتلت من مصلاي، وانصرفت على مناجاة مولاي، برقت لي بارقة، خيل إلي

أنها صاعقة، فقلت: أذر قرن الغزالة؟ وإلا فلات حين ذبالة؛ فقيل: إن الغلام نظر إليه شزراً، وهز له المهند فشق له من الظلماء فجراً، وأبدى له وجهاً مكهفراً، ورام أن يمطيه من المنية مركباً وعراً،كأنه قد لاقى أسداً هزبراً، وأترع له كأس الحمام بالوافي، ورماه بثالثة الأثافي، فعطفت عليه باللائمة منكراً لجهله، وهتفت به زاجراً عن قبح فعله، ثم عذرته: " ومن لك بأخيك كله " ؛ وقلت له: ماذا تراك تصنع لو لاقيت أسداً أغلبا؟، لقد خلت أنك ترتد – وإن كنت وليداً – أشيبا؛ أمن هذا بادرات إلى السيف مخترطا؟، " إنك لأجبن من المنزوف ضرطا " لقد أظهرت من الفشل ما جاوز قدر الحد، ووضعت المزاح في محل الجدة وقابلت الأسهل بالأشد؛ فسحقاً لك وبعداً، لقد قدح مرجيك بعدها زناداً صلداً، واستنبع الماء جلمداً جلداً.

فصوب طرفه في وهتف مناديا، وأظهر وفاء أزرى بالسموءل بن عاديا: أنج هرباً ولا أخالك ناجياً، إني رميت من الخطوب بأصعبها، ولا ينبئك بالحروب كمجربها والخاص باللقمة أخبر بها؛ فلقد أوطأني ما لا أستقيل منه العثرة، وما لاقيت في حرب كهذه المرة، والعوان لا تعلم الخمرة لقد صرح لي بالشر ولم يجمجم، وكشر عن أنيابه غير مبتسم، و " وحسبك من شر سماعه " و " است البائن أعلم " ، تالله إنه لأجرأ من خاصي الأسد، ولئن سبرته لتعلمن ما بينالذئب والنقد؛ ولقد رضيت نفسي من الغنيمة أن تؤب بذمائها، لما تشبث بخنصري فخضبها بدمائها، فقلت: " أجفل عن جنابك الخير وأجلى " " أضرطاً وأنت الأعلى " ؟ ثم تضاحكت إليه لما شاهدت استعباره، وأويت له إذ رأيت استكثاره الخطب واستكباره، وقلت: من ضاف الأسد قراه أضفاره، ومن حرك الدهر أراه اقتداره؛ وعدلت إلى الذلول الشامس، المستأسد المستأنس ووددت إليه فانقاد لها طَائعاً، وخضع لإجابة دعوتي سامعاً.

فلما حازه في القبضة الإيسار وبطل الإقلال من ذلك اللفظ والإكثار – وقد كان أعز من الأبلق العقوق، وأبعد من بيض الأنوق – استجليت صورته متأملاً، إذ لم يبق له سوى قبضتي موئلاً، فرأيت هامة فحمة، وجثة ضخمة، وشدقاً أهرتاً رحباً، ذا مرة على اختلاف الحوادث صعباً، وإنياباً محددة عصلاً كالنصال، وطرفاً مخالساً غير غر بالمكر والختال، كأنه شهاب يتوقد، أو شعلة نار لم تخمد، وسامعتين تتوجسان ما دار في الأوهام، وتدركان ما يناجي به المرء نفسه ولو في الأحلام؛ قد نيطت بعنق صغرت هامتها بالنسبة إليه، إن استدبرته قلت: هو مشرف عليها أو استقبلته قلت: هي مشرفة عليه، يشتمل على نحر خصيب، وصدر رحيب، فيه نزعتا بياض كهلالين قرنا في نسق، أو نجمي ذؤابة ظهراً في غسق، تسر نفس الناظر إليها، ويعقد خنصر الاختيار فيحسن الشيات عليها، اتصل ذلك بمنكب عتيب، وساعد شديد، وبرثن شثن ومخلب حديد:

ذوات أشاف ركبت في أكفها ... نوافذ في صم الصخور نواشب
معقفة الترهيف عوج كأنها ... تعقرب أصداغ الحسان الكواعب

قد جاور جؤجؤاً نهدا، وقابل كاهلاً ممتداً؛ يكاد خصره ينعقد اضطمارا، وهمته تتسعر ناراً؛ برجلين تسبق في الحضر يديه، وتقد بأظفارها أذنيه، وذنب كالراء المسبل يجره اختيالاً ومرحاً، ويتيه عجباً وفرحاً، إن انساب قلت: انساب أفعوان، أو صال قلت: أسد خفان، أو وثب سبق الوهم في انحطاطه، أو طلب أدرك البرق من نشاطه، أو طلب فات الطرف في انخراطه؛ أنعم مساً من أرنب، وأزهى من ثعلب، قد كساه الظلام خلعته، وقبل الصباح طلعته؛ حاز من القندس صقاله وبهجته، ومن الفنك لينه ونعمته؛ ألبس رداء الشباب، ونزه عن تزوير الخضاب؛ إن اختلس فما تأبط شراً، او خاتل أزرى بالشنفرى مكراً؛ أحد نفساً من عمرو بن معدي، لا يصلد قادح زناد بطشه ولا يكدي؛ أنزق من أبي عباد، وأصول من عنترة بن شداد؛ أفتك من الحارث بن ظالم، وأنهر فصداً للدم من حاتم، لا يلين ولا يشكو إلى ذي تصميت، " كأنه كوكب في إثر عفريت " ؛ يكاد عند المخاتلة في انسيابه، يفوت الخاطر أو يخرج من إهابه، أن قارن طيراً أباحه منسراً كمنسر الأسد، أغلب فيه شغاً كأنه عقد ثمانين في العدد، فينشده: ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي، فلا يحس له بعين ولا أثر سجيس الليالي؛ فكأن قلوبها رطباً ويابساً لدى وكره العناب والحشف البالي؛ اعتاد قنص السانح والبارح، فما فات ورد المنية منه غاد ولا رائح؛ طويل القرا مدمج الأعظم، له مخاتلة سرحان وهجمة ضيغم؛ أحن من نقبه، " وأضلم من حية " ،أطيش من فراشة، وأسبق إلى الغايات من عكاشة؛ أخطف من عقاب، وأشجع من ساكن غاب، أسرق من جر1 وأنوم من فهد، وألين من عهن وأخشن من قد؛ بأسه قضاء على الطير منزل، وبطشه ملك بآجالها مرسل.

فلما تأملت خلقه، وسبرت بتجربة الفراسة خلقه، عجلت له جريراً مستحصد المرة لوثاقه، وأحكمت شده في محل خناقه، وقلت له: إني مجربك سحابة هذا النهار، " ومن سلك الجدد أمن من العثار " ، فعل ذي خبرة بمكره، وعلى ثقة من غدره؛ فإن اللئيم ذو صولة بعد الخضوع، وفضح التطبع شيمة المطبوع؛ وكيف الثقة به وإن استقر ولم ينبس؟ وأنى الطمأنينة إليه وهو الأزرق المتلمس؟.

ثم انصرفت إلى البلد لبعض شاني، والاجتماع بأخلائي وأخذاني، واستغرقت أديم

النهار فيما توجهت له، وقطعت عمر يوم ما كان أطوله! فلما قضيت نهمتي، من نجعتي، وحانت مع وجوب الشمس رجعتي، ألفيته عمد إلى الوثائق فقرضه، ووفاه بالكيل الوافي ما اقترضه، وصال على شيخة نستسعد بدعائها، ونفزغ إن دهمنا هم قبل نداء أولي البطش إلى ندائها؛ ذات خلق عظيم، ومنطق رخيم، وقلب رحيم، ووجه ذي نضرة ونعيم؛ إن قامت أحيت الليل بالسهر، أو قرأت رأيتنا حولها زمراً بعدزمر؛إن حادثتها نطقت بالسحر محللاً، أو تاركتها رأت الصمت على كثير من النطق مفضلاً؛ تسر نفسك في حالة الصخب، وتريك وجه الرضا في صورة الغضب؛ فمد إليها يد العدوان، وأطاع بأذاها أمر الشيطان، ولم يرقب فيها إلا ولا ذمة، وحملها فحملنا من أذاها غمة، ومزق قشيب أثوابها، وحكم مخالبه الحديدة في إهابها، فعظم مصاب من حوت داري بمصابها.

فلما وصلت رأيتها باكية ذات قلب مريض، وجناح مهيض، فسليتها بأن المصائب تلقاها الأبرار، وترفقت بها إلى أن رقات تلك الأدمع الغزار، وأوردت: " إن جرح العجماء جبار " ؛ وقلت: إيها لك وآها، لقد ارتكبت خطة ما ألقيها بعذرك وأولاها!!، " فلقد أنصف القارة من راماها " ثم آليت أليه برة، لأوطئنه من الوثاق جمرة، ولأقتض بهذه المرة تلك المرة؛ وأتيته بسلسة تنبو أنيابه عن عجمها، ولا تثبت شياطين مكره برجمها؛ قد أبدع قينها الصنعة بإحكامها، وأتى بالعجب في نظامها، فلله هو ممن تحكم فيما يقطع الجلمد، فجعله من اللطاقة يحل ويعقد؛ فاستودعت عنقه منها أميناًلا يخفر وثيق ذمته، ولا تتطرق الأوهام إلى تهمته، مستحكم القوة في الشد، فتغيظ تغيظ الأسير على القد، ونظر إلي بطرف حديد، وتذلل بعد بأس شديد، وبصبص بذنبه فقلت: " أمكراً وأنت في الحديد " . فلما أيس من الخلاص، تلوث: " ولات حين مناص " .

فلما تم ما ذكرته، وأبدأته وأعدته، وردت رقعة سيدنا على عقابيل هذه الوقعة التي وقعت

وصدت عن الجواب ومنعت، واقتضى بي الحال كتب هذه الخرافة وإن تشبثت بأذيال الجد، فأخرجتها مخرج الهزؤ وإن دلت على حوز قصبات المجد، ليعلم أن

في الزوايا خبايا، وإذا صح أن الأصول عليها تنبت الشجر " فأنا ابن جلا وطلاع الثنايا " .

هذا: وإن أبقى قراع الخطوب في حدي فلولا، " فالفحل يحمي شوله معقولا " ؛ولقد تجمعت الخطوب علي من كل وجهة وأوب، وطرقت الرزايا جنابي من كل صوب، وجريت مع الخطوب كفرسي الرهان، وما هممت بمقصد إلا سقط بي العشاء على سرحان؛ وبكل حبل يختنق الشقي، ولعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي؛ والجلد يرى عواقب الأمور فيحمد عند النجاح عقبي السير " ولو كنت أعلم الغيب لا ستكثرت من الخير " .

تجوز المصيبات الفتى وهو عاجز ... ويلعب صرف الدهر بالحازم الجلد

فسطرت هذه الأحرف إلى سيدنا ليوافق خبري عند أصحابه خبره، و " من يشتري سيفي وهذا أثره " واعلم أنها سيضرب بها في بابها المثل، وقد " أوردها سعد وسعد مشتمل " .

وهذه رسالة في الشكر على نزول الغيث، من إنشاء أبي عبد الله محمد بن أبي الخصال الغافقي الأندلسي، نقلتها من خط الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري المصري وهي: الحمد لله الذي لا يكشف السؤء سؤاه، ولا يدعو المضطر إلا إياه ننزل فقرنا بغناه، ونعوذ من سخطه برضاه، ونستغفره من ذنوبنا: " ومن يغفر الذنوب إلا الله " .

وأشهد أن ل إله إلا الله وحده لشريك له إلهاً علا فاقتدر، وأورد عباده وأصدر، وبسط الرزق وقدر، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بشر وأنذر، ورغب وحذر، وغلب البشرى على الإقناط، ودل على الصراط، وأشار إلى الساعة بالأشراط، ولم يأل أمته في الذب والاحتياط، صلى الله عليه وعلى الوزراء الخلفا، والبررة الأتقيا، والأشداء الرحما، والأصحاب الزعما، صلاة تملأ ما بين الأرض والسما، وتوافيهم في كل الأوقات والآنا، وتضع الثناء موضع الثنا.

ولما لقحت حرب الجدب عن حيال، وأشفق رب الصريحة والعيال، وتنادى الجيران للتفرق والزيال، وتناوحت في الهبوب ريحها الجنوب والشمال، وتراوحت على القلوب راحتا اليمين والشمال، وأحضرت أنفس الأغنياء الشح، وودوا أن لا

تنشأ مزنة ولا تسح، وتوهم خازن البر، أن صلعه يعدل صاع الدر، وخفت الأزواد، وماجت الأرض والتقيت الرواد، وانتزعت العازب القصي، فألقت العصي، وصدرت بحسراتها، وقد أسلمت حزراتها، وأصبحت كل قنة فدعاء، وهضبة درعاء، " صفاه وهما ونقبا وهما " ؛ والصبح في كل أفق قطر أو قطع، والأرض كلها سيف ونطع، والشعر يشمر ذيله للنفاق، ويضمر خيله للسباق؛ وجاء الجد وراح الهزل، وقلنا: هذه الشدة هذا الأزل؛ وللمرجفين في المدينة عجاجة ظنوها لا تلبد، وقسي نحو الغيوب تعطف وتلبد؛ فما يسقط السائل منهم إلا على ناب يحرق، وشهاب يبرق؛ حتى إذا عقدوا الأيمان، وأخذوا بزعمهم الأمان، وقالوا: لا يطمع في الغيث، وزحل في الليث، فإذا فارق الأسد، لكد ما أفسد: تخرضاً وأحاديثاً ملفقة ... ليست بنبع إذا عدت ولا غرب!

أنشأ الله العنان، وقال له: كن فكان؛ فبينما النجوم دراريها الأعلام، وأغفالها التي لا تحمد عندهم ولا تلام؛ قد لختلط مرعاها بالهمل، ولم تدر السدة بالحمل؛ ولا علم الجدي بالرئبال، ولا أحس الثور بالرامي ذي الشمال؛ إذ غشيتها ظلل الغمام، وحجنتها أستار كأجنحة الحمام، وأخذت عليها في الطروق، مصادر الغروب والشروق؛ فما منها إلا مقنع بنصيف، أو مزمل في نجادٍ خصيف؛ لم تترك له عين تطرف، ولا ثقبة يطلع منها أو يشرف؛ فباتت بين دور متداركة السقوط، ودرر متناثرة السموط، وديم منحلة الخيوط، وجيوش منصورة الأعلام، ثلبتة الأقدام، وكتائب صادقة الهجوم، صائبة الرجوم، تطلب المحل ما بين التخوم والنجوم، وما زالت ترميه بأحجاره، وتحترشه في أحجاره، وتغزوه في عقر داره، حتى عفت على آثاره، وأخذت للحزن والسهل بثاره.

فيا أيها المؤمن بالكواكب، انظر إلى الديم السواكب، واسبح في لجج سيولها، وارتح في ممر ذيولها، وسبح باسم ربك العظيم الذي قذف بالحق على الباطل، وأعاد الحلي إلى العاطل؛ فبرود الظواهر مخضرة، وثغور الأزهر مفترة، ومسرات النفوس منتشرة، والدنيا ضاحكة مستبشرة، وأرواح الأدواح حاملة، وأعطاف الأغصان مائلة، وأوراق الأوراق تفصل، وأجنحة الظلال تراش

وتوصل، وخطباء الطير تروي وتخبر، وشيوخ المحارب تهلل وتكبر، وإن من شيء إلا يخضع لجبروته، ويشهد لملكوته وتلوح الحكمة ما بين منطقة وسكوته.

فأما الخطاطيف فقد سبق هاديها، ونطق شاديها، وتراجع شكراً لله ناديها؛ فعش يرم، ولبنة إلى أخرى تزم، وشعث يلم، وبدأة توفى وتتم؛ وكأنها حنت نحو المشاهد، وسابقت اللقالق إلى المعاهد، فظلت اللقالق بعدها نزاعاً، وسقطت على آطامها أوزاعاً، وأجدت إقطاعاً، وأجابت من الخصب أمراً مطاعاً، وحازت من الحدائق والبساتين إقطاعاً؛ وسيغرد في روضته المكاء، ويضحكه هذا الوابل البكاء، ونرومه فلا تلحظه ذكاء؛ تحته من الأفنان الناعمة قلاص، وأحصنته من الخضراء التبعية دلاص؛ فالويل لأهل الأقوال المنكرات، والنيل لأهل الثناء والخيرات، والمرعى والسعدان، وأرض بكواكب النور تزدان، وبقاع تدين الغيث كما تدان؛ أذكرها فذكرت، وسكرت من أخلاقه فشكرت، وعرفها ما أنكرت؛ كأنما أعدؤها من أم خارجة نسب أو ملح، قالت لها: خطب فقال: نكح، فمثلت الأزهار بسبيله، ونبتت في مسيله، وثبتت في مسيله، وثبتت كاللحظة في شطي خميله.

فمن نرجس ترنو الرواني بأحداقه، وتستعير الشمس بهجة إشراقه، ويود المسك نفحة انتشاقه، يحسد السندس خضرة ساقه، ويتمناه الحمام بدلاً من أطواقه؛ كحلة ندى تترقرق، أو غصن بان لا يزال يورق.

ومن عرار تغنى مطالعه على عرار، وكلفت به السواري والغوادي كلف عمرو بعرار؛ فجاء كسوالف الغيد ترف، وكوميض الثغور يعبق ويشف.

ومن أقحوان جرى على الثنايا الغر، وسبك من ناصع الدر؛ يقبله النسيم فيعبق، ويصبح الجو بما " ... " ويغبق، ويستقبله ناظر الشمس فيشرق.

ومن بنفسج كأطواق الورق، أو كاليواقيت الزرق، تشرف بأبدع الخلق، وتألف من الغسق والخلق؛ تلحظه من بين أوراقه نواظر دعج بالأجفان وقيت، وبدموع الكحل سقيت؛ نسيمه ألين من الحرير، ونفسه أعطر من العبير؛ يفاخر به كانون البرد، مفاخرة نيسان بالورد.

وكل ربوة قد أخذت زخرفها وازينت، وبينت من آيات الله ما بينت، كما تتوج في إيوانة كسرى، واستقبلته وفوده تترى، وانقلبت عن حسن ناديه لنواظر حسرى،

وكل تلعة مذانب نصولها تسل ومضارب فصولها لا تثنى؛ وأراقم تنساب، ولجين يدأب ويذاب؛ على حافاتها نجوم من النور مشتبكة، وجيوب عن لبات الغواني منتهكة؛ فلو افتتحت الظهور والبطون، ونطقت السهول والحزون، لقالت: " قتل الخراصون الذين هم في غمرة ساهون " .

فشكرا لربنا شكراً، وسحقاً للذين بدلوا نعمة الله كفراً؛ اللهم بارئ النسم، ودارئ القسم، وناشر الرحمة والنعم، ومنزل الديم، وباعث الرمم، ومحيي الأمم؛ فإنا نؤمن بقدرك: خيره وشره، ونطوي غيثك على غره، ولا نتعرض لنشره حتى تأذن بنشره، ونعتقد ربوبيتك كل الاعتقاد، ونبرأ إليك من أهل المروق والإلحاد، ونستزيدك من مصالح العباد ومنافع البلاد؛ رزقنا لديك، ونواصينا بيديك، وتوكلنا عليك، وتوجهنا إليك؛ ولا نشرك بك في غيبك أحداً، ولا يجد عبد من دونك ملتحداً؛ تباركت وتعاليت، وأمت الحي وأحييت الميت؛ لا هادي لمن أضللت ولا مضل لمن هديت، فاكفنا فيمن كفيت، وتولنا فيمن توليت، إنك تقضي ولا يقضى عليك، وتقرأ: " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة " الآية.

وهذه نسخة رسالة، كتب بها الصاحب فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس، تغمده الله برحمته، إلى الشيخ بدر الدين البشتكي عندما زاد النيل الزيادة المفرطة، سنة أربع وثمانين وسبعمائة؛ وهي: ربنا اجعلنا في هذا الطوفان من الآمنين، وسلام على نوح في العالمين.

ما تأخير مولانا بحر العلم وشيخه عن رؤية هذا الما؟، وما قعادة عن زرقة هذا النيل الذي جعل الناس فيه بالتوبة كالملائكة لما غدا هو أيضاً كالسما؟، وكيف لم ير هذا الطوفان الذي استحال للزيادة فما أشبه زيادته بالظّما؛ فهي كزيادة الأصابع الدالة في الكف على نقصه، وأولى أن ننشد بيت المثل بنصه:

طفح السرور علي حتى أنه ... من عظم ما قد سرني أبكاني!

فإنه تقارب أن يمتزج بنهر بل وصل وامتزج؛ وأردنا من عجائبه ما حقق أنه المعني " بقول القائل " : " حدث عن البحر ولا حرج " ؛ وتجاوز في عشر

الثلاثين الحدّ، وأردنا بالمعاينة في كل ساجلٍ منه ما سمعناه عن الجزر والمدّ، وأساء في دفعه فلم يدفع بالتي هي أحسن، وأقعد الماشي عن التسبب والحركة حتى شكا إلى الله في الحالين جور الزمن، وسقى الناس من ماء حياته المعهودة كما شربوا من الموت أصعب كاس، وسئل ابن أبي الرّدّاد عن قياس الزيادة فقال: زاد بلا قياس؛ امتلأ اليباب، وهال العباب، وضاع العدُّ واختلط الحساب؛ كال فطفّف، وزار فما خفف؛ غسل الجسور، وأعاد الإملاق بعزمه إلى البحور، وبرع فكان أولى بقول الحلّي من ابن منصور:

بمكارم تذر السَّبَاسِبَ أبحراً ... وعزائم تذر البحار سباسبا!

جمع في صعوده إلى الجبال بين الحادي والملاح، ودخل الناس إلى أسواق مصر وخصوصاً سوق الرّقّيق على كلِّ جاريةٍ ذات ألواح، وغدا التّيَّار ينساب في كلّ يمّ كالأيم، وأصبحت هضاب الموج في سماء البحر وكأنّما هي قطع الغيم، واستحالت الأفلاك فكلّ برج مائيّ، وتغيرت الألوان فكلّ ما في الأرض سمائيّ، وحكى ماؤه حكاكة الصّندل لمّا مسّه شيطان الرّيح فتخبّط، وزاد فاستحال نفعه فتحقّق ما ينسب إلى الصّندل من الاستحالة إذا أفرط؛ فلقد حكت أمواجه ودوائره الأعكان والسّرر، وغدا كلّ حيٍّ ميّتاً من زيادته لا كما قال المعرّي: حيّا من بني مطر؛ وتحالى إلى أن أقرف الليمون الأخضر، واحمرت عينه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر؛ ولقد صعب سلوكه وكيف لا؟ وهو البحر المديد، وأصبح كلّ جدول منه جعفراً ويزيد:

فلست أرى إلا إفاضة شاخص ... إليه بعين أو مشيراً بأصبع!

فلكم قال الهرم للسارين يا سارية الجبل، وأنشد وقد شمّر ساقه للخوض: أنا الغريق فما خوفي من البلل؟ وكم قال أبو الهول: لا هول إلا هول هذا البحر، وقال المسافرون: ما رأينا مثل هذا النيل من هنا إلى ما وراء النهر، وقال المؤرخون: لم ننقل كهذه الزيادة من عهد النهروان وإلى هذا الدهر.

وكيف يسوغ لمولانا في هذه الأيام غير ارتشاف فم الخمور؟ ولم لا يغير مذهبه يطيب على هذه الخلج بالسلسل والدور؟؛ وكيف وكيف؟!!، ولم لا يتخذ مولانا حمو النيل وبرده رحلة الشتاء والصيف؟؛ وهو في المبادرة إلى علو المعالي وغلو

المعاني، وانتهاز الفرص في بلاغ الآمال وبلوغ الأماني:

عجب من عجائب البر والبح ... ر ونوع فرد وشكل غريب!

نعم:

من قاسكم بسواكم ... قاس البحار إلى الثماد!

أعلى الأنام في العلوم قدرا، وإمام النحاة من عهد سيبويه وهلم جرّا، وشيخ العروضيين على الحقيقة برّاً وبحرا:

وشيخ سيحون والني ل والفرات ودجلة
وشيخ جيحون أيضاً وشيخ نهر الأبلة!

أي والله:

أقولها لو بلغت ما عسى: ... الطّبل لا يضرب تحت الكسا!

لا مخبأ لعطر بعد عروس، أنت أعوم في بحور الشعر من ابن قادوس، وأصلح إذا حدثت من صالح بن عبد القدوس، وأشهى إذا هزلت من ابن حجاج إلى النفوس:

ولو أن بحر النيل جاراك مازحاً ... وحقك ما استحلى له الناس زئداً!

نعود إلى ما كنا فيه من وصف النيل، وذكر حاله الذي أصبح كما قال ابن عبد الظاهر: كوجه جميل: فلو رآه مولانا وقد هجم على مصر فجاس خلال الدّيار، ودخل إلى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور لم يرمنه غير الآثار، لبكى بعيني " عروة " ، وأوى من الرصد وقد تفجرت من صلد عيون النز إلى ربوة، أورنا لروض " الجزيرة " وقد خلع حلاه، وتخلخلت عرائس أشجاره على الحالين بالمياه، والنخيل وقد قتلت ملاكها – حين فتك – بالأسف، وجف أحمر ثمرها وأصفره فأرانا العناب والحشف، و " الجيزة " وقد قلت لها: تباً لجارك النيل إذ أفسدك صورة ومعنى، وسكن مغانيك فسقى ديارك بغير استثنا، وقراها الغريبة وقد قلت لها حين

أوت إلى أعالي الأرض هرباً من المياه، واعتصمت بالجبل الغربي: لا عاصم اليوم من أمر الله – وكل سفينة وقد علت على وجه الماء، وارتقت لارتقاء البحر إلى أن اختلطت بالسماء؛ وقد قالت لها أترابها عند الفراق: إلا ترجعي، وقلنا لها

نحن على سبيل التفاؤل: يا سماء أقلعي؛ والنيل تبدو عليه القلوع خافية فكأنها الخيام بذي طلوح، وجار على الناس بطغيانه فكأنما هو أخو فرعون مصرا أو ابن طوفان نوح.

فلقد طار النسر مبلول الجناح، ودنا نهر المجرة من السكارى بالشخاتيت إلى أن كاد يدفعه من قام بالراح، ونرجس البسايتن وقد ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، وفارق أحبابه من الرياحين ولم يبق له غير القلانس صديق وغير الماء حميم، والورد وقد قيل له: مالك من آس، وغضن البان وقد قيل له: طوبى لمن عانقك ولا باس، والأسماك وقد ألجمهم العرق، والقلقاس وقد شكا شكوى ابن قلاقس وابنه من الغرق، والقصب بالجيزة وقد شرب ماء النز فهو بئس الشراب، والقصب ببولاق لم ينجه من مشاهدة الغرق إلا كونه غاب، والفارسي بالبساتين وقد ترجل ووقع فأرانا كيف تكسير الأقصاب؛ وقيل للآس:عالج جيرانك بالغيطان فالناس بالناس، وبادر إلى جبر ما كسر فالحاجة تدعو المكسور في الحالين إلى الآس.

هذا وأنا مقيم بالروضة إذ زهت على سائر الرياض، وسلم جوهر حصبائها من أكثر هذه الأعراض؛ وإن اعتلت بالاستسقاء فهو عين الصحة كما ينسب السقم إلى العيون المراض، أو كما قال المملوك قديماً من قصيدة في بعض الأغراض:

وقائل: في لحاظ الغيد باقية ... من السقام وما ضمت خصورهم
وفي النسيم فقلت: الأمر مشتبه ... عليك فالزم فأنت الحاذق الفهم
قلت الصيحيح ولكني بموجبه ... أقول: تلك دواة برؤها السقم!

قد أحاط بها النيل إحاطة المراشف باللما، فأشرقت ضياء بين زرقته فكأنها البدر في كبد السماء:

بصحن خدٍّ لم يغض ماؤه ... ولم تخضه أعين الناس!

متعطش مع هذا الطوفان لرياك، متشوف وإن كنت مغازل النجوم الأرضية والسمائية يا بدر لرؤياك؛ لكني يسليني أني ما نظرت إلى النيل إلا رأيتك من سائر الجهات، ولا لمحت بيوت البحر بل البحور رأيتك عمارة الأبيات:

ولا هممت بسرب الماء من عطشٍ ... إلا رأيت خيالاً منك في الماء!

ولكن للعيان لطيف معنى ... له طلب المشاهدة الكليم!

فهلم إلى التمتع برؤية هذا النيل الذي لم تر مثله العيون، والنظر إلى سائر المخلوقات لعمومه وكل في فلك يسبحون؛ فليس يطيب للتلميذ رؤية هذا البحر بغير رؤية شيخه، ولا يلذ له التملي بمشاهدة هذا الفلك ما لم يشرق وجهه وذهنه ببدره ومريخه؛ فما هذا الإهمال؟، وليت شعري يا أديب تشاغلك بأي الأعمال؟، أبالكتابة؟ فلتكن في هذا النيل الذي هو كالطلحية بغير مثال، أو بالنثر والنظم؟ ففي هذا البحر الذي منه تؤخذ الدرر وفيه تضرب الأمثال؛ ولقد ولد فيه الفكر للمملوك، كيف تصادم الأكفاء وقهر الملوك للملوك؛ فإنه لم يسمع في مملكة الإسلام، ولا ورخ في عام من الأعوام، بمثل هذه الزيادة الزائدة، والجري على خرق العادة التي لا جعل الله بها صلة ولا منها عائدة؛ وغاية ما وصل إليه في الماضي من عشرين: فضيق بسعته المسالك، وأوجب المهالك، وتطرق تطرق أهل الجرائم والفساد فقطع الطريق على السالك، وأحوج مرات إلى الاستضحاء لا أحوج الله لذلك.

ودليل ما شمل به من الفساد، وما عامل به البلاد وأهل البلاد، ما قاله أدباء كل عصر، عندما أبيح للمسافر في مد عرضه القصر.

فمن ذلك ما قاله مولانا القاضي الفاضل، وما هو رحمه الله إلا بحر طفح دره، فالله دره، من رسالة: " ورود مثاله يتضمن نبأ سطوره العظيمة أمر طوفان النيل التي كأنها جداوله، وأنه جاد لمؤمله بنفسه التي ليس في يده غيرها فيلتقي الله سائله ...... " .

ومنها: " ولم يزل يجري لمستقر له، ويضمه شيئاً فشيئاً إلى أن أدرك آخره أوله حتى إذا تكامل سمو أمواجه حالاً على حال، وتتور أقاصي الأرض في بنية المقياس فأدناها النظر العال، فلم يترك بقعة كانت من قبل فارغة إلا وكلها عند نظره ماق، وليت هواه المعتل كان عدلاً فحمل كلّ غدير ما أطاق؛ وطالما جرى بالصفا ولكن كدر صفاه بهذا المسعى، والمرجو من الله أن يتلو ما أفسده هذا الماء ما يصلحه خروج المرعى " .

وما قاله القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، سقى الله تلك الألفاظ النيلية صوب الماطر: " .. وينهي إليه أمر النيل الذي سر في أوائله الأنفس بأنفس بشرى، ويقص عليه نبأه العظيم الذي ما يرينا من آية إلا هي أكبر من الأخرى، ويصف له ما سقاه إلى الأرض من كل طليعة إذا تنفس الليل تفرق صبحها وتفرى؛ فهو وإن كان خص الله البلاد المصرية بوفوره ووفائه، وأغنى به قطرها عن القطر فلم يحتج إلى مد كافه وفائه، ونزهه عن منة الغمام الذي هو إن جاد فلا بد من شهقة رعده ودفعه بكائه، فقد وطئ بلادها بعسكره العجاج، وزاحم ساحتها بأفواج الأمواج، فعمل فيها بذراعه، ودار عليها بخناقه وتخللها بنزاعه، وحملها على سواري الصواري تحت قلةعه وما هي إلا عمد قلاعه، وزار زرابي الدور المبثوثة، وجاس خلال الحنايا كأن له فيها خبايا موروثة، ومرق كالسهم من قناطره المنكوسة، وعلا زبد حركته ولزلاه ظهرت في باطنه من الأقمار والنجوم أشعتها المعكوسة، وحمل على بركة الفيل حمل الأسود على الأبطال، وجعل " المجنونة " من تياره المنحدر في السلاسل والأغلال؛ والمرجو من الله أن يزيل أذاه، ويعيد علينا منه ما عهدناه؛ فأن له الإياب الأكبر، وفيه العجائب والعبر؛ فها وجود الوفاء، عند عدم الصفاء، وبلوغ الهرم، إذا احتدم واضطرم؛ وأمن كل فريق، إذا قطع الطريق، وفرح قطان الأوطان، إذا كسر وهو كما يقال: سلطان؛ إلى غير ذلك من خصائصه، ويراءته مع الزيادة من نقائضه؛ طالما فتح أبواب الرحمة بتعليقه، وفاز كل أحد عند رؤية مائه المعصفر بتخليقه " .

وما قاله المولى زين الدين عمر الصّفَدِيّ – تغمده الله بعفوه – وجمع له بين حلاوة الكوثر وصفوه: " وأما النيل فقد أخذ الدار والسكان، وقال ابن الخامل كما قال ابن النبية: الأمان الأمان، وبكى الناس عندما رأوه مقبلاً عليهم بالطوفان، وانسابت أراقم غدرانه في الإقليم فابتعلت غدران أراقمه، ومحاسيله المتدفق معالمه المجهولة فاستعمل الأقلام في إثبات معالمه، وأحاط بالقرى كالمحاصر فضرب بينها وبين السماء بسور، وأخذ الطريق على السالكين فلا مركب إلا المراكب ولا عاصم إلا البحور " .

وما قاله السديد " ابن كاتب المرج " ، نصرة الأقباط، وأحد عمد الشعر المشهورة

بالفسطاط؛ فما أطيب مدائحه التي جعلها سوراً بينه وبين النار، وما أعجب رثاؤه: جعل الله قبره بالرحمة كالروض غبّ القطار!!!:

يا نيل يا ملك الأنهار قد شربت ... منك البرايا شراباً طيباً وعداً
وقد دخلت القرى تبغي منافعها ... فعمها بعد فرط النفع منك أذى
فقال: يذكر عني أنني ملك ... وتعتدي ناسياً: إن الملوك إذا!!

وما قاله شيخنا الشيخ جمال الدين بن نباته الذي أطاعته من الآداب جوانح نظمها ونثرها، وسخرت له بحور الشعر فقالت له الآداب: اختر من درها؛ فسبحان من يسر له ممتنع الكلام وهونه، وجعله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، فما أشف دقيق فكره الجليل، وما أكثر ما يضحك زهر تقاطيعه على زهر مقطعات النيل، فما كان إلا مخصوصاً في الأدب ببحور الهبات، وكلامه في العذوبة والبلاغة يزري بالفرات وابن نباته:

فلا عجب للفظي حين يحلو ... فهذا الفطر من ذاك النبات!

وأما النيل فقد استوى على الأرض فثبتت فيها قدمه، وامتد نصل تياره كالسيف الصقيل فقتل الإقليم وهذا الاحمرار إنما هو دمه:

حمرتها من دماء ما قتلت ... والدم في النصل شاهد عجب!

فلم يترك وعداً بل وعيداً إلا وفاه، ولا وهداً بل جبلاً إلا أخفاه، أقبل كالأسد الهصور إذا احتد واضطرم، وجاء من سن الجنادل فتحدر وعلا حتى بلغ أقصى الهرم، وعامل البلاد بالخيلاء وكيف لا؟ وهو سلطان جائر أيد بالنصر، قائلاً: إن كنت بليت بالاحتراق في أرضكم فأنا أفيض بأن أرمي من بروق تياري بشرر كالقصر.

هذا وطالما قابلنا قبلها بوجه جميل، وسمعنا عنه كل خبر خير ثابت ويزيد كما قال " جميل " ، وكل بديع من آثار جود يصبغ الثرى فيخضر بخلاف المشهور عن صبغة الليل، وطالما خصصناه بدعاء فكانت الراحة به كمقياسه ذات بسطة، وكمنازل الخصب بقدومه المبارك ذات غبطة، ومنحناه بولاء وثناء هذا يدور من الإخلاص بفلك وهذا يعذب من البحار بنقطة؛ كم ورد إلى البلاد ضيفاً ومعه

القرى، وكم أتى مرسلاً بمعجز آيات الخصب إلى أهل القرى؛ فهو جواد قد خلع الرسن، ساهر في مصالح الخلق وقد ملأ الأمن اجفانهم بالوسن، جامع لأهل مصر من سقياه ومرعاه ووجهه بين الماء والخضرة والوجه الحسن؛ كم بات سير مقاسه يشمل بظله الغائبين والحاضرين، وكم رفع على الوفاء رايةً صفراء فاقع لونها تسر الناظرين، وبلغ وبلغ بخرير التيار سلامه، وبات الناس بوفائه من حذار الغلاء تحت الستر والسلامة، وخلق صدر العمود وكيف لا يخلق بشير العباد والبلاد، ودعا مصر لأخذ زخرفها فسواء قيل: ذات العمود أو ذات العماد، وبسط يده ببركة الماء فقيل: سلام لك من أصحاب اليمين، وخضب بنانه وأقسم بحصول الخير فقيل لمخضوب البنان يمين، وأشار إلى وصول المد المتتابع، وقبض يده المخلقة على الماء فوفت وما خابت فروج الأصابع، ونادى رائد الوفاء ولكن كم حياة في الأرض لمن ينادي، وتمت أصابع الزيادة ونمت حتى قال الناس: ما ذي أصابع ذي أيادي.

هذا وقد قرنت زرابي الدور المبثوثة بالنمارق، وقال المقياس: تغطت منها الدرج فنال الرجاء وظهرت الدقائق؛ فهو جم المنافع، عذب المنابع، يشار في الحقيقة والمجاز إليه بالأصابع.

فأعاده الله إلى ذلك النفع المعهود، وأرانا منه الأمان من الطوفان إلى أن نرد الحوض المورود، وكفى أهل مصر هذه المصيبة التي إذا أصابتهم قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا ابتلاهم بمثل ما ابتلى به قوماً جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم فإنما يستغشي ثيابه منهم الفقراء في المطر ويجعل أصابعه في آذانه منهم المؤذنون؛ اللهم إنك ولي النعمة، وأولى برحمة خلقك من فيض هذه الرحمة " .

وما قاله صاحبنا الشيخ شهاب الدين بن أبي حجله الذي كان أغرب من زرقاء اليمامة، وأعجب إذا ركب بغلته وزرزوره من أبي دلامة، الأديب الذي كان حجة العرب، والناثر الذي كان بنسبته إلى الطيور محرك المناطق وإلى الشعر صناجة الأدب، والناظم الذي كان إذا أنشد مقاطيعه في التشبيب فاق على المواصيل ذوات الطرب، والصديق الذي كانت منه عوائد الوفاء مألوفة، وشيخ الصوفية الذي لا

عجب إذا كانت له المقامات الموصوفة، أسكنه الله فسيح الجنان، وخص ذلك الوجه الجميل بالعارض الهتان، من مقامته الزعفرانية عن أبي الرياش: " فاعتنقته لدى السلام، وقلت: ما وراءك يا عصام؛ فقد بلغنا أن النيل تزايد دفعه، وأدى إلى الضرر نفعه، فقال: خذ العفو، ولا تكدر بذكر النيل الصفو؛ فقد امتزج بالمعصرات ثجاجه، وأعيى طبيب الغيظان علاجه:

وشرق حتى ليس للشرق مشرق ... وغرب حتى للغرب مغرب!

قلت: فما فعل النغير، بجزيرة الطير، قال: لم يبق بها هاتف يبشر بالصباح، ولا ساع يسعى برجل ولا طائر يطير بجناح، إلا اتخذ نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء، أو أوى إلى جبل يعصمه من الماء، فأذاق بها الحمام الحمام في المروج، وترك أرضها كسماء ما لها من فروج، وتلا على الحمام: " أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج " . وكم في سماء مائها من نسر واقع، وبومة تصفر على ديارها البلاقع:

ومنهل فيه الغراب ميت ... سقيت منه القوم واستقيت!

قلت: فمصر؟ قال: زحف عليها بعسكره الجرار، ونفط مائه الطيار.

قلت: فالجيزة؟ قال: طغى الماء حتى علا على قناطرها وتجسر، ووقع بها القصب من قامته حين علا عليه الماء وتكسر، فأصبح بعد أخضرار بزته شاحب الإهاب، ناصل الخضاب غارقاً في عقر بحر يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، وقطع طريف زاويتها على من بها من المنقطعين والفقراء، وترك الطالح كالصالح يمشي على الماء، فتنادوا مصبحين، ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين، وأدركهم الغرق فأيسوا من الخلاص، وغشيهم من اليم ما غشيهم ولات حين مناصن، وخر عليهم السقف من فوقهم فهدت قواهم، واستغاثوا من كثرة الماء بالذين أمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم.

قلت: فالروضة؟ قال: أحاط بها إحاطة الكمام بزهره، والكأس بحباب خمره:

فكأنها فيه بساط أخضر ... وكأنه فيها طراز مذهب !

فلم يكن لها بدفع أصابعه يدان، وكم أنشد مرجها حين مرج البحرين يلتقيان:

أعيني كفى من فؤادي فإنه ... من البغي سعي اثنين في قتل واحد

قلت: فدار النحاس؟ قال: أنحس حالها، وأفسد ما عليها ومالها فدخل من حمامها الطهر، وقطع الطريق بالجامع الظهر؛ فالحق مجاز بابه بالحقيقة، ورقي منه على درجتين في دقيقة؛ كم اغترف ما جاوره من الغرف غرفاً وأطلق من مائه الأحمر النار بموردة الخلفا.

قلت: فالخليج الحاكمي؟ قال: خرج عسكر موجه بعد الكسر على حميمه ومرق من قسي قنطاره مروق السهم من الرمية.

قلت: فالمنشأة؟ قال: أصبحت للبحر مقرة، بعد أن كانت للعيون قرة، وقيل لمنشئها: أنى يحيى هذه الله بعد موتها قال: يحييها الذي أنشأها أول مرة؛ قد مال على ما فيها من شون الغلال كل الميل، وتركها تتلو بفمها الذي شفتاه مصراعا بابها: " يا أبانا منع منا الكيل " .

قلت: فجزيرة أروى؟ قال: قد أفسد جل ثمارها، وأتى على مغانيها فلم يدع شيئاً من رديها وخيارها؛ أخلق ديباجة روضها الأنف، وترك قلقاسها في الجروف على شفا جرف:

بعيني رأيت الماء يوما وقد جرى ... على رأسه من شاهق فتكسرا!

طالما تضرع بأصابعه إلى ربه، ولطم برؤوسه الحيطان مما جرى من الماء على قلبه، وتمثل بقول الأول:

وإن سألوك عن قلبي وما قاسى ... فقل: قاسى، وقل: قاسى وقل قاسى،

لم يفده تحصنه من ورقه بالدرق والستائر، ولا حنا عليه حين تضرع بأصابعه فصح أن الماء سلطان جائر.

قلت: فحكر ابن الأثير؟ قال: لم يبق منه غير الثلث والثلث كثير؛ قد أخمل من دوره خمائلها، وجعل عاليها سافلها؛ فكم دار أعدم صاحبها قراره، ونادى في عرصاتها المتداعية: إياك أعني فاسمعي يا جارة، فأصبحت بعد نفعها قليلة الجدا، مستوليه عليها يد الردى، شبيهة بدار الدنيا لأنها دار متى أضحكت في يومها أبكت غداً.

قلت: فبولاق؟ قال: إملاق، قد التفت بها من الزلق الساق بالساق، فأتى من النوتية

على الصغير والكبير، ومن المراكب وممرها على النقير والقطمير.

هذا بعد أن ترك جامع الخطيري على خطر، وحيطان يانعة الثمر؛ قد دنا قطافها، وحان تلافها؛ فكأني به وقد منع رفده، وتلا على محرابها سورة السجدة.

قلت: فجزيرة الفيل؟ قال: اقتلع أشجارها بشروشها، وترك سواقيها خاوية على عروشها.

قلت: فالتاج والسبعة وجوه؟ قال: هجم على حرمها، وعم الوجوه من فرقها إلى قدمها؛ فبلا ثرى الموت في التخوم، وعنت الوجوه للحي القيوم؛ قلت: فما الحيلة؟، قال: ترك الحيلة:

دعها سماوية تجري على قدر ... لا تفسدنها برأي منك راضي

طال الكتاب، وخرجنا عن فصل الخطاب:

ولربما ساق المحدث بعض ما ... ليس الندي إليه بالمحتاج!

وكأني بقائل يقول: أليس من الكبر أن يستخدم هذا في رسالته ملوك الكلام، ومن الحمق أن يجلي عرائس أفكاره بما للناس من حلي النثار والنظام، فأقول: مسلم أن كل ما أوردته درر وجواهر، وعقود كزهر الربيع عيون وجوهها النواظر، ولكنها ها هنا أمثل، وجمع شملها على هذي العروس أجمل: وفي عنق الحسناء يستحسن العقد

وعلى الجملة فيرجع المملوك إلىالتواضع وهو الأليق في الأدب، فيقول: لا عيب على الفقيرة إذا تجملت بحلي الغنية، ولا عار على الجوهري إذا نظم سلكاً كانت درره على الطرق مرمية؛ ونرجع إلى ما ولده الفكر من عجب البحر، وما ظهر من دفع الملوك لأمثالها عن جريها إلى غاياتها بصور القمر، فأقول: إنما قالت الأدباء ذلك لما جرى من جور النيل على الأرض، ولما عم الناس من الإرجاف بطول أذاه وهرجه فكأنما هم في يوم العرض؛ وكل ذلك وما وصل إلى هذا الارتفاع، وربما كان أنقص من هذه الزيادة بقريب الذراع.

وعلى هذا القياس إنما دفع ضرره وجمل في البلاد أثره، وحسن في السماء خبره وفي الأرض مخبره، السري الذي اهتمام بالمعروف معروف، وسيف الدين الذي

سهر في مصالح الرعاية لما تنام ملء أجفانها السيوف، أتابك العساكر، والملك الذي هو بالإسلام له منصور وناصر؛ حصن سائر الكوى بالجسور، وركز على أفواه البحر والخليج الأمراء كما يركز المجاهدون على الثغور، وقابل البحر من سطواته بما ليس له به قبل، ورد دفعه بكل دفع من الرأي والتدبير يغني عن البيض والأسل، وحاربه بجيش عزم إلى أن ولى هارباً من التراع والقناطر، وجاهد بجند ركزه على جوانبه لما تحقق أن البحر سلطان جائر، وحصل بالتضييق عليه كما تحصر البرك والتراع، وغلى يده عن التصرف فسقاه الموت كما سقا الناس أنواع النزاع؛ فما هو إلا أن تضاءل بنيران سطواته واحترق، وذل خاضعاً وكفى به تضرعاً بالأصابع وتوسلاً بالملق، وأطاع لما لم تتجه مجاهرته من تياره بالسيوف ولا تحصنه من داراته بالدرق.

على أنه تطاول ليضاهي بأصابعه جود أياديه فقصر وتحسر فركب خيل خيلائه ليحاكي بأسه فوفع من جسور عجبه وتقطر، وسمت نفسه كبراً لأن يبلغ قدره فقيل: يا بحر هذا خليفة الله في أرضه والله أكبر؛ نعم:

رأى البحر الخصم نداه طام ... يفيض على الورى منه بحار
فصار البحر ملتطماً وأضحى ... على الحالين ليس له قرار!

فلو زدت في أيام غيره من الملوك المترفين، وفيمن يؤثر ملاذ نفسه على مصالح المسلمين، كنت أيها الملك بلغت قصدك، وفعلت في أبناء مصرك جهدك، وكنت من الملوك الذين إذا دخلوا قرية انتعلوا فيها الأهلة، وأفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة؛ لكن هب قبولك إدباراً، ولاقت ريحك إعصاراً، فليس لك به قبل، " والسيل أدرى بالجبل " ؛ فما لك سبيل إلى بلاده، ولاطاقة بإياب الخير على عناده، فإنه خادم الحرمين ، والمدعو له حتى في مواقف الحرب بين العلمين؛ حامي السواحل والثغور والمخدوم بأيادي السحائب وأصابع البحور، وإن كنت يا أبا خالد أبا جعفر فلست بمنصور؛ والرأي أن تقف مستغفراً وتقول معتذراً، لم أفرط بالزيادة في أيامه، ولم أفض على طرف الميدان إلا لأفوز بتقبيل آثار جواد خيله ومواطئ أقدامه، ونتبع نواهيه ونمتثل أوامره، وندعو له كالرعايا بطول البقاء في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة.

ونحن نسأل الله كما بلغ بك المنافع، أن يرينا كوكب نؤئك عن قريب راجع؛ وكما أغنى بزيادتك عن الاستسقاء، لا يحوجنا في نقصك إلى الاستضحاء، إنه سميع مجيب الدعاء، بمنه وكرمه.

الفصل الثالث من الباب الأول من المقالة العاشرة في قِدمات البندق

جمع قدمة بكسر القاف وسكون الدال المهملة، وهي رسائل تشتمل على حال الرمي بالبندق، وأحوال الرماة، وأسماء طير الواجب، واصطلاح الرماة وشروطهم.

وهذه نسخة قدمة، كتب بها شيخنا الشيخ شمس الدين محمد بن الصائغ الحنفي الأديب رحمه الله، لصلاح الدين بن المقر المحيوي بن فضل الله؛ ونصها: الحمد لله الذي سدد لصلاح الدين سهام الواجب، وشيد بنجاح المطلوب مرام الطالب، وجعل حصول الرزق الشارد بالسعي في المناكب، وسهل الممتنع على القاصدين فما منهم إلا من رجع وهو صائب.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ولد ولا صاحب، شهادة تزجر طير الإشراك بهذا الأشراك من كل جانب، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي قربه فكان قاب قوسين أو أدنى وهذه أعلى المراتب، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين رقوا في العلياء لمراقي لم يسم إليها طير مراقب، صلاة يسبق بها المصلي إلى بقاع شرف يشرق سناه في المشارق والمغارب، ويرجع طائراً بالسرور ولا رجوع الطائر الشارد إلى المشارب.

وبعد، فإن الصيد من أحل الأشياء وأحلاها، وأجلاها، وأبهرها وأبهاها، وأشهرها وأشهاها، وأفخرها قيمة، وأغزرها ديمة؛ بورود الطيف فيه إلى المناهل تنشرح الصدور، وبوقوعه في شرور الشرك يتم السرور؛ يحصل عند متعاطيه نشاطاً، ويزيده انبساطاً، ويشرح خاطره، ويسرح ناظره، ويملأ عينه قرة، وقلبه مسرة؛

يشجع الجبان، ويثبت الجنان، ويقوي الشهوة، ويسوي الخطوة، ويسوق الظفر، ويشوق النظر، ويروق منه الورد والصدر، ويوفق فيه الخبر على الخبر. قال بعض الحكماء: " قلما يغمش ناظر زهرة، أو يزمن مريع طريدة " ؛ يعني بذلك من أدمن الحركة في الصيد ونظر إلى البساتين، فاستمتع طرفه بنضرتها، وأنيق منظرها.

ومنذ الذي ينكر لذة الاصطياد، والطرب بالنقص على الإطراد؟ ولله در القائل:

لولا طراد الصيد لم تك لذة ... فتطاردي لي بالوصال قليلا.
هذا الشراب أخو الحياة وما له ... من لذة حتى يصيب عليلا!

يا حسنه من فعل اعتلت بالنسيم موارده ومصادره، وفاقت أوائله في اللذاذة أواخره؛ ولله القائل:

إنما الصيد همة ونشاط ... يعقب الجسم صحة وصلاحا
ورجاء ينال فيه سرور ... حين يلقى إصابة ونجاحا!

وما أطيب الاقتناص بعد الشرود، وكيف يرى موقع الوصل بعد الصدود:

وزادني رغبة في الحب أن منعت ... أحب شيء إلى الإنسان ما منعا !

تقضي رياضات النفوس السامية بمعاطاة كاسه، ومصافاة ناسه، لما فيهم من الفتوة، وكمال المروة، وصدق اللسان، وثبات الجنان، وطيب الأخلاق، وحفظ الميثاق؛ لا يعرفون غير الصدق وإن كانوا يميلون إلى الملق، ولا يبغون بصاحبهم بديلاً يعطفون عليه عطف النسق؛ لا سيما تعاطي صيد طيور الواجب، الذي سنه الأكابر وجعلوا أمره من الواجب، وتشرفت به هممهم العالية: تارة إلى السماء وآونة إلى مشارع الماء.

لا يتم سرورهم إلا برؤية تم كبدر التمام، ومصباح الظلام؛ يفر من ظله فراراً، ويريك بياض لونه وسواد منقاره شيباً ووقارا؛ ولا يداوي هموم لغبهم مثل كي، لأجنحته الخوافق في الخافقين نشر وطي، ولا تبتهج نفوسهم النفيسة إلا بإوزة، حين تمتد كأنها مدامة في الزجاجة مفرغة، ولا يؤنسهم إلا الأنيسة الأنيسة، والدرة النفسية ولا يذهب حرجهم غير الحبرج الصادح، والمستوقف بحسنه كل غاد ورائح؛ تكاد قلوبهم تطير بالفرح عند رؤية النسر الطائر، وتجبر خواطرهم بكسر

ذلك الكاسر؛ إذا عاينوا عقباناً أعقبهم الفرح، ونزح عنهم الترح، وإن كركركي فر عنهم البوس، ورأوا على رأسه ذلك التاج الذي لم يعل مثله على الرؤوس؛ وإن عرض غرنوق غزقوا في بحار أفكارهم، وجدوا إلى أن يقع بمجدول أوتارهم وأن لاح ضوع كالذهب الموضوعة، ألقوه في الحبال وهو بدمه مصبوغ، وأن مر مرزم كالخودة الحسناء، ضربوا له الآلةالحدباء، وإن مر السبيطر أجنحته كالسحائب، جاءته المرامي من كل جانب، وأن عن عنز عمدوا إليه، حتى يسقط في يديه؛ قد تعالوا في رتبعا وتغالوا في وصف وشيها، وجعلوا كل آلة صنيعة، وربة جمال منيعة، وبعيدة الرمي بديعة : – من كل قوس هي في العين كالحاجب ، أو النون التي أجادها الكاتب؛ تدور الطائر عند الرمي وتذييه، وتئن أنيناً أولى به من تصيبه. وبندق جبلت طينته على صوب الصواب، يستنزل الطير ولو استتر بذيل السحاب الواكف، فينقض عليه انقضاض البرق الخاطف، ويرجع النسر من حتفه راتعاً، ويغدو بعد أن كان طائراً واقعاً، ويصير بعد أن كان كاسراً مكسوراً، وفي سوار القسي مأسوراً؛ فهنالك يلفى الغالب وهو مغلوب، والطير الواجب وهو مندوب؛ فحينئذ تنشرح النفوس، وتطرب ولا طربها بالكؤوس.

ولما كان بهذه المنزلة العظيمة، والمرتبة الجسيمة، تعاطته الملوك وأبناء الملوك، ونظموا عقده بحسن السلوك، وارتاضت به النفوس الطاهرة، واعتاضت به عن الكؤوس الدائرة، ورأت به تكميل الأدوات، وسامت به فعل الواجب وإن قيل: إن ذلك من الهفوات؛ فهو تعب تنشأ الراحة عنه، ولعب لم يكن شيء أشبه بالجد منه.

فلذلك قصد الجناب الكريم، العالي، الصلاحي، صلاح الدنيا والدين، ونجاح الطالبين، سليل الوزراء، ونجل الكبراء، وصدر الرؤساء، وعين العظماء، ابن المقر المحيوي بن فضل الله، أدام الله تعالى علاه، وكتب عداه، وأعلى معاليه، وشكر مساعيه، وأطال حياته، وأطاب ذاته – أن يسلك تلك المسالك، ويريض نفسه الكريمة بذلك، ويتحيل على تحصيل اللذات بالتحول، عملاً بقول الشاعر:
تنقل فلذات الهوى في التنقل! وعمد إلى تحصيل آلاته، سائراً كالبدر في هالاته، فسار مع سرايا كالنجوم، يتفاكهون في الحديث بالمنثور والمنظوم، ويخلطون جد

القول بهزله،كلما خلط لهم طل الجود بوبله، وانحدروا في النيل بجمعهم الصحيح، وقصدوا المرامي العالية ولم يقنعوا من الأيام بالريح، وظلوا يسيرون في تلك المراكب، التي كأنها قطع السحائب.

هذا وهم يتشوفون إلى المصايد، ويتشرفون إلى الشوارد، فيطلعون أحياناً إلى البر متفرجين، وبطيب ذلك النسيم متأرجين:

نسيم قد سرى فيهم بنشر ... فأذكرهم بمسراه السريا
كرامته استقرت حين وافى ... له نفس يعيد الميت حيا!

ويجتنون من الغصن الزاهي قداً، ويجتلون من الورد الزاهر خداً، ويتأملون ضحك الأرض من بكاء السماء، وشماخة القضب عند خرير الماء؛ لا تذوق أجفانهم طعم الكرى، ولا يميلون عن السير ولا يملون السرى؛ ما منهم إلا من إذا رأى الطير جائشاً ، عاد من وقته له حائشاً؛ بينما هم يسيرون متفرقين، حتى إذا لاح لهم طير تداعوا إليه غير مقصرين والتفوا محلقين؛ ولم يزالوا كذلك ينهمون العيش، بالدعة والطيش؛ حتى إذا أقبل اليوم المبارك الثامن والعشرون من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وسبعمائة، وهو اليوم الذي عزم فيه الجناب الصلاحي على الاصطياد، بالبنادق الحداد، فتباشرت به الطيور، وسدت بأجنحتها الثغور، وسهل عندها فيه نزول الرئيس، فجادت له بالنفيس، وخرجت من قشرها، وسمحت عند مد القوس بحز نحرها، ورغب كل منها أن يكون له بذلك أوفر القسم، وترجى أن يكون هو المكتوب له في القدم.

ومد يده نحو السما، فأصاب مرزما؛ فيا له من صيد فاق به على الأكابر الصيد! ويا له من يوم صار بنحر الطير يوم العيد!! قام فيه بواجب ما شرعه الرماة من الشرع، وذكرنا بهذا الصرع يوم ذلك الصرع؛ فلا زال سهمه مسدد الأغراض، وجوهره محمياً من الأغراض؛ يجري بمراده المقدور، ويطيعه في سائر الأمور.

وقد نظمت مخمساً مشتملاً على ذكر طيور الواجب، وطرزته باسمه، لأن هده القدمه قد قدمت له وجعلت برسمه؛ غير أني أعتذر عنها، لعدم مادة عني أستمد منها:

جل كؤوساً عطلت بالراح ... ولا تطع فيها كلام لاحي

واشرب هنيئاً واسقني ياصاح ... واذكر زماناً مر بالأفراح
هبت به فيما مضى رياحي!
أيام كنت أصحب الأكابرا ... وأغتدي مع الرماة سائرا
ولا أزال بالغيار غائرا ... إذا رأيت في المياه طائرا
نحوته من سائر النواحي !
فتارة كنت أصيد النسر ... وبعدها العقاب يحكي الجمرا
والكي والكركي صدت جهرا ... وصدت غرنوقاً وعنزاً قهرا
وكنت بالإوز في انشراح!
وتارة تمن كبدر التم ... تتبعه أنيسة كالنجم
ولغلغ أسود مسك الهم ... وحبرج عن الرماة محمي
والضوع مع سبيطر سياح!
وكم وكم قد صدت يوماً مرزما ... أنزلته بالقوس من جو السما
جناحه يحكي طرازاً معلما ... على بياض شية شبه الدما
كأنه ليل على صباح!
حيث الصبا تشفع بالقبول ... وشملنا يجمع بالشمول
في مجلس ليس به فضولي ... وجاءنا التوقيع في الوصول:
فسادكم يغفر بالصلاح
السيد الفائق في أفعاله ... والمزدري بالبدر في كماله
والمشتري حسن الثنا بماله ... لا أحد يحكيه في نواله:
إلا أخوه معدن السماح!
من ساد في الدنيا على الكتاب ... وصان سر الملك في حجاب
علي العالي على السحاب ... الباذل المال بلا حساب!
زاده الله نعما، وأجرى له الندى يدا، وثبت له في العلى قدما؛ بمنه وكرمه.

وهذه نسخة رسالة في صيد البندق، من إنشاء الشيخ شهاب الدين أبي الثناء محمود بن سلمان الحلبي، رحمه الله؛ وهي: الرياضة – أطال الله بقاء الجناب الفلاني،

وجعل حبه كقلب عدوه واجباً، وسعده كوصف عبده للمسار جالباً، وللمضار حاجباً – تبعث النفس على مجانبة الدعة والسكون، وتصونها عن مشابهة الحمائم في الركون إلى الوكون، وتحضها على أخذ حظها من كل فن حسن، وتحثها على إضافة الأدوات الكاملة إلى فصاحة اللسن، وتأخذ به طوراً في الجد وطوراً في اللعب، وتصرفها من ملاذ السمو في المشاق التي يستروح إليها التعب؛ فتارة تحمل الأكابر والعظماء في طلب الصيد على مواصلة السرى، ومقاطعة الكرى، ومهاجرة الأوطار، ومهاجمة الأقطار، ومكابدة الهواجر، ومبادرة الأوابد التي لا تدرك حتى تبلغ القلوب الحناجر؛ وذلك من محاسن أوصافهم التي يذم المعرض عنها، وإذا كان المقصود من ميلهم جد الحرب فهذه صورة لعب يخرج إليها منها. وتارة يدعوهم إلى البروز إلى الملق، ويحدوهم في سلوك طريقها مع من هو دونهم على ملازمة الصدق ومجانبة الملق، فيعتسفون إليها الدجى، إذا سجى، ويقتحمون في بلوغها حرق النهار، إذا انهار، ويتنعمون بوعثاء السفر، في بلوغ الظفر، ويستصغرون ركوب الخطر، في إدراك الوطر، ويؤثرون السهر على النوم، والليلة على اليوم، والبندق على السهام، والوحدة على الالتئام.

ولما عدنا من الصيد الذي اتصل به حديثه، وشرح له قديم أمره وحديثه، تقنا إلى أن نشفع صيد السوانح، برمي الصوادح، وأن نفعل في الطير الجوانح، بأهلة القسي ما تفعل الجوارح، تفضيلاً لملازمة الارتحال، على الإقامة في الرحال، وأخذاً بقولهم:

لا يصلح النفس إذ كانت مدبرة ... إلا التنقل من حال إلى حال!

فبرزنا وشمس الأصيل تجود بنفسها، وتسير من الأفق الغربي إلى موضع رمسها، وتغازل عيون النور بمقلة أرمد، وتنظر إلى صفحات الورد نظر المريض إلى وجوه العود، فكأنها كئيب أضحى من الفراق على فرق، أو عليل يقضي بين صحبه بقايا مدة الرمق؛ وقد اخضلت عيون النور لوداعها، وهم الروض بخلع حلته المموهة بذهب شعاعها:

والطل في أعين النوار تحسبه ... دمع تحير لم يرقأ ولم يكف:

كلؤلؤ ظل عطف الغصن متشحاً ... بعقده وتبدى منه في شنف

يضم من سندس الأوراق في صرر ... خضر ويجنى من الأزهار في صدف
والشمس في طفل الإمساء تنظر من ... طرف غدا وهو من خوف الفراق خفي
كعاشق سار عن أحبابه وهفا ... به الهوى فتراآهم على شرف

إلى أن نضى المغرب عن الأفق حلي قلائدها، وعوضه عنها من النجوم بخدمها وولائدها؛ فلبثنا بعد أداء الفرض لبثا الأهلة، ومنعنا جفوننا أن ترد النوم إلا تحلة؛ ونهضنا وبرد الليل موشع، وعقده مرصع؛ وإكليله مجوهر، وأديمه معنبر؛ وبدره في خدر سراره مستكن، وفجره في حشا مطالعه مستجن؛ كأن امتزاج لونه بشفق الكواكب خليطا مسك وصندل، وكأن ثرياه لامتداده معلقة بأمراس كتان إلى صم جندل:

ولاحت نجوم الليل زهراً كأنها ... عقود على خود من الزنج تنظم
محلقة في الجو تحسب أنها ... " طيور " على نهر المجرة حوم
إذا لاح بازي الصبح ولت يؤمها ... إلى الغرب خوفاً منه نسر ومرزم!

إلى حدائق ملتفة، وجداول محتفة؛ إذا خمش النسيم غصونها اعتنقت اعتناق الأحباب، وإذا فرك مر المياه متونها انسابت في الجداول انسياب الحباب، ورقصت في المناهل رقص الحباب؛ وإن لثم ثغور نورها حيته بأنفاس المعشوق، وإن أيقظ نواعس غزقها غنته بألحان المشوق؛ فنسيمها وان، وشميمها لعرف الجنان عنوان، ووردها من سهر نرجسها غيران:

وطلها في خدود الورد منبعث ... طوراً وفي طرر الريحان حيران!

وطائرها غرد، وماؤها مطرد؛ وغصنها تارة يعطفه النسيم إليه فينعطف، وتارة " يعتدل " تحت ورقائه فتحسب أنها همزة على ألف؛ مع ما في تلك الرياض من توافق المحاسن وتباين الترتيب، إذا كل ما اعتل النسيم صح الأرج وكلما خر الماء شمخ القضيب:

فكأنما تلك الغصون إذا ثنت ... أعطافها أريح الصباأحباب:

فلها إذا افترقت من استعطافها ... صلح ومن سجع الحمام عتاب
وكأنها حول العيون موائساً ... شرب وهاتيك المياه شراب!

فغديرها كأس وعذب نطافها ... راح وأضواء النجوم حباب!

يحيط بملق نطاقها صاف، وظلال دوحها ضاف، وحصاها لصفاء مائها في نفس الأمر راكد وفي رأي العين طاف؛ إذا دغدغها النسيم حسبت ماءها بتمايل الظلال فيه يتبرج ويميل؛ وإذا طردت عليه أنفاس الصبا ظننت أفياء تلك الغصون تارة تتموج وتارة تسيل: فكأنه محب هام بالغصون هوى فمثلها في قلبه، وكأن النسيم كلف بها غار من دنوها إليه فميلها عن قربه:

والنون مثل عرائس ... لفت عليهن الملاء
شمرن فضل الأزرعن ... سوق خلاخلهن ماء
والنهر كالمرآة تنظر ... وجهها فيه السماء!!!

وكأن صواف الطيور المتسقة بتلكالأرض خيام، أو ظباء بأعلى الرقمتين قيام، أو أباريق فضة رؤوسها لها أقدام، ومناقيره المحمرة أوائل ما انسكب من المدام، وكأن رقابها رماح أسنتها من ذهب، أو شموع أسود رؤوسها ما انطفى وأحمره ما التهب؛ وكنا كالطير الجليل عدة، وكطراز العمر الأول جدة:

من كل أبلج كالنسيم لطافة ... عف الضمير مهذب الأخلاق
مثل البدور ملاحة، وكعمرها ... عدداً، ومثل الشمس في الإشراق!

ومعهم قسي كالغصون في لطافتها ولينها، والأهلة في نحافتها وتكوينها، والأزاهر في ترافتها وتلوينها؛ بطونها مدبجة، ومتونها مدرجة؛ كأنها كواكب الشولة في انعطافها، أو أوراق الظباء في التفافها؛ لأوتادها عند القوادم أوتار، ولبنادقها " في " الحواصل أوكار؛ إذا انتصيت لصيد ذهب من الحياة نصيبه، وإن انتضت لرمي بدا لها أ،ها أحق بم ممن يصيبه؛ ولعل ذاك الصوت زجر لبندقها أن يبطئفي سيره، أو يتخطى الغرض إلى غيره، أو وحشة لمفارقة أفلاذ كبدها، أو أسف على خروج بينها من يدها؛ على أنها طالما نبذت بينها بالعراء، وشفعت لخصمها التحذير بالإغراء:

مثل العقارب أذناباً معقدة ... لمن تأملها أو حقق النظرا!
إن مدها قمر منهم وعاينه ... مسافر الطير فيها أو نوى سفرا
فهو المسيء اختياراً إذا نوى سفراً ... وقد رأى طالعاً في العقرب القمرا!

ومن البنادق كرات متفقة السرد، متحدة العكس والطرد، كأنما خرطت من المندل الرطب أو عجنت من العنبر الورد؛ تسري كالشهب في الظلام، وتسبق إلى مقاتل الطير مسددات السهام:

مثل النجوم إذا ما سرن في أفق ... عن الأهلة لكن نونها راء
ما فاتها من نجوم الليل إن رمقت ... إلا ثبات يرى فيها وأضواء
تسري ولا يشعر الليل البهيم بها ... كأنها في جفون الليل إغفاء
وتسمع الطير إذ تهفو قوادمه ... خوافقاً في الدياجي وهي صماء!!!

يصونها جرواة كأنها درج درر، أو درج غرر، أو كمامة ثمر، أو كنانة نبل، أو غمامة وبل؛ حالكة الأديم، كأنما رقمت بالشفق حلة ليلها البهيم:

كأنها في وضعها مشرق ... تنبث منه في الدجى الأنجم
أو ديمة قد أطلعت قوسها ... ملوناً وانبثقت تسجم!

فاتخذ كل له مركزاً، وتقضى من الإصابة وعداً منجزاً، وضمن له السعد أن يصبح لمراده محرزاً:

كأنهم في يمن أفعالهم ... في نضر المنصف والجاحد:
قد ولدوا في طالع واحد ... وأشرقوا من مطلع واحد!

فسرت علينا من الطير عصابة، أظلتنا من أجنحتها سحابة، منة كل طائر أقلع يرتاد مرتعاً، فوجد ولكن مصرعاً، وأسف يبتغي ماء جما فوجد ولكن السم منقعاً، وحلق في الفضاء يبغي ملعباً فبات هو وأشياعه سجداً لمحاريب القسي وركعاً؛ فتبركنا بذلك الوجه الجميل، وتداركنا أوائل ذلك القبيل.

فاستقبل أولنا تمام بدره،وعظم في نوعه وقدره؛ كأنه برق كرع في غسق، أو صبح عطف على بقية الدجى عطف النسق؛ تحسبه في أسداف المنى غرة نجح، وتخاله تحث أذيال الدجى طرة صبح؛ عليه من البياض حلة وقار، وله كدهن عنبر فوق منقار من قار؛ له عنق ظليم، والتفاتة ريم،وسرى غيم يصرفه نسيم:

كلون المشيب، وعصر الشباب ... ووقت الوصال، ويوم الظفر!
كأن الدجى غار من لونه ... فأمسك منقاره ثم فر!

فأرسل إليه عن الهلال نجماً، فسقط منه ما كبر بما صغر حجماً؛ فاستبشر بنجاحه، وكبر عند صياحه، وحصله من وسط الماء بجناحه.

وتلاه كي نقي اللباس، مشتعل شيب الرأس، كأنه في عرانين شيبه لا وبله كبير أناس؛ إن أسف في طيرانه فغمام، وإن خفق بجناحه فقلع له بيد النسيم زمام؛ ذو عيبة كالجراب، ومنقار كالحراب، ولون يغر في الدجى كالنجم ويخدع في الضحى كالسراب؛ ظاهر الهرم، كأنما يخبر عن عاد ويحدث عن إرم:

إن عام في زرق الغدير حسبته ... مبيض غيم في أديم سماء
أو طار في أفق السماء ظننته ... في الجو شيخاً عائماً في ماء

متناقض الأوصاف فيه خفة الجهال تحت رزانة العلماء!

فثنى الثاني إليه عنان بندقه، وتوخاه فيما بين رأسه وعنقه، فخر كمارد انقض عليه نجم من أفقه؛ فتلقاه الكبير بالتكبير، واختطفه قبل مصافحة الماء من وجه الغدير.

وقارنته إوزة حلباء دكناء، وحلتها حسناء؛ لها في الفضاء مجال، وعلى طيرانها خفة ذوات التبرج وخفر ربات الحجال؛ كأنما عبت في ذهب، أو خاضت في لهب؛ تختال في مشيتها كالكاعب، وتتأنى في خطوها كاللاعب، وتعطف بجيدها كالظبي الغرير، وتتدافع في سيرها مشي القطاة إلى الغدير:

إذا أقبلت تمشي فخطرة كاعب ... رداح، وإن صاحت فصولة حازم
وإن أقلعت قالت لها الريح: ليت لي ... خفا ذي الخوافي أو قوى ذي القوادم
فأنعم بها في البعد زاد مسافر ... وأحسن بها في القرب تحفة قادم!

فلوى الثالث جيده إليها، وعطف بوجه إقباله عليها، فلجت في ترفعها ممعنة، ثم نزلت على حكمه مذعنة؛ فأعجلها عن استكمال الهبوط، واستولى عليها بعد استمرار القنوط.

وحاذتها لغلغة تحكي لون وشيها، وتصف حسن مشيها، وتربي عليها بغرتها، وتنافسها في المحاسن كضرتها؛ كأنها مدامة قطبت بمائها، أو غمامة شفت عن بعض نجوم سمائها:

بغرة بيضاء ميمونة ... تشرق في الليل كبدر التمام!
وإن تبدت في الضحى خلتها ... في الحلة الدكناء برق الغمام!

فنهض الرابع لاستقبالها، ورماها عن فلك سعده بنجم وبالها؛ فجدت في العلو مبتذة، وتطاردت أمام بندقه ولولا طراد الصيد لم تك لذة؛ وانقض عليها من يده شهاب حتفها، وأدركها الأجل لخفه طيرانها من خلفها، فوقعت من الأفق في كفه، ونفر ما في بقايا صفها عن صفه.

وأتت في إثرها انيسة آنسة، كأنها العذراء العانسة، أو الأدماء الكانسة، وعليها خفر الأبكار، وخفة ذوات الأوكار، وحلاوة المعاني التي تجلى على الأفكار، ولها أنس الربيب، وإدلال الحبيب، وتلفت الزائر المريب من خوف الرقيب؛ ذات عنق كالإبريق، أو الغصن الوريق، قد جمع صفرة البهار إلى حمرة الشقيق، وصدر بهي الملبوس، شهي إلى النفوس، كأنما رقم فيه النهار بالليل أو نقش فيه العاج بالآنبوس، وجناح ينجيها من العطب، يحكي لونها المندل الرطب لولا أنه حطب:

مذبحه الصدر تفويقه ... أضاف إلى الليل ضوء النهار
لها عنق خاله من رآه ... شقائق قد سيجت بالبهار!

فوثب الخامس منها إلى الغنيمة، ونظم في سلك رميه تلك الدرة اليتيمة، وحصل بتحصيلها بين الرماة على الرتبة الجسيمة.

وأتى على صوتها حبرج تسبق همته جناحه، ويغلب خفق قوادنا صياحه؛ مدبج المطا، كأنما خلع حلة منكبيه على القطا؛ ينظر من لهب، ويخطو على رجلين من ذهب:

يزور الرياض، ويجفو الحياض ... ويشبه في اللون كدر القطا
ويغوي الزروع ويلهو بها ... ولا يرد الماء إلا خطى!

فبدره السادس قبل ارتفاعه، وأعان قوسه بامتداد باعه، وفخر على الألاء كبسطام بن قيس، وانقض عليه راميه " فحصله " بحذق وحمله بكيس.

وتعذر على السابع مرامه، ونبا " به " عن بلوغ الأرب مقامه؛ فصعد هو وترب له إلى جبل، وثبت في موقفه من لم يكن له بمرافقتهما قبل.

فعن له نسر ذو قوائم شداد ومناسر حداد، كأنه من نسور لقمان بن عاد؛ تحسبه في السماء ثالث أخويه، وتخاله في الفضاء قبته المنسوبة إليه؛ قد حلق كالفقراء رأسه،

وجعل مما قصر من الدلوق الدكن لباسه، واشتمل من الرياش العسلي إزاراً، وألف العزلة فلا تجد له إلا في قنن الجبال الشواهق مزاراً؛ قد شابت نواصي الليل وهو لم يشب، ومضت الدهور وهو من الحوادث في معقل أشب:

مليك طيور الأرض شرقاً ومغرباً ... وفي الأفق الأعلى له أخوان!
له حال فتاك، وحلية ناسك ... وإسراع مقدام، وفترة وان!

فدنا من مطاره، وتوخى ببندقه عنقه فوقع في منقاره؛ كأنما هد منه صخراً، أو هدم به بناءً مشمخراً؛ ونظر إلى رفيقه، مبشراً له بما امتاز به عن فريقه.

وإذا به قد أظلته عقاب كاسر، كأنما أضلت صيداً أفلت من المناسر؛ إن حطت فسحاب انكشف، وإن أقامت فكأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف، بعيدة ما بين المناكب:

إذا أقلعت لجت علوا كأنما ... تحاول ثأراً عند بعض الكواكب
يرى الطير والوحش في كفها ... ومنقارها ذا عظام مزاله
فلو أمكن الشمس من خوفها ... إذا طلعت ما تسمت غزاله!

فوثب إليها الثامن وثبة ليث قد وثق من حركاته بنجاحها، ورماها بأول بندقى فما أخطأ قادمة جناحها؛ فأهوت كعود صرع، أو طود صدع؛ قد ذهب باسها، وتذهب بدمها لباسها؛ وكذلك القدر يخادع الجو عن عقابه، ويستنزل الأعصم من عقابه، فحملها بجناحها المهيض، ورفعها بعد الترفع في أوج جوها من الحضيض، ونزل إلى الرفقة، جذلاً بربح الصفقة.

فوجد التاسع قد مر به كركي طويل الشفار، سريع النفار، شهي الفراق، كثير الاغتراب يشتو بمصر ويصيف بالعراق؛ لقوادمه في الجو حفيف، ولأديمه لون سماء طرأ عليها غيم خفيف؛ تحن إلى صوته الجوارح، تعجب من قوته الرياح البوارح؛ له أثر حمرة في رأسه كوميض جمر تحت رماد، أو بقية جرح تحت ضماد، أو فص عقيق شفت عنه بقايا ثماد؛ ذو منقار كسنان، وعنق كعنان؛ كأنما ينوس على عودين من آبنوس:

إذا بدا في أفق مقلعاً ... والجو كالماء تفاويفه:
حسبته في لجة مركباً ... رجلاه في الأفق مجاديفه!

فصبر له حتى جازه مجلياً، وعطف عليه مصلياً، فخر مضرجاً بدمه، وسقط مشرفاً على عدمه؛ وطالما أفلت لدى الكواسر من أظفار المنون، وأصابه القدر بحبة من حمإ مسنون؛ فكثر التكبير من أجله، وحمله على وجه الماء برجله.

وحاذاه غرنوق حكاه في زيه وقدره، وامتاز عنه بسواد رأسه وصدره؛ له ريشتان ممدودتان من رأسه إلى خلفه، معقودتان من أذنيه مكان شنفه:

له من الكركي أوصافه ... سوى سواد الصدر والراس
إن شال رجلاً وانبرى قائماً ... ألفيته هيأة برجاس!

فأصغى العاشر له منصتاً، ورماه متلفتاً؛ فخر كأنه صريع الألحان، أو نزيف بنت الحان؛ فأهوى إلى رجله بيده " وأيد " ، وانقض عليه انقضاض الكاسر على صيده.

وتبعه في المطار ضوع، كأنه من النضار مصنوع، تحسبه عاشقاً قد مد صفحته، أو بارقاً قد بث لفحته:

طويلة رجلاه مسودة ... كأنما منقاره خنجر
مثل عجوز رأسها أشمط ... جاءت وفي رقبتها معجر!

فاستقبله الحادي عشر ووثب، ورماه حين حاذاه من كثب، فسقط كفارس تقطر عن جواده، أو وامق أصيبت حبة فؤاده؛ فحمله بساقه، وعدل به إلى رفاقه.

واقترن به مرزم له في السماء سمي معروف، ذو منقار كصدغ معطوف، كأن رياشه فلق اتصل به شفق، أو ماء صاف علق بأطرافه علق:

له جسم من الثلج ... على رجلين من نار:
إذا أقلع ليلاً قل ... ت برق في الدجى ساري!

فانتحاه الثاني عشر ميمماً، ورماه مصمماً، فأصابه في زوره، وحصله من فوره، وحصل له من السرور ما خرج به عن طوره.

والتحق به سبيطر، كأنه " مدية " مبيطر؛ ينحط كالسيل، ويكر على الكواسر كالخيل، ويجمع من لونيه بين ضددين يقب منهما بالنهار ويدبر بالليل؛ يتلوى في منقاره الأيم، تلوي التنين في الغيم:

تراه في الجو ممتد وفي فمه ... من الأفاعي شجاع أرقم ذكر:
كأنه قوس رامٍ عنقه يدها ... ورجله رجلها والحية الوتر!

فصوب الثالث عشر إليه بندقه، فقطع لحيه وعنقه؛ فوقع كالصرح الممرد، أو الطراف الممدد.

وأتبعه عناز أصبح في اللون ضده، وفي الشكل نده؛ كأنه ليل ضم الصبح إلى صدره، أو انطوى على هالة بدره:

تراه في الجو عند الصبح حين بدا ... مسود أجنحة مبيض حيزوم:
كأنه حبشي عام في نهر ... وضم فيصدره طفلاً من الروم!

فنهض تمام القوم إلى التتمة، وأسفرت عن نجح الجماعة تلك الليلة المدلهمة؛ وغدا ذلك الطير الواجب واجباً، وكمل العدد به قبل أن تطلع الشمس عيناً أو تبرز حاجباً؛ فيا لها ليلة حضرنا بها الصادح في الفضاء المتسع، ولقيت فيها الطير ما طارت به من قبل على كل شمل مجتمع، وأصبحت أشلاؤها على وجه الأرض كفرائد خانها النظام، أو شرب كأن رقابها من اللين لم يخلق لهن عظام؛ وأصبحن مثنين على مقامنا، منثنين بالظفر إلى مستقرنا ومقامنا، داعين للمولى جهدنا، مذعنين له قبلنا أو ردنا، حاملين ما صرعنا إلى بين يديه، عاملين على التشرف بخدمته والانتماء إليه:

فأنت الذي لم يلف من لا يوده ... ويدعى له في السر أو يدعى له:
فإن كان رمي، أنت توضح طرقه ... وإن كان جيش: أنت تحمي قبيله!

والله تعالى يجعل الآمال منوطة به وقد فعل، ويجعله كهفاً للأولياء وقد جعل، بمنه وكرمه. "إنما أثبت هذه الرسالة بكمالها لكثرة ما اشتملت عليه من الأوصاف، ولتعلق بعضها ببعض".

الفصل الرابع من الباب الأول من المقالة العاشرة في الصدقات وفيه طرفان

الطرف الأول في الصدقات الملوكية وما في معناها

قد جرت العادة أنه إذا تزوج سلطان أو ولده أو بنته أو أحجد من الأمراء الأكابر أو أعيان الدولة أن تكتب له خطبة صداق تكون في الطول والقصر بحسب صاحب العقد، فتطال للملوك وتقصر لمن دجونه بحسب الحال.

وهذه نسخة صداق كتب به للملك السعيد بركة، ابن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري، على بنت الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي الألفي قبل سلطنته، بالقلعة المحروسة، من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر؛ وهي: الحمد لله موفق الآمال لأسعد حركة، ومصدق الفأل لمن جعل عنده أعظم بركة، ومحقق الإقبال لمن أصبح نسيبه سلطانه وصهره ملكه الذي جعل للأولياء من لدنه سلطاناً نصيراً، وميز أقدارهم باصطفاء تأهله حتى حازوا نعيماً وملكاً كبيراً وأفرد فخارهم بتقريبه حتى أفاد شمس آمالهم ضياء وزاد قمرها نوراً، وشرف به وصلتهم حتى أصبح فضل الله عليهم بها عظيماً وإنعامه كثيراً، مهيئ أسباب التوفيق العاجلة والآجلة، وجاعل ربوع كل إملاك من الأملاك بالشموس والبدور والأهلة آهلة،جامع أطراف الفخار لذوي الإيثار حتى حصلت لهم النعمة الشاملة وحلت عندهم البركة الكاملة.

نحمده على أن أحسن عند الأولياء بالنعمة الاستيداع، وأجمل لتأميلهم الاستطلاع، وكمل لأخيارهم الأجناس من العز والأنواع، وأتى آمالهم بما لم يكن في حساب أحسابهم من الابتداء التخويل والابتداع، واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة حسنة الأوضاع، ملية بتشريف الألسنة وتكريم الأسماع، ونصلي سيدنا محمد الذي أعلى به الأقدار، وشرف به الموالي والأصهار، وجعل كرمه داراً لهم في كل دار، وفجره على من استطلعهم من المهاجرين والأنصار مشرق الأنوار، صلى الله عليه وعليهم صلاة زاهية الأزهار، يانعة الثمار.

وبعد، فلو كان اتصال كل شيء بحسب المتصل به في تفضيله، لما استصلح البدر شيئاً من المنازل لنزوله، ولا الغيث شيئاً من الرياض لهطوله، ولا الذكر الحكيم

لساناً من الألسنة لترتيله، ولا الجوهر الثمين شيئاً من التيجان لحلوله؛ لكن يتشرف بيت يحل به القمر، نبت و يزوره المطر، ولسان يتعوذ بالآيات والسور، ونثار يتجمل باللآليء والدرر؛ ولذلك تجملت برسول الله صلى الله عليه وسلم أصهاره وأصحابه، وتشرفت أنسابهم بأنسابه، وتزوج صلى الله عليه وسلم منهم، وتمت لهم مزية الفخار حتى رضوا عن الله ورضي عنهم.

والمرتب على هذه القاعدة الفاضلة نور يستمده الوجود وتقرير أمر يقارن سعد الأخبية منه سعد السعود، ولإظهار خطبة تقول للثريا لانتظام عقودها: كيف، وإبراز وصلة يتجمل

يتم بها – إن شاء الله – كل أمر سديد، ويتفق به كل توفيق تخلق الأيام وهو جديد، ويختار لها أبرك طالع: وكيف لا تكون البركة في ذلك الطالع وهو السعيد؟.

وذلك بأن المراحم الشريفة السلطانية أرادت أن تحصن المجلس السامي بالإحسان المبتكر، وتفرده بالمواهب التي يرهف بها الحد المنتضى ويعظم الجد المنتظر، وأن ترفع من قدره بالصهارة مثل ما رفعه صلى الله عليه وسلم من قدر صاحبيه: أبي بكر وعمر، فخطب إليه أسعد البرية، وأمنع من تحميها السيوف المشرفية، وأعز من تسبل عليها ستور الصون الخفية، وتضرب دونها خدور الجلال الرضية، وتتحمل بنعوتها العقود: وكيف لا؟وهي الدرة الألفية؛ فقال والدها وهو الأمير المذكور: هكذا ترفع الأقدار وتزان، وكذا يكون قران السعد وسعد القران!!!؛ وما أسعد روضا أصبحت هذه المراحم الشريفة السلطانية له خميلة!، وأشرف سيفاً غدت منطقة بروج سمائها له حميلة!، وما أعظمها معجزة آتت الأولياء من لدنها سلطاناً!، وزادتهم مع إيمانهم إيماناً! وما أفخرها صهارة يقول التوفيق لإبرامها: ليت!، وأشرفها عبودية كرمت سلمانها بأن جعلته من أهل البيت!.

وإذ قد حصلت الاستخارة في قدر المملوك، وخصصته بهذه المزية التي تقاصرت عنها آمال أكابر الملوك؛ فالأمر لملك البسيطة في رفع درجات عبيده كيف يشاء، والتصدق بما يتفوه به هذا الإنشاء؛ وهو: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب مبارك

تحاسدت رماح الخط وأقلام الخط على تحريره، وتنافست مطالع النوار ومشارق الأنوار على نظم سطوره، فأضاء نوره بالجلالة وأشرق، وهطل نوءه بالإحسان فأغدق، وتناست فيه أجناس تجنيس لفظ الفضل فقال الاعتراف: هذا ما تصدق، وقال العزف: هذا ما أصدق مولانا السلطان: أصدقها ما ملأ خزائن الأحساب فخاراً، وشجرة الأنساب ثماراً، ومشكاة الجلالة أنواراً، وأضاف إلى ذلك ما لولا أدب الشرع لكان أقاليم ومدائن وأمصاراً فبذل لها من العين المصري ما هو باسم والدها قد تشرف، وبنعوته قد تعرف، وبين يدي هباته وصدقاته قد تصرف.

وهذه نسخة صداق المقام الشريف العالي السيفي " أنوك " ، ولد السلطان الشهيد الملك الناصر " محمد بن قلاوون " على بنت المقر المرحوم السيفي " بكتمر الساقي " . وكان العاقد قاضي القضاة جلال الدين القزويني، والقابل السلطان الملك الناصر والد الزوج؛ وهي: الحمد لله مسير لشمس والقمر، ومسير حياة كل شيء باتصال الروض بالمطر، ومبشر المتقين من دراري الذراري بأسعد كوكب ينتظر، وأحمد عاقبةٍ تهتز لها أعطاف عظماء الملوك على كبر، وتتجاب عن الأنجاب كما تتفتح الأكمام عن الثمر،الذي مد الشجرة المباركة الملوكية فروعاً التفت بعضها على بعض، ورفت على من استظل بها فراقب السماء على الأرض. نحمده على نعمه التي أطابت لنا جنى الغروس، وأطالت منا منى النفوس، وأطافت بملوكنا حتى مدت لسؤالهم الأيدي وخضعت لأمرهم الرؤوس، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك شهادة نتخذها عصمةً نافعة، ونعمة لحسن العاقبة جامعة، ورحمة تبارك على أئمتنا وعلى أبنائهم البدور الطالعة، والأنوار الساطعة، والبروق اللامعة، والغيوث الهامعة، والسيول الدافعة، والأسود التي هي عن حرم حضرتها مانعة، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أزان من تمسك له بحسب، وشرف من اعترى إليه بالقربى أو اعتز منه بصهر أو نسب، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذي أرضاهم ورضي عنهم، وكرمهم بصلته الشريفة لما زوجهم وتزوج منهم، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإن من عادة الغمام أن يتفقد الأرض بمطره، والبحر أن يسقي الزروع بما فاض من نهره، والمصابيح أن تمد بأنوارها ما يتوقد، والسماء أن لا يخلو

أفقها من اتصال فرقد بفرقد؛ ولو توقفت الفربى على مقارنة كبير، أو مقارنة نظير، لما صلحت الأغماد لمضاجع السيوف ولا دنت الكواكب من الشمس والقمر المنير، ولا صافحت يمين شمالاً، ولا جاوزت جنوب شمالاً، ولا حوت الكنائن سهاماً، ولا جمع السلك للجواهر نظاماً، ولا طمح طرف إلى غاية، ولا قدر لسان إنسان على تلاوة سورة ولا آية؛ وإنما الصدقات الشريفة الملوكية لها في البر عوائد، وفي الخير سجايا يقتدي فيها الولد بالوالد.

ولم يزل من المقام الشريف، الأعظم، العالي، المولوي، السلطاني، الملكي، الناصري، أعز الله سلطانه على من لاذ به تسبل ذيول الفخار، وتودع في هالات أقمارهم ودائع الأنوار، وتؤهل أهلتهم لأن يكون منها أحد الأبوين لذريته الأطهار، وتخطب من حجبهم كل مصونة يغور بها بدر الدجى وتغار منها شمس النهار. وكان من تمام النعمة الشريفة السلطانية، الناصرية، على من تعرض لسحابها الماطر، ووقف للاغتراف من بحرها الزاخر - ما رفعت به ذكره إلى آخر الأبد، ولأتمت له السعادة إذ كان يعد في جدود من ينسب إليه من ولد، وأكدت له بالقربى مزية مزيد، واستخرجت من بحره جوهرة لا يطمح في التطوق بها كل جيد، وقالت: نحن أحق بتكميل ما بيننا، وتخويل الخؤولة من أولينا، وتأهيل من قر بنا عيناً وقربناه إلينا، وتفضيل غرس نعمة نحن غرسناه واجتنينا ثمراته بيدينا، فاقتضى حسن الاختيار الشريف الملكي الناصري، لولده المقام العالي السيفي، أحسن الله لهما الاختيار، وأجرى بإرادتهما اقتدار الأقدار - أن تزف أتم الشموس إلى ستوره الرفيعة، وتصان أكمل معاقل العقائل بحجبه المنيعة، وتحاط أشرف الدرر في مستودعه، وتناط أشرف الدراري بمطلعه، وتساق إليه الكريمة حسبا، العظيمة بأبيه - عظم الله سلطانه - أبا، الذي كم له في خدمة الدولة القاهرة من مناقب كالنجوم، ومذاهب تشبه بها البرق فتشبث بأذيال الغيوم، ومراتب تقدم فيها على كل نظير قال: وما منا إلا من له مقام معلوم؛ من قدره لا يسامى ولا يسام، ورأيه لا يرامى ولا يرام، وسيفه في غير طاعتنا الشريفة لا يشيم ولا يشام، وهو " سيف الدولة " لا كما يسمى به من استعار هذا اللقب في سالف الأيام؛ كم له في

مراضى سلطانه من رغبة بذل بها ما لديه، وسمح فيها بولده وهو أحب شيء إليه، وجاد بروحه أو بما هو أعز عليه؛ كم نبهت بعزائمه السيوف من سناتها؛ و كم وهبت من مكارمه الأيام ما يعد من حسناتها؛ كم التهبت صوارمه ناراً فجرت من جنباتها؛ كم لسماء الملك بشهبه من حرس، وبقضبه من قبس، وكم قام وقعد في مصلحة وكان أدناهم من ملكه مقاماً لما قام وأعلاهم مجلساً لما جلس، فسمع المقام العالي السيفي وأطاع، وانتهى إلى ما برزت به مراسم والده – أنفذها الله –
وامتثل أمره المطاع، وعمل برأيه الشريف وهو ناصر السنة فقدم فيها ما استطاع، وسارع إلى ما أمر الله به من الألفة والاجتماع، واتبع السنة النبوية في تكثير الأمة بذرية أئمة ملوكية كل واحد منها له الأمة أتباع، لعلمه اليقين أنه لو خطب له والده في أقطار الأرض إلى جميع الملوك، لم يجد منهم إلا كل ملك عظيم وهو له عبد مملوك، فأحيى سنة شريفة ملوكية ما برحت الخلفاء والملوك تحفظ بها قلوب أوليائها على أمداد المدى، ويكفي من هذا ميمون فعل " المأمون " لما تزوج " بوران " من أبيها " ابن سهل " وخطب " المعتضد " إلى " ابن طولون " ابنته " قطر الندى " .
ورأى والدها أعزه الله تعالى قدراً هاله مهابة فسلم وقال: للمالك التصرف وللملك التصريف، وإذا اقتضى حسن النظر الشريف تشريف عبد فياحبذا التشريف، ويا حبذا السبب الذي اتصلت له بالمقام الشريف الأسباب، واحتفلت للاجتماع على سنة وكتاب، فتحاسدت على إثباته صفر الأصائل وحمر النعم، وتنافست على رقم سطوره صحائف السحاب وصفيح الماء وصليل السيف وصرير القلم، وتمنت الكواكب لو اجتمعت في يومه المشهود، والمناقب لو أنها حولها بمقانب خافقة البنود، وودت نسمات الأسحار لو كانت هي التي سعت بالاتفاق، والحمائم لو أبيح لها أن تغرد وتخلع ما في أعناقها من الأطواق، بل السيوف لما رأت مقام الجلالة أغضت وغضت الأحداق، والرماح لما بدا لها سرير الملك مائلاً وقفت على ساق.

فبرزت المراسم الشريفة – زادها الله شرفاً – بتحرير هذا الكتاب الكريم، وتنضيد ما يصلح من الدرر لهذا العقد النظيم، ونفذ المرسوم العالي المولوي السلطاني ما

أمر به وصدق، وتأدب إجلالاً لمقام أبيه الشريف فأطرق، وتواضع لله فلم يقل: هذا ما تصدق، بل قال: هذا ما أصدق المقام العالي السيفي أنوك ابن مولانا السلطان الأعظم، مالك رقاب الأمم، الملك الناصر، السيد الأجل، العالم، العادل، الغازي، المجاهد، المؤيد، المرابط، المثاغر، المظفر، المنصور، الشاهنشاه، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، ملك البسيطة، ناصر السنة، ركن الشريعة، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، وارث الملك، ملك العرب والعجم والترك، خداوند عالم باشاده بني آدم، بهلوان جهان، وشهريار إيران، اسكندر الزمان مملك أصحاب المنابر والأسرة والتخوت والتيجان، فاتح الأقطار، واهب الممالك والأقاليم والأمصار، مبيد البغاة والطغاة والكفار، صاحب البحرين، حامي الحرمين، خادم القبلتين، كفيل العباد والعباد، مقيم شعائر الحج والجهاد، إمام المتقين، قسيم أمير المؤمنين، أبي المعالي محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور، السيد، الأجل، العالم، العادل، المجاهد، المؤيد، سيف الدين، والد الملوك والسلاطين، أبي الفتوح " قلاوون " ، خلد الله سلطانه، ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه: الحجاب الكريم، الرفيع، المنيع، المصون، المكنون، الجهة المكرمة، المفخمة، المعظمة، بنت الجناب الكريم، العالي، الأميري، الأجلي، الكبيري، العالمي، العادلي،الممهدي، المشيدي، الزعيمي، المقدمي، الغياثي، الغوثي، الذخري، الأوحدي، الظهيري، الكافلي، السيفي، ركن الإسلام والمسلمين، سيد الأمراء في العالمين، نصير الغزاة والمجاهدين، زعيم الجيوش، مقدم العساكر، عون الأمة، غياث الملة، ممهد الدول، مشيد الممالك، ظهير الملوك والسلاطين، عضد أمير المؤمنين، بكتمر الساقي الناصري، ضاعف الله نعمته.

أصدقها ما تلقت به أنسابها إجلالا، وبلغت به أحسابها جمالا، وطلعت في سماء الملك هلالا، ولبست فخارا، وقبست أنوارا، وأوت إلى حصن حصين، ووصلت إلى مقام أمين، " وآبت " بأموال وبنين، ما لولا أدب الشرف، وتجنب السرف، والعمل بالشرع في تعيين معلوم، وتبين مقدار مفهوم، لخرج عن كل وصف محدود، وقدر معدود، ولما قام به موجود، ولكان مما تقل له الممالك ولا يستكثر

لأجله الوجود.

قدم لها من الذهب العين المصري المسكوك ما هو بنقد ممالك والده معروف، ومن حقوقه مقبوض وفي هباته مصروف، ما يحمد مآلا، وينمى مالا، ويأتي كل دينار منه ووجهه بذكر الله واسم أبيه يتلالا.

أصدقها على بركة الله تعالى وعونه وتوفيقه كذا وكذا، عجل لها كذا وكذا، قبضة وكيل والدها من وكيله، قبضاً تاماً كاملاً، وتأخر بعد ذلك كذا وكذا ديناراً حالاً، على ما أمر الله به من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان: " إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون " .

وولي تزويجها منه على الصداق المعين بإذن والدها - أعزه الله تعالى - المقدم ذكره: - العبد الفقير إلى الله تعالى، قاضي القضاة، حاكم الحكام، خطيب خطباء المسلمين، جلال الدين، خالصة أمير المؤمنين، أبو المعالي، محمد ابن قاضي القضاة سعد الدين أبي القاسم، عبد الرحمن ابن الشيخ الإمام العالم العلامة إمام الدين، أبي حفص عمرو بن أحمد القزويني الشافعي، الحاكم بالديار المصرية المحروسة وأعمالها وبلادها، وجندها وضواحيها، وسائر الممالك المضافة إليها، بالولاية الشرعية أدام الله أيامه، وأعز أقضيته وأحكامه، فقبل مولانا السلطان - خلد الله ملكه - لولده المسمى - أدام الله تعالى نعمته - ذلك منه قبولاً شرعياً، يخاطب عليه شفاهاً بحضور من تم العقد بحضوره، في دار الملك بالقصر الأبلق، بقلعة الجبل، حرسها الله تعالى، بكرة يوم السبت حادي عشرين من صفر سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة.

وهذه نسخة صداق المقر الشريف إبراهيم ابن السلطان الشهيد الملك الناصر محمد بن قلاوون، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله؛ وهي: الحمد لله مغني الملوك بالمظافرة، ومكثر زينة الأسماء بنجومهم الزاهرة، ومكبر أقدار الأولياء بما تمت النعمة به من شرف المصاهرة.

نحمده على نعمه التي شرفت قدراً، وصرفت أمراً، وأطلعت من هالة البدر المنيري شمساً لا تتخذ غير الأفق خدراً، ولا تتمنى الليالي والأيام إلا أن تقلدها من

الأشعة ياقوتاً ومن الكواكب دراً، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة تجمع من حماة الدين نسباً وصهراً، وترفع في أنباء الأبناء لها حسباً وذكراً، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي عصم به، وخص صفوة الخلق في المصاهرة باختلاط نسبهم بنسبه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تستوثق بها الأسباب، وتستوسق الأنساب وتبقى أنوارها بملك أبناء الملوك كلمة باقية في الأعقاب، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد، فلما جمع الله بملوك البيت الشريف المنصوري – كثر الله عددهم – شتات الإسلام، ومحا ببوارق جهادهم ما امتد من ظلام، حتى انتهت النوبة إلى من أصبحت به الدولة القاهرة وكل أوقاتها أنوار صباح، ونوار أقاح، وسماء سماح، وأسمى نعم لا تعد إلا معاقد تيجان الملوك على كل جبين وضاح، المقام الشريف العالي المولوي، السلطاني، الملكي، الناصري، زاد الله شرفه، وأعلى على شرفات بروج السماء غرفة، فأحب – لما أجراه الله به وبمن سلف من ملوك بيته لشريف من تأييد هذه الأمة، وتأييد ما شملها بفتوحاتهم المذهبات الفتوح من سوابغ النعمة، أن يعمل بقول نبيه المشرف بموافقة اسمه ومتابعة حكمه في التزويج، وأن تقع مواقع أمطاره على كل أرض حره فتنبت كل زوج بهيج. وكان من بنيه – أدام الله سعودهم – من يطيع في كل أمر أمره العالي أدام الله تمكينه، ولولا هذا لما رضي سوىأقران الفرسان له قرينة، وكان من نجبائهم إذا عدت الأولاد، وأحبائهم إذا كان كما يقال: الولد ثمرة الفؤاد؛ ومن هو لجملتهم جمال، ولدولتهم دلال، ولغابهم أسد الأشبال – من يعترف كل من عرفه بفضله، ويؤمل في أبناءه ما لأبناء سميه إبراهيم صلى الله عليه وسلم من بركة نسله.

برز المرسوم الشريف العالي، المولوي، السلطاني، الملكي، الناصري، أنفذه الله في الأقطار بأن يتخير لمغرسه الكريم، ونسبه الصميم، وصباحه المشرق، وسماحه المغدق، فصادف الإحسان موضعه، وانتخب له من مشرق البدر التمام مطلعه، ومن هو من هذه الدولة القاهرة على الحقيقة باليمين، ومن هو البحر الزاخر ومن مكنونه يستخرج أفخر الثمين، فبادر الخاطب إليه إلى اغتنام هذا الشرف الذي لا يطاول، وعاجل هذه النعمة التي لولا فضل الله وصدقات سلطانه – خلد الله ملكه

– ما كانت مما تحاول، وقال: إن رضيت تلك الستور بهذه المخطوبة، أو أهلت تلك السماء العالية هذه المحجوبة، فهي لما أهلت له في خدمة ذلك المقام الأمين، وهي كما شاء مالكها المتصدق من ذوات العفة وإلا فهي مما ملكت اليمين، فأتمت الصدقة الشريفة عوارفه بما هو أشرف مقاما، وأعظم لها في رتبة الفخار فهي تسمو بهذا ولا تسامى، وشرفته بما وصلت إليه عند المقر الشريف من المقام الكريم، ولم تكن إلا من ذوات العقود ولا كيد ولا كرامة لما ينجلي به الليل البهيم، ولا لما يتحلى في جيد الجوزاء من عقد درها النظيم، ولولا إجلال المقام عن التطويل لما اختصر القائل فقال: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أصدق .. الخ ....

الطرف الثاني في صدقات الرؤساء والأعيان وأولادهم

وهي على نحو من الصدقات الملوكية في الترتيب، إلا أنها أخصر، ومن الألقاب بحسب أحوال أصحابها من أرباب السيوف والأقلام.
وهذه نسخة صداق جمال الدين عبد الله " بن سيف الدين أبي سعيد أمير حاجب " على بنت بيدمر العمري، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله؛ وهي: الحمد لله مبلغ كل آمل ما يرجوه، وراعي ذمم من لم ينسوا عهده ولم يخلفوه، ومكمل الخير لكل ذي " ... " يصدوا من يجفوه، ومجيب كل منيب يدعوه قائماً قاعداً: " ولما قام عبد الله يدعوه " .

نحمده حمداً نكرر فضله ونتلوه، ونحل معضله ونجلوه، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يتظافر عليها الآمر المسلم وبنوه، وتبيض بها وجوه الأوداء، وتسود وجوه الأعداء، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي سعد به ذووه، وصعد قدر صهره وحموه، وشرف نسباً ما التقى فيه على سفاح هو ولا أولوه، صلى الله عليه وعلى أله وصحبه صلاة لا يزال بها الروض الأرج يفوه، والسحر يبلغها ولو سكت وختم بالبرق فوه، وسلم

تسليماً.

وبعد، فإن أزهى زهر طاب مجتنوه، وطال باعاً في الفخار مجتبوه، زهر كمامه جرت عنها لأمة كمي، وأبرزتها سنة الإسلام من حجاب ذي أنف حمي، وطلعت من أفق بدري طالما سنح مجتلوه، وحمى سيف أمن في كلئه بكلاءته مختلوه.

وكان الجناب الجمالي عبد الله ابن المرحوم سيف الدين أبي سعيد أمير حاجب، أدام الله تعالى علاه، ورحم أباه، هو ولد ذلك الوالد، وطارف ذلك التالد، ونشو هذه الدولة الشريفة الكاملية التي أخذ منها حظه بالتمام والكمال، وأصبحت به كالغادة الحسناء ذات الحسن والجمال، ولم يمت أبوه في أيام سلطانها – خلد الله ملكه – حتى قرت به عينه، وساواه في الإمرة لولا تفاوت العدة وقدم المدة بينه وبينه، وجاء منه ولد نجيب، وابن شاع وذاع سر أبيه وحمد وهذا عجيب!!!.

ولما انتقل والده رحمه الله تعالى إلى رحمة ربه، وشرب بالكأس الذي لا بد لكل حي من شربه – تطلب مثل ذلك الأب ولم يزل يجد حتى وجد، وظفر بوالد إن لم يكن ولده حقيقة فإنه عنده مثل الولد، وهو المقر بيدمر، وهو الوالد الذي لم يفقد معه من والده ذرة، والأب الذي هو أرأف من كل أم برة، والنير البدري الذي سعد قرانا، وصعد وداس بقدمه أقرانا، وقسم د هره شطرين: نهاره للضيوف قرى وليله لله قرآنا.

هذا إلى أنه طالما طيب لزكاة أمواله وثمرها، وزين في أعماله بمدرسة عمرها، وقيد شوارد حسناته وثقفها، مع أنه شيد الممالك وسدد أمورها، وسد ثغورها، وحمى ببيض سيوفه السواد الأعظم، ورمى بصوائب سهامه النوائب ولم تستعظم، ولم تزل نوب الأيام تجرب منه مسوريا، وتجرد حراً كريماً جاء في أول السنة صقراً بدرياً، فكان من تمام بره بمن سلف إجابة ولده، وإجالة الرأي فيما يكون سبباً لصيانة عزمته وذات يده، فأنعم له بعقيلته الممنعة، وربيبته التي غدت الشمس منها سافرة مقنعة، وقال: على الخير والخيرة، وابن أخ كريم وجدع الحلال انف الغيرة؛ وما أسنى عقداً يكون متوليه، ومنشئه إحساناً منه ومسنيه، مولى به نظمت عقود اللآلي، ورقمت بعلمه أعلام الأيام وذوائب الليالي، وسلمت القضايا به إلى منفذ أحكامها، ومنيل الفضل لحكامها، البحر الزاخر، والنجم الذي

كم ترك الأول منه للآخر، والغمام إلا أنه قضت صواعقه على الخصوم، والإمام الذي أجمعت عليه السنة ولم تنكر الشيعة أنه الإمام المعصوم، والعالم الذي ما برحت بروقه تشام، وحقوقه على أهل مصر والشام، والذي ولى الظلم منذ ولي،واعترف ذوو الفضل والفصل في القضاء أن أتقاهم تقي الدين واقضاهم:

قاضي القضاة أبو الحسن ... ببقائه يجلى الحزن
و " هو " الذي في حكمه ... يجري على أقوى " سنن " !
طود إذا وازنته ... بالطود في حكم وزن !
والبحر طي ردائه ... قلد العقود بلا ثمن!

فأضاء المحفل به وبالحاضرين، وقام شغار الدين حتى قال القائل: هذه سيوف المجاهدين وهذا سيف المناظرين، وقيل: هذا وقت جود قد حضر، وموضع سرور ينبغي أن يعجل منه ما ينتظر، فابتدئ السعد محياه الوسيم،وافتتح فقال: بسم الله الرحمن الرحيم هذا............

وهذه نسخة صداق ناصر الدين محمد بن الخطيري، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله؛وهي: الحمد لله الذي زاد الأصول الطيبة قرباً، وزان الأنساب الطاهرة بصلة تتأكد حباً، وصان كرائم البيوت القديمة الفخار بمن يناضل عن حسبه ذباً، ويناظر العلياء فلم يبن إلا بين منازل النجوم بيوتاً ولم يسبل سوى السمر سمر القنا حجباً.

نحمده حمد من دعاه قبل بث النسم فلبى، واستدعاه لأخذ العهد عليه أمام تفريق القسه فما تأبى، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تستنطق ألسنة وتشكر قلبا، وتستغدق أنواء السرور فتضيء البشائر بروقاً وتمطر الرحمة سحبا، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي قام في تكثير الأمة حتى زاد عددها على مواقع القطر وأربى، وقال مما أمر به: " قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى " صلى الله عليه وعلى آله و صحبه وعلى أقرباءه صلاة تضم آلاً وصحبا، ما سارت الشهب تقطع الآفاق شرقاً وغربا، وسلم تسليماً.

وبعد، فإن أولى ما اشتبك وشيجه، واشتبه في منابت الأيك بهيجه، وانتبه في

أرائك الخمائل أريجه، وانتدب لإتيانه الأفق وظهر عليه من ذهب العشاء تمويهه ومن لمع الصباح تدبيجه – ما اتبعت فيه الشريعة المطهرة حيث لا تختلف الأئمة، والسنة النبوية على من سنها أفضل الصلاة والسلام فيما تأتلف به البعداء وتكثر لمباهاته الأمم يوم القيامة هذه الأمة، وتدنو به الأجانب بعضهم من بعض ويجعل بينهم مودة ورحمة، وتعد به أياد جمة لا تحصر ويخلد به في العاقبة شرف الكر ويتعجل به شرف النعمة؛ وهو النكاح الذي تشتد به الأواصر، وتعتد به الموارد لتمثيل أكثر الصور من أزكى العناصر، وتمتد به همم الأبطال لما يستخرجه بحفدة أبنائه من أتم قوة وناصر. وأكمله ما تماثلت في أشرف البيوت العريقة وجوه فخاره، وتقابلت في مطالع السعود – حيث البدر المنير والشرف الخطير – مشارق شموسه ومطالع أقماره.

وكان الأبوان في أهل الفخار من جرثومة بسقا، وأورامة تفرقت فروعها ثم تلاقى منها غصنان واعتنقا، من بيت ما حجبه إلا مواضي الصفاح، ولا شهبه إلا طلائع الأسنة في رؤوس الرماح، ولا سحبه إلا ما يفيض على جنباته من النفوس أو يفيض من السماح، ولا سجفه إلا المناقب لولا أن الثريا جاذبت ما يعرض في السماء أثناء الوشاح؛ وكان هو الراغب إلى عمه، الخاطب إليه ما لم يكن يخبأ إلا لقسمه، الطامح بنظره إلى عقيلة الفخار في غرفها، الطامع بخطبه الشمس شمس النهار إلا أنها في بيت شرفها، المتوقع من كرم عمه الإجابة التي لحظها بأمله، وتولية يد كريمة لا يعتدل الزمان إلا إذا حملت شمسها في بيت حمله، توقعاً لنسل لا يزال به شرف هذا البيت الكريم موجوداً، ونسب إذا عد ولد منه الأباء عد جدين سعيدين هذا مسعوداً وهذا محموداً، فتلقى قصده بإكرام بوأه أكناف الشرف، وأوطأه فرش الكرامة ممتعاً بنعيم الترف، ابتداعاً للكرم المألوف، واتباعاً للسنة الشريفة إذ كان الأقربون أولى بالمعروف.

فتباريا جوداً سارع كل منهما في أداء حقه إلى الواجب، وتجاريا إليه ليلحقا شأو أبويهما وكل منهما يعلم أنه العين والعين لا ترتفع على الحاجب؛ وأتم الجناب الشرفي محمود – أدام الله نعمته بحسن إجابته، ويمن رغبته في أهل عصبته، وأهل جنوده إلى أن ساروا إلى الهيجاء تحت عصابته بأن فوض هذا الأمر إلى

أخيه الكبير والد الخاطب، وسكت وقال: هو في التصرف وعني المخاطب، وله الأمر ولولا الشرف بنسبة الأخوة إليه لما قلنا:إلا إننا ملك يده،وإذا كان العم صنو الأب فأي فرق بين ولدي وولده؟، ولئن اختص في نسبته هذه الزوجة في يومه هذا فإن أولادها لا تعرف إلا به في غده؛ فكمل هذا العقد، وأشرق به السعد الطالع أضوأ مما قدم وأخر من النقد، وكان من تمام التكريم، أن قال قائله: بسم الله الرحمن الرحيم ...

وهذه نسخة صداق القاضي تقي الدين؛ وهي: الحمد لله الذي رفع إلى المنازل العلية من كان تقيا، وجمع شمل من لم يبرح لسنن السنن تابعاً وبها حفيا، وخلع أثواب الثواب على من سرح طرف طرفه في روض التأهل وجعله وضيا.

نحمده على نعمه التي من هز جذع نخلها تساقط عليه رطباً حنيا، ونشكره على فضله الذي كم أجرى لقاصده من بحره المعروف سريا، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تمنح قائلها في غرف الجنة مكاناً عليا، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي آتاه الله الكتاب وجعله نبيا، الآمر بالنكاح ليكاثر بهم الأمم يوم يقربه الله نجيا، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين كان يحل منهم في حالتي الكرم والكرمات وليا، ما أطلع التوفيق في آفاق الاتصال من الأنساب الكريمة كوكباً دريا؛ وسلم تسليماً كثيرا.

وبعد، فإن أولى السنن بالاتباع سنة النكاح، التي أخفى نور مصباحها شمس الصباح، وخففت على معالمها أعلام النجاة والنجاح، وحمد المسير إلى ربوعها الآهلة بأهلة العصمة في الغدو والرواح؛ يا لها سنة سنة وجهها جميلة، وتبلغ النفوس من الصيانة أقصى مناها، ؟ويظفر أولو الرغبة فيما أحل الله بمطلوبهم، وتؤلف بين لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم؛ وهي الوسيلة التي سواد هذه الأمة، والذريعة إلى " بقاء " النوع الذي أظهر الله في سماء التكريم نجمه، وإليها الإشارة في قوله تعالى: " ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة " .

ولما كان كذلك رغب في اقتناء آثارها، واهتدى بالضوء اللامع من أقمارها، من

يتشرف المكان بذكر وصفه، ويتعطر ما انتشر في طيبه من طيب عرفه، ماجد عمر البلاد الساحلية بدوام ديمه، وجواد ما جاوره البحر إلا ليقتبس من كرمه، ورئيس امتطى ذروة العلياء بحسن السلوك، وأريجي لو لم يكن صدراً لما أودع سر الملوك، إن تكلم أبرز لك الجوهر المصون، لم يكن صدراً لما أودع سر الملوك، إن تكلم أبرز لك الجوهر المصون، وإن كتب ضحكت لبكاء قلمه ثغور الثغور والحصون؛ لله نسبه المشهور بين الأكابر الأعيان، وبيته المعمور بالعين المرفوع خبرها إلى فتيان، فخطب من علا قدرها، واشتهر بالحسن الجميل ذكرها، وجلت عن أن ترى العيون لها في الصون شبيهاً، وعمت البقاع سحب بركة أبيها؛ أكرم به عالماً عاملاً، وإماماً لم يزل يبدي فضلاً ويسدي نائلاً؛ كم له من آثار مشهورة، ومناقب مأثورة، وصدقات مبرورة، ومواطن بذكر الله معمورة.

فقوبل بالبشر قول رسوله، ورد رائده مخبراً ببلوغ سوله، وقيل له بلسان الحال: هذا ما كانت تنتظر الآمال؛ ياله عقداً غلت جواهر عقوده، وأنارت في آفاق الاتفاق أنجم سعوده، وتمايلت قدود الأفراح، وزهت مجالس السرور بالانشراح، وهبت قبول الإقبال، وقام الإقبال، وقام القلم خطيباً على منبر الطرس فقال: هذا ما أصدق ... ...

وهذه نسخة صداق من إنشاء الشيخ صلاح الدين الصفدي، للقاضي بدر الدين خطيب بيت الآثار، على بنت شمس الدين الخطيب من بيت الآثار، تسمى سولي، في مستهل جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، في مجلس مولانا قاضي القضاة تقي الدين السبكي الشافعي أدام الله أيامه؛ وهي: الحمد لله الذي زين سماء المعالي ببدرها، وأنبت في رياض السعادة يانع زهرها، وألهم ذوي الهمم أن يبذلوا في الكرائم غوالي مهرها.

نحمده على نعمه التي جللت ما صفا من لباسها، وسوغت ما صفا من رضاب كاسها، وخصنا بما عمت به من أنواع أجناسها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أعلمنا في الإيمان نصها بالأداء، وبنى اسمها على الفتح كما فتح المضاف في النداء، ورفع خبرها: إما على رأي الرواة للشهرة وإما على رأي النحاة بالابتداء، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي شرع النكاح لهذه

الأمة، ومنع السفاح فلم يكن أمرنا علينا غمة، ونهج الصواب فما ظنك بالصباح إذا ابتلج عقيب الليلة المدلهمة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تلقوا أوامره بالطاعة، واجتنبوا نواهيه حتى بلغوا جهد الاستطاعة، وفهموا مراده بمكاثرة الأمم فكان البضاع عندهم خير بضاعة، صلاة رضوانها يضيء إضاءة الكواكب في أبراجها، وغفرانها يكاثر البحار في أعداد موجها، ما اتصل سبب بالنكاح، وانفصل نسب بالسفاح، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

وبعد، فإن النكاح من محاسن هذا الدين القيم، وفضائل هذا الشرع الذي لا زال شرفه بدراً بين مشرقات النجوم وهو مخيم؛ به يحفظ النسب الشرود، ويرعى عهد القرينة الولود الودود.

وكان فلان ممن أشبه أباه، وأبين ما أودعه من نفائس العلوم وحباه؛ تصدر في المجالس، ودرس في المدارس، وأورد ما عنده من النفائس؛ كيف لا؟ وهو سبط شيخ الإسلام وإمام المسلمين، وقاضي قضاة الشافعية وأوحد المجتهدين؛ وقد أراد الآن إحصان فرجه، وأن تنزل الزهرة مع بدره في برجه.

فلدلك رغب المجلس العالي " المسمى " وخطب الجهة المصونة المحجبة، النقية، والتقية، العفيفة، الخاتون غصن الإسلام، شرف الخواتين، جمال ذوات الستور، رة عين الملوك والسلاطين، السيدة " سولي " بنت فلان، صان الله حجابها – فأكرم موارد قصده، وحباه أنفس درة في عقده.

فلذلك قام خطيب هذا الحفل الكريم، والنجم الذي لم يزل نجمه بالطالع المستقيم، وقال: بسم الله الرحمن الرحيم ... ...

قلت: وهذه نسخة صداق زين الدين صدقة السيفي أزدمر، على بنت أمير المؤمنين " المتوكل على الله " ، أنشأته له في خلافة أخيها المستعين بالله العباسي؛ وهي:

الحمد لله مستخرج الدوحة الهاشمية من أطيب العناصر، ومفرع النبعة العباسية من أكرم صنو انعقدت على فضله الخناصر، ومخصص بيت الخلافة منها بأعز جانب ذلت لعزه عظماء الملوك ما بين متقدم ومعاصر.

نحمده على أن صان عقائل الخلفاء بمعاقل الحسب وحصر كفاءتها في العلم والدين

حيث لم يكافآ بحرفة ولا نسب، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي سن النكاح وشرعه، وأرغم بالحل أنف الغيرة لدى الإباء وقمعه، شهادة يستنشق من ريا عبيرها كل شذى أريج، وتجتنى ثمار ينعها بشريف النتاج من كل زوج بهيج، ونشهد أن سيدنا محمداً عبد ورسوله أفضل نبي وفر في الفضل سهمه حتى لم يساهم، وأكرم رسول رخص في تزويج بناته من صحابه وإلا فأين كفء رسول الله من العالم؟، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين شرفهم بقربه، وقرن الصهر بالنسب فيهم فخص مصاهرته أخصهم به، صلاة تصل سبب قائلها بسببه، وتجعل الفخار بها كلمة باقية في عقبه، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد، فإن أولى ما أطال فيه المطيل، وشحذ في وصفه الذهن الكليل، ورقمت محاسن ذكره على صفحة النهار بذائب ذهب الأصيل - ما تواصلت به الأنساب، وتوصل بواسطته في دراري الذراري إلى شرف الأحساب، وتوفرت عليه الدواعي فاشتدت به الأواصر، وحسنت في طريق قصده المساعي فتأكدت به المودة في البواطن والظواهر، وهو النكاح الذي ندب الله تعالى إلى معاطاته، وحض على التحلي بحليه حتى ألحقه بالعبادة في بعض حالاته، طلباً للتحصين الكافل بسلوك نهج الاستقامة، ورغبة في تكثير النسل الواقع " به " مكاثرة الأمم يوم القيامة.

هذا وكرائم بيت الخلافة، وربائب محتد المجد والإنافة، في حيز لو طلب مناوٍ مكافأتها لطلب معوزاً، أو رام مقاوم مضاهاتها في علو الرتبة لرام معجزاً، لما اختصت به من السيادة التي لا يرقى إلى منزلتها، والمعالي التي لا تسمو النفوس وإن شمخت إلى رتبتها، إذ كان النظير لشرف أرومتها ممتنعاً، والنقيض بما ثبت من طيب جرثومتها مرتفعاً؛ فبرق معاليها في التطاول لا يشام، وجوهر فخارها في المآثر لا يسامى ولا يسام؛ فعز بذلك في الوجود مكافيها، وامتنع - خوف الهجوم بالاختطاب - موافيها؛ إلا أن المواقف الشريفة المقدسة المتوكلة - زاد الله تعالى في شرفها، وأدام رعايتها بحلة الملوك وحمايتها وكنفها - مع ما انفردت به من العزالشامخ الذي لا يساوى، والشرف الباذخ الذي لا يناوى، قد رغب تفضلها في أهل الفضل فمال إليهم، واختص باقباله أهل الدين فأقبل بكليته عليهم، محلاً

لهم من شريف مقامه العلي محل الاصطفاء، ومقدماً لهم في المصاهرة على أبناء الملوك والخلفاء، فوافق في الفضل " شن طبقة " ، وحاول سارة النعم منها خير خاطب فتلقى بقبول: إن الله تصدق عليكم بصدقة، فعند ذلك ابتدر القلم منبر الطرس فخطب، وخطب بالمحامد لسانه اللسن فكتب:

هذا ما أصدق العبد الفقير إلى الله تعالى، الجناب العالي، الأميري، الكبيري، الشيخي، الإمامي، العالمي، العاملي، العابدي، الخاشعي، الناسكي، البليغي، المفوهي، الصدري، الرئيسي، الأصيلي، العريقي، الزيني، أبو المعالي صدقه – الجهة الشريفة العالية، الكبرى، المعظمة المحجبة، المصونة، سليلة الخلافة، فرع الشجرة الزكية، جليلة المصونات، جميلة المحجبات، سارة، البكر البالغ، ابنة سيدنا ومولانا المقام الأشرف، المقدس، العالي، المولوي، السيدي، الإمامي، النبوي، المتوكل على الله " أبي عبد الله محمد " أمير المؤمنين، ابن المقام الأشرف العالي، المولوي، الإمامي، المعتضد بالله " أبي الفتح أبي بكر " ابن الإمام المستكفي بالله " أبي الربيع سليمان " ابن الإمام الحاكم بأمر الله " أبي العباس أحمد " لا زال شرفه باذخا، وعرنينه الشريف شامخا، وذكر مناقبه العلية لكل منقبة ناسخا – صداقاً جملته كذا وكذا، زوجها منه بذلك فلان، وقبله فلان، وتم على بركة الله تعالى وحسن توفيقه، كاملة شروطه ولوازمه، مباركة عوذه وتمائمه، ميمونة فواتحه وخواتمه مفتتحة بطيب العيش أزاهره مفترة عن " نوره " إن شاء الله تعالى كمائمه.

الفصل الخامس من الباب الأول من المقالة العاشرة فيما يكتب عن العلماء والادباء والقضاة مما جرت العادة بمراعاة النثر المسجوع فيه ومحاولة الفصاحة والبلاغة وفيه طرفان

الطرف الأول فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب ثم هو على صنفين

الصنف الأول الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعراضات الكتب ونحوها

أما الإجازة بالفتيا، فقد جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس - أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرس، ويكتب له بذلك.

وجرت العادة أن يكون ما يكتب في الغالب في قطع عريض، إما في فرخة الشام أو نحوها من البلدي، وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطراً متوالية، بين كل سطرين نحو إصبع عريض.

وهذه نسخة إجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه وأرضاه، كتبت لي حين أجازني شيخنا العلامة سراج الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن الشهير بابن الملقن سقى الله تعالى عهده، عند قدومه ثغر الإسكندرية، وأنا مقيم به في شهور سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، وكتب لي بذلك القاضي تاج الدين بن غنوم موقع الحكم العزيز بالإسكندرية في درج ورق شامي في قطع الشامي الكامل، وسني يومئذ إحدى وعشرون سنة فضلاً من الله ونعمة.

ونسختها بعد البسملة الشريفة: الحمد لله الذي رفع للعلماء مقداراً، وأجزل نعمه عليهم إذ أعلى لهم مناراً، ووفق بسواء الطريق من اقتدى بهم إيراداً وإصداراً، أشرعت هممهم العلية في حلبة السباق فهي لا تجارى، وتحلوا بالمفاخر جهراً وقد عجز غيرهم أن يتحلى بها إسرار؛ أبرز بهم في هالات المفاخر أقماراً، وأزال بضياء علومهم ريب الشك حتى عاد ليل الجهالة نهاراً؛ جعلهم لدينه أنصاراً وصيرهم نخبة أصفيائه إذ أودعهم من المعارف أسراراً، واختصهم بكونهم ورثة أنبيائه: وناهيك بها فخاراً.

أحمده حمد من هدي إلى الحق فجعله شعاراً، واستضاء بنور الهدى فلجأ إلى مولاه في حالتي سره وجهره افتقاراً، وعجز عن شكر ما أسدى إليه من النعم لما توالى عليه وبلها مدراراً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تصديقاً وإقراراً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله والأصنام قد عبدت جهاراً، والكفار قد أعرضوا عن الحق استكباراً، فقام بأمر الله انتصاراً، وقهر من أعرض عن الله اغتراراً، وأخمد بضياء نوره الباطل وأهدره إهداراً، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تزيدنا في ديننا استبصاراً، وتحط عنا من ثقل الذنوب أوزاراً، وتبوؤنا إن شاء الله تعالى في دار الخلود قراراً.

أما بعد، فقد وضح لذوي الأبصار والبصائر، واتضح عند ذوي الأسرار والسرائر، واستقر عند ذوي القلوب السليمة، والعقول الراجحة المستقيمة، أن منزلة علم الشريعة عند الله تعالى أعلى المنازل، وفضله أفضل المآثر وآثر الفضائل، وخصوصاً معرفة تفاصيل أحكام أفعال المكلفين بالشريعة المحمدية، التي من علمها وعمل بها وعلمها فقد سعد السعادة الأبدية؛ إذ هي

الشريعة الجامعة لمصالح الدنيا والآخرة، الناسخة لما خالفها من الشرائع الغابرة، الباقية إلى أن يأتي وعيد الله وكل شريعة سواها دائرة؛ فقد أعظم الله تعالى على من حفظها على عباده المنة، إذ جعله وقاية لهم من مهالك الجهل وجنه، ووعده أن ينزل في أعلى منازل الجنة، لما شهدت به نصوص الكتاب والسنة؛ قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: " وقل رب زدني علماً " ، فنبهه على أن العلم أقوى أسباب العبادة، إذ خصه به وحضه على أن يطلب منه الزيادة، وقال تعالى: " وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم " ،فثنى بذكرهم بعده، لكونهم أفضل الخلائق عنده، وقال تبارك وتعالى اسمه، وتقدس علمه: " إنما يخشى الله من عباده العلماء " ؛ فأوضح بذلك أن أولياءه من خلقه العلماء؛ إذ وصفهم وخصهم بأنهم الخائفون منه الأتقياء. وقال عليه السلام: " من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين " ، وقال أيضاً: " من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة " ، وقال أيضاً: " ألا أن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه،

وعالم ومتعلم " .

ولما كان فلان – أدام الله تعالى تسديده وتوفيقه، ويسر إلى الخيرات طريقه – ممن شب ونشأ في طلب العلم والفضيلة، وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة الجليلة، وصحب السادة من المشايخ والفقهاء، والقادة من الأكابر والفضلاء، واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالاً يرضي، وإلى نيل السعادة – إن شاء الله تعالى – يفضي – استخار الله تعالى سيدنا وشيخنا وبركتنا العبد الفقير إلى الله تعالى، الشيخ الإمام العلامة، الحبر الفهامة، فريد دهره، ونسيج وحده، جمال العلماء، أوحد الفضلاء، عمدة الفقهاء والصلحاء، سراج الدين، مفتي الإسلام والمسلمين، أبو حفص عمر ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى، الشيخ الإمام العالم، العامل، الأوحد، الكامل، القدوة، المرحوم نور الدين أبي الحسن على، ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى، الشيخ الصالح، الزاهد، العابد، الخاشع، الناسك، القدوة، المرحوم شهاب الدين بركة الصالحين، أبي العباس أحمد، ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى، الشيخ الصالح، القدوة العارف، المرحوم، شمس الدين أبي عبد الله محمد الأنصاري الشافعي، أدام الله تعالى النفع به وببركته، وأشركنا والمسلمين في صاح أدعيته، بمحمد وآله وصحبه وعترته.

وأذن وأجاز لفلان المسمى فيه، أدام الله تعالى معاليه، أن يدرس مذهب الإمام المجتهد المطلق العالم الرباني، أبي عبد الله محمد بن إدريس المطلبي، الشافعي، رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة متقلبه ومثواه، وأن يقرأ ما شاء من الكتب المصنفة فيه، وأن يفيد ذلك لطالبيه، حيث حل وأقام، كيف ما شاء متى شاء وأين شاء، وأن يفتي من قصد استفتاءه خطاً ولفظاً، على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه: لعلمه بدياناته وأمانته، ومعرفته ودرايته، وأهليته لذلك وكفايته.

فليتلق أيده الله تعالى هذه الحلة الشريفة، وليترق بفضل الله تعالى ذروة هذه المرتبة المنيفة، وليعلم قدر ما أنعم الله تعالى عليه، وأسدى من الإحسان الوافر إليه، وليراقبه مراقبة من يعلم اطلاعه على خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وليعامله معاملة من يتحقق أنه يعلم ما يخفيه العبد وما يبديه في الورود والصدور، ولا يستنكف أن يقول فيما لا يعلم: لا أعلم: فذاك قول سعد قائله. وقد جاء: " جنة

العالم " لا أدري " فإن أخطأها أصيبت مقاتله " ؛ فالله تعالى يرزقنا وإياه التوفيق والتحقيق، ويسلك بنا وبه أقرب طريق، ويهدينا إلى سواء السبيل، فهو حسبنا ونعم الوكيل.

وكتب في تاريخ كذا.

وكتب شيخنا الشيخ سراج الدين المشار إليه تحت ذلك بعد حمد الله تعالى ما صورته: " ما نسب إلي في هذه الإجازة المباركة من الإذن لفلان - أدام الله تعالى النفع به، وأجرى كل خير بسببه، بتدريس مذهب الإمام المطلبي، محمد بن إدريس الشافعي، قدس الله روحه، ونور ضريحه، والإفتاء به لفظاً وخطا - صحيح. فإنه ممن فاق أقران عصره بذكائه، وبرع عليهم بالاستحضار وتحرير المنقول ووفائه.

وقد اعتنى وفقه الله تعالى وإياي من جملة محفوظاته ب " مختصر الجوامع " لشيخنا العلامة كمال الدين النشائي، تغمده الله تعالى بغفرانه، فاستحضر بحضرتي مواضع منه جمة، وأزال ببديع فصاحته جملة مدلهمة، وأظهر من مشكلاته ما يعجز عنه اللبيب، ومن أغاريبه ما يقف عنده البارع الأريب.

فليتق الله حينئذ فيما يبديه، وليتحر الصواب في لفظه وخطه وليراقب الله فيه؛ فإنه موقع عن الله تعالى فليحذر الزلل، ومحاولة الخطأ والخطل، ويستحضر ما اشتملت عليه من الجلالة، فإن الله تعالى تولاها بنفسه حيث قال: " يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة " .

وأجزت له مع ذلك أن يروي عني ما لي من التآليف، ومنها " جامع الجوامع " أعان الله على إكماله، وكذا شرح " صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري " ، ومنها " البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير " للإمام أبي القاسم الرافعي، وبه تكمل معرفة الفقيه ويصير محدثاً فقيهاً.

وأجزت له مع ذلك ما جاز لي وعني روايته بشرطه عند أهله، زاده الله وإيايا من فضله؛ ومنها الكتب الستة: " البخاري " و " مسلم " و " أبو داود " و " الترمذي " و " النسائي " و " ابن ماجة " ، والمسانيد: " مسند أحمد " و " مسند الشافعي " وغير ذلك.

وكان ذلك في تاريخ كذا. وكتب عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي، غفر الله لهم: حامداً ومصلياً ومسلماً وأشهد عليه جماعة من أهل العلم بآخره " .

قلت: وتكون ألقاب المجاز على قدر رتبته، مثل أن يكتب له: " الفقير إلى الله تعالى، الشيخ، الإمام، العالم العامل، الأوحد، الفاضل، المفيد، البارع، علم المفيدين، رحلة القاصدين، فلان الدين؛ أبو فلان فلان بن فلان " " بحسب رتب آبائه " . وإنما أهملت ذكر الألقاب في هذه الإجازة، من حيث أنه لا يليق بأحد أن يذكر ألقاب نفسه في مصنف له، لأنه يصير كأنه أثنى على نفسه.

وأما الإجازة بعراضة الكتب، فقد جرت العادةأن بعض الطلبة إذا حفظ كتاباً في الفقه، أو أصول الفقه، أو النحو، أو غير ذلك من الفنون، يعرضه على مشايخ العصر، فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب، ويفتح منه أبواباً ومواضع، يستقرئه إياها من أي مكان اتفق، فإن مضى فيها غير توقف ولا تلعثم، استدل بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب، وكتب له بذلك كل من عرض عليه، في ورق مربع صغير، يأتي كل منهم بقدر ما عنده من الملكة في الإنشاء وما يناسب ذلك المقام من براعة الاستهلال ونحوها: فمن عالٍ، ومن هابط. وربما خفف بعضهم فكتب: " وكذلك عرض علي فلان " ، أو: " عرض علي وكتبه فلان " : إما رياسة وتأبياً عن شغل فكره وكد نفسه فيما يكتبه، وإما عجزاً عن مضاهاة من يكتب معه.

وقد اخترت أن أضع في هذا المحل ما وافق الصنعة، وجرى على أسلوب البلاغة.

فمن ذلك ما كتب به الشيخ الإمام العلامة، لسان العرب، وحجة الأدب، بدر الدين محمد بن أبي بكر المخزومي المالكي للنجل النبيل الذي تنتهي الألقاب ولا نهاية لمناقبه، شهاب الدين أبي العباس أحمد ابن سيدنا الفقير إلى الله تعالى، ذي الأوصاف التي تكل شبا الألسن عن حدها، شمس الدين أبي عبد الله محمد العمري الشافعي، حين عرض عليه " عمدة الأحكام " للحافظ عبد الغني، و " شذور الذهب " للشيخ جمال الدين بن هشام، في رمضان سنة سبع عشر وثمانمائة؛ وهو:

أما بعد حمد الله على كرمه الذي هو عمدتنا في النجاة يوم العرض وناهيك بها عمدة، وسندنا الذي لا يزال لسان الذوق يروي حديث حلاوته عن " صفوان بن عسال " من طريق " شهدة " والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أحيا بروح سنته الشريفة كل من جاء ومن ذهب، وأعربت كلماته النفيسة عن عقود الجوهر و " شذور الذهب " وعلى آله وصحبه الذين أحسنوا الرواية والدراية، وبنوا الأمر على أساس التقوى وأعربوا عن طرق الهداية، ما انهل من أفق الكرم المحمدي كل عارض صيب، وتحلت الأسماع والأفواه من أخباره بنفائس الشذور البديعة وحلاوة الكلم الطيب – فقد عرض علي الجناب العالي البارعي، الأوحدي، الألمعي، اللوذعي، الشهابي، شهاب الدين، نخبة النجباء، أوحد الألباء، نجل السادة العظماء، سلالة الأعيان العلماء، أبو العباس أحمد ابن سيدنا المقر الكريم العالي، المولوي، العالمي، الفاضلي، البليغي، المفيدي، الفريدي، المفوهي، الشمسي، العمري، أطاب الله حديثه، وجمع له بالإعراب عن علو الهمة قديم الفضل وحديثه – طائفة متفرقة من " عمدة الأحكام " للحافظ عبد الغني المقدسي، و " شذور الذهب " للعلامة جمال الدين بن هشام رحمة الله عليهما – عرضاً قصرت دونه القرائح على طول جهدها، وكانت الألفاظ الموردة فيه لأمة حرب الفئة الباغية عليه فأحسن عند العرض في سردها، وزين – أبقاه الله – تلك الأماكن بطيب لحنه وإعراب لفظه، وآذن امتحانه فيها بأن جواهر الكتابين قد حصلت بمجموعها في خزانة حفظه.

فحبذا هو من حافظ روى حديث فضله عالياً وتلا على الأسماع ما اقتضى تقديمه على الأقران فلله دره مقدماً وتاليا، وسار في حكم العرض على أعدل طريق وناهيك بالسيرة العمرية، وصان منطقه عن خلل المعاني وكيف لا؟ وقد تمسك بطريقة والده وهي " المقدمة الشمسية " ، وسابق أقرانه فكانت له زبدة التفضيل في حلبة السباق، وطابق بين رفع شأنه وخفض شانيه ولا ينكر لمن هو من هذا البيت حسن الطباق، واشتغل فلم يقع التنازع في حسن دخوله من باب الاشتغال، ونصب فكره لتحصيل العلم فتعين تمييزه على كل حال، وتوقدت نار ذهنه فتلظى حاسده بالالتهاب، ورويت أحاديثه بالغة في العلو إلى سماء الفضل ولا بدع إذا

رويت أحاديث الشهاب، وافتخر من والده بالفاضل الذي ارتفع في ديوان الإنشاء خبره، وهز المعاطف بتوقيعه الذي لا يزال يحرر ويحبره، ووشى المهارق فكأنما هي رياض قد غرد فيها بسجعه، ونحاها بإنشائه الذي هو عمدة المتأدبين فلا عجب في رفعه، ونظم ببيانه نفائس الدرر ففدتها بالعين " صحاح الجوهري " ، وفتح بجيش بلاغته معاقل المعاني الممتنعة وحسبك بالفتح العمري:

بيانه السحر قد أخفى معاقده ... لكن أرانا لسر الفضل إنشاء
إذا أراد أدار الراح منطقه ... نظم ويطربنا بالنثر إن شاء!

والله تعالى يبهج نفسه بما يصبح به الحاسد وهو مكمد، ويقر عينه بهذا الولد النجيب حتى لا يبرح يقول: أشكر الله وأحمد، بمحمد وآله.

ومن ذلك ما كتب به الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الدائم، لولدي نجم الدين أبي الفتح محمد، حين عرض عليه " المنهاج " في الفقه للنووي، في سنة ثلاث عشر وثمانمائة؛ وهو: الحمد لله الذي أوضح بنجم الدين منهاج الفقه وأناره، وأفصح لسانه بكتاب من عند الله وأثاره، فسقط أنوار شهابه لمن استنبطه وأثاره - من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويرفع مناره - والصلاة والسلام على سيدنا محمد المخصوص بعموم الرسالة، والمنصوص فضله بجميع أنواع الدلالة، وعلى آله وصحبه نجوم الهدى، وشهب التأسي والاقتدا.

وبعد، فقد عرض علي الفقيه الفاضل نجل الأفاضل، وسليل الأماثل، ذو الهمة العلية، والفطنة الذكية، والفطرة الزكية، نجم الدين، أبو عبد الله محمد بن فلان: نفع الله به كما نفع بوالده، وجمع له بين طارف العلم وتالده - مواضع متعددة من " المنهاج " في فقه الإمام الشافعي المطلبي - رضي الله عنه وعنا به - تأليف الحبر العلامة ولي الله أبي زكريا بن شرف بن مري النووي، سقى الله تعالى ثراه، وجعل لجنة مأواه، دل حفظه لها على حفظ الكتاب، كما فتح الله له مناهج الخير دقه وجله، وكان العرض في يوم كذا.

وكتب علامة العصر الشيخ عز الدين بن جماعة ما صورته:

كذلك عرض علي المذكور باطنها عرضاً حسناً، محرراً مهذباً مجاداً متقناً؛ عرض من أتقن حفظه، وزين بحسن الأداء لفظه، وأجزل له من عين العناية حظه، مر فيه مرور الهملاج الوساع، في فسيح ذي السباع. وقد دلني ذلك منه - نفعه الله تعالى ونفع به، ووصل أسباب الخير بسببه، على علو همته، ووفور أريحيته، وتوقد فكرته، واتقان فطنته؛ وأصله في ذلك كله عريق:

سجية تلك منهم غير محدثةإن الخلائق فاعلم شرها البدع!

وقد أذنت له أن يروي عني الكتاب المذكور، وجميع ما يجوز لي وعني روايته من مصنفاتي وغيرها من منظوم ومنثور، ومنقول ومعقول ومأثور، بشرطه المعتبر، عند أهل الأثر. وكتب فلان في تاريخ كذا.

ومن ذلك ما كتبته لمن اسمه " محمد " ولقبه " شمس الدين " من أبناء بعض الإخوان: وقد عرض علي " الأربعين حديثاً " للشيخ محيي الدين النووي رحمه الله، و " الورقات " في الأصول لإمام الحرمين، و " اللمحة البدرية " في النحو للشيخ أثير الدين أبي حيان دفعة واحدة، وهو لدون عشر سنين؛ وهو: الحمد لله الذي أطلع من دراري الأفاضل في أفق النجابة شمساً، وأظهر من أفاضل الذراري ما يغض به المخالف طرفاً وبرفع به المحالف رأساً، وألحق بالأصل الكريم فرعه في النجابة فطاب جنى وأعرق أصلاً وزكا غرساً وأبرز من ذوي الفطر السليمة من فاق بذكائه الأقران فأدرك العربية في لمحة، وسما بفهمه الثاقب على الأمثال فأمسى وفهم " الورقات " لديه كالصفحة، وخرق بكرم بدايته العادة فجاز الأربعين لدون العشر وأتى على ذلك بما يشهد له بالصحة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي عمت بركة اسمه الشريف سميه ففاز منها بأوفر نصيب، وخص بإلهام التسمية به أولو الفضل والنهى فما سمي به إلا نجيب، وعلى آله وصحبه الذين أينعت بهم روضة العلم وأزهرت، وأورقت شجرة المعارف وأثمرت.

وبعد، فقد عرض علي فلان مواضع من كتاب كذا وكتاب كذا، فمر فيها مرور الصبا، وجرى في ميدانها جري الجواد فما حاد عن سنن الطريق ولا كبا.

وأما الإجازة بالمرويات على الاستدعاءات: - فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي رحمه الله على استدعاء كتب له به القاضي شهاب الدين أحمد

الحنبلي خطيب بيت الآلهه، وكاتب الدست بالشأم، يطلب منه فيه الإجازة لنفسه؛ وهو: الحمد لله الذي إذا دعي أجاب، وإذا أنعم على الأديب بذوق أتى في نظمه في العجاب، وإذا وهب البليغ فطرة سليمة لم يكن على حجاه حجاب.

نحمده على نعمه التي منها البلاغة، وأتقان ما لصناعة الإنشاء من حسن الصياغة، وصيد أوابل المعاني التي من أعمل فكره في اقتناصها أو روى " أمن " رواغه، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة فطر الضمير على إخلاصها، وجبل الفكر على اقتناء أدلتها القانعة واقتناصها، وجعلت وقاية لقائلها يوم يضيق على الخلائق فسيح عراصها، ونشهد أن سيدنا محمداً عبد ورسوله أفصح من نطق بهذا اللسان، وجاء من هذه اللغة العربية بالنكت الحسان، وحث على الخير وحض على الإحسان، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين رووا أقواله، وبلغوا لمن لم يره سننه وأفعاله، وعلموا أن هذه الشرعة المطهرة أذخرها الله تعالى له فلم تكن تصلح إلا له، صلاة هامية الغفران، نامية الرضوان ما أجاب مجيب لمن استدعى، وعملت إن المبتدإ نصباً ولم تغير على الخبر رفعاً، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

وبعد، فإن " علم " الرواية من محاسن الإسلام، وخصائص الفضلاء الذين تخفق لهم ذوائب الطروس وتنتصب رماح الأقلام، ولم تزل رغبة السلف تتوفر عليه، وتشير أنامل إرشادهم للأنام بالحث إليه. قيل للإمام أحمد بن حنبل – رضي الله عنه – ما يشتهي؟ فقال: سند عال، وبيت خال. وما برح الأئمة الكبار يرتحلون إلى أقاصي الأقاليم في طلبه، ويتحملون المشاق والمتاعب فيه ويتجملون بسببه؛ فقد ارتحل الإمام الشافعي رضي الله عنه وغيره إلى عبد الرزاق باليمن، وكان فيمن أخذ عنه ممن هو أحق بالتفضيل عليه قمن؛ ولكنه فن يحتاج إلى ذوق يعاضد من لا يعانده، وأمر لا يصبر عنه من ألفه وما يعلم الشوق إلا من يكابده؛ فما عند من طلب الرواية أجل من أبناء جنسه، ولا عند المفيد المفيد أحلى من قوله: حدثنا فلا أو أنشدنا فلان لنفسه، ولكن:

ما كل من طلب المعالي نافذاً ... فيها ولا كل الرجال فحولا!

ولما كان الشيخ الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ ... ممن نظم فودت الدرر في أفلاكه لو اتسقت، وكتب فرقم الطروس ووشاها، وغشاها من زهرات الرياض ما غشاها، وحل المترجم فسحر عقل كل لبيب وخلب لبه، ووقع على القصد فيه فكأنه شيء من الغيب خص الله به قلبه، وأتى فيه ببدائع ما تساوى ابن الصيرفيو لا ابن " نباته " عندها بحبة، وخطب فصدع القلوب، وأجرى ذنوب المدامع من أهل الذنوب،وحذر فكانت أسجاعه كألحان إسحاق وسامعه يبكي بأجفان يعقوب؛ كأنما هو في حلة الخطابة بدر في غمامة، أو منبره غصن وهو فوقه حمامة، أو بحر وفضائله مثل أمواجه ودره يحكي كلامه؛ لو رآه " ابن نباته " ما أورقت بالفصاحة أعواده، أو " ابن المنير " ما رقمت بالبلاغة أبراده، أو " ابن تيمية " ما حظيت بالجدود أجداده؛ فأراد أن يشرف قدري، ويعرف نكري، فطلب الإجازة مني وأنا أحق بالأخذ عنه، واستدعى ذلك مني: ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

فنعم قد استخرت الله تعالى وأجزت له ما يجوز لي تسميعه، وذكرت هنا شيئاً من مروياتي وأشياخي رحمهم الله وذكرت مصنفاتي:

إجازة قاصر عن كل شيء ... يسير من الرواية في مفازه:
لمن ملك الفضائل واقتناها ... وجاز مدى العلى سبقا وحازه!

ومن ذلك ما كتب به الشيخ العلامة شمس الدين محمد بن الصائغ على استدعاء لبعض من سأله الإجازة: أقول بعد حمد الله الذي لا يخيب من استجدى كرمه، ولا يخيب من استدعى نعمه، والصلاة على سيدنا محمد وأله وصحبه وخدمه وما اسود مدمه:

أثرت الجوى بي إذ أردت جوابي ... وعظمت خطبي إذ قصدت خطابي:
ومن أنا في الدنيا أجيب ومن أنا! ... أجيز؟ مضى الأشياخ تحت تراب !
عجيب لطلاب لدينا تخلفوا ... وكم قد أتانا دهرنا بعجاب!
نحن إلى الموبلحة أمر ناي ... عربناه بالعذيب عذاب " ؟ "

يا أخانا: إن بضاعتنا في العلم مزجاة، وصناعتنا في الوقت مرجاة، ونسيم أخباره عليل، وأدب إخباره قليل، وتصانيفي وجوه أكثرها مسودة، وآمالي في تبييضها

لقصر الهمم ممتدة؛ سئلت قديماً من بعض الفضلاء أن أعدها، فكتبت فيها رسالة لا أعرف لصقل الأذهان حدها؛ ومن الله بعد ذلك بتصانيف أخر، ومقاطيع إن لم تكن كالزهر فهي كالزهر؛ ثم عدد نيفاً وثلاثين مصنفاً، منها " مجمع الفرائد " في ست عشرة مجلدة. ثم أنشد في آخر ذلك:

ولقد شرفت قدري ... بنفيس من هدايا :
بنظام شنف الس ... مع بدر كالثنايا
فارومني وارو عني ... واغنى عن شد المطايا
وانتق الفضل وحصل، ... واحظ مني بمزايا
وتحر الصدق واعلم ... أنه خير الوصايا!!!

أجزت لك أن تروي هذه وغيرها عني، ولك الفضل في قبول ذلك مني.

الصنف الثاني التقريضات التي تكتب على المصنفات المصنفة والقصائد المنظومة

قد جرت العادة أنه إذا صنف في فن من الفنون أو نظم شاعر قصيدة فأجاد فيها أو نحو ذلك، أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته بالتقريض والمدح، ويأتي كل منهم بما في وسعه من البلاغة في ذلك.

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي على مصنف وضعه الشيخ تاج الدين علي بن الدرهم الموصلي الشافعي في الاستدلال على أن البسملة من أول الفاتحة؛ وهي: وقفت على هذا التصنيف الذي وضعه هذا العلامة، ونشر به في المذهب الشافعي أعلامه، وأصبح ونسبته إليه أشهر علم وأبهر علامة؛ فأقسم ما سام الروض حدائقه، ولا شام أبو شامة بوارقه، كل الأئمة تعترف بما فيه من الأدلة، وكل التصانيف تقول أمامه: بسم الله؛ كم فيه من دليل لا يعارض بما ينقضه، وكم فيه من حجة يكل عنها الخصم لأن عقله على محك النقد يعرضه؛ قد

أيد ما ادعاه بالحديث والأثر، ونقل مذهب كل إمام سبق وما عثر؛ لقد سر الشافعي بنص قوله الذي هذبه، وجعل أعلام مذهبه مذهبة ، وأتى فيه بنكت تطرب من أسرار الحرف، وفوائد عرف بها ما بين ابن الدرهم وبين البون من البون في تفاوت الصرف:

أكرم به مصنفاً ... فاق تصانيف الورى!
ليل المداد فيه بالمعنى المنير أقمرا!
كم فيه برد حجة ... قد حاكه محررا

وكم دليل سيفه ... إذا التقى خصماً فرى
فلم يكن من بعده ... مخالف قط يرى!!

ومن ذلك ما كتب به المقر الشهابي بن فضل الله على قصيدة ميمية، للشيخ غرس الدين خليل الصفدي المعروف بالصلاح الصفدي، مدح بها الأمير سيف الدين ألجاي الدوادار الناصري، في شهور سنة تسع وعشرين وسبعمائة؛ وهي: وقفت على هذه القصيدة التي أشرقت معانيها فكادت ترى، وتمكنت قوافيها فاستمسك بها الأدب لما كانت الميمات فيها كالعرا، فوجدتها من البلاغة بوزنها على البحر المحيط، لطيفة لا تقاس بأمثالها من الكلام المركب لأنها من البسيط، ونظرت إليها مكتسباً من بيانها سحر الحدق، متعجباً من منشئها لغرس يسرع الأثمار في الورق، ثم فطنت إلى أن الممدوح بها أعزه الله تعالى سحت ديمه فروضت الطروس، وبرحت مناقبه بما كان مصوناً في أخبية النفوس؛ وقد استوجب هذا المادح عطف الله تعالى قلبه عليه من منائحه حظاً جزيلاً، وحباً يقول به لمن قصد المساواة به: لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت فلاناً خليلاً:

مدبر الملك له ... على العلى مقاعد
تهوي إلى جنابه ... القصاد والقصائد!

قلت: وكتبت على قصيدة نظمها شرف الدين عيسى بن حجاج الشاعر المعروف بالعالية، مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم وضمنها أنواع البديع، ضاهى بها بديعية الصفي الحلي، في شهور سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة، ما صورته: أما

بعد حمد الله الذي أحل سحر البيان، وأقدر أهل البلاغة من بديع التخيل على ما يشهد بصحته العيان، وذلل برائض أفكارهم صعاب الألفاظ فامتطوا من متون أحاسنها الجياد، وأوضح لهم طرق الفصاحة فغدت لديهم – بحمد الله تعالى – سهلة القياد، وأحيى ميت الأدب بروح الأنفاس العيسوية وعمر بأنسها ربوعه الخالية، وحمى نفس الفضل في رقعة المساجلة أن تصل إليه فرزاته الدعاوى ولا غزو أن حماها العالية، والصلاة على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أفصح من نطق بالضاد، وأوتي جوامع الكلم فلن تحصر معاني كلامه الأعداد – فإني وقفت على البديعية البديعة التي نظمها الفاضل الأرفع، واللوذعي المصقع، أديب الزمان، وشاعر الأوان، شرف الدين أبو الروح عيسى العالية – أعلى الله تعالى منار أدبه ورفعه على مناويه، وبلغ به من قصب السبق ما يمتنع أن يراه على البعد مضاهيه – فألفيتها الدرة الثمينة غير أنها لا تسام، والخريدة المخدرة إلا أنها لا يليق بها الاحتشام:

تروم احتشاماً ستر لألاء وجهها! ... ومن ذا لذات الحسن يخفي ويستر؟

قد اتخذت من الاحتشام معقلاً وحصناً لا يغشى، وانتدبت من حسادها مكاناً قصياً فلا تخاف دركا ولا تخشى:

ولم أدر والألفاظ منها شريفة إلى البدر تسمو أم إلى الشمس ترتقي؟

أراد المدعي بلوغ شأوها الجري في مضمارها فقيل: كلا، ورام الملحد في آياتها الغض منها عناداً فأبى الله إلا:

ما إن لها في الفضل مثل كائن! ... وبيانها أحلى البيان وأمثل!

فأمسوا في معارضتها غير طامعين، وتلت عليهم آيات بلاغتها: " فظلت أعناقهم لها خاضعين " :

كم جدلت يوم الوغى من جندل ... صاحت به فما أطاق تصبرا!

وكيف لا تخضع لها الأعناق، وتذل لها رقاب الشعراء على الإطلاق، وهي اليتيمة التي أعقمت الأفهام عن مثلها، والفريدة التي اعترف كل طويل النجاد بالقصور عن وصلها:

زادت على، من ذا يطيق وصالها؟ ... ومحلها منه الثريا أقرب!

وأنى بذلك وقد أخذت من المحاسن بزمامها، وأحاطت من الطلاوة بكمامها، وأحدقت رياض الأدب بحدائقها، واقتطفت من أفنان الفنون ثمار معان تلذ لناظرها وتحلو لذائقها؟:

ولا تعر غيرها سمعاً ولا نظراً ... في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

وتصرفت في جميع العلوم وإن كانت على البديع مقصورة، وشرفت بشرف متعلقها فأصبحت بالشرف مشهورة:

أهانت الدر حتى ماله ثمن، ... وأرخصت قيمة الأمثال والخطبا!

لا جرم أضحت أم القصائد وكعبة القصاد، ومحط الرحال ومنهل الوارد، فأربت في الشهرة على " المثل السائر " ، واعترف بفضلها جزالة البادي وسهولة الحاضر:

فلأ فاضل في عليائها سمر ... إن الحديث عن العلياء أسمارا!

فأعجب بها من بادرة جمعت بين متضادين سمر وسمر، وقرنت بين متباعدين زهر وزهر، وجادت بمستنزهين روض ونهر، وتفننت في أساليب الكلام وجالت، وطاوعتها يد المقال فقالت وطالت، ودعت فرسان العربية إلى المبارزة فنكسوا، وتحقق المفلقون العجز عن مؤاخاتها ولو حرصوا:

فاعرب عن كل المعاني فصيحها ... بما عجزت عنه نزار ويعرب!

إن ذكرت ألفاظها فما الدر المنثور؟ أو جليت معانيها أخجلت الروض الممطور، أو اعتبر وزنها فاق الذهب تحريراً، أو قوبلت قوافيها بغيرها زكت توفيراً وسمت توقيراً، أو تغزلت أسكتت الورق في الأغصان، أو امتدحت قفت إثر " كعب " وسلكت سبيل " حسان " ؛ فإطنابها – لفصاحتها – لا يعد إطناباً، وإيجازها – لبلاغتها – يمد على المعاني من حسن السبك أطناباً:

أبن لي مغزاها أخا الفهم إنها ... إلى الفضل تعزى أو إلى المجد تنسب؟

هذا وبراعة مطلعها تحث على سماع باقيها شغفاً، وبديع مخلصها يسترق الأسماع لطافة ويسترق القلوب كلفاً، وحسن اختتامها تكاد النفوس لحلاوة مقطعه تذوب عليها أسفاً:

لها براهين البيان شواهد ... إذ الفضل ورد والمعالي موارد!

وبالجملة فمآثرها الجميلة لا تحصى، وجمائلها المأثورة لا تعد ولا تستقى؛ فكأنما " قس بن ساعدة " يأتم بفصاحتها، و " ابن المقفع " يهتدي بهديها ويروي عن بلاغتها، " وامرؤ القيس " يقتبس من صنعة شعرها، و " الأعشى " يستضيء بطلعة بدرها؛ فلو رآه " جرير " لرأى أن نظمه جريرة اقترفها، أو سمعها " الفرزدق " لعرف فضلها وتحقق شرفها، أو بصر بها " حبيب بن أوس " لأحب أن يكون من رواتها، أو اطلع عليها " المتنبي " لتحير بين جميل ذاتها وحسن أدواتها:

فللبصائر هاد من فضائلها ... يهدي أولي الفضل إن ضلوا وإن حاروا

ولا نطيل فمبلغ القول فيها أن آيتها المحكمة ناشخة لما قبلها، وبرهانها القاطع قاض بأن لا تسمح قريحة أن تنسج على منوالها ولا يطمع شاعر أن يسلك سبلها:

وآيتها الكبرى التي دل فضلها ... على أن من لم يشهد الفضل جاحد!

الطرف الثاني فيما يكتب عن القضاة وهو على أربعة أصناف

الصنف الأول التقاليد الحكمية وهي على مرتبتين

المرتبة الأولى أن تفتتح بخطبة مفتتحة بالحمد لله

ثم يقال: " أما بعد " ثم يقال: " ولما علمنا من حال فلان الفلاني كذا وكذا، استخرنا الله تعالى وفوضنا إليه كذا وكذا، فليباشر ذلك " ويوص بما يناسب. ثم يقال: " هذا عهدنا إليك، وحجتنا عند الله عليك، فاعلم هذا واعمل به، وكتب ذلك عن الإذن الفلاني " .

وهذه نسخة تقليد: الحمد لله الولي الحميد، الفعال لما يريد، نحمد على ما أولانا من إحسانه فهو المولى ونحن العبيد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة

توصلنا إلى حنة نعيمها مقيم، وتقينا من نار عذابها شديد أليم، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي الكريم، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه المشتملين على الطاعة والقلب السليم، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإن مرتبة الحكم لا تعطى إلا لأهلها، والأقضية لا ينتصب لها إلا من هو كفء لها، ومن هو متصف بصفات الأمانة والصيانة، والعفة والديانة؛ فمن هذه صفته استحق أن يوجه ويستخدم، ويترقى ويتقدم.

ولما علمنا من حال فلان الفلاني الأوصاف الحميدة، والأفعال السديدة، فإنه قد حوى المعرفة والعلوم، والاصطلاح والرسوم، وجمعت فيه خصال حملتنا على استنابته، وقوتنا على نيابته – استخرنا الله تعالى وفوضنا إليه كذا وكذا.

فليباشر ذلك متمسكاً بحبل الله المتين، " إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين " وليجهد في إقامة الدين وفصل الخصومات، وفي النظر في ذوي العدالات والتلبس بالشهادات ولإقامة البينات؛ فمن كان من أهل العدالة نزهاً، وإلى الحق متوجهاً، فليراعه ويقدمه على أقرانه، ومن كان منهم خلاف ذلك فليقصه ويطالعنا بحاله. ولينظر في أمر الجوامع والمساجد ويفعل في ذلك الأفعال المرضية، وفي أموال الأيتام يصرف منها اللوازم الشرعية؛ فمن بلغ منهم رشيداً أسلم إليه ما عساه يفضل له منها ويقرر الفروض، ويزوج الخاليات من الأزواج والعدد والأولياء، من الأزواج الأكفاء، ويندب لذلك من يعلم ديانته، ويتحقق أمانته، ويتخير لكتابة الصكوك من لا يرتاب بصحته، ولا يشك في ذيانته وخبرته، وينظر في أمر المتصرفين، ومن عنده من المستخدمين؛ فمن كان منهم على الطريقة الحميدة فليجره على عادته، وليبقه على خدمته، ومن كان منهم بخلاف ذلك فليستبدل به وليقصه.

هذا عهدي إليك، وحجتي غداً عند الله عليك؛ فاعلم هذا واعمل به.

وكتب ذلك عن الإذان الكريم الفلاني، وهو في محل ولايته وحكمه وقضائه، وهو نافذ القضاء والحكم ماضيها، في التاريخ الفلاني. " ثم يكتب الحاكم علامته والتاريخ " وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وهذه نسخة تقليد: الحمد لله الحكم العدل الهادي عباده صراطاً مستقيما، الحاكم الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً، المثيب من قدم لم الطاعة من قبل إن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال، الرقيب على ما يصدر من أفعالهم فلا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه والٍ.

أحمده علة نعمه التي تنشئ السحاب الثقال، وأستعيذه من نقمه التي يرسلها فيصيب بها من يشاء من عباده وهو شديد المحال، واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تفيد المخلص بها في الإقرار النجاة يوم المآل، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي نعته بأكرم الشيم وأشرف الخصال، وعرفه بما يجب من عبوديته فقال: " ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال " ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه في الأقوال والأفعال، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإن من حسنت سريرته، وحمدت سيرته، وعرف بورع وشهر بعفاف، وديانة وخير وإنصاف، وأضحى نزه النفس عن الأمور الدنية، فقيهاً درباً بالأحكام الشرعية، عارفاً بالأوضاع المرضية – استحق أن يوجه ويستخدم، ويرقى ويتقدم.

ولما علمنا من حال فلان الفلاني من الأوصاف الحميدة، والأفعال السديدة – استخرنا الله تعالى وفوضنا إليه كذا وكذا.

فليكن متمسكاً معتصماً بحبل الله القوي المتين، " إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين " وليباشر ما قلدناه – أعانه الله سبحانه وتعالى – ويراع حقوق الله تعالى في السر والعلانية: فإنه معين من استعان به وتوكل عليه، وهادي من استرشده وفوض إموره إليه.

وليجتهد في فصل الأحكام بين المتنازعين، والمساواة في العدل بين المتحاكمين؛ قال الله تعالى: " وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " .

وأن يثبت في الخصومات، ويفرق بين الحقائق والشبهات، وينصف كل ظالم من ظالمه بالشريعة المحمدية، ليكون ذلك سبباً للسعادة الأبدية، وينظر في أمر الشهود: فمن كان منهم نزهاً، وإلى الحق متوجهاً، فليراعه، ومن كان منهم غير

ذلك طالعنا بحاله، وينظر في أمر الجوامع والمساجد معتمداً في ذلك قول الله العزيز القاهر: " إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر " .
وينظر في أمر الأيتام، ويحتاط على ما لهم من الأموال، ويفعل في ذلك على جاري عادة أمثاله من الحكام: من نفقة وكسوة ولوازم شرعية؛ فمن بلغ منهم رشيداً أسلم إليه ما فضل من ماله بالبينة المرضية، ويقرر الفروض على مقتضى قول الله تعالى: " على الموسع قدره وعلى المقتر قدره " ، ويزوج النسوة الخالية من العدد والأولياء، ممن رغب فيهن من الأكفاء، ويندب لذلك من يعلم أمانته وخبرته، وينظر في أمر المتصرفين: فمن كان منهم على الطريقة المأثورة أجراه على عادته، وأبقاه على حكمه وخدمته، ومن كان منهم خلاف ذلك يبعده ويقصيه، ويستبدل به ليبقى مكانه وفي تصرفه.

هذا عهدي إليك، وحجتي يوم القيامة عند الله عليك؛ فلتعلم ذلك وتعمل به إن شاء الله تعالى. " ويؤرخ، ويكون ذلك بخط الحاكم " ويكتب: " وحسبنا الله ونعم الوكيل " ويتوجه بعلامته الكريمة.
وهذه نسخة تقليد: الحمد لله ذي الفضل والسخاء، واللطف في الشدة والرخاء، الذي من تواضع إليه ورفعه، ومن أعطاه نفعه، ومن أخلص له في العبادة أمال عنه كيد الشيطان ودفعه، الذي أحاط علمه بالموارد والمصادر، واستوت عنده أحوال الأوائل والأواخر، واطلع على ضمائر النفوس ولا ينبغي لغيره أن يطلع على الضمائر، الخافض الرافع، والمعطي المانع؛ فإليه الأمر والتدبير، المقسط الجامع: " وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير " .
أحمده حمداً يقضي للسعادة بالتيسير، وأشكره شكراً يسهل من المآرب العسير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له سبحانه نعم المولى ونعم النصير، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أرسله بالهدى والكتاب المنير، وجعله للأمة خير بشير ونذير، صلى الله عليه وعلى آله وصحابته شهادة يحل المخلصون بها جنة " يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير " .

أما بعد، فإن من كان عارفاً بأحكام الشريعة، متهيئاً لنيل درجاتها الرفيعة، مستنداً إلى بيت مشكور، وقدر موفور، قلد الأحكام الدينية، ليعمل فيه بالشريعة المحمدية. ولما علمنا فلان بن فلان بن فلان الفلاني، قلدناه كذا وكذا.

فباشر أعانك الله: محافظاً على تقوى الله الذي إليه المرجع والمصير، قال الله تعالى في كتابه العزيز: " والله بما تعملون بصير " . واستشعر خيفة الله واجعلها نصب عينك، وتمسك با لحق واجعله حجابا بين النار وبينك، وانتصب لتنفيذ الأحكام انتصاب من يراقب الله ويخشاه، وحاسب نفسك محاسبة من يتحقق أنه يطلع عليه ويراه، وآبذل في إنصاف المظلوم من الظالم وسعك ،ورحب للمتحاكمين ذرعك ،وآنظر في أمر الشهود وحذرهم أن يزغوا عن الحق،وحاسبهم فيما جل ودق، ولاترخص لهم،وألزمهم أن يتخذوا الصدق منطقهم،وآنههم عن التسمح فيها ،وعرفهم التحرز عما يؤدي من التهمة والتطرق إليها، وانظر في أمر المتصرفين بباب الحكم العزيز نظراً يؤدي إ لى صلاحهم، ولا تعول في النيابة عنك إلا على من تختاره وترتضيه، ولا تعرج إلى من هو مستند إلى غاية ولا تمل إليه،وانظر في أمر الأ حباس نظرا يحفظ أصولها، ولا تراع في استخلاص ما يتعين لها كبيراً ولا صغيراً، ولا تعامل فيها إلا ذوي الوفاء واليسار، وارفض معاملة من يستند إلى العدم والإعسار، وافعل ما يفعله مثلك من الحكام، من إ نشاء العدالة والفسخ والإنكاح وغير ذلك فقد قلدناك هذه الأحكام؛ فإن علمت فيها بتقوى الله تعالى وطاعته يعينك على ذلك، وإن عملت غير ذلك فأنت والله هالك ثم هالك واستمع نصيحتي، وافعل ما تبرد به جلدتك وجلدتي، إن شاء الله تعالى.

المرتبة الثانية

كتابة التقليد بصيغة كتاب

قلت: وربما كتب التقليد بصيغة كتاب، مثل أن يكتب إلى الذي يتولى على قدر مرتبته، من: " صدرت هذه المكاتبة " أو: " هذه المكاتبة " ثم يقال: " تتضمن إعلامه أن المجلس الفلاني " بلقبه، ويدعى له : " لماعلمنا من حاله كذا وكذا – استخرنا الله تعالى وفوضنا إليه الحكم والقضاء بمكان كذا، فليباشر ذلك " على نحو ما تقدم في التقليد الذي قبله.

الصنف الثاني إسجالات العدالة

قد جرت العادة أن أبناء العلماء والرؤساء تثبت عدالتهم على الحكام، ويسجل لهم بذلك، ويحك الحاكم بعدالة من تثبت عدالته لديه، ويشهد عليه بذلك، ويكتب له بذلك في درجٍ عريضٍ، أما في قطع فرخة الشامي الكاملة، وأما في نحو ذلك من الورق البلدي، وتكون كتابته بقلم وأسطره متوالية، وبين كل سطرين تقدير عرض أصبع أو نحو ذلك.

قلت وهذه نسخة سجل أنشأته، كتب بها لولدي نجم الدين أبي الفتح محمد، وكتب له بها عند ثبوت عدالته، على الشيخ العلامة ولي الدين أحمد، ابن الشيخ الإمام الحافظ زين الدين عبد الرحيم العراقي، خليفة الحكم العزيز بمصر والقاهرة المحروستين، في شهور سنة ثلاث عشرة وثمانمائة وهي:

الحمد لله الذي أطلع نجم العدالة من سماء الفضائل في أفق معاليها، وأنار بدراري العلماء من حنادس الجهالة مدلهم لياليها، وكمل عقود النجابة من نجباء الأبناء بأغلى جواهرها وأنفس لآليها،وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ترقي قائلها إلى أرفع الذرا، ويمتطي منتحلها صهوة الثريا: وإن لنرجو فوق ذلك مظهرا،وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المخصوص بمحاسن الشيم، والموصوف بكرم المآثر ومآثر الكرم، صلى الله عليه وعلى أله وصحبه اللذين تمسكوا من عرا الدين بالسبب الأقوى، وسلكوا جادة الهداية فحصلوا من أقصى مغياها على الغاية القصوى، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد، فلما كانت العدالة هي أس الشريعة وعمادها، وركنها الأعظم في الاستناد إلى الصواب وسنادها، لا تقبل دونها شهادة ولا رواية، ولا يصح مع عدمها إسناد أمر ولا ولاية – فقد بنيت الشريعة المطهرة على أركانها، واعتمد الرواة في صحة الأخبار على أصولها وتعلقت الحكام في قبول الشهادة بأحضانها، إذ هي الملكة الحاملة على ملازمة التقوى، والحفيظة المانعة من الوقوع في هوة البدع

المتمسك بسببها الأقوى، والحكمة الثانية عن الجماح إلى ارتكاب الكبائر، والعنان الصارف عن الجنوح إلى الإصرار على الصغائر، والزمام القائد إلى صلاح أعمال الظواهر وسلامة عقائد الضمائر.

ولما مجلس القاضي الأجل، الفقيه، الفاضل، المشتغل، المحصل، الأصيل، نجم الدين، سليل العلماء، أبو الفتح محمد بن فلان القلقشندي الفزاري، الشافعي، خليفة الحكم العزيز بالقاهرة المحروسة والده، والحاكم بالعمل الفلاني وما معهما: أيد الله تعالى أحكامه، وأقر عينه بولده، هو الذي ولد على فراش الديانة، وظهرت عليه في الطفولية آثارها، ونشأ في أحياء الصيانة، فرويت عنه بالسند الصحيح أخبارها، وارتضع ثدي العلم حين بزوغ نجمه، وغذيه مع لبان أمه فامتزج بدمه ولحمه وعظمه، وأعلن منادي نشأته بجميل الذكر فأغنى فيه عن الاستخبار، ولاحت عليه لوائح النجابة فقضى له بالكمال قبل أن يبلغ قمر عمره زمن الإبدار: فلم يرد منهل التكليف إلا وقد تزين من محاسن الفضائل بأكمل زين، ولم يبلغ مبلغ العلم حتى صار لوالده ولله الحمد – قرة عين – رفعت قصة مخبرة عن حاله فيها من مضمون السؤال طلب الإذن الكريم بسماع بينة المذكور، وكتابة إسجال بعدالته، فشملها الخط الكريم العالي، المولوي، القاضوي، الإمامي، العالمي، العاملي، العلامي، الشيخي، المحدثي، الحافظي، الحبري، المجتهدي، المحققي، المدققي، الوحيدي، الفريدي، الحجي، الحججي، الخطيبي، البليغي، الحاكمي، الجلالي، الكناني، البلقيني، الشافعي، شيخ الإسلام، الناظر في الأحكام الشرعية بالديار المصرية، والممالك الشريفة الإسلامية: أدام الله تعالى أيامه، وأعز أحكامه، وأحسن إليه، وأسبغ نعمه في الدارين عليه – لسيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى، الشيخ الإمام العالم، الحافظ، ولي الدين، شرف العلماء، أوحد الفضلاء، مفتي المسلمين، أبي زرعه أحمد ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى زين الدين، شيخ الإسلام، قاضي المسلمين، أبي الفضل عبد الرحيم، ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى بدر الدين، شرف العلماء، أوحد الفضلاء، مفتي المسلمين، أبي عبد الله الحسين العراقي الشافعي، خليفة الحكم العزيز بالقاهرة ومصر المحروستين،

والحاكم بالأعمال المنوفية، ومفتي دار العدل الشريف بالديار المصرية: أيد الله تعالى أحكامه، وأحسن إليه بالنظر في ذلك على الوجه الشرعي. فحينئذ سمع سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمام، العالم، الحافظ، ولي الدين، الحاكم المشار إليه: أحسن الله تعالى إليه – البينة بتزكيته، وصرحت له بالشهادة بعدالته، وقبلها، القبول الشرعي السائغ في مثله. ثم أشهد على نفسه الكريمة من حضر مجلس حكمه وقضائه، وهو نافذ القضاء والحكم ماضيهما، وذلك في اليوم المبارك يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شهر رجب الفرد سنة ثلاث عشرة وثمانمائة – أنه ثبت عنده وصح لديه: أحسن الله إليه – على الوضع المعتبر الشرعي، والقانون المحرر المرعي، بالبينة العادلة المرضية، التي تثبت بمثلها الحقوق الشرعية – عدالة القاضي الأجل، العدل، الرضي، نجم الدين محمد المسمى أعلاه: زاده الله تعالى توفيقاً، وسهل له إلى الخير طريقاً، وما اشتمل عليه من صفاتها، وتحلى به من أدواتها، ثبوتاً صحيحاً معتبراً، مستوفى الشرائط محرراً. وأنه – أيد الله تعالى أحكامه، وسدد نقضه وإبرامه – حكم بعدالته، وقبول شهادته، حكماً تاماً وجزمه، وقضى فيه قضاءً أبرمه، وأذن له – أيد الله تعالى أحكامه – في تحمل الشهادة وأدائها، وبسط قلمه في سائر أنديتها وأرجائها، وأجراه – أجرى الله تعالى الخيرات على يديه – مجرى أمثاله من العدول، ونظمه في سلك الشهداء أهل القبول، ونصبه بين الناس شاهداً عدلاً إذ كان صالحاً لذلك وأهلاً. فليبسط بالشهادة قلمه، وليؤلف على شروط أدائها كلمه، وليحمد الله تعالى على ما منحه من ملابسها الجميلة، وأناله من الترقي لرتبتها الجليلة، وليتق الله تعالى في موارده ومصادره، وليسلك مسالك التقوى في أول أمره وآخره، وليعلم أن من سلك الحق نجا، ومن يتق الله يجعل له مخرجا. أوزعه الله تعالى شكر هذه الرتبة العلية، والمنزلة السنية. وتقدم أمر سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمام، العالم، الحافظ، ولي الدين، الحاكم المذكور، وقاه الله تعالى كل محذور، بكتابة هذا الإسجال، فكتب على إذنه الكريم، متضمناً لذلك مسؤولاً فيه، مستوفياً شرائطه الشرعية، وأشهد على نفسه الكريمة بذلك في التاريخ المقدم ذكره بأعاليه، المكتوب بخطه الكريم – شرفه الله تعالى؛ حسبنا

الله ونعم الوكيل. قلت: والعادة أن يعلم فيه الحاكم علامة تلو البسملة، ويكتب التاريخ في الوسط، والحسبلة في الآخر، كل ذلك بخطه، ويشهد عليه فيه من يشهد عليه من كتاب الحكم وغيرهم، كما في سائر الإسجالات الحكمية.الله ونعم الوكيل. قلت: والعادة أن يعلم فيه الحاكم علامة تلو البسملة، ويكتب التاريخ في الوسط، والحسبلة في الآخر، كل ذلك بخطه، ويشهد عليه فيه من يشهد عليه من كتاب الحكم وغيرهم، كما في سائر الإسجالات الحكمية.

الصنف الثالث الكتب إلى النواب وما في معناها

واعلم أن الكتب التي تكتب عن القضاة ألفاظها مرسلة، لا جنوح فيها إلى فن البلاغة والسجع إلا في القليل النادر وهذه نسخة كتاب كتب به عن قاضي القضاة فخر الدين الشافعي، إلى الحكام بالمملكة؛ وهو: أدام الله فضائل الجنابات العالية والمجالس العالية، وجعلهم قادة يقتدى بهم في القول والعمل، و " " الاحتفال من يعتنى بأمره ويحتفل، ولا سيما من سارت طريقة فضله المثلى في الآفاق سير المثل؛ ولا زال عرف معروفهم على ذوي الفضائل يفوح، وجياد جودهم تغدو في ميدان الإحسان وتروح، ونيل نيلهم يسري إلى القصاد فيحمد سراه عند الغبوق كما يحمد سراه عند الصبوح. هذه المكاتبة إليهم تقريهم سلاماً ألطف من النسيم، وتهدي إليهم ثناءً مزاج كاتبه من تسنيم، وتبدي لعلومهم الكريمة أن الجناب الكريم، العالي، الشيخي، الإمامي، الفاضلي، البارعي، الأوحدي، الأكملي، البليغي، المقدمي، الخطيبي، البهائي، أوحد الفضلاء، فخر العلماء، زين الخطباء، قبلة الأدباء، قدوة البلغاء، صفوة الملوك والسلاطين، خطيب الموصل - أدام الله المسرة به، ووصل الخير بسببه، ونفع بفوائد فضله وأدبه - ورد علينا بطرابلس المحروسة، فحصلت المسرة بذلك الورود، وتجدد بخدمته ما تقدم من وثيق العهود، وأبدى لنا من نظره الفائق الرقيق، وإنشائه المغني عن نشوة الرحيق،

وكتابته التي هي السحر الحلال على التحقيق، ما نزه الأبصار وشنف الأسماع، وقطع من فرسان الأدب أسباب الأطماع، فأزال عن القلب الكئيب فكراً، وأخجل من الروض الأنيق زهراً، وأخمل من المسك السحيق عطراً؛ وكيف لا؟وهو النفيس الذي جمع فيه قديم الأدب وحديثه، والجليس الذي لا يسأم كلامه ولا يمل حديثه؛ يا له أديباً ليس فيما يبديه من الأدب تحريف ولا غلط، وفاضلاً لو لم يكن بحراً لما كان الدر من فيه يلتقط؛ يمينه وفطنته الكريمتان ذواتا أفنان: فهذه إن رقمت طرساً فروح وريحان، أو بذلت براً فعينان تجريان، وهذه إن نظمت شعراً فياقوت ومرجان، أو نثرت تبراً فثمين الدر ألوان؛ ما برح الفضلاء إلى لقائه يسارعون،وحق لهم أن يسارعوا ومن أبواب معروفه يقتبسون؛ وكيف لا؟ وهو الشهاب الساطع، والجليل الذي لم نزل نشير إليه بالأصابع، والنبيل الذي تجري لفراقه من عيون اللبيب المدامع، والنزيل الذي ينشده العارف عن وداعه:

بعيشك خبرني متى أنت راجع يعرف المحسن إحسانه فينشر له من الثناء لواء، ويجل في مدح صفاته ونعوته الإنشاء إن شاء، ويجزل في ذم مستحق الذم منه الهجاء، فأكرم به مداحاً وأعظم به هجاء: العلماء لحضوره يترقبون، وإليه يتقربون، والفضلاء بفضله يعترفون، ومن بحره يغترفون، والأدباء إليه يستبقون، ومنه يقتبسون، والطلبة بأذيال فضله يتمسكون، وبنشر أثنيته يتمسكون، وإخوانه في الله بوجوده يفتخرون، وإلى جوده يفتقرون؛ كلما عرضت لهم حاجة تمسكوا بإيثاره، وكلما عاندهم الدهر سألوه الإمداد بأنصاره، فيجود في خدمتهم بيان بنانه، ويجرد في نصرتهم سيف لسانه. ثم من قبل أن نبلغ منه الوطر، ومن دون أن يكتفي منه السمع والبصر، عرفنا أنه قصد التوجه إلى البلاد الساحلية، والأعمال الطرابلسية؛ ليملي على أهلها من فضائله الباهرة الباسقة، وألفاظه التي هي كالدرر المتناسقة، ويجليهم عرائس الأفكار من أفكاره، ويجنيهم غرائس الأثمار من أشجار علمه، ويريهم البديهة البديعة، والقوافي المجيبة المطيعة. فليتقدم الجماعة – أيدهم الله تعالى – بإكرامه إكرام الأهل والأصحاب، وتلقيه بالبشر والطلاقة والترحاب، وإحلاله من الإحسان محلاً سامياً، وإنزاله من الإفضال منزلاً عالياً

والاعتناء الوافر بأمره، واستجلاب بث حمده وشكره، والتقاط درر فوائده، واكتسلب غرر فرائده، والإصغاء إلى المنثور والمنظوم من أقواله، والتعجب من حسن بداهته وسرعة ارتجاله. وليحتفل كل يوم بخدمته غاية الاحتفال، ويعتن بأمره اعتناء لا يشاركه تقصير ولا إهمال، ويرعى له حق الضيف الجليل، والقادم الذي إذا رحل عن بلده أبقى له بها الذكر الجميل، ويساعد على ما توجه بصدده كل ساعة يعود نفعها عليه، وينفق مما آتاه الله ويحسن كما أحسن الله إليه. ونحن نؤكد على الجماعة – أيدهم الله – في ذلك كل التأكيد، ونبالغ فيه مبالغة ما عليها من مزيد، ونحذرهم من الإهمال والتسويف والتقصير، ومن مقابلة جنابه الكريم بالنزر الحقير والقدر اليسير؛ فإكرام هذا الرجل ليس كإكرام من لم يسر بسيره، وما هو إلا لعلمه وفضله وخيره، وفد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: " وليس من يكرم لنفسه كالذي يكرم لغيره " .

فلتعظموه كل التعظيم وتنزلوه منزلة تليق بأهل الفضل والإفضال، وترفعوا له المقام وترفع له المقال، ليعود محقق الآمال مبلغ المقاصد، ناشراً ألوية الثناء والمحامد، مشمولاً بجميل الصلة والعائد؛ ونحن منتظرون ما يرد عنه من مكاتباته الكريمة بما وصل إليه من " المنازل " الحسنة.

وفي هممهم العلية، ومكارمهم السنية، ما يغني عن التأكيد بسببه والوصية؛ والله تعالى يديم عليهم سابغ الإفضال والإنعام، ويجمل بوجودهم وجودهم الأحكام والحكام، بمنه وكرمه.

الصنف الرابع ما يكتب في افتتاحات الكتب

فمن ذلك ما يكتب في أوائل كتب الأوقاف وهذه نسخة خطبة في ابتداء كتاب وقف

على مسجد؛ وهي: الحمد لله جامع الناس ليوم لا ريب فيه إنه لا يخلف الميعاد، وناصر الدين المحمدي بنبينا صلى الله عليه وسلم وعلى آله الكرام الأمجاد،

ومشرف هذه الأمة بالأئمة والجمعة والجماعات من أهل الرشاد، وجاعل من ارتضاه من أرباب سنة نبيه المختار من عباده العباد، ومسير القربات إليه لأهل السداد، ومريد الأعمال الصالحات ممن أخلصه بالطاعات ومزيد الإرفاد، ومفضل الأوقاف على أفضل وجوه البر من جعله للخير أهلاً بالنفع المعتدي وكثرة الأمداد، ومعظم الأجر لمن بنى بيتاً لله بنية خلية من الرياء والعناد؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من بنى مسجداً لله ولو كمفحص قطاة بنى الله تعالى له به قصراً في الحنة " ونرجو من كرم الله الازدياد.

أحمده على مواد نعمه التي جلت على التعداد، وأشكره شكراً وافياً وافراً نجعله ذخيرة ليوم التناد، وأستمد من اللطف لوازم الفضل الخفي وهو الكريم الجواد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله الخاتم الحائم على حوضه الوارد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما أصغي إلى الذكر وأجيب كل داع من حاضر أو باد.

وبعد، فلما كانت المثوبات مضمونة الأجر عند الكريم، والأعمال متعددة في التقديم، وكان بنيان المساجد وافراً أجراً، لمن أقام بواجب تبيان الظن الجميل وسدد إلى الخيرات سيراً؛ وقد قال تعالى: " أنا عند حسن ظن عبدي بي فليظن بي خيراً " ، ورأى العقلاء أن الأوقاف على المساجد والجوامع من أنفس قواعد الدين وأعلى – فلذلك قيل في هذا الإسجال المبارك: هذا ما وقفه وحسبه، وسلبه وأبده فلان. وقف وحبس رغبة في مزيد الثواب، ورجاء في تهون تهويل يوم الحساب، واغتناماً للأجر الجزيل من الكريم الوهاب، لقول الله تعالى في الآيات المبرورة: " من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة " . وقف بنية خالصة، وعزيمة صالحة، ونية صادقة، ما هو له وفي ملكه، وحوزه ويده وتصرفه، من غير مناظر له في ذلك ولا شريك، "ثم يذكرالوقف".

الفصل السادس في العمرات التي تكتب للحاج

وهذه نسخة عمرة اعتمرها أبو بكر بن محمد الأنصاري الخزرجي، عند مجاورته بمكة المشرفة في ستة سبع، وسنة ثمان، وسنة تسع، وسنة عشر وسبعمائة، للسلطان الملك الناصر "محمد بن قلاوون"؛ وهي:

الحمد لله الذي جعل البيت مثابة للناس وأمنا، وأمن من فيه بالقائم بأمر الله ومن هو للإسلام والمسلمين خير ناصر، وجعله ببكة مباركاً، ووضع الإصر بمن كثرت منه ومن سلفه الكريم على الطائفين والعاكفين الأواصر، وعقد لواء الملك بخير ملك وهو واحد في الجود ألف في الوغى: ففي حالتيه تعقد عليه الخناصر، وأطاب المقام في حرم الله تعالى وحرم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن يستحق السلطنة بذاته الشريفة وشرف العناصر، وسهل الطريق، إلى حج بيته العتيق، من المشارق والمغارب في دولة من أجمعت على محبته وورث الملك كابراً عن كابر، وأنطق الألسنة بالدعاء له من كل وافد إلى بيته الحرام على اختلاف لغاتهم واهتزت لوصف مناقبه المنابر.

أحمده على ما بلغ من جزيل إنعامه، وأشكره شكراً استزيد به من فضله ونواله وإكرامه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحد ه لا شريك له نعم الذخيرة لصاحبها يوم لقائه وعند قيامه، وأقولها خالصاً مخلصاً ويا فوز من كانت آخر كلامه، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أشرف مبعوث إلى الحق دعي فجاء بأشرف ملة، فقال صلى الله عليه وسلم: " عمرة في رمضان تعدل حجة " صلى الله عليه وعلى جميع آله وأصحابه خصوصاً على خليفته في أمته المخصوص بالسبق والمؤازرة والتصديق، مولانا أبي بكر الصديق، وعلى مظهر الأذان ومصدق الخطاب، مولانا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعلى من جمع على الأمة آيات القرآن، مولانا أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وعلي ابن عمه، وارث علمه، الجامع لجميع المآثر والمناقب، مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وعلى بقية الأنصار والمهاجرة، سادت الدنيا وملوك الآخرة، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد، فإن الله تعالى مالك الملك يؤتيه من يشاء من عباده، والخير بيده يفيضه على خلقه في أرضه وبلاده؛ فإذا أراد الله تعالى بعباده خيراً نصر ناصرهم ورفع عنهم الغلا، ودفع عنهم العدا، وولى عليهم خيارهم، فيقيمه من خير أمة أخرجت للناس، ليذهب عنهم الضرر ويزيل عنهم الباس، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وينصف المظلوم من الظالم ويقيم منار الشرع المطهر.

ولما كان مولانا السلطان الأعظم، والشاهنشاه المعظم، الملك الناصر – خلد الله سلطانه – قد جمع في المحتد بين طارف وتالد، وورث الملك عن أشرف أخ وأعظم والد، وقامت على استحقاقه للسلطنة الدلائل، وألفه سرير الملك وعرف فيه من والده ومن أخيه – رحمهما الله تعالى – الشمائل؛ فهو المالك الذي لم يزل الملك به آهلاً ولم يزل له أهلاً، والسيد الذي لبس حلة الفخار فلم نجد له في السؤدد والفخار مثلاً، والملك الذي ما بدا الرائية إلا قيل: بحر طمى أو بدر تجلى، والمؤيد الذي خصه الله تعالى بعلو شأنه وارتقائه، ولم يرض مراقد الفراقد لعليائه، والكريم الذي ساد الأوائل والأواخر، وأضفيت عليه حلل المفاخر، والمنصور الذي أعطي على الأعداء قوة ونصراً، والناصر الذي اتسع مجال نصره فأخذ الكفار حصراً، وحكمت السيوف والقواضب فوضعت عن الأولياء إصراً، قد خصه الله تعالى بالعز والنصر كرة بعد كرة، وفضله على سائر ملوك الإسلام بالحج وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم مرة بعد مرة، ومرة أخرى إن شاء الله تعالى ومرة ومرة! كم سلك سنن والده وأخيه – رحمهما الله تعالى – بالغزاة فكان له كل مشهد مذكور، وعرف تقدمه وإقدامه فكان أعظم ناصر وأشرف منصور؛ يحمده الله تعالى والناس عن جميل ذبه عن الإسلام وحميد فعله، واستقل الجزيل فينيل الجميل لمن أم أبوابه الشريفة فلا يستكثر هذا من مثله؛ ما حملت راياته الشريفة كتيبة إلا نصرت، ولا وقف بوجهه الكريم في دفع طائفة الكفر إلا كسرت، ولا جهز عساكره المنصورة إلى قلعة إلا نزل أهلها من صياصيهم، ولا حاصروا ثغراً للكفار إلا أخذوا بنواصيهم،، ولا سير سرية لمواجهة محارب إلا ذل على رغمه، ولا نطق لسان الحمد للمجاهد أو سار الشاهد إلا وقف الحمد على قوله واسمه،

فاختاره الله تعالى على علم على العالمين، واجتباه للذب عن الإسلام والمسلمين، وجعله لسلطانه وارثاً، وفي الملك ماكثاً، وللقمرين ثالثاً، و لأموره سداداً، ولثغور بلاد الإسلام سداداً، وفوض إليه القيام بمصالح الإسلام، والنظر في مصالح الخاص والعام، وعدق به أمور الممالك والأملاك، وأطلع بسعادته أيمن البروج فب أثبت الأفلاك وحمى الإسلام والمسلمين من كل جانب شرقاً وغرباً، وملأ بمهابته البلاد والعباد رعباً وحباً، وبسط في البسيطة حكمه وعدله، ونشر على الخلائق حلمه وفضله، وفرض طاعته على جميع الأمم، وجعله سيداً لملوك العرب والعجم، وأمن بمهابته كل حاضر وباد، ونوم سكان الحرمين الشريفين من كنفه في أوطإ مهاد ، وسكن خواطر المجاورين من جميع المخاوف، وصان بالمقام في مكة الطائف والعاكف؛ قد حسن مع الله تعالى سيرة وسيراً، ودلت أيامه الشريفة أنه خير ملك أراد الله تعالى برعيته خيراً، وراعى الله فيما رعى، وسعى في مصالح الإسلام عالماً أن ليس للإنسان إلا ما سعى.

قد ملأ أعين الرعايا بالطمأنينة والهجوع، وأمنهم في أيامه الشريفة بالرخاء من الخوف والجوع، وجمع لهم بين سعادة الدنيا والأخرى، وسهل لهم الدخول إلى بيته الحرام براً وبحراً، وفتح الله تعالى على يديه - خلد الله تعالى سلطانه - جميع الأمصار، وملأ من مهابته جميع الأقطار:

فسارت مسير الشمس في كل بلدة ... وهبت هبوب الريح في الفرب والبعد

فوجب على العالمين أن يدعوا لدولته الشريفة المباركة بطول البقاء، و " دوام " العلو والارتقاء، ووجب على كل من الواصلين إلى بيته الحرام وحضرة قدسه، أن يبتهل بالدعاء له قبل أن يدعو لنفسه، فكيف من هو مملوكه وابن مملوكه ووارث عبوديته، ومن لم يزل هو ووالده وإخوته في صدقات والده الشهيد - رحمه الله تعالى - وعميم نعمته، العبد الفقير إلى الله تعالى أبو بكر بن محمد بن المكرم الأنصاري الخزرجي، فإنه لم يزل مدة أيامه مبتهلاً بصالح دعواته، متوسلاً إلى الله تعالى بدوام نصره وطول حياته، طائفاً عند مقامه الشريف حول بيته الحرام، والمشاعر العظام.

وأحب أن يتحفه بأشرف العبادة فلم يجد أجل مقداراً ولا أعظم أجراً، من عمرة يعتمرها عنه ويهدي ثوابها لصحائفه الشريفة ويزيد بذلك فخراً، فقام عنه بعمرتين شريفتين اعتمرهما عنه في رمضان، مكملتين بإحرامهما وتلبيتهما، وطوافهما وسعيهما، يتقرب بذلك إلى أبوابه الشريفة، ويسأل الله تعالى ويسأل صدقاته الشريفة أن ينعم عليه بنصف معلوم صدقة عليه، وبنصفه لأولاده: ليقضي بقية عمره في الثلاثة المساجد، ويخصه بجزيل الدعاء من كل راكع وساجد، وأن يكون ذلك مستمراً عليه مدة حياته، وعلى ذريته ونسله وعقبه بعد وفاته، لتشمل صدقات مولانا السلطان – خلد الله تعالى ملكه – الأحياء والأموات، ويطيب لغلمانه في أيامه الشريفة الممات؛ جعل الله تعالى مولانا السلطان وارث الأعمار، وأجرى بدوام أيامه الشريفة المقدار وجعل كلمة الملك باقية في عقبه، وبلغه من النصر والظفر والأجر غاية أربه، وجعل أيامه كلها مسار وبشائر، ودولته تسر النواظر، وسعادته ليس لها آخر، ويهنئه بما قد أتمه الله له من ملك والده الشهيد رحمه الله تعالى:

" أهنيك " بالملك يا خير من ... أجار البرايا ومن مارها
ومن ليس للأرض ملك سواه ... تميل له الخلق أبصارها!
وأنت الذي تملك الخافقين ... " " وإعصارها
وتملك سيب تكفورها ... وتركب بالجيش أوعارها
وتحكم في المرء حكم الملوك ... وتنشد في التخت أشعارها
وتفتح بغداد دار السلام ... وتنفي بملكك أكدارها
وتأخذ بالعسكر الناصري ... قصور الخلافة أوتارها
ويأمن في ذلك العالمون ... وتحمي الأسود وأوكارها
وتبقى إلى أن تعم البلاد ... بنعمى تتابع إدرارها
ويبلغ ملكك أقصى البلاد ... وتجري العبادة وأوطارها
وينظم سيرتك الناظمون ... وتعيي مغازيك سمارها

" والله يبقيه " بعدها دائماً ناصر الدنيا والإسلام والمسلمين، كما سماه والده ناصر الدنيا والدين، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الباب الثاني من المقالة العاشرة في الهزليات

اعلم أنه ربما اعتنت الملوك ببعضه، فاقترحت على كتابها إنشاء شيء من الأمور الهزلية، فيحتاجون إلى الإتيان بها على وفق غرض ذلك الملك، كما وقع لمعين الدولن بن بويه الديلمي في اقتراحه على أبي إسحاق الصابي كتابة عهد بالتطفل، لرجل كان عنده اسمه عليكا، ينسب إلى التطفل، ويسخر منه السلطان بسبب ذلك.

وهذه نسخة عهد بالتطفل، التي أنشأها أبو إسحاق الصابي لعليكا المذكور: هذا ما عهد علي بن أحمد المعروف بعليكا إلى علي بن عرس الموصلي، حين استخلفه على إحياء سننه، واستنابه في حفظ رسومه، من التطفل على أهل مدينة السلام وما يتصل بها من أرباضها وأكنافها، ويجري معها في سوادها وأطرافها، لما توسمه فيه من قلة الحياء، وشدة اللقاء، وكثرة اللقم، وجودة الهضم ورآه أهلاً له من سد مكانه، والرفاهه المهملة التي فطن لها، والرقاعة المطرحة التي اهتدى إليها، والنعم العائدة على لابسيها بملاذ الطعوم، وخصب الجسوم، وردا على من اتسعت حاله، وأقدره الله على غرائب المأكولات، وأظفره ببدائع الطيبات، آخذاً من ذلك كله بنصيب الشريك المناصف، وضارباً فيه بسهم الخليط المفاوض، ومستعملاً للمدخل اللطيف عليه، والمتولج العجيب إليه، والأسباب التي ستشرح في مواضعها من أوامر هذا الكتاب، وتستوفى الدلالة على ما فيها من رشاد وصواب؛ وبالله التوفيق وعليه التعويل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أمره بتقوى الله التي هي الجانب العزيز، والحرز الحريز، والركن المنيع، والطود الرفيع، والعصمة الكالئة، والجنة الواقية، والزاد النافع يوم المعاد، وحيث الأمثلة من الأزواد، وأن يستشعر خيفته في سره وجهره، ويراقبه في قوله وفعله، ويجعل رضاه مطلبة، وثوابه مكسبة والقربة منه أربة، والزلفى لديه غرضه، ولا يخالفه في مسعاة قدم، ولا يتعرض عنده لعاقبة ندم، ولا يقدم على ما كره وأنكر، ولا يتقاعس عما أحب وأمر.

وأمره أن يتأدب بأدبه فيما يأتي ويذر، ويقف على حدوده فيما أباح وحظر، فإنه إذا كان ذلك هجيراه وديدنه، وجرى عليه منهاجه وسننه، تكفل الله له بالنجاح والصلاح، وأفضى به إلى الرشاد والفلاح، وأظفره بكل بغية، وأوصله إلى كل مشية، ولم يخله من الفوز بما يرصد، والحوز بما يقصد؛ بذاك وعد، وكذاك يفعل؛ وما توفيقنا إلا بالله، ولا مرجعنا إلا إليه.

وأمره أن يتأمل اسم التطفيل ومعناه، ويعرف مغزاه ومنحاه، ويتصفحه تصفح الباحث عن حظه بمحموده، غير القائل فيه بتسليمه وتقليده، فإن كثيراً من الناس قد استقبحه ممن فعله، وكرهه لمن استعمله، ونسبه فيه إلى الشره والنهم، وحمله منه على التفه والقرم؛ فمنهم من غلط في استدلاله، فأساء في مقاله، ومنهم من شح على ماله، فدافع عنه باحتياله؛ وكل الفريقين مذموم، وجميعهما ملوم؛ لا يتعلقان بعذر واضح، ولا يعتريان من لباس فاضح؛ ومنهم الطائفة التي ترى فيها شركة العنان: فهي تتدله إذا كان لها، وتتدلى عليه إذا كان لغيرها، وترى أن المنة في المطعم للهاجم الآكل، وفي المشرب للوارد الواغل؛ وهي أحق بالحرية، وأخلق بالخيرية وأحرى بالمروة، وأولى بالفتوة؛ وقد عرفت بالتطفيل، ولا عار فيه عند ذوي التحصيل، لأنه مشتق من الطفل وهو وقت المساء وأوان العشاء، فلما كثر استعمل في صدر النهار وعجزه، وأوله وآخره، كما قيل للشمس والقمر: قمران وأحدهما القمر، ولأبي بكر وعمر: العمران وأحدهما عمر؛ وقد سبق إمامنا " بيان " رحمة الله عليه إلى هذا الأمر سبقاً أوجب له خلود الذكر، فهو باق بقاء الدهر، ومتجدد في كل عصر؛ وما نعرف أحداً نال من الدنيا حظوظها فبقي له منه أثر يخلفه، وصيت يستبد به إلا هو وحده، فبيان رضوان الله عليه يذكر بتطفيله كما تذكر الملوك بسيرها؛ فمن بلغ إلى نهايته، أو جرى إلى غايته، سعد بغضارة عيشه في يومه، ونباهة ذكره في غده؛ جعلنا الله جميعاً من السابقين إلى مداه، والمذكورين كذكره.

وأمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بغزاياه، وسمط الأمراء والوزراء بسراياه، فإنه يظفر منها بالغنيمة الباردة؛ ويصل عليها إلى الغريبة النادرة؛ وإذا استقراها وجد فيها من طرائف الألوان، الملذة للسان، وبدائع الطعوم، السائغة في

الحلقوم، ما لا يجده عند غيره غيرهم، ولا يناله إلا لديهم، لحذق صناعتهم، وجودة أدواتهم، وانزياح عللهم، وكثرة ذات بينهم؛ والله يوفر من ذلك حظنا، ويسدد نحوه لحظنا، ويوضح عليه دليلنا، ويسهل إليه سبيلنا.

وأمره أن يتبع ما يعرض لموسري التجار، ومجهزي الأمصار، من وكيرة الدار، والعرس والإعذار، فإنهم يوسعون على نفوسهم في النوائب، بحسب تضييقهم عليها في الراتب؛ وربما صبروا على تطفيل المتطفلين، وأغضوا على تهجم الواغلين، ليتحدثوا بذلك في محافلهم الرذلة، ويعدوه في مكارم أخلاقهم النذلة؛ ويقول قائلهم الباجح باتساع طعامه، المباهي بكثرة حطامه؛ إنني كنت أرى الوجوه الغريبة فأطعمها، والأيدي الممتدة فأملوها. وهذه طائفة لم ترد بما فعلته الكرم والسعة، وإنما أرادت المن والسمعة؛ فإذا اهتدى الأريب إلى طرائقها وصل إلى بغيته من إعلان قضيتها، وفاز بمراده من ذخائر حسنتها، إن شاء الله.

وأمره أن يصادق قهارمة الدور ومدبريها، ويرافق وكلاء المطابخ وحماليها، فإنهم يملكون من أصحابهم أزمة مطاعمهم ومشاربهم، ويضعونها بحيث يحبون من أهل موادتهم ومعارفهم؛ وإذا عدت هذه الطائفة أحداً من الناس خليلاً من خلانها، واتخذته أخاً من إخوانها، سعد بمرفقتها، ووصل إلى محابه من جهاتها، ومآربه في جنباتها.

وأمره أن يتعهد أسواق المسوقين، ومواسم المتبايعين؛ فإذا رأى وظيفة قد زيد فيها، وأطعمة قد احتشد مشتريها، اتبعها إلى المقصد بها، وشيعها إلى المنزل الحاوي لها، واستعلم ميقات الدعوة، ومن يحضرها من أهل النسيان والمروة، فإنه لا يخلو فيهم من عارف به يراعي وقت مصيره إليها ليتبعه، ويكمن له ليصحبه ويدخل معه؛ وإن خلا من ذلك اختلط بزمر الداخلين، وعصب الراحلين؛ فما هو إلا أن يتجاوز عتب الأبواب، ويخرج من سلطان البوابين و الحجاب، حتى يحصل حصولاً قل ما حصل "عليه" أحد قبله فانصرف عنه إلا ضليعاً من الطعام، بريقاً من المدام، إن شاء الله.

وأمره أن ينصب الأرصاد على منازل المغنيات والمغنين، ومواطن الأبليات والمخنثين؛ فإذا أتاه خبر لجمع يضمهم، ومأدبة تعمهم، ضرب إليها أعناق إبله، وأمضى نحوها مطايا خيله، وحمل عليها حملة الحوت الملتقم، والثعبان الملتهم، والليث الهاصر، والعقاب الكاسر إن شاء الله.

وأمره أن يتجنب مجامع العوام المقلين، ومحافل الرعاع المقترين، وأن لا ينقل إليها قدماً ولا يعفر لمأكلها فماً، ولا يلقى في عتب دورها كيساناً، ولا يعد الرجل منها إنساناً، فإنها عصابة يجتمع لها ضيق النفوس والأحلام، وقلة الأحكام والأموال؛ وفي التطفيل عليها إجحاف بها يوسم، وإزراؤه بمروءة المتطفل يوصم؛ والتجنب لها أحرى، والأزورار عنها أحجى، إن شاء الله.

وأمره أن يحزر الخوان إذا وضع، والطعام إذا نقل، حتى يعرف بالحدس والتقريب، والبحث والتنقيب، عدد الألوان في الكثرة والقلة، وافتتانها في الطيب واللذة، فيقدر لنفسه أن يشبع مع آخرها، وينتهي منها عند انتهائها، ولا يفوته النصيب من كثيرها وقليلها، ولا يخطئه الحظ من دقيقها وجليلها. ومتى أحس بقلة لطعام، وعجزه عن الأقوام، أمعن في أوله إمعان الكيس من سعته، الرشيد في أمره، المالئ لبطنه، من كل حار وبارد، وخبيث وطيب. فإنه إذا فعل ذلك سلم من عواقب الأغمار الذين يكفون تطرفاً، ويقلون تأدباً، ويظنون أن المادة تبلغهم في آخر أمرهم، وتنتهي بهم إلى غاية سعيهم، فلا يلبثوا أن يخجلوا خجلة الواثق، وينقلبوا بحسرة الخائب، أعاذنا الله من مثل مقامهم، وعصمنا من شقاء جدودهم، إن شاء الله.

وأمره أن يروض نفسه، ويغالط حسه، ويضرب عن كثير مما يلحقهصفحا، ويطوي دونه كشحا، ويستحسن الصمم عن الفحشا؛ وإن أتته اللكزة في حلقه، صبر عليها في الوصول إلى حقه، وإن وقعت به الصفعة في رأسه، صبر عليها لموقع أضراسه، وإن لقيه لاق بالجفاء، قابله باللطف والصفاء، إذ كان قد ولج الأبواب، وخالط الأسباب؛ وجلس مع الحضور، وامتزج بالجمهور، فلا بد أن يلقاه المنكر لأمره، ويمر به المستغرب لوجهه؛ فإن كان حراً حيياً أمسك وتذمم، وإن كان فظاً غليظاً همهم وتكلم، وتجنب عند ذلك المخاشنة، واستعمل مع المخاطب له

الملاينة، ليبرد غيظه، ويفل حده، ويكف غربه، ويأمن شغبه؛ ثم إذا طال المدى تكررت الألحاظ عليه فعرف، وأنست النفوس به فألف، ونال من المحال المجتمع عليها منال من حشم وسئل الذهاب إليها.

وقد بلغنا أن رجلاً من العصابة كان ذا فهم ودراية، وعقل وحصافة، طفل على وليمة، لرجل ذي حال عظيمة، فقرمته فيها من القوم العيون، وصرفت بهم فيه الظنون، فقال له قائل منهم: من تكون أعزك الله؟ فقال: أنا أول من دعي إلى هذا الحق. قيل له: وكيف ذاك ونحن لا نعرفك؟ فقال: إذا رأيت صاحب الدار عرفني وعرفته نفسي؛ فجيء به إليه، فلما رآه بدأه بأن قال له: هل قلت لطباخك: أن يصنع طعامك زائداً على عدد الحاضرين، ومقدار حاجة المدعوين؟ قال: نعم! فإنما تلك الزيادة لي ولأمثالي، وبها يستظهر لمن جرى مجراي، وهي رزق لنا أنزله الله على يدك وبك، فقال له: كرامة ورحباً، وأهلاً وقرباً؛ والله لا جلست إلا مع علية الناس ووجوه الجلساء، إذ أطرفت في قولك وتفننت في فعلك. فليكن ذلك الرجل إماماً يقتدى به، ويقتفى طريقه، إن شاء الله.

وأمره بأن يكثر من تعاهد " الجوراشنات " المنفذة للسدد، المقوية للمعد، المشهية للطعام، المسهلة لسبل الانهظام، فإنها عماد أمره وقوامه، وبها انتظام والتئامه؛ إذ كانت تعين على عمل الدعوتين، وتنهض في اليوم الواحد الأكلتين؛ وهو يتناولها كذا كالكاتب الذي يقط أقلامه، والجندي الذي يصقل حسامه، والصانع الذي يحدد آلته، والماهر الذي يصلح أدواته، إن شاء الله.

هذا عهد عليكا بن أحمد إليك، وحجته لك وعليك؛ لم يألك فيه إرشاداً وتوفيقاً، تهذيباً وتثقيفاً، وبعثاً وتبصيراً، وحثاً وتذكيراً؛ فكن بأوامره مؤتمراً، وبزواجره مزدجراً، ولرسومه متبعاً، وبحفظها مضطلعاً، إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

الخاتمة في ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة وفيها أربع أبواب

الباب الأول في الكلام على البريد وفيه فصلان

الفصل الأول في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها ويتعلق الغرض من ذلك بثلاثة أمور

الأمر الأول معرفة معنى لفظ البريد لغة واصطلاحا

أما معناه لغة، فالمراد منه مسافة معلومة مقدرة باثني عشر ميلاً، واحتج له الجوهري بقول مزرد يمدح عرابة الأوسي:

فدتك عراب اليوم أمي وخالتي ... وناقتي الناحي إليك بريدها!

يريد سيرها في البريد. وقد قدره الفقهاء وعلماء المسالك والممالك بأنه أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمي، وهو أربع وعشرين أصبعاً، كل أصبع ستة شعيرات معترضات، ظهر إحداها لبطن الأخرى، والشعيرة سبع شعرات معترضات من ذنب بغل أو برذون.

قال الجوهري: ويقال أيضاً على البريد: المرتب؛ يقال: حمل فلان على البريد.

قال: ويطلق أيضاً على الرسول: بريد.

ثم اختلف فيه فقيل: إنه عربي. وعلى هذا ذهب " الخليل " إلى أنه مشتق من بردت الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه. وقيل: من أبردته إذا أرسلته. وقيل: من برد إذا ثبت، لأنه يأتي بما تستقر عليه الأخبار، يقال: اليوم يوم بارد سمومه أي ثابت.

وذهب آخرون إلى أنه فارسي معرب. قال أبو السعادات بن الأثير في كتابه " النهاية في غريب الحديث " : وأصله بالفارسية " بريده دم " ، ومعناه مقصوص الذنب. وذلك أن ملوك الفرس كانت من عادتهم أنهم إذا أقاموا بغلاً في البريد قصوا ذنبه، ليكون ذلك علامة لكونه من بغال البريد. وأنشد الجوهري لامرئ القيس:

على كل مقصوص الذنابى معاود ... بريد السرى بالليل من خيل بربرا

الأمر الثاني أول من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن

أما في الجاهلية، فقد ذكر في " التعريف " : أن البريد كان موجوداً في عهد الأكاسرة من ملوك الفرس، والقياصرة ملوك الروم. قال: ولكن لا أعرف هل كان على البريد المحرر أو كانت مقاديره متفاوتة كما هو الآن؟. ثم قال: ولا أظنه إلا على القدر المحرر، إذ كانت حكمتهم تأبى إلا ذلك.

وأما في الإسلام فقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه " الأوائل " : أن أول من وضعه في الإسلام معوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما. قال في " التعريف " : وذلك حين استقرت له الخلافة ومات أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وسلم له ابنه الحسن عليه السلام، وخلا من المنازع، فوضع البريد لتسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها، فأمر بإحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم وعرفهم ما يريد، فوضعوا له البريد. قال: وقيل: إنما فعل ذلك زمن عبد الملك بن مروان حين خلا وجهه من الخوارج عليه: كعمرو بن سعيد الأشدق، وعبد الله بن الزبير، ومصعب بن الزبير، والمختار بن أبي عبيد.

والذي ذكره العسكري: أن عبد الملك إنما أحكمه. وذكر عنه أنه قال لابن الدغيدغه: وليتك ما حضر بابي إلا أربعة: المؤذن، فإنه داعي الله تعالى فلا حجاب عليه، وطارق الليل، فشر ما أتى به ولو وجد خيراً لنام، والبريد، فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه، فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة، والطعام إذا أدرك، فافتح الباب وارفع الحجاب وخل بين الناس وبين الدخول. ثم

قال: ويذكر هذا الكلام عن زياد أيضاً.
قال في " التعريف " : وكان الوليد بن عبد الملك يحمل عليه الفسيفساء وهي الفص المذهب من القسطنطينية إلى دمشق، حتى صفح منه حيطان المسجد الجامع بها، ومساجد مكة والمدينة والقدس.

قال: ثم لم يزل البريد قائماً، والعمل عليه دائماً، حتى آن لبناء الدولة المروانية أن ينتقض، ولحبلها أن ينتكث، فانقطع ما بين خراسان والعراق، لانصراف الوجوه إلى الشيعة القائمة بالدولة العباسية. ودام الأمر على ذلك حتى انقضت أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وملك السفاح، ثم المنصور، ثم المهدي، والبريد لا يشد له سرج، ولا تلجم له دابة. ثم إن المهدي أغزى ابنه هارون الرشيد الروم، وأحب أن لا يزال على قريب من خبره، فرتب فيما بينه وبين معسكر ابنه برداً كانت تأتيه بأخباره، وتريه متجددات أيامه. فلما قفل الرشيد قطع المهدي تلك البرد؛ ودام الأمر على هذا باقي مدته ومدة خلافة موسى الهادي بعده. فلما كانت خلافة هارون الرشيد، ذكر يوماً حسن صنيع أبيه في البرد التي جعلها بينهما، فقال له يحيى ابن خالد: لو أمر أمير المؤمنين بإجراء البريد على ما كان عليه، كان صلاحاً لملكه، فأمره به، فقرره يحيى بن خالد، ورتبه على ما كان عليه أيام بني أمية، وجعل البغال في المراكز؛ وكان لا يجهز عليه إلا الخليفة أو صاحب الخبر، ثم استمر على هذا؛ فلما دخل المأمون بلاد الروم ونزل على نهر البرذون وكان الزمان حراً، والفصل صيفاً، فقعد على النهر ودلى رجليه فيه وشرب ماءه، فاستعذبه واستبرده واستطابه، وقال لمن كان معه: ما أطيب ما شرب عليه هذا الماء؟، فقال كل رجل برأيه. فقال هو: أطيب ما شرب عليه هذا الماء رطب " إزاز " ، فقالوا له: يعيش أمير المؤمنين حتى يأتي العراق ويأكل من رطبها الإزاز، فما استتموا كلامهم حتى أقبلت بغال البريد تحمل ألطافاً فيها رطب إزاز، فأتي المأمون بها فأكل منها وأمعن وشرب من ذلك الماء، فكثر تعجب الحاضرين منه لسعادته في أنه لم يقم من مقامه حتى بلغ أمنيته، على ما كان يظن من تعذرها؛ فلم يقم المأمون من مقامه حتى حم حمى حادة كانت فيها منيته.

ثم قطع بنو بويه البريد حين علوا على الخلافة وغلبوا عليها، ليخفى على الخليفة ما يكون من أخبارهم وحركاتهم أحيان قصدهم بغداد، وكان الخليفة لا يزال يأخذ بهم على بغتة.

ثم جاءت ملوك السلاجقة على هذا؛ وأهم ملوك الإسلام اختلاف ذات بينهم وتنازعهم، فلم يكن بينهم إلا الرسل على الخيل والبغال، في كل أرض بحسبها. فلما جاءت الدولة الزنكية أقامت لذلك النجابة، وأعدت له النجب المنتخبة. ودام ذلك مدة زمانها ثم زمان بني أيوب إلى انقراض دولتهم. وتبعها على ذلك أوائل الدولة التركية، حتى صار الملك إلى الملك الظاهر بيبرس رحمه الله، واجتمع لم ملك مصر والشام وحلب والفرات، وأراد تجهيز دولته إلى دمشق فعين لها نائباً، ووزيراً، وقاضياً، وكاتباً للإنشاء.

قال: وكان عمي الصاحب شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب رحمه الله هو كاتب الإنشاء، فلما مثل إليه ليودعه، أوصاه وصايا كثيرة، آكدها مواصلته بالأخبار وما يتجدد من أخبار التتار والفرنج، وقال له: إن قدرت أن لا تبيتني كل ليلة إلا على خبر " ولا تصبحني إلا على خبر " فافعل، فعرض له بما كان عليه البريد في الزمان الأول وأيام الخلفاء، وعرضه عليه فحسن موقعة منه وأمر به. قال عمي: فكنت أنا المقرر له قدماه وبين يديه. ثم ذكر أنه لم يزل باقياً على ذلك إلى أيامه. ثم قال: وهو جناح الإسلام الذي لا يحص ، وطرف قادمته التي لا تقص.

قلت: ولم يزل البريد بعد ذلك مستقراً بالديار المصرية والممالك الشاملة إلى أن غشي البلاد الشامية تمرلنك صاحب ما وراء النهر، وفتح دمشق وخربها وحرقها في سنة أربع وثمانمائة، فكان ذلك سبباً لحص جناح البريد وبطلانه من سائر الممالك الشامية. ثم سرى هذا السم إلى الديار المصرية فألحقها بالهمل، ورماها بعد الحلي بالعطل، فذهبت معالم البريد من مصر والشام، وعفت آثاره، وصار إذا عرض أمر من الأمور السلطانية في بعض نواحي الديار المصرية أو الممالك الشامية، ركب البريدي على فرس له، يسير بها الهوينة سير المسافر إلى المكان الذي يريده، ثم يعود على هذه الصورة، فيحصل بواسطة ذلك الإبطاء في الذهاب والإياب.

الأمر الثالث بيان معالم البريد

إعلم أنه كان فيما تقدم فيزمن الخلفاء للبريد شخص مخصوص يتولى أمره بتنفيذ ما يصدر وتلقي ما يرد، يعبر عنه ب " صاحب البريد " . وممن تعرض إلى ذكر ذلك أبو جعفر النحاس في كتابة " صناعة الكتاب " في الكلام على أرباب الوظائف، اشتقاق أسمائهم. وقد أشار إليه الجوهري في صحاحه أيضاً فقال: ويقال أبرد صاحب البريد إلى الأمير فهو مبرد يعني أرسل إليه البريد.

ثم قد تقدم في مقدمة الكتاب في الكلام على صاحب ديوان الإنشاء وماله التحدث عليه – إن صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية هو المتولي لأمر البريد وتنفيذ أموره في الإيراد والإصدار. وكان للبريد ألواح من فضة مخلدة بديوان الإنشاء تحت أمر كاتب السر بالأبواب السلطانية، منقوش على وجهي اللوح نقشاً مزدوجاً ما صورته: " لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. ضرب بالقاهرة المحروسة " . وعلى الوجه الآخر ما صورته: " عز لمولانا السلطان الملك الفلاني: فلان الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، فلان، ابن مولانا السلطان الشهيد الملك الفلاني فلان، خلد الله ملكه " . وفي ذلك اللوح ثقب معلق به شرابه من حرير أصفر ذات بندين، يجعلها البريدي في عنقه، بإدخاله رأسه بين البندين، ويصير اللوح أمامه تحت ثيابه، والشرابة خلفه من فوق ثيابه. فإذا خرج بريدي إلى جهة من الجهات، أعطي لوحاً من تلك الألواح، يعلقه في عنقه، على ما تقدم ذكره، ويذهب إلى جهة قصده؛ فكل من رأى تلك الشرابة خلف ظهره علم أنه بريدي. وبواسطة ذلك تذعن له أرباب المراكز بتسليم خيل البريد. ولا يزال كذلك حتى يذهب ويعود، فيعيد ذلك اللوح إلى ديوان الإنشاء.

وكذلك الحكم في دواوين الإنشاء بدمشق وحلب وغيرهما من الممالك الشامية؛ لا يختلف الحكم في ذلك إلا في الكتابة بمحل ضرب اللوح. فإن كان بدمشق كتب: "

ضرب بالشام " . وإن كان بحلب كتب: " ضرب بحلب المحروسة " وكذلك باقي الممالك.

الفصل الثاني من الباب الأول من الخاتمة في ذكر مراكز البريد

وهي الأماكن التي تقف فيها خيل البريد لتغيير خيل البريدية فيها فرس بعد فرس. قال في " التعريف " : وليست على المقدار المقدر في البريد المحرر، بل هي متفاوتة الأبعاد، إذ ألجأت الضرورة إلى ذلك: تارة لبعد ماء، وتارة للأنس بقرية، حتى أنك لترى في " هذه " المراكز البريد الواحد بقدر بريدين. ولو كانت على التحرير " الذي عليه الأعمال " لما كان تفاوت. وقد ذكر منها المقر الشهابي بن فضل الله رحمه الله " التعريف " ما أربى في ذلك على المقصود وزاد، وهو بذلك أدرى وأدرب. وهانا أذكر ما ذكره، موضحاً لم يحتاج منه إلى التوضيح، مع الزيادة عليه وتقريب الترتيب.

ويشتمل على ستة مقاصد:

المقصد الأول في مركز قلعة الجبل المحروسة بالديار المصرية

التي هي قاعدة الملك وما يتفرع عنه من المراكز وما تنتهي إليه مراكز كل جهة " إعلم أن الذي يتفرع عن مركز القلعة ويتشعب منه أربع جهات، وهي: جهة " قوص " من الوجه القبلي وما يتصل بذلك من أسوان وما يليها من بلاد النوبة، وعيذان وما يليها من سواكن، وجهة الإسكندرية من الوجه البحري، وجهة دمياط من الوجه البحري أيضاً وما يتفرع عنها من جهة غزة من البلاد الشامية.

فأما مراكز قوص وما يليها: فمن مركز قلعة الجبل المحروسة ومنها إلى مدنية الجيزة. وهي قاعدة الأعمال الجيزية، وقد تقدم الكلام عليها في الكلام على بلاد المملكة في المقالة الثانية. ثم منها إلى زاوية أم حسين، وهي قرية من عمل

الجيزة. قال في " التعريف " : والمركز الآن بمنية القائد وهي على القرب من زاوية أم حسين المذكورة؛ ثم منها إلى " ونا " وهي بلدة من عمل البهنسى؛ ثم منها إلى دهروط وهي بلدة من عمل البهنسى أيضاً؛ ثم منها إلى أقلوسنا، وهي بلدة من عمل الأشمونين؛ ثم منها إلى منية بني خصيب، وهي مدينة من عمل الأشمونين، وهي قاعدة بلادها، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية؛ ثم منها إلى ذروة سربام وهي بلدة من عمل الأشمونين على فم الخليج اليوسفي الواصل من النيل إلى الفيوم، وتعرف بذروة الشريف، إضافة إلى الشريف ناصر الدين محمد بن تغلب الذي كان عصى بها في زمن الظاهر بيبرس، وسمت نفسه إلى الملك حتى كاده الظاهر وقبض عليه وشنقه بالإسكندرية، وبها دياره وقصوره والجامع الذي أنشأه بها إلى الآن؛ ثم منها إلى مدينة منفلوط، وهي قاعدة الأعمال المنفلوطية التي هي أجل خاص السلطان؛ ثم منها إلى مدينة أسيوط وهي قاعدة الأعمال الأسيوطية، ومقر نائب الوجه القبلي الآن، وقد تقدم ذكرها في المقالة الثانية؛ ثم منها إلى طما، وهي قرية من عمل أسيوط المقدمة الذكر على ضفة النيل؛ ثم منها إلى المراغة، وهي بلدة من عمل إخميم. قال في " التعريف " : وربما سميت المرائغ؛ ثم منها إلى بلسبورة وهي بلده من عمل إخميم أيضاً. قال في " التعريف " : وربما قيل بلزبورة بإبدال السين زاياً، ثم منها إلى جرجا، وهي بلدة من العمل المذكور، ثم منها إلى البلينة، وهي بلدة من عمل قوص، ويقال فيها البلينا بإبدال الهاء ألفاً؛ ثم منها إلى " هو " ، وهي بلدة من عمل قوص أيضاً؛ قال في " التعريف " : ويليها الكوم الأحمر، وهما من خاص السلطان، وعندهما ينقطع الريف في البر الغربي، ويكون الرمل المتصل بدندرى ويسمى خان دندرى، وقد تقدم الكلام على ذلك مستوفي في المقالة الثانية. ومنها إلى مدينة قوص قاعدة الأعمال القوصية، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية.

ثم من قوص تنقطع مراكز البريد، ويتشعب الطريق إلى جهة أسوان، وبلاد النوبة، وجهة عيذاب وسواكن.

فمن أراد المسير إلى جهة أسوان ركب الهجن من قوص إلى أسوان، ثم منها إلى بلاد النوبة.

ومن أراد المسير إلى عيذاب سار من قوص إلى كيمان قفط على القرب من قوص.

قلت: ثم يسير في قفار وجبال، من كيمان قفط إلى ماء يسمى ليطة على مرحلة من الكيمان، به عين تنبع وليست جارية، ثم منها إلى ماء يسمى الدريح على القرب من معدن الزمرد، به عين صغيرة يستقى منها من الماء ما شاء الله، وهي لا تزيد ولا تنقص؛ ثم منها إلى حميثرة حيث قبر سيدي أبي الحسن الشاذلي، وهناك عين ماء يستقى منها؛ ثم منها إلى عيذاب، وهي قرية صغيرة على ضفة بحر القلزم في الشمال إلى الغرب، وعلى القرب منها عين يستقى منها.

وتقدير جميع المسافة من الكيمان إلى عيذاب نحو عشرة أيام بسير الأثقال، على أنه في " مسالك الأبصار " قد ذكر أن الطريق إلى عيذاب من شعبة على القرب من أسوان، ثم يسير منها في بلاد عرب يسمون بني عامر إلى سواكن، وهي قرية حاضرة البحر صاحبها من العرب، وكتب السلطان تنتهي إليه، على ما تقدم ذكره في الكلام على المكاتبات.

وأما الإسكندرية فالمراكز الموصلة بها في طريقين: الطريق الأولى: الآخذة على الجبل الغربي ويسمى طريق الحاجر. والمسير فيها من مركز القلعة المقدم ذكره إلى مدينة الجيزية؛ ثم منها إلى جزيرة القط، وهي قرية من آخر عمل الجيزة من الجهة البحرية؛ ثم منها إلى وردان، وهي قرية من عمل البحيرة. " ثم منها إلى الطرانة " ؛ ثم منها إلى طيلاس وهي بلدة من عمل البحيرة أيضاً وتعرف بزاوية مبارك. قال في " التعريف " : وأهل تلك البلاد يقولون: انبارك. ثم منها إلى مدينة دمنهور وتعرف بدمنهور الوحش، وهي قاعدة أعمال البحيرة، ومحل مقام نائب السلطنة بالوجه البحري، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية، ثم منها إلى لوقين وهي قرية من عمل البحيرة؛ ثم منها إلى الإسكندرية.

الطريق الثانية: الآخذة في وسط العمران، وتعرف بالوسطى.

وهي من مركز القلعة إلى مدينة قليوب قاعدة الأعمال القليوبية، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية، ثم منها إلى مدينة منوف العليا، وهي قاعدة الأعمال

المنوفية، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية، ثم منها إلى مدينة المحلة المعروفة بالمحلة الكبرى، وهي قاعدة الأعمال الغربية، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية. وقد وهم في " التعريف " فسماها محلة المرحوم بلدة من بلاد الغربية غيرها، ثم منها إلى النحريرية، وهي مدينة من عمل الغربية، ثم منها إلى الإسكندرية.

وأما الطريق إلى دمياط وغزة، فمن مركز القلعة إلى سرياقوس، وهي بلدة من ضواحي القاهرة، وليس المركز في نفس البلد، بل بالقرية المستجدة بجوار الخانقاه الناصرية التي أنشأها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون على القرب من سرياقوس. قال في " التعريف " : وكان قبل هذا بالعش، وكان طويل المدى في مكان منقطع، وكانت البريدية لا تزال تتشكى منه، فصلح بنقله، وحصل به الرفق لأمور لم يكن منها إلا قربه من الأسواق المجاورة للخانقاة الناصرية وما يوجد فيها، وأنسة بما حولها " لكفى " ، ثم منها إلى بئر البيضاء، وهي مركز بريد منفرد ليس حوله ساكنون، ثم منها إلى مدينة بلبيس قاعدة الأعمال الشرقية، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية. قال في " التعريف " : وهي آخر المراكز السلطانية، وهي التي تشتري خيلها من الأموال السلطانية ويقام لها السواس وتصرف لها العلوفات، ثم منها إلى السعيدية، ثم من السعيدية إلى أشموم الرمان قاعدة بلاد الدقهلية المرتاحية، وقد تقدم ذكرها في المقالة الثانية، ومنها إلى دمياط ومن أراد غزة. وقد تقدم أن مدينة بلبيس هي آخر المراكز السلطانية. ثم السعيدية وما بعدها إلى الخروبة تعرف بالشهارة، خيل البريد بها مقررة على عربان ذوي إقطاعات، عليهم خيول موظفة يحضر بها أربابها عند هلال كل شهر إلى المركز؛ وتسعيدها في آخر الشهر ويأتي غيرها، ومن هناك سميت الشهارة، قال في " التعريف " : وعليهم وال من قبل السلطان يستعرض في رأس كل شهر خيل أصحاب النوبة ويدوغها بالداغ السلطاني. قال: وما دامت تستجد فهي قائمة، ومتى اكترى أهل نوبة ممن قبلهم فسدت المراكز، لأن الشهر لا يهل وفي خيل المنسلخ قوة، لا سيما والعرب قليلة العلف.

وأول هذه المراكز السعيدية المقدم ذكرها، ثم منها إلى الخطارة، ثم منها إلى قبر

الوايلي. قالفي " التعريف " : وقد استجد به ابنيه وأسواق وبساتين حتى صار كأنه قرية، ثم منها إلى الصالحية، وهي قرية لطيفة. قال في " التعريف " : وهي آخر معمور الديار المصرية، ثم منها إلى بئر عفرى، وإلى هذا المركز يجلب الماء من بئر ورائه، ومنها إلى القصير، قال في

"التعريف" وقد كان كريم الدين وكيل الخاص بنى بها خاناً ومسجداً ومئذنة، وعمل ساقية فتهدم ذلك كله، ولم يوجد لم من يجدده وبقيت المئذنة خاصة، ورتب بها زيت للتنوير. قال: وهذا القصير يقارب المركز القديم المعروف بعاقولة المقارب لقنطرة الجسر الجاري تحتها فواضل ماء النيل أو أن زيادته وإذا خرج إلى الرمل، ثم منها إلى حبوة. قال في " التعريف " : وليس بها ماء ولا بناء، وإنما هي موقف يقف به خيل العرب الشهارة، ويجلب الماء إليها من بئر وراءها، ثم منها إلى الغرابي، ثم منها إلى قطيا، وهي قرية صغيرة بها تؤخذ المرتبات السلطانية من التجار الواردين إلى مصر والصادرين عنها، وهناك رمل بالطريق يختم في الليل ويحفظ ما حوله بالعربان، حتى لا يمر أحد ليلاً. فيكون من القاهرة إلى قطيا اثنا عشر بريداً، ثم منها إلى صبيحة نخلة معن. قال في " التعريف " : ومن الناس من يقتصر على إحدى هذه الكلمات في تسميتها؛ ثم منها إلى المطيلب؛ ثم منها إلى السوادة. قال في " التعريف " ك وقد حولت عن مكانها فصار المسافر لا يحتاج إلى تعريف إليها، ثم منها إلى الورادة، قال في " التعريف " : وهي قرية صغيرة بها مسجد على قارعة الطريق، بناه الملك الأشرف " خليل " بن المنصور قلاوون تغمده الله برحمته، حصل به الرفق بمبيت السفارة به. قال: وقد كان فخر الدين كاتب المماليك بنى إلى جانبه خاناً فبيع بعده، ثم منها إلى بئر القاضي. قال في " التعريف " : والمدى بينهما بعيد جداً يمله السالك، ومنها العريش. قال في " التعريف " : وقد أ؛سن كريم الدين رحمه الله بعمل ساقيه سبيل به وبناء خان حصين فيه يأوي إليه من الجاه المساء، وينام فيه آمناً من طوارق الفنجر، ثم منها إلى الخروبة، وبها ساقية وخان بناهما فخر الديين كاتب المماليك، حصل به من الرفق والأمن ما بالعريش. قال في " التعريف " وهذا آخر مراكز العرب الشهارة،

ثم مما يليها خليل السلطان ذوات الإصطبلات والخدم تشترى بمال السلطان وتعلف منه، وأولها الزعقة، ثم منها إلى رفح، ثم منها إلى السلقة. قال في " التعريف " : وكان قبل هذا المركز ببئر طرنطاية حيث الجميز يسمى سطر. قال: وكان في نقله إلى السلقة المصلحة، ثم منها إلى الداروم، ثم منها إلى غزة. يكون من قطيا إلى غزة أحد عشر مركزاً.

المقصد الثاني في مراكز غزة وما يتفرع عنه من البلاد الشامية

والذي يتفرع عنه مراكز ثلاث جهات، وهي: الكرك، ودمشق، وصفد.
فأما الطريق إلى الكرك: فمن غزة إلى ملاقس وهو مركز بريد، ثم منها إلى بلد الخليل عليه السلام، ثم منها إلى جنبا، ثم منها إلى الصافية، ثم منها إلى الكرك.
وأما مراكز دمشق: فمن غزة إلى الجينين، وهو مركز بريد؛ ومنها إلى بيت دارس، والناس يقولون: تدارس، وبها خان بناه ناصر الدين خزندار تنكز. قال في " التعريف " : وكان قديماً بياسور، وكان قريب المدى فنقل وكانت المصلحة في نقله؛ ثم منها إلى قطرى. قال في " التعريف " : وهو مركز مستجد كان المشير به طاجار الدوادار الناصري، وبه بئر سبيل وآثار له. قال: وقد حصل به رفق عظيم لبعد ما بين " لدّ وبين دارس " أو ياسور، ثم منها إلى لد، ثم منها إلى العوجاء. قال في " التعريف " : وهي زوراء عن الطريق، ولو نقلت منه لكان أرفق؛ ثم منها إلى الطيرة. قال في " التعريف " : وبها خان كان قد شرع في بنائه ناصر الدين دوادار تنكز ثم كمل بيد غيره؛ ثم منها إلى قاقون، ثم منها إلأى فحمة " ثم منها إلى جينين " . قال في " التعريف " : وهي على صفد، يعني القيام به، وبه خان لطاجار الدوادار، حسن البناء جليل النفع، ليس على الطريق أخص منه ولا أحصن، ولا أزيد نفعاً منه ولا أزين.

ومن أراد دمشق وما يليها سار من جينين إلى ذرعين. قال في " التعريف " : ومنها ينزل على عين جالوت، وهو مركز مستجد حصل به أعظم الرفق والراحة

من العقبة التي كان " يسلك " عليها بين جينين وبيسان مع طول المدى، ثم منها إلى بيسان؛ ثم منها إلى المجامع. قال في " التعريف " : وهو مركز مستجد عند جسر أسامة، كنت أنا المشير به في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، وحصل به الرفق لبعد ما كان بين بيسان وزحر. قال: وقد كان الطريق قديماً من بيسان " إلى " طيبة اسم، ثم إلى أربد، وكانت غاية في المشقة، إذ كان المسافر ما بين بيسان وطيبة اسم يحتاج إلى خوض الشريعة، وبها معدية للفارس دون الفرس، وإنما يعبر فيها الفرس سباحة، وكان في هذا من المشقة ما لا يوصف، لا سيما أيام زيادة الشريعة وكلب البرد: لقطع الماء ومعاناة العقاب التي لا يشقها جناح العقاب، ولكن الأمير الطنبغا كافل الشام رحمه الله نقل هذا الطريق وجعلها على القصير حيث هي اليوم، ونقل المركز من الطيبة إلى زحر حين غرق بعض البريدية الجبليين بالشريعة؛ ثم من المجامع المذكورة إلى زحر، ثم منها إلى أربد، ثم منها إلى طفس، ثم منها إلى الجامع. قال في " التعريف " : وكان قديماً في المكان المسمى برأس الماء، فلما ملكه الأمير الكبير تنكز كافل الشام رحمه الله نقل المركز منه إلى هذا الجامع، فقرب به المدى فيما بينه وبين طفس، وكان بعيداً فما جاء إلا حسناً، ثم منها إلى الصنمين، ثم منها إلى غباغب؛ ثم منها إلى الكسوة، ثم منها إلى دمشق المحروسة.

وأما الطريق الموصلة إلى صفد : فمن جينين المقدم ذكرها إلى تبنين؛ ثم منها إلى " حطين " وبها قبر شعيب عليه السلام، ثم منها إلى صفد.

المقصد الثالث في ذكر دمشق وما يتفرع عنه من المراكز

الموصلة إلى حمص وحماه وحلب وإلى الرحبة وإلى طرابلس وإلى جعبر ومصياف وبيروت وصيدا وبعلبك والكرك وأرعات فأما طريق حلب:فقال في " التعريف " :من دمشق إلى القصير. والذي رأيته في بعض الدساتير أنه من دمشق إلى خان لاجين، ثم إلى القصير. قال في " التعريف " : ثم من القصير إلى القطيفة، ثم منها إلى القسطل. ورأيت في الدستور المذكور " أنه " من القصير إلى

خان الوالي، ثم إلى خان العروس، ثم إلى القسطل، ثم منها إلى قارا، ثم منها إلى بريج العطش، ويقال فيه البزيج أيضاً. قال في " التعريف " : وقد كان مقطع طريق، وموضع خوف، فبنى به قاضي القضاة نجم الدين أبو العباس أحمد بن صصري رحمه الله مسجداً وبركة، وأجرى الماء إلى البركة من ملك كان له هناك وقفه على هذا السبيل، فبدل الخوف أمناً، والوحشة أنساً، أثابه الله على ذلك. ثم منها إلى الغسولة، ثم منها إلى سمنين، ثم منها إلى حمص، ثم منها إلى الرستن، ثم منها إلى حماة، ثم منها إلى لطمين، ثم منها إلى طرابلس، ثم منها إلى المعرة ، ثم منها إلى أنقراتا، ثم منها إلى إياد، ثم منها إلى قنسرين، ثم منها إلى حلب.

وأما طريق الرحبة: فمن القطيفة المقدمة الذكر إلى العطنة. قال في " التعريف " : وليس بها مركز، وإنما بها خان تفرق به صدقة من الخبز والأحذية ونعال الدواب، " ثم " إلى جليجل، ثم منها إلى المصنع، ثم منها إلى القريتين، ثم منها إلى الحسير، ثم منها إلى البيضاء، ثم منها إلى تدمر، ثم منها إلى أرك، ثم منها إلى السخنة، ثم منها إلى قباقب، ثم منها إلى كواثل. قال في " التعريف " : وهو اليوم عطل. ثم منها إلى الرحبة وهي حد هذه المملكة.

وأما طريق طرابلس: فمن الغسولة المتقدمة الذكر " إلى القصب، ثم منها إلى قدس " إلى أقمار، ثم منها إلى الشعراء، ثم منها إلى عرقا، ثم منها إلى طرابلس.

وأما طريق جعبر وما يليها: فمن حمص المتقدمة الذكر إلى سليمة، ثم منها إلى بغيديد، ثم منها إلى سوريا، ثم منها إلى الحص، ثم منها إلى جعبر، إلى عين بذال، ثم منها إلى صهلان، ثم منها إلى الخابور، ثم منها إلى رأس عين.

وأما طريق مصياف: فمن حمص المقدمة الذكر إلى مصياف.

وأما طريق صفد: فمن دمشق إلى بريج الفلوس، ومنه إلى أرينبة، ومنها إلى لغران، ومنها إلى صفد.

وأما طريق بيروت: فمن دمشق إلى ميسلون، ومنها إلى زبدان، ومنها إلى الحصين، ومنها إلى بيرت.

وأما طريق صيداء: فمن دمشق إلى خان ميسلون المقدم الذكر، إلى جزيرة صيداء، إلى كرك نوح، ثم منه إلى بعلبك. قال في " التعريف " : واعلم أن صيداء إلى بيروت قدر مركز.

وأما بعلبك، فلها طريقان: إحداهما من خان ميسلون المقدم الذكر إلى كرك نوح إلى بعلبك. والثانية من دمشق إلى الزبداني إلى بعلبك.

ومن أراد من بعلبك حمص، توجه منها إلى القصب، ثم إلى الغسولة المتقدمة الذكر، وبعدها شمسين ثم حمص على ما تقدم ذكره.

وأما طريق الكرك: فمن دمشق – في المراكز المذكورة في الوصول من غزة إلى دمشق – على عكس ما تقدم، إلى طفس، ومنها إلى القنية، ومنها إلى البرج الأبيض، ومنها إلى حسبان، ومنها إلى " ديباج " ومنها إلى " اكرية " ومنها إلى الكرك.

وأما طريق أذرعات، مقر ولاية الولاة بالصفقة القبلية: فمن طفس المقدمة الذكر إلى أذرعات. قال في " التعريف " : فهذه جملة مراكز دمشق إلى كل جهة.

قال: فأما مقدار الولايات، فمن كل واحدة إلى ما يليها، حتى يتوصل المسافر على البريد إلى حيث أراد.

المقصد الرابع من مركز حلب وما يتفرع عنه

من المراكز الواصلة إلى البيرة وبهسنى وما يليهما، وقلعة المسلمين المعروفة بقلعة الرو وآياس، مدينة الفتوحات الجاهانية وجعبر فأما الطريق الموصلة إلى البيرة: فمن حلب إلى الباب، ثم منها إلى الساجور. ثم منها إلى كلناس، ثم منها إلى البيرة، وهي في البر الشرقي من الفرات. قال في " التعريف " : وهي أجل ثغورها.

وأما طريق بهسنى وما يليها: فمن حلب إلى السموقة، ثم منها إلى سندرا، " ثم منها إلى بيت الفار " ثم منها إلى عينتاب، ثم منها إلى بهسنى.

ثم منها يدخل إلى جهة قيسارية والبلاد المعروفة الآن ببلاد الروم، وهي بلاد

الدروب. قال في " التعريف " : وقد استضفنا نحن " يعني أهل هذه المملكة " في هذا الحين القريب إلينا منها: قيسارية ودرندة، وإنما المستقر المعروف أن آخر حد الممالك الإسلامية من هذه الجهة – بهسنى.

وأما طريق قلعة المسلمين وما يليها: فمن عينتاب المقدمة الذكر إليها، وهي وسط الفرات، وهو خلجان دائرة عليها. ثم من قلعة المسلمين إلى جسر الحجر، ثم إلى الكختا، وهي آخر الحد من الطرف الآخر.

وأما طريق آياس: فمن حلب إلى أرحاب، ثم منها إلى تيزين، ثم منها إلى يغرا، ثم منها إلى بغراس؛ قال في " التعريف " : وهي كانت آخر الحد مما يلي بلاد الأرمن. قال: وقد استضفنا نحن في هذا الحين ما استضفنا، فصار من بغراس إلى باياس، وهي أول جبل الأرمن، وثم من باياس إلى آياس.

وأما طريق جعبر :فمن حلب إلى الجبول، ثم منها إلى بالس، ثم منها إلى جعبر. قال في "التعريف": هذه جملة مراكز حلب.أما بقايا القلاع ومقار الولايات، فمن شعب هذه الطرق، أومن واحدة إلى أخرى.

المقصد الخامس في مركز طرابلس وما يتفرع عنه

من المراكز الموصلة إلى جهاتها فأما طريق اللاذقية: فمن طرابلس إلى مرقية، ثم منها إلى بلنياس، ثم منها إلى اللاذقية، ثم منها إلى صهيون – وهي قلعة جليلة كانت دار ملك – ثم منها إلى بلاطنس. قال في " التعريف " : ومن شاء فمن صهيون إلى برزية – وهو حصن سمي باسم من عمره أو عرف بملكه – ومن شاء فمن بلاطنس إلى العليقة أول قلاع الدعوة مما يلي بلاطنس، ثم منها إلى الكهف، ثم منها إلى القدموس، ثم منها إلى الخوابي، ثم منها إلى الرصافة، ثم منها إلى مصياف. قال في " التعريف " : فهذه جملة مراكز طرابلس. فأما مقار الولايات فمن واحدة إلى أخرى،ثم ذكر جميع مراكز البريد بالممالك المحروسة.

قال: فأما من أطراف ممالكنا إلى حضرة الأردو،حيث هو ملك بني هولاكو، فلهم

مراكز تسمى خيل الأولاق وخيل اليام يحمل عليها، لاتشترى بمال السلطان ولا يكلف ثمنها، وإنما هي على أهل تلك الأرض، نحو مراكز العرب في رمل مصر ونحو ذلك.

المقصد السادس في معرفة مراحل الحجاز الموصولة إلى مكة المشرفة والمدينة النبوية

على سكانها سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام إذ كانت تتمة الطرق الموصلة إلى بعض أقطار المملكة

وكما ضبطت تلك بالمركز ضبطت هذه بالمراحل.وعادة الحجاج أنهم يقطعون في كل يوم وليلة منها مرحلتين بسير الأثقال،ودبيب الأقدام " ويقطعونها كلها " في شهر ، بما فيه من أيام الإقامة بالعقبة والينبع نحو ستة أيام.أما من يسافر على النجب مخفا مع الجد في السير فإنه يقطعها في نحو أحد عشر.
ثم أول مصيرهم من القاهرة إلى البركة المعروفة ببركة الحاج؛ ثم منها إلى البويب، ثم منها إلى الطليحات، ثم منها إلى المنفرح، ثم منها إلى مراكع موسى، ثم منها إلى عجرود – وبها بئر ومصنع ماءٍ متسع يملأ منها – ثم منها إلى المنصرف، ثم منها إلى وادي القباب – وهو كثير الرمل – ثم منها إلى أول تيه بني إسرائيل – وهو وادٍ أفيح متسع – ثم منها إلى العنق، ثم منها إلى نخل – وبها ماء طيب – ثم منها إلى جسد الحي، ثم منها إلى بئر بيدرا، ثم منها إلى تمد الحصا، ثم منها إلى ظهر العقبة، ثم منها إلى سطح العقبة – وهو عرقوب البغلة على جانب طرف بحر القلزم، وفيها ماء طيب من حفائر – ثم منها إلى حفن على جانبطرف بحر القلزم – وفيها ماء طيب من الحفائر – ثم منها إلى عش الغراب، ثم منها إلى آخر الشرفة، ثم منها إلى مغارة شعيب – وبها ماء ومصنع – ثم منها إلى وادي عفان، ثم منها إلى ذات الرخيم، ثم منها إلى عيون القصب – وبه ماء نبع وأجمة قصبٍ نابتة فيها – ثم منها إلى المويلحة – وبها ماء في آبار – ثم منها

إلى المدرج، ثم منها إلى سلمى مجاور بحر القلزم – وبها ماء ملح – ثم منها إلى الأتيلات، ثم منها إلى الأزنم، والناس يقولون: الأزلم باللام بدل النون، وبه آبار بها ماء رديء يطلق بطن من شربه، لا يسقى منه غالباً إلا الجمال، وهي نصف الطريق – ثم منها إلى رأس وادي عنتر، ثم منها إلى الوجه، وبه آبار قليلة الماء، وما هو داخل الوادي يعز الماء فيه غالباً ولا يوجد فيه إلا حفائر، ويقال: إنه إذا طلعت الشمس عليه نضب ماؤه، وفيه يقول بعض من حج من الشعراء وعز عليه وجود الماء فيه:

إذا قل ماء " الوجه " قل حياؤه ... ولا خير في " وجهٍ " بغير حياء!

ثم منها إلى المحاطب، ثم منها إلى أكرا، ثم منها إلى رأس القاع الصغير، ثم منها إلى قبر القروي، ثم منها إلى كلخا، ثم منها إلى آخر القاع الصغير، ثم منها إلى الحوراء، وبها ماء غير صالح، ثم منها إلى العقيق بضم العين تصغير عقيقٍ بفتحها، وهو مضيق صعب – ثم منها إلى مغارة نبط، وبها ماء عذبة ليس بطريق الحجاز أطيب منها، ثم منها إلى وادي النور، ثم منها إلى قبر أحمد الأعرج الدليل، ثم منها إلى آخر وادي النور، ثم منها إلى رأس السبع وعرات، ثم منها إلى دار البقر، ثم منها إلى الينبع، وهي النصف والربع من الطريق، وبها تقع الإقامة ثلاثة أيام أو نحوها، وبها يودع الحجاج ما ثقل عليهم إلى حين العودة، ويستميرون منها مما يصل إليها من الديار المصرية في سفن بحر القلزم – ثم منها إلى المحاطب في الوعر، ثم منها إلى رأس وادي بدر، وهي منزلة حسنة بها عيون تجري وحدائق – ثم منها إلى رأس قاع البزوة، ثم منها إلى وسط قاع البزوة، ثم منها إلى رابغ، وهو مقابل الجحفة التي هي ميقات الإحرام لأهل مصر، وبها يحرم الحجاج ولا يغشون الجحفة، إذ قد دعا النبي صلى الله عليه وسلم بنقل حمى المدينة إليها بقوله: " وانقل حماها إلى الجحفة " فلو مر بها طائر لحم قديد بضم القاف، ثم منه إلى عقبة السويق،؟؟؟ثم منها إلى خليص – وبه مصنع ماء – ثم منها إلى عسفان ثم منها إلى مدرج علي، وهو كثير الوعر، ثم منه إلى بطن مر، والعامة يقولون: مرو، بزيادة واو، وبه عيون تجري وحدائق – ثم منه إلى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وعظمها، ثم من مكة إلى منى، وبها ماء طيب من آبار

تحفر، ثم منها إلى المشعر الحرام والمزدلفة، ثم منها إلى عرفة وهي الموقف، وإليها ينتهي سفر الحجاج.

ثم العود في المنازل المتقدمة الذكر إلى وادي بدر على عكس ما تقدم.

الطريق إلى المدينة النبوية " على ساكنها أفضل الصلاة والسلام "

من مصر في المراحل المتقدمة الذكر، إلى وادي بدر المتقدمة الذكر، إلى رأس وادي الصفراء، وبه عيون تجري وحدائق وأشجار – ثم منها إلى وادي بني سالم، ثم منه إلى وادي الغزالة، ثم منه إلى الفرش، ثم منه إلى بئر علي، وبها ماء طيب، ثم منها إلى المدينة الشريفة النبوية على ساكنها افضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام.

ومن شاء ذهب إليها من الينبع إلى رأس نقب علي عند طرف الجبل، ثم إلى وادي الصفراء، ثم في المراحل المتقدمة الذكر إلى المدينة؛ وهي أقرب الطريقين للذاهب من مصر، وتلك أقرب للعائد من مكة.

الباب الثاني من الخاتمة في مطارات الحمام الرسائلي وذكر أبراجها المقررة بطرق الديار المصرية والبلاد الشامية، وفيه فصلان:

الفصل الأول في مطاراته

قد تقدم في الكلام على أوصاف الحمام – عند ذكر ما يحتاج إلى وصفه في أواخر مقاصد المكاتبات من المقالة الرابعة – أن الحمام اسم جنس يقع على هذا الحمام المتعارف بين الناس، وعلى اليمام والدباسي والقماري والفواخت وغيرها، وأن المتبادر إلى فهم السامع عند ذكر الحمام هو هذا النوع المخصوص، وأن أغلاه قيمة وأعلاه رتبة الحمام الرسائلي، وهو الذي يتخذه الملوك لحمل المكاتبات،

ويعبر عنه ب " الهدي " . وتقدم هناك الكلام على ذكر ألوانها على اختلافها، وعدد الرياش المعتبرة فيها، وهي رياش أجنحتها وأذنابها، وبيان الفرق بين الذكر والأنثى، وصفة الطائر الفاره، والفراسة في نجابته في حال صغره، والزمان والمكان اللائقين بالإفراخ، وما يجري مجرى ذلك مما يحتاج إليه الكاتب عند وصفه لبيان النجيب منه من غيره، فأغنى عن ذكره هنا.

والمختص منه بهذا المكان ذكر الاعتناء بهذا الحمام، وأول من اهتم بشأنه، واعتنى بأمره، ومن قام به الملوك، ومسافات طيرانه، وما يجري هذا المجرى.

فأما الاعتناء به والاهتمام بشأنه – فقد اعتنى به في القديم خلفاء بني العباس: كالمهدي ثالث خلفائهم، والناصر منهم، وتنافس فيه رؤساء الناس في العراق لا سيما بالبصرة. فقد ذكر صاحب " الروض المعطار " أنهم تنافسوا في اقتنائه، ولهجوا بذكره، وبالغوا في أثمانه، حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منها سبعمائة دينار، ثم قال: ويقال: إنه بلغ ثمن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار. قال: وكانت تباع بيضتا الطائر المشهور بالفراهة بعشرين ديناراً، وأنه كان عندهم دفاتر بأنساب الحمام كأنساب العرب، وأنه كان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا العدل من اتخاذ الحمام، والمنافسة فيه، والإخبار عنها، والوصف لأثرها، والنعت لمشهورها، حتى وجه أهل البصرة إلى بكار بن شيبة البكراني قاضي مصر، " وكان فضله وعقله ودينه وورعه على ما لم يكن عليه قاضٍ " بحمامات لهم مع ثقات، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولى إرسالها بنفسه، ففعل.وكان الحمام عندهم متجراً من المتاجر، لا يرون بذلك بأساً.

وذكر المقر الشهابي بن فضل الله في " التعريف " أن الحمام أول ما نشأ بالديار المصرية والبلاد الشامية من الموصل الشهيد نور الدين بن زنكي صاحب الشام رحمه الله، في سنة خمس وستين وخمسمائة، وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر، وبالغوا حتى أفردوا له ديواناً وجرائد بأنساب الحمام، وصنف فيه الفاضل محيي الدين بن عبد الظاهر كتاباً سماه: " تمائم الحمام " .

قلت: وقد سبقه إلى التصنيف في ذلك – أبو الحسن بن ملاعب الفوارس البغدادي، فصنف فيه كتاباً للناصر لدين الله الخليفة العباسي ببغداد، وذكر فيه أسماء أعضاء

الطائر ورياشه، والوشوم التي توسم في كل عضو، وألوان الطيور وما يستحسن من صفاتها، وكيفية إفراخها، وبعد المسافات التي أرسلت فيها، وذكر شيء من نوادرها وحكاياتها، وما يجري هذا المجرى، وأظن أن كتاب القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر نتيجة عن مقدمته.

وأما مسافات طيرانه، فقد تقدم أن الطائر الدي بيع بألف دينار طار من القسطنطينية إلى البصرة، وأن الحمام أرسل من مصر إلى البصرة بحضرة القاضي بكارٍ قاضي مصر.

وذكر ابن سعيد في كتابه " حيا المحل وجنى النحل " أن العزيز، ثاني خلفاء الفاطميين بمصر، ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنه ما رأى القراصية البعلبكية، وأنه يحب أن يراها. وكان بدمشق حمام من مصر وبمصر حمام من دمشق، فكتب الوزير لوقته بطاقة يأمر فيها من هو تحت أمره بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصري، ويعلق في كل طائر حبات القراصية البعلبكية، ويرسلها إلى مصر، ففعل ذلك، فلم يمض النهار حتى حضرت تلك الحمائم بما علق عليها من القراصية، فجمعه الوزير يعقوب بن كلس وطلع به إلى العزيز في يومه، فكان ذلك من أغرب الغرائب لديه.

وذكر أيضاً في كتابة " المغرب في حلى المغرب " أن الوزير اليازوري المغربي، وزير المستنصر بالله الفاطمي وجه الحمام من تونس من أقريقية من بلاد المغرب فجاء إلى مصر، والعهدة عليه في ذلك.

الفصل الثاني من الباب الثاني من الخاتمة في أبراج الحمام المقررة لإطارتها بالديار المصرية والبلاد الشامية

وهي من القواعد والطرق، على ما تقدم في البريد

أما في المسافات فإنها تختلف، فإن مطارات الحمام ربما زادت على مراكز البريد الأبراج الاخذة من قلعة الجبل المحروسة إلى جهات الديار المصرية قال في "

التعريف " : واعلم أن الحمام قد انقطع تدريجه من مصر إلى قوص وأسوان وعيذاب. وهذا ظاهر في أن الحمام كان يدرج إلى هذه الأماكن، ثم أهمل تدريجه بعد ذلك. قال: ولم يبق منه الآن إلا ما هو من القاهرة إلى الإسكندرية، ومن القاهرة إلى بلبيس متصلاً بالشام.

قلت: وآهل هذه الأبراج كلها برج قلعة الجبل المحروسة، ومنها التدريج إلى سائر الجهات.

ثم لم يذكر في " التعريف " الأبراج الموصلة إلى أسوان وعيذاب والإسكندرية ودمياط.

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل إلى غزة من بروج قلعة الجبل - إلى بلبيس، ثم منها إلى الصالحية، ثم منها إلى قطيا، ومنها إلى الواردة، ثم منها إلى غزة.

الأبراج الآخذة من غزة وما يتفرع عنها اعلم أن الأبراج من غزة تتشعب فيها مسارح الحمام إلى غير جهة دمشق وإلى جهتها.

فأما غير جهة دمشق، فمن غزة إلى بلد الخليل عليه السلام، ومن غزة إلى القدس الشريف، ومن غزة إلى نابلس.

وأما جهة الشام: فمن غزة إلى لد، ومن لد إلى قاقون، ومن قاقون إلى جينين، ومن جينين تتشعب المسارح إلى غير جهة دمشق وإلى جهتها.

فأما إلى غير جهة دمشق: فمن جنين إلى صفد. وأما ما إلى جهة دمشق: فمن جينين إلى بيسان، ومن بيسان إلى أربد، ومن أربد إلى طفس، ومن طفس إلى الصنمين، ومن الصنمين إلى دمشق.

قال في " التعريف " : ومن كل واحد من هذه المراكز إلى ما جاور ذلك من المشاهير: مثل من بيسان إلى أذرعات مقر ولاية الولاة بالصفقة القبلية، ومن طفس إليها - لإشعار والي الولاة.

الأبراج الآخذة من دمشق وما يتفرع عنها تتشعب مسارح الحمام من دمشق إلى غير جهة حلب، وإلى جهتها. فأما إلى غير جهة حلب: فتسرح من دمشق إلى بعلبك، ومن دمشق إلى القريتين.

وأما ما هو إلى جهة حلب: فتسرح من دمشق إلى قارا، ثم من قارا إلى حمص،

ثم من حمص إلى حماة، ثم من حماة إلى المعرة، ثم من المعرة إلى حلب.
الأبراج الآخذة من حلب وما يتفرع عنها برج الحمام من حلب إلى البيرة، ومن حلب إلى قلعة المسلمين، ومن حلب إلى بهسنى. قال في " التعريف " : وإلى بقية " ماله شأن " مما حولها، " ثم من القريتين إلى تدمر، ومنها إلى السخنة، ومنها إلى قباقب، ومنها إلى الرحبة، وقد تعطل الآن تدريج السخنة إلى قباقب، وإنما صار يسوق ببطائق تدمر الواقعة بالسخنة منها إلى قباقب، ثم يسرح على الجناح من قباقب إلى الرحبة " . قال: وبما ذكرتم ذكر مراكز الحمام في سائر الممالك الإسلامية.
قلت: وقد تعطل تدريج الحمام الآن.

الباب الثالث من الخاتمة في ذكر الهجن الثلج والمراكب المعدة لحمل الثلج الذي يحمل من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول في نقل الثلج

إعلم أن ماء نيل مصر لما كان من الحلاوة والطافة على ما لايساويه فيه نهر من الأنهار، على ما تقدم ذكره في الكلام على الديار المصرية في المقالة الثانية، مع شدة القيظ بها في زمن الصيف، وسخونة الهواء الذي قد لا يتأتى معه تبريد الماء، وكان الثلج غير موجود بها، وكانت الملوك قد اعتادت الرفاهية مع اقتدارها على تحصيل الأشياء العزيزة، وولوعهم بجبلها من الأماكن البعيدة – إكمالاً لحال الرفاهية، وإظهاراً لأبهة الملك – دعاهم كمال الرفاهية والأبهة إلى جلب الثلج من الشام إلى مصر: لتبريد الماء به في زمن الحر. على أن ذلك كان في غيرهم من

الملوك التي لا ثلج بحاضرتهم.
وقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه " الأوائل " أن أول من حمل إليه الثلج الحجاج بن يوسف بالعراق. ثم لاعتناء ملوك مصر بالثلج قرروا له هجناُ تحمله في البر وسفناً تحمله في البحر، حتى يصل إلى القلعة المحروسة.

الفصل الثاني من الباب الثالث من الخاتمة في المراكب المعدة لنقل الثلج من الشام

قد ذكر في " التعريف " أنها كانت في أيام الملك الظاهر " بيبرس " ، تغمده الله برحمته، ثلاث مراكب في السنة، لا تزيد على ذلك. قال: ودامت على أيام سلطاننا " يعني الملك الناصر " محمد بن قلاوون " " في السلطنة الثالثة، وبقيت صدراً منها، ثم أخذت في التزيد إلى لأن بلغت أحد عشر مركباً في مملكتي الشام وطرابلس، وربما زادت على ذلك. قال: وآخر عهدي بها من السبعة إلى الثمانية تطلب من الشام ولا تكلف طرابلس إلا المساعدة، وكل ذلك بحسب اختلاف الأوقات ودواعي الضرورات.
قال: والمراكب تأتي دمياط في البحر، ثم يخرج الثلج في النيل إلى ساحل بولاق، فينقل منه على البغال السلطانية، ويحمل إلى الشرابخاناه وقد جرت العادة أن المراكب إذا سفرت سفر معها من يتدركها من ثلاجين لمداراتها. ثم الواصلون بها في البحر يعودون على البريد في البر.

الفصل الثالث من الباب الثالث من الخاتمة في الهجن المعدة لنقل ذلك

قد ذكر في "التعريف" أنه مما حدث في الدولة الناصرية "محمد بن قلاوون"

واستمر. وقد كان قبل ذلك لا يحمل إلا في البحر خاصة. ثم ذكر أن هذه المراكز من دمشق إلى الصنمين، ثم منها إلى بانياس، ثم منها إلى أربد، ثم منها إلى بيسان، ثم منها إلى جينين، ثم منها إلى قاقون، ثم منها إلى لد، ثم منها إلى غزة، ثم منها إلى العريش، ثم منها إلى الواردة، ثم منها إلأى المطيلب، ثم منها إلى قطيا، ثم منها إلى القصير، ثم منها إلى الصالحية، ثم منها إلى بلبيس، ثم منها إلى القلعة.

قال: والمستقر في كل ست هجن: خمسة للأحمال، وهجين للهجان، تكون كل نقلة خمسة أحمال، وهذه الهجن من الشام إلى العريش على المملكة الشامية، خلا جينين فإنها على صفد. ومن الواردة إلى القلعة هجن من المناخات السلطانية والكلفة على مال مصر. ولا تستقر هذه الهجن بهذه المراكز إلا أوان حمل الثلج، وهي: حزيران وتشرين الثاني؛ وعدة نقلاته إحدى وسبعون نقلة، متقارب مدد ما بينها، ثم صار يزيد على ذلك؛ ويجهز مع كل نقلة بريدي يتداركه، ويجهز معه ثلاج خبير بحمله ومداراته، يحمل على فرس ببريد ثان. قال: واستقر في وقت أن يحمل الثلاج على خيل الولاية.

واعلم أن الثلج إذا وصل على المراكب والهجن حتى انتهى إلى القلعة، خزن بالشرابخاناه السلطانية. قال في " التعريف " : ومذ قرر أن يحمل من الثلج على الظهر ما يحمل، استقر منه خاص المشروب، لأنه يصل أنظف وآمن عاقبة، على أن المتسفرين يأخذون الجاشني منه بحضور أمير مجلس وشاد الشربخاناه السلطانية وخزانها. أما المنقول في البحر فلما عدا ذلك. قال: وللمهجرين به الخلع ورسوم الإنعام رسوم مستقرة، وعوائد مستمرة.

قلت: وقد جرت العادة أن واصل الثلج في كل نقلة في البر والبحر تكتب به رجعة من ديوان الإنشاء، وهذا هو وجه تعلقه بديوان الإنشاء.

الباب الرابع من الخاتمة في المناور والمحرقات وفيه فصلان

الفصل الأول في المناور

قال في "التعريف" وهي مواضع رفع النار في الليل والدخان في النهار.

وذلك أن مملكة إيران لما كانت بيد هولاكو من التتار، وكانت الحروب بينهم وبين أهل هذه المملكة، كان من جملة احتياط أهل هذه المملكة أن جعلوا أماكن مرتفعة من رؤوس الجبال توقد فيها النار ليلاً و " يثار " الدخان نهاراً، للإعلام بحركة التتار إذا قصدوا دخول البلاد لحرب أو إغارة. وهذه المناور تارة تكون على رؤوس الجبال، وتارة تكون في أبنية عالية، ومواضعها معروفة تعرف بها أكثر السفارة، وهي من أقصى ثغور الإسلام كالبيرة والرحبة، وإلى حضرة السلطان بقلعة الجبل، حتى إن المتجدد بالفرات إن كان بكرة علم به عشاءً، وإن كان عشاءً علم به بكرةً. ولما يرفع من هذه النيران، أو يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها على اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به باختلاف حالاتها، تارة في العدد، وتارة في غير ذلك. وقد أرصد في كل منور الديادب والنظارة، لرؤية ما وراءهم وإيراء ما أمامهم، ولهم على ذلك جوامك مقررة كانت لا تزال دارة. قال: وكان ينور بمدينة عانة من تلك المملكة قوم من النصاح بحجة أمر سوى التنوير، ويستر عليهم أهل البلد حباً لملوكنا، فترى " نارة أو دخانة بخربة الروم وبالجرف أيضاً، ويرفع فيهما أو في إحداهما فيرى " من كل منهما بوادي الهيكل، ويرفع فيه فيرى " بالقناطر، ويرفع بالقناطر فيرى الرحبة، وقاها الله ويرفع بها فيرى كواثل، ويرفع فيها فيرى في منظرة قباقب، ويرفع فيها فيرى في حفير أسد الدين، ويرفع بها فيرى " بالسخنة، فيرفع فيها فيرى بمنظرة أركٍ، فيرفع فيها فيرى بالبويب وهو قنطرة " بين أركٍ " وتدمر، فيرفع فيها فيرى بمنظرة تدمر، فيرفع فيها فيرى بمنظرة البيضاء، فيرفع فيها فيرى بالحير، فيرفع فيها فيرى بجليجل، فيرفع فيها

فيرى بالقريتين، فيرفع فيها فيرى بالعطنة، فيرفع فيها فيرى بثنية العقاب، فيرفع فيها فيرى بمئذنة العروس، فيرفع فيها لما حولها، إنذاراً للرعايا وضماً للأطراف، فيرفع حول دمشق بالجبل المطل على برزة فيرى بالمانع، فيرفع به فيرى بتل قرية الكتيبة، ثم يرفع فيها فيرى بالطرة، ثم يرفع فيرى بجبل أربد وبجبل عجلون، ثم يرفع بهما فيرى بجبل طيبة اسم، ثم يرفع فيها فيرى بالمنور المعمول بإزاء البئر الذي برأس الجبل المنحدر إلى بيسان المعروف بعقبة البريد، لا عدول بطريف البريد الآن عنه، ويرى منه أطراف أعمال نابلس " نحو جبال أبزيق وما حولها، ويرفع من هذا المنور الذي برأس عقبة البريد فيرى بالجبل المعروف بقرية جينين، ثم يرفع منه فيرى بجبل فحمة، ثم يرفع منه فيرى بشرفة قاقون، ثم يرفع منه فيرى بأطراف أعمال نابلس " ويرى على قصد الطريق بذروة الجبل المصاقب لمجدل " يابا " ، فيرفع منه فيرى بمركز ياسور المعدول بالبريد الآن عنه، ثم يرفع منه فيرى بالجبال المطلة على غزة، فيرفع بغزة على أعالي الحدب المعروف بحدب غزة، ثم " لامنورو " لا إخبار بشأن التتار إلا على الجناح والبريد.

قال: ثم اعلم أن جميع ما ذكرناه مناور تتشعب إلى ما خرج عن جادة الطريق إلى البلاد الآخذة على جنب جنوباً وشمالاً، شرقاً وغرباً. أما منذ أصلح الله بين الفئتين، وأمن جانب الجهتين، فقد قل بذلك الاحتفال،وصرف عن البال. وهذه المناور رسوم قد عفت، وجسوم " أكلت شعل النار أرواحها " فانطفت.

على أنه قد نص في " التعريف " على مناور طريق البيرة، ومناور طريق الرحبة، وهما من نفس المملكة.

قلت: وهذه المناور مأخوذة عن ملوك الهند، فقد رأيت في بعض الكتب أن ببلادهم مناور على جبال مرتفعة، ترى النار فيها على بعد أكثر من هذه.

على أن مرتبها بهذه المملكة أولاً أتى بحكمه ملوكية لا تساوى مقداراً، إذ قد ترقى في سرعة بلوغ الأخبار إلى الغاية القصوى. وذلك أن البريد يأتي من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره، والحمام يأتي من الخبر بما هو أسرع من البريد، والمناور تأتي من الخبر بما أسرع من الحمام. وناهيك أن يظهر عنوان الخبر في

الفرات بمصر في مسافة يوم وليلة.

الفصل الثاني من الباب الرابع من الخاتمة

في المحرقات

قال في " التعريف " : وهي مواضع مما يلي بلادنا من حد الشرق داخلة في تلك المملكة " يعني مملكة بني هولاكو من التتار " يجهز إليها رجال فتحرق زرعها، كأرض البقعة والثرثار والقينة، وباشنرة، والهتاخ، ومشهد ابن عمر، والمويلح، وبلاد نينوى من بر الموصل التي يقال إن يونس عليه السلام بعث إلى أهلها، والوادي، والميدان، والباب، والصومعة، والمرج المعروف ببني زيد، والمرج المحترق، ومنازل الأويراتية، وهي أطراف هذه المواضع إلى جبل الأكراد، بلاد سنجار - المنطق والمنظرة والمزيدة - وتحت الجبال عند التليلات، وكذلك التارات، وأعالي جبل سنجار وما إلى ذلك.

وذلك أنه كان من عادة التتر أنهم لا يكلفون علوفة لخيلهم بل يكلونها إلى ما تنبت الأرض، فإذا كانت تلك أرض مخصبة سلكوها، وإذا كانت مجدبة تجنبوها؛ وكانت أرض هذه البلاد المتقدمة الذكر أرضاً مخصبة، تقوم بكفاية خيل القوم إذا قصدوا بلادنا، فإذا أحرقوا زرعها ونباتها ضعفوا عن قصد بلادنا وحصل بذلك جميع الرفق، والدفع عن مباغته الأطراف ومهاجمة الثغور. وكان طريقهم في إحراقها أن يجهزوا إليهم الرجال ومعهم الثعالب الوحشية وكلاب الصيد، فيكمنون عند أمناء النصاح في كهوف الجبال وبطون الأدوية، ويرتقبون يوماً تكون ريحه عاصفة وهواؤه زعزع، تعلق النار موثقة في أذناب تلك الثعالب والكلاب، ثم تطلق الثعالب، والكلاب في أثرها وقد جوعت، لتجد الثعالب في العدو، والكلاب في الطلب، فتحرق ما مرت به من الزرع والنبات، وتعلق الريح النار منه فيما جاوره، مع ما يلقيه الرجالة بأيديهم في الليالي المظلمة، وعشاء الأيام الممتعة.

وكان ينفق في نظير هذا الإحراق من خزانة دمشق جمل من الأموال. قال: وكان الاهتمام بذلك في أول الأمر قبل أن يفطنوا التحريق، ثم نبههم على ذلك أهل المداجاة، فصاروا يربطون عليها الطرق، ويمسطون منها بالأطراف؛ وقتل عديد

من الرجال بسببها، وأحرقوهم بأشد من نارها.

وذكر أن مما كان يجتنب تحريقه – أرض الجبال، من حيث إنها بلاد بقية السلف الصالح من ذرية شيخ الإسلام الإمام الكبير العارف بالله " عبد القادر الجيلي " المعروف بالكيلاني، نفع الله تعالى ببركاته، لتعظيمهم من الجهتين، مع ما لهم عند ملوكنا من المكانة العلية: لقديم سلفهم، وصميم شرفهم، ولما للإسلام وأهله من إسعافهم بما تصل إليه القدرة ويبلغه الإمكان.

قلت: وبتمام القول في هذا الطرف قد تم ما كنت أحاوله من التأليف، وأهتم به من الجمع؛ وبالله التوفيق، وإليه الرغبة؛ وهو حسبي ونعم الوكيل.

واعلم أم المصنفات تتفاوت في الحظوظ إقبالاً ولإدباراً: فمن مرغوب فيه، ومرغوب عنه، ومتوسط بين ذلك. على أنه قل لأن ينفق تأليف في حياة مؤلفة، أو يروج تصنيف على القرب من زمان مصنفه.

قال المسعودي في كتابه " التنبيه والإشراف " وقد تشترك الخواطر، وتتفق الضمائر، وربما كان الآخر أحسن تأليفاً، وأمتن تصنيفاً، لحكمة التجارب، وخشية التتبع، والاحتراس من موانع المضار. ومن هاهنا صارت العلوم نامية، غير متناهية، لوجود الآخر ما لا يجده الأول، وذلك إلى غير غاية محصورة،ولا نهاية محدودة. على أن من شيم كثير من الناس إطراء المتقدمين، وتعظيم كتب السالفين، ومدح الماضي، وذم الباقي، وإن كان في كتب المحدثين ما هو أعظم فائدة، وأكثر عائدة.

ثم حكى الجاحظ – على جلالة قدره – أنه قال: كنت أؤلف الكتاب الكثير المعاني، الحسن النظم، وأنسبه إلى نفسي فلا أرى الأسماع تصغي إليه ولا الإردادات تتيم نحوه، ثم أؤلف ما هو أنقص منه رتبة، وأقل فائدة، وأنحله عبد الله بن المقفع، أو سهل بن هارون، أو غيرهما من المتقدمين، ممن صارت أسماؤهم في المصنفين، فيقبلون على كتبها، ويسارعون إلى نسخها، لا لشيء إلا لنسبتها للمتقدمين، ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم، ومنافسته على المناقب التي عني بتشيدها.

قال: وهذه طائفة لا يعبأ بها كبار الناس، وإنما العمل على أهل النظر والتأمل

الذين أعطوا كل شيء حقه من القول، ووفوه قسطه من الحق، فلم يرفعوا المتقدم إذا كان ناقصاً، ولم ينقصوا المتأخر إذا كان زائداً؛ فلمثل هؤلاء تصنف العلوم، وتدون الكتب.
وإذا كان هذا نقل المسعودي عن الجاحظ الذي هو رأس المصنفين وعين أعيانهم، فما ظنك بغيره؟.

كني أحمد الله تعالى على رواج سوق تأليفي، ونفاق سلعته، والمسارعة إلى استكتابه قبل انقضاء تأليفه، حتى إن قلمي التأليف والنسخ يتسابقان في ميدان الطرس إلى اكتتابه، ومرتقب نجازه للاستنساخ يساهمهما في ارتقابه، فضلاً من الله ونعمه، " ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم " .
نجزت تأليفه في اليوم المبارك، يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر شوال، سنة أربع عشرة وثمانمائة.

الباب الرابع من المقالة التاسعة في الهدن الواقعة بين ملوك الإسلام وملوك الكفر الهدن بين ملوك الاسلام وملوك الكفر وفيه فصلان 2

الفصل الأول في أصول تتعين على الكاتب معرفتها و فيه ثلاثة أطراف 2

الطرف الأول في بيان رتبتها و معناها وذكر ما يرادفها من الألفاظ 2

الطرف الثاني في أصل وضعها 4

الطرف الثالث فيما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الهدن 5

النوع الأول ما يختص بكتابة الهدنة بين أهل الإسلام و أهل الكفر 5

النوع الثاني ما تشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر و الإسلام و عقود الصلح الجارية بين زعماء المسلمين و هي ضربان 7

الضرب الأول الشروط العادية للهدنة الشروط العادية التي جرت العادة أن يقع الاتفاق عليها بين الملوك في كتابة الهدن خلا ما تقدم 7

الضرب الثاني مما يلزم الكاتب في كتابة الهدنة تحير أوضاعها و ترتيب قوانينها و إحكام معاقدها 9

الفصل الثاني في صورة ما يكتب في المهادنات و السجلات و مذاهب الكتاب في ذلك وفيه طرفان: 12

الطرف الأول فيما يستبد ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم و تخلد منه نسخ بالأبواب السلطانية و تدفع منه نسخ إلى ملوك الكفر ثم ما يكتب في ذلك على نمطين 13

النمط الأول ما يكتب في طرة الهدنة من أعلى الدرج 13

النمط الثاني ما يكتب في متن الهدنة و هو على نوعين: 13

النوع الأول ما تكون الهدنة فيه من جانب واحد 13

المذهب الأول أن تفتتح الهدنة بلفظ هذا ما هادن عليه 14

المذهب الثاني أن تفتتح المهادنة قبل لفظ هذا ببعديّة 21

النوع الثاني من الهدن الواقعة بين ملك مسلم و ملك كافر أن تكون الهدنة من الجانبين جميعاً و فيها للكتاب ثلاثة مذاهب 24

المذهب الأول أن تفتتح الهدنة بلفظ هذه هدنة و نحو ذلك 24

المذهب الثاني أن تفتتح الهدنة بلفظ استقرت الهدنة بين فلان و فلان " و يقدم فيه ذكر الملك المسلم 25

المذهب الثالث أن تفتتح المهادنة بخطبة مبتدأة بالحمد لله 58

الطرف الثاني فيما يشارك فيه ملوك الكفر ملوك الإسلام في كتابة نسخ من دواوينهم 58

الباب الخامس من المقالة التاسعة في عقود الصلح الواقعة بين ملكين مسلمين وفيه فصلان 63

الفصل الأول في أصول تعتمد في ذلك 63

الفصل الثاني من الباب الخامس من المقالة التاسعة ما يكتب في الطرة والمتن 67

النوع الأول ما يكون العقد فيه من الجانبين 67

النوع الثاني مما يجري عقد الصلح فيه بين ملكين مسلمين ما يكون العقد فيه من جانب واحد وللكتاب فيه مذهبان: 77

المذهب الأول أن يفتتح عقد الصلح بلفظ هذا 77

المذهب الثاني افتتاح عقد الصلح بالحمد لله 79

الباب السادس من المقالة التاسعة في الفسوخ الواردة على العقود السابقة وفيه فصلان 86

الفصل الأول الفسخ وهو ما وقع من أحد الجانبين دون الآخر 86

الفصل الثاني المفاسخة هي ما يكون من الجانبين جميعاً 87

المقالة العاشرة في فنون من الكتابة يتداولها الكتاب وتتنافس في عملها ليس لها تعلق بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها فيها بابان 87

الباب الأول في الجديات وفيه ستة فصول 87

الفصل الأول في المقامات 88

الفصل الثاني من الباب الأول من المقالة العاشرة في الرسائل 109

الصنف الأول منها الرسائل الملوكية وهي على ضربين: 110

الضرب الأول رسائل الغزو وهي أعظمها وأجلها 110

الضرب الثاني من الرسائل الملوكية رسائل الصيد 130

الصنف الثاني من الرسائل ما يرد منها مورد المدح والتقريض 136

الصنف الثالث من الرسائل المفاخرات 161

الصنف الرابع من الرسائل الأسئلة والأجوبة وهي على ضربين: 189

الضرب الأول الأسئلة الأمتحانية 190

الفصل الثالث من الباب الأول من المقالة العاشرة في قِدمات البندق 222

الفصل الرابع من الباب الأول من المقالة العاشرة في الصدقات وفيه طرفان 235

الطرف الأول في الصدقات الملوكية وما في معناها 236

الطرف الثاني في صدقات الرؤساء والأعيان وأولادهم 244

الفصل الخامس من الباب الأول من المقالة العاشرة فيما يكتب عن العلماء والادباء والقضاة مما جرت العادة بمراعاة النثر المسجوع فيه ومحاولة الفصاحة والبلاغة وفيه طرفان 252

الطرف الأول فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب ثم هو على صنفين 253

الصنف الأول الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعراضات الكتب ونحوها 253

الصنف الثاني التقريضات التي تكتب على المصنفات المصنفة والقصائد المنظومة 263

الطرف الثاني فيما يكتب عن القضاة وهو على أربعة أصناف 267

الصنف الأول التقاليد الحكمية وهي على مرتبتين 267

المرتبة الأولى أن تفتتح بخطبة مفتتحة بالحمد لله 267

الصنف الثاني إسجالات العدالة 272

الصنف الثالث الكتب إلى النواب وما في معناها 275

الصنف الرابع ما يكتب في افتتاحات الكتب 277

فمن ذلك ما يكتب في أوائل كتب الأوقاف وهذه نسخة خطبة في ابتداء كتاب وقف 277

الفصل السادس في العمرات التي تكتب للحاج 279

الباب الثاني من المقالة العاشرة في الهزليات 283

الخاتمة في ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة وفيها أربع أبواب 288

الباب الأول في الكلام على البريد وفيه فصلان 288

الفصل الأول في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها ويتعلق الغرض من ذلك بثلاثة أمور 288

الأمر الأول معرفة معنى لفظ البريد لغة واصطلاحا 288

الأمر الثاني أول من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن 289

الأمر الثالث بيان معالم البريد 292

الفصل الثاني من الباب الأول من الخاتمة في ذكر مراكز البريد 293

المقصد الأول في مركز قلعة الجبل المحروسة بالديار المصرية 293

المقصد الثاني في مراكز غزة وما يتفرع عنه من البلاد الشامية 298

المقصد الثالث في ذكر دمشق وما يتفرع عنه من المراكز 299

المقصد الرابع من مركز حلب وما يتفرع عنه 301

المقصد الخامس في مركز طرابلس وما يتفرع عنه 302

المقصد السادس في معرفة مراحل الحجاز الموصولة إلى مكة المشرفة والمدينة النبوية 303

الباب الثاني من الخاتمة في مطارات الحمام الرسائلي وذكر أبراجها المقررة بطرق الديار المصرية والبلاد الشامية، وفيه فصلان: 305

الفصل الأول في مطاراته 305

الفصل الثاني من الباب الثاني من الخاتمة في أبراج الحمام المقررة لإطارتها بالديار المصرية والبلاد الشامية 307

الباب الثالث من الخاتمة في ذكر الهجن الثلج والمراكب المعدة لحمل الثلج الذي يحمل من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية وفيه ثلاثة فصول 309

الفصل الأول في نقل الثلج 309

الفصل الثاني من الباب الثالث من الخاتمة في المراكب المعدة لنقل الثلج من الشام 310

الفصل الثالث من الباب الثالث من الخاتمة في الهجن المعدة لنقل ذلك 310

الباب الرابع من الخاتمة في المناور والمحرقات وفيه فصلان 312

الفصل الأول في المناور 312